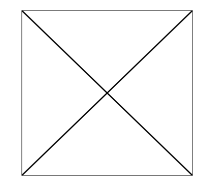


مكة المكرمة

$ عيون الشعراء العرب

الدكتور عبدالرزاق حسين

أستاذ الأدب العربي

بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن

الكويت

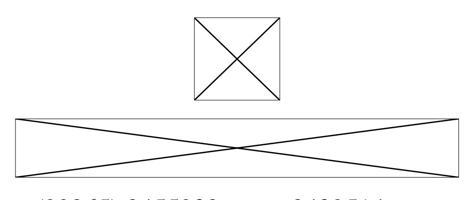
1426هـ

يصدر هذا الكتاب إسهامًا من مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعه الباحثان
بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
عبدالعزيز محمد جمعة
محمود إبراهيم البجالي

الصف والإخراج والتنفيذ
محمد العلي
أحمد متولي **أحمد جاسم**
بثينة الدوماني
قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

ردمك: ISBN : 99906 -72 - 22 - 9



هاتف: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)
E-mail < Kuwait@albabtainpoeticprize.org >

الكويت
1426هـ

تصديـــــر...

هل يوجد مكانٌ أقدس من مكة في نفوس المسلمين؟ حيث القِبلةُ والمسجد الحرام والبلد المبارك: «إنَّ أولَ بيتٍ وُضع للناسِ للذي ببكةَ مباركًا وهدًى للعالمين» صدق الله العظيم، سورة آل عمران، الآية ٩٦.

إليها تُشد الرحال من كلِّ حدْبٍ وصوب، وليست الإبلُ النواجي هي من يحنُّ إليها فقط ، بل إنّ قلوب الشعراء ظلت ولا تزال تعتمل بحبها وتهيم حنينًا واشتياقًا إليها، فهي في عيونهم دائمًا شلاَّل نورٍ متدفق يفيض في حنايا أرواحهم سحائبَ أمنٍ وأمانٍ وإيمان.

وهذه الدراسة التي بين أيدينا: «مكة في عيون الشعراء» للأستاذ الدكتور عبدالرزاق حسين، تستقصي حضورَ مكة في الشعر العربي عبرَ مختلف العصور، من خلال مواكب الشعراء الذينَ أدمنوا السُّرَى لاهجين بذكرها في تلك الشعاب والوديان، قاطنين أو ظاعنينَ يُبرِّحهم ألم الجوَى والبعاد.

إنها درة العواصم الإسلامية، وتاج الفخار الذي ما زال يتلألأ فوق هامة الأيام، منذ دعوة إبراهيم وتضحية إسماعيل عليهما السلام، وهي مهد الحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، ومهبط الوحي ومهوى أفئدة المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد بدأت أولى إيقاعات الشعر العربي، مع حوافر الخيل في مكة وكانت قريش تحتفي بالشعراء، وتُنزلهم منازلهم، فالشاعر هو بمثابة وزير الإعلام والثقافة حينها، وكانوا يرون أنَّ شياطين الجن في وادي عبقر توحي إليه هذا الكلام العجيب، فلم يكن من المدهش أن يقفوا حيارَى أمام الظاهرة القرآنية وإعجازها البياني، وهم لا يعرفون إلاَّ لغة الشعر أولاً وأخيرًا.

إنَّها مكة بخيلها ورجْلها، وشبَّابةِ قصيدها الصادح في أذن الزمان، تتجلى لنا بين دفتي هذا الكتاب الذي أرادت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، من وراء نشره المساهمة في احتفالات «مكة عاصمة للثقافة الإسلامية» بأسلوبٍ يليق

بمكانتها في عيون الشعراء، من المهلهل وامرئ القيس مرورًا بكعب بن مالك والبُرعي وشوقي، وكلٍّ من حجَّ واعتمر، أو هزَّه الشوق واعتراه الحنين إلى أم القرى ومهد الحرم.

فتحيةً إلى الدكتور عبدالرزاق حسين، على ما بذله من جهود طيبة في هذه الدراسة، وما احتوته من نصوص شعرية هامة، نقب عنها طويلاً في بطون الكتب والدواوين والمخطوطات، والشكر مني موصول إلى الإخوة الأعزاء في الأمانة العامة للمؤسسة بالكويت، وأخص هنا الباحثين الأستاذين عبدالعزيز محمد جمعة ومحمود البجالي، اللذين توليا قراءة ومراجعة هذا الكتاب بدقة واهتمام.

ويسعدني في نهاية هذه الكلمة أن أردد مع ابن الوكيل أحمد بن موسى المكي، هذه الشكوى الغرامية لمكة والحطيم وزمزم:

اللهُ يعلم أنني بكِ مُغرَمُ
والقلب منِّي في هواكِ مُتيَّمُ
فإلى متى هذا الصدودُ وذا الجفا
وإلى متى أُخفي الغرامَ وأكْتُم
ما البحرُ إلاَّ من تَدَفُّقِ أدمعي
والنار إلا من فؤادي تُضرمُ
كم ليلةٍ قد بتُّ فيها غائبًا
واللهُ بالشوق المبرِّح أعلم

مكة يا مشكاة النبوة، يا ألق الشعر، يا رحلةَ الشتاء والصيف.

تحياتي وسلامي إليكِ يا أمَّ القرَى. وإلى اللقاء،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت 27 محرم 1426هـ
الموافق 8 مارس 2005م

****

أمّ القرى

إلى عينيكِ يحملُني حنيني
وأشواقي بحارٌ تَحْتَويني

يفيءُ العاشِقون إلى هواهمْ
لليلى أو لسلمى أو مُزونِ

فإنْ داروا بِبَثْنَةَ أو أطافوا
وعَزَّةُ همُّهُمْ في كلِّ حين

فقلبي لا يرومُ سِواك وَصْلاً
ولا يبغي سوى الوجهِ الحنون

فلا أنفكُّ في طوفي وسعيي
ودارُكِ وُجهتي ومُنَى عيوني

دعوتُ اللهَ في سرّي وجَهْري
بأن ألقاك يا نبعَ الحنين

فبُشِّرتُ المُنى بلقَاكِ بُشْرَى
كطَعمِ الشّهدِ أو بَرْدِ اليقين

فشمَّرتُ السَّواعدَ لو عَدَتْني
عوادي الدهرِ والزَّمَنِ الخَؤون

ركبتُ الشَّوق يحدو بي ويجري
كجَري الماءِ في الغصنِ اللَّدين

كأنَّ القلبَ ليلةَ قيلَ أمضي
إلى أحضانِ فاتنة الجُفُون

(قــطـــاةٌ عـــزَّهـــا شَـــرَكٌ فـــبـــاتتْ)
تجـــــاذبُـهُ شَـــــمـــــالاً مـعْ يمـــــينِ
ولـــــمَّـــــا أنْ تـــــيـــــقَّنَ لي رؤاهـــــا
ورحتُ أهشُّ لـــلـــوجـهِ الـــمُـــبـــين
أطـــلَّتْ من عُـــلـــيّـــاهـــا بـــوجْهٍ
تـــبـــاركَ خـــالـقُ الـــوجـهِ الـــمَـــصُـــون
فـشـعـشعَ من سـنـــاهـــا مـــا تـــنـــاهى
ونـــوَّرَ وجـــهُـــهـــا ظُـــلَمَ الـــدُّجُـــون
وأســبَـلتِ الـــسُّـــتـــورَ ولاحـــظـــتـــني
فـطـــار صــوابُ ذي الـقـلـبِ الـمَـكـين
وكـــــانت نــــظـــــرةً أصْـــــمَتْ فـــــؤادي
وأنْـــبَـــتتِ الـــغــــرامَ عـــلـى جُـــفُـــوني
ومن مَـــــرَحـي غــــدوتُ أبثُّ شـــــوقي
لأزهـــــارِ الـــــرُّبى والـــــزّيْـــــزفُـــــون
وصـــار الــطـــيـــرُ يـــحـــســدُني لأنّي
أُنـــافــسُهُ عـــلى عـــذبِ الـــلّـــحـــون
وراقَـــصْتُ الـــفـــراشَ وراقـــصـــتْـــنِي
أزاهـــرُ من حـــقـــول الـــيـــاسَـــمِـــين
وبتُّ كـــأنَّـــني فـــوقَ الـــثُّـــريـــا
وحـــــولي مـــــثلُ ولْـــــدَانٍ وعِـــــين
وتحـــمـــلـــني الـــنُّـــجـــومُ عـــلى أكُفٍّ
من الـــبِـــلَّـــورِ أو قُـــضُبِ الـــلُّـــجَـــيْن
وحـــــــورٌ رافـلاتٌ فـي دِمَـــــــقْسٍ
وأنتِ - ولا كـــأنتِ - فـــأنت ديـــني
جـــعـــلـــتُك قِـــبْـــلـــتي فـــإلـيك وجـهي
يـــعـــانقُ فـــيكِ آمـــالَ الـــسِّـــنـــين

ومن شـــفـــتـــيك زمـــزمُ لي عـــيـــونٌ

تـــفـــيضُ عـــليَّ بـــالمـــاء الـــمَـــعِـــينِ

ومن عـــيـــنـــيك أنـــهلُ مـــاءَ وَجْـــدي

وعـــذبُ لـــمـــاك كـــالـــمُـــزْن الـــهَـــتُـــونِ

وشـــامَـــتُكِ الـــتي يـــهـــوى فـــؤادي

وســـامُ الحبِّ بل تـــاجُ الجـــبـــينِ

وحِـــجْـــرُك مـــوئـــلي والـــرُّكنُ مـــنِّي

ضـــلـــوعي والمـــقـــامُ ضـــيـــا عـــيـــوني

أســـيـــرُ هـــواك قَـــيـــدي مُـــقْـــلَـــتَـــاكِ

وعـــنـــدَ حَـــطِـــيـمكِ استـــلـــقى حـــنـــيـــني

أَمِـــنْـــتُ حـــوادثَ الأيـــام لـــمَّـــا

ربـــطتُ ركـــائـــبي بـــعُـــرى الحَـــجُـــون

عبدالرزاق حسين

****

المقدمة

تتناول هذه الدراسة الأدبية أطهر بقعة، وأشرف مكان، كيف لا؟ وفيها أول بيت وضع للناس، ومنها خرج المصطفى خيرة خلق الله عليه أفضل الصلاة والسلام، ومن ربوعها أشرق نور الإسلام، وفوق بقاعها نزلت آيات الله، وإليها يتوجه المسلمون أينما كانوا، وحيثما حلّوا، فلا تكاد تمر لحظة مهما تجزّأت ودقّتْ إلاّ والعيون إليها طامحة، والوجوه إليها ناظرة، والرقاب إليها مشرئبة، والنفوس إليها ظامئة، والقلوب إليها والهة.

ولهذه المكانة والقداسة والعظمة والأهمية فقد لاقت مكة إقبالاً منقطع النظير عند المؤلفين، وحظيت باهتمامٍ كبير عند العديد من المصنفين، والناظر في (معجم ما أُلِّف عن مكة) للدكتور عبدالعزيز السنيدي يلحظ هذا الاهتمام العظيم في كل هذه المصنفات المتنوعة التي لا تترك شاردة أو واردة عن مكة إلاّ وألّف فيها من الكتب والرسائل ما يؤكد على مكانة هذه المدينة الغالية على قلب كل مسلم.

ومع كل هذا الاهتمام والتصنيف في شتى المجالات، فإنني ومن خلال استعراضي لهذا المعجم وغيره من فهارس المطبوعات، لم أجد مؤلفًا يتحدث عن مكة في الشعر في عصر واحد عدا عن العصور الأدبية من العصر الجاهلي وحتى العصر الحاضر.

والأغرب من ذلك أنّ الدراسات التي قامت على أسس دينية، واتجاهات إسلامية، أو لعصور وبيئات الأدب لم تلتفت إلى مكة في الشعر، وإنما انصبت عنايتها للحديث عن الشعر في مكة كوعاء أو بيئة، مثل: الشعر في مكة في الجاهلية والإسلام جمع وتحقيق عبدالرحمن إبراهيم الدباس، والحياة الأدبية في مكة لزكي عابدين، أو الشعر الحجازي، وغير ذلك من الكتب الأدبية التي خُصصت للحديث عن شعر هذه البلدة المقدسة.

ومن هنا كان توجه مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين لتأليف كتاب ينصب على مكة بذاتها احتفالاً بمكة المكرمة عاصمةً للثقافة الإسلامية، للعام ١٤٢٦هـ، ولمّا عهدت

المؤسسة إليَّ للقيام بهذا العمل الذي أتشرف به، لم آلُ جهدًا على الرغم من كثرة المشاغل وازدحام العمل في أن أخرج كتابًا يليق بمكانة هذه المدينة الخالدة، ويليق بهذه المناسبة الجليلة، ويكون لي ذخرًا وشرفًا.

ولما كان العنوان (مكة في عيون الشعراء العرب) عنوانًا مفتوحًا، لا يحده زمانٌ أو مكان، وإنما يتسع ليعبر الزمان من العصر الجاهلي حتى وقتنا الحاضر، ويفسح المدى لينتشر فوق الأرض العربية بل والإسلامية في العصور السالفة، فإنَّ المهمة صعبة، والسيطرة على الموضوع تحتاج إلى تفرغ وتواصل، لذلك فقد وضعت كل جهدي في جمع المادة، ولما انتهيت من ذلك، وجدت أن ما جمعته يصلح لعمل عدة أجزاء لهذا الكتاب، والمهمة محددة، والوقت كذلك، وشرط الكتاب أن يكون في حدود المعقول، ومن هنا فقد استبعدت نصوصًا كثيرة تثير موضوعاتٍ جمة، كما استبعدت شواهد لا حصر لها، خوفًا من تضخم البحث، ولذلك أرجو المعذرة من إخواني الشعراء المعاصرين الذين أكن لهم كل التقدير، ولشعرهم وافر الإعجاب، إذا كنت لم أستطع إدراج شواهد من أشعارهم في هذا المؤلف، وأعدهم أنني إذا فكرت في جمع المادة الشعرية عن مكة أن أُعوِّض ما فات، وأستدرك ما لم أستطعه.

كما أن العبور إلى شتى العصور والبيئات فرض عليَّ طريقةً في البحث قد يعترض عليها البعض، فقد قمت بالعرض السريع لعصور الأدب، ولم أحصر كلَّ عصر قسريًا لمّا وجدت الموضوعات والأغراض تتنامى وتتناسل، وتنمو وتتطور، والموضوع الواحد يمتد ويستمر في الماضي متدرجًا في عبوره كل القرون السابقة، حتى يصل إلى عصرنا الحاضر وهو لا يزال طازجًا، فكيف يتأتى لي أن أبتره عن سياقه، أو أحرمه من تواصله، ومن هنا كانت رؤيتي إلى أن أعالج موضوعات وأغراض البحث ضمن حلقة واحدة، مبينًا مكان الشواهد من العصور دون فصل، وهذا التتابع أعطى للموضوعات شيئًا من الرؤية الكلية الموحدة.

وقد سرت في هذا الموضوع لا كما شئت، بل كما فرضه عليَّ الموضوع نفسه، فبعد المقدمة، وجدت أن توطئة للحديث عن مكة المكرمة في: أسمائها، وموقعها، وفضلها،

وحرمتها، والتأليف فيها ضرورة لا بدَّ منها يفرضها الدخول إلى بوابة البحث، حيث سار البحث بعد المقدمة والتوطئة في خمسة أقسام كالآتي:

القسم الأول: مكة في عصور الشعر

أولا: مكة في الشعر القديم ، ويتضمن العصور التالية: الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي.

ثانيًا: مكة في شعر العصر الوسيط، وفيه عصر الدول المتتابعة والعصر العثماني.

ثالثًا: مكة في الشعر الحديث والمعاصر

القسم الثاني : من أغراض وموضوعات الشعر في مكة

- **الفخر**
- **المديح**
- **الوصف (وصف الأماكن والبقاع، ووصف مشاهد الحج)**
- **الحنين والشوق**

القسم الثالث: أحداث مكة

القسم الرابع: خصائص وسمات

القسم الخامس: من شعراء العشق المكي

- **الشريف الرضي**
- **الزمخشري**
- **ابن جبير**
- **الصرصري**
- **البرعي**
- **ابن معصوم**

وأنهيتُ بخاتمة أوردت فيها بعض ما أراه من إضافات قدمها هذا البحث لكل تلك المؤلفات عن هذه المدينة المكرمة، وما بعثه من تصور عن هذه المدينة الحبيبة، إلى جانب فهرسين للمصادر والمراجع، وللموضوعات.

وأخيرًا، فإنني أقدم هذا العمل حبًا لله ولرسوله، ولأول بيتٍ وضع للناس، هدية من عبد مقصر، بجهد مقل، ليكون مشاركة مني في تعظيم هذه المدينة في عامها الثقافي، وإعلانها عاصمة للثقافة الإسلامية.

وختامًا أتوجه بالشكر الجزيل لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعودالبابطين للإبداع الشعري التي شرفتني باختيارها لي لتأليف هذا الكتاب، جزاها الله خير الجزاء عن هذا العمل الذي نرجو أن يكون في ميزان عملنا وعملها.

وأسأله تعالى أن يمدنا بعون من عنده إنه هو السميع المجيب.

عبدالرزاق حسين

٢/١٤٢٥هـ / ٣/٢٠٠٤م

****

توطئة

سنعرض في هذه التوطئة للحديث عن مكة في (أسمائها، وموقعها، وفضلها وحرمتها والتأليف فيها...)

■ المشهور من أسماء مكة المكرمة

ورد في القرآن الكريم من أسماء مكة: مكة، وبكة، والبلد، والبلد الأمين والقرية، وأم القرى. فأما اسم مكة، ففي قوله تعالى: ﴿وهو الذي كفَّ أيديَهُم عنكم وأيديَكُم عنهم ببطن مكة[(١)]﴾ قال الزجاج: مكة لا تنصرف، لأنها مؤنثة وهي معرفة، ويصلح أن يكون اشتقاقها كاشتقاق بكة، لأن الميم تبدل من الباء،... ويصلح أن يكون اشتقاقها من قولهم: امتكَّ الفصيل ما في ضرع الناقة، إذا مصَّ مصّاً شديدًا حتى لا يُبقي فيه شيئًا، وسمّيت بذلك لشدة ازدحام الناس فيها[(٢)] .

وقال ابن فارس: تمكّكتُ العظم إذا أخرجت مخه، والتمكك: الاستقصاء[(٣)]

وجاء في الحديث الشريف: «لا تمكّكوا على غرمائكم»[(٤)].

وفي تسميتها مكة أقوال عدة: نذكر منها:

أنها مثابة للناس، أو لأنها تمكّ الظالم وترد نخوته أي تهلكه، كما قيل:

---

(١) سورة الفتح آية ٢٤

(٢) انظر في ذلك كتاب المناسك لأبي إسحاق الحربي ٤٧٣، والروض المعطار للحميري ٩٣، ومادة مكة في معجم البلدان ١٨١ م ٥ ، وما ورد في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٤ / ١٨٨، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ١ / ٣٣ وكثير من كتب اللغة والتاريخ.

(٣) مثير العزم الساكن ٣٢٤

(٤) النهاية في غريب الحديث ٤ / ٣٤٩

يـــا مـــكّـــةُ الـــفـــاجِـــرَ مُـــكّي مـــكّـــاً
ولا تَـــمُـــكي مَـــذْحِـــجًـــا وعَـــكًّـــا

أو لشدة جهد أهلها، أو لقلة مائها. وقد اتفق العلماء أن مكة اسم لجميع البلدة.

وسميت بكة، وورد ذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدىً للعالمين﴾[١] وأخذ ذلك من قولهم: بكَّ الناس بعضهم بعضًا، أي دفع، وسميت بذلك للازدحام، ولأنها تبك أعناق الجبابرة، وتضع من نخوتهم.

قال الراجز:

إذا الـــشـــريـــبُ أخـــذتـــهُ أكَّهْ
فـــخَـــلِّـــهِ حـــتـــى يَـــبُـــكَّ بَـــكَّهْ[٢]

وقيل: تبدل الميم من الباء، وقيل: بكة موضع البيت، ومكة ما حواليه.. والذي عليه أهل اللغة أن بكة ومكة شيء واحد.

والبلد: في قول الله تعالى: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾[٣] أي مكة.

والبلد الأمين: لقوله تعالى: ﴿وهذا البلد الأمين﴾[٤]

والقرية ففي قول الله تعالى: ﴿وضرب الله مثلا قريةً كانت آمنة مطمئنة﴾[٥]

وفي تسميتها بأم القرى: ففي قول الله تعالى: ﴿ولتنذر أمَّ القرى﴾[٦] يعني مكة، وفي تسميتها بذلك عدة أقوال: لأنها قبلة، ولأنها أعظم القرى شأنًا، ولأن الأرض دحيت من تحتها، ولأن فيها بيت الله.

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٦
(٢) كتاب المناسك ٤٣٧ وانظر الروض المعطار ٩٣
(٣) سورة البلد آية ١
(٤) سورة التين آية ٢
(٥) سورة النحل آية ١١٢
(٦) سورة الأنعام آية٩٢

وأورد لها المؤرخون غير هذه الأسماء من نحو اثني عشر اسمًا[1] ، وكثرة الأسماء كما يقولون دليل على شرف المسمى، من ذلك:

البيت العتيق، وورد في قوله تعالى: ﴿ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق﴾[2].

والبيت الحرام: وورد في قوله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس﴾[3].

وقد ورد في أسماء مكة (النسّاسة، وأم رحم، ومعاد، والحاطمة، والرأس، والحرم، وصلاح، والعرش، والقادس، والمقدسة، والنّاسة، والباسّة، وكَوْثى).

ويرد اسم مكة في المصادر اليونانية والرومانية القديمة، فياقوت الحموي ذكر أن بطليموس الإسكندري ذكرها باسم (ماكورابا) وعلّل المؤرخون هذه التسمية إلى أنها (كلمة يونانية مكونة من: مك ورب، ومك بمعنى: بيت، فتكون مكرب بمعنى: بيت الرب، أو بيت الإله، ومن هذه الكلمة أخذت مكة أو بكة، بقلب الميم باءً على عادة العرب[4].

ويرى بروكلمان أنها مأخوذة من كلمة (مقرب) العربية الجنوبية ومعناها الهيكل، وعلى العموم، فإن هذه الأسماء تعبر في مجملها عن قداسة هذه المدينة العظيمة، وفضائلها، ومكانتها التي لا تقارن.

■ مكانة مكة المكرمة

إنّ اصطفاء الله عزَّ وجل مكة مكانًا لأول بيت لعبادته تعالى، وقبلةً مرضيةً لجميع المسلمين، ومهدًا لنبيِّه، وأرضًا لرسالته، وأنزل فيها محكم كتابه، وجعلها حرمًا آمنًا، لكل

---

(١) انظر في أسماء مكة سيرة ابن هشام ١ / ١٢٥ – ١٢٦ والروض الأنف ١/ ٨١ – ٨٢ وتاريخ مكة للأزرقي ١ / ٢٨٣ ومثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ١٣٠ ، وانظر ايضاً بعض البحوث، مثل: أسماء مكة في القرآن الكريم وكتب السيرة والأدب والتاريخ والآثار، بحث لإسماعيل أحمد حافظ، مجلة الدارة ١٣٩٩هـ، ص ١٣٩ – ١٥٩، وبحث في رحاب البيت العتيق من أسماء مكة، لفيصل محمد عراقي، مجلة المنهل م ٥٥، عدد ٥٠٩، سنة ١٤١٤هـ، ص ٥٤ – ٥٦

(٢) سورة الحج آية ٢٩

(٣) سورة المائدة آية ٩٧

(٤) انظر معجم البلدان ١٨ / ١٨٧ ومكة والمدينة في الجاهلية والإسلام للدكتور أحمد إبراهيم الشريف ٨٩

ذلك كانت مكة والحديث عن مكة شغل الناس الشاغل دومًا، فهي الأرض التي اختارها وفضّلها على غيرها، وهي الأرض التي دعا لها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فجاء على لسانه: ﴿وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثمّ أضطرُّه إلى عذاب النار وبئس المصير﴾[1] قال القرطبي ﴿بلدًا آمنًا﴾ يعني مكة، فدعا لذريته، وغيرهم بالأمن ورغد العيش[2]، وهي مهبط الوحي، ومكان الدعوة، ومقام إبراهيم وإسماعيل ومن قبل إدريس وآدم[3] وفي ذلك يقول الخوارزمي: (اعلم أنَّ البيت الحرام بل الحرم كله محل عظيم القدر، ومكان جليل الخطر والفخر، بل هو أفضل بقاع الأرض وما عداه المفضول، ويدل على ذلك المعقول والمنقول)[4] فالمعقول في رأيه أنه مبتدأ الأرض، وأما المنقول فما ثبت بنص القرآن الكريم من تفضيله.

وقد ورد في شرفها أنها كانت لقاحًا لا تدين لدين الملوك، ولم يؤدِّ أهلها إتاوة، ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان، تحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم، فيدينون للحُمْسِ من قريش، ويرون تعظيمهم.. وكان أهله آمنين، يغزون الناس ولا يُغْزون، ويَسبون ولا يُسْبون، وقد ذكر عزهم وفضلهم الشعراء، فقال بعضهم:

أَبَـوا دينَ المُلوكِ فَهُم لَقَاحٌ
إذا هِيجُوا إلى حَربٍ أجَابوا

وقال الزبرقان بن بدر لرجل من بني عوف كان قد هجا أبا جهل، وتناول قريشًا:

أتدري من هَجَوتَ أبا حَبيبٍ
سليلَ خضارمٍ سكنوا البِطَاحَا
أَزادَ الركبِ تذكرُ أم هشَامًا
وبيتَ اللهِ والبلدَ اللقاحا[5]

(١) سورة البقرة آية ١٢٦
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١ / ١١٧
(٣) أم القرى لفؤاد علي رضا ٧–٨
(٤) إثارة الترغيب والتشويق إلى تاريخ المساجد الثلاثة ٢٩
(٥) مكة في عصر ما قبل الإسلام ٦٢

وفي الثناء عليها، ووصفها بالأمن والعزة، قال حرب بن أمية يدعو حضرمياً يدعى أبا مطر:

أبـــا مـــطــــرٍ هـــلـمَّ إلى الــــصلاح
فـــيـــكــفــيكَ الـــنـــدامى من قـــريشِ

وتـــنــــزلُ بـــلـــدةً عـــزّتْ قـــديمًـــا
وتــــــأمنُ أن يـــــــزوركَ ربُّ جـــــــيشِ

فـــتـــأمنُ وســـطـــهم وتـــعـــيشُ فـــيـــهمْ
أبـــا مـــطـــرٍ هُـــديتَ بـــخـــيـــرِ عـــيشِ

ومكة مدينة قديمة من إقليم الحجاز في جزيرة العرب، ترتفع عن سطح البحر ٣٣٠ مترًا، (وتقع في واد على شكل سهل منبسط محاط بجبال ذات شعاب)[١].

ويقال: إنّ بداية عمارتها بدأت مع عهد سيدنا إبراهيم الخليل عندما ترك ابنه إسماعيل وزوجه هاجر في ذلك المكان غير المأنوس[٢].

﴿ربَّنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون[٣]﴾.

ويقدّر المؤرخون أنَّ هذا الأمر تمَّ في حدود القرن الثاني قبل الميلاد، دون أدلة واضحة. وفي مكة المسجد الحرام أول بيت وضع للناس، وفيه الكعبة التي ورد في عمرانها أنّ أوّل من بناها الملائكة، ثمّ آدم عليه السلام، ثمّ شيث، ثمّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثمّ العمالقة، ثمّ جرهم، ثمّ قصي بن كلاب، ثمّ قريش، ثمّ عبدالله بن الزبير، ثمّ الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو البناء القائم الآن.

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ١/٣٩٢
(٢) انظر في بناء سيدنا إبراهيم عليه السلام الكعبة الكتب التاريخية التي تحدثت عن مكة
(٣) سورة إبراهيم آية ٣٧

ومما ورد في فضائل مكة وخصائصها وخصوصيتها أنّ الله اختارها لتكون البلد الحرام ومنسكًا لعباده المؤمنين، وقبلةً لهم، يأتيها القريب والبعيد فرضًا لازمًا، وركنًا ثابتًا، قال تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾[1] وإذا كان الحج لله على الناس فرضًا مفروضًا، فقد أمر نبيه إبراهيم بأن يعلن ذلك إعلانًا عامًا شاملاً يشمل الناس من لدنه، وإلى قيام الساعة ، ويؤذن في الناس ﴿وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتين من كلّ فجّ عميق﴾[2] ويفرض الأمر الإلهي بالتوجّه شطرها ﴿فولّوا وجوهكم شطره﴾[3] وبما أنها قبلة المسلمين، ومكان حجهم، فقد كان شدّ الرحال إليها أمرًا مندوبًا، فعن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تشدُّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: إلى المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)،[4] والصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في غيره، لما ورد عن ابن عمر قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلاّ المسجد الحرام)[5] وثبت أن الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مئة ألف صلاة، وفي مسجدي ألف صلاة، ومسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة)[6] وهذا البلد جعله الله حرمًا آمنًا يوم خلق السموات والأرض، لا يسفك فيه دم، ولا يعضد شجره، ولا ينفّر صيده، ولا يختلى خلاه، ولا تلتقط لقطته، (ومن دخله كان آمنًا)[7] وحرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، فقال: (إنّ هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله، وإنّه لم يحلّ القتال فيه لأحدٍ من قبلي، ولم يحل لي إلاّ ساعة من نهار، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَدُ شوكه، ولا يُنفَّرُ صيده، ولا يُختلى خلاه، فقال العباس: يا رسول الله إلاّ الإذخر فإنّه لقينهم ولبيوتهم، قال: إلاّ الإذخر).[8]

---

(١) سورة آل عمران آية ٣

(٢) سورة الحج آية ٢٧

(٣) سورة البقرة آية ١٥٠

(٤) صحيح مسلم، كتاب الحج (١٣٩٧)

(٥) صحيح البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة ح (١١٩٠) وصحيح مسلم: كتاب الحج (١٣٤٩)

(٦) الهيثمي في مجمع الزوائد ٤ / ٧ والنذري في الترغيب والترهيب ٢ / ٢١٦

(٧) سورة آل عمران آية ٩٧

(٨) صحيح مسلم باب الحج ١٣٥٣

وقد أقسم الله عزّ وجل به، فقال عز من قائل ﴿وهذا البلد الأمين﴾[1] و ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾[2] ودعوة أبينا إبراهيم عليه السلام ﴿رب اجعل هذا البلد آمنًا، واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام﴾[3]وأمر الله تعالى له: ﴿قل إنما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأُمرتُ أن أكون من المسلمين﴾[4] يقول محمد بن إسحق الخوارزمي: (يعني مكة، وإنما خصها من بين سائر البلاد بالذكر لأنها مضافة إليه، وأحب البلاد إليه، وأكرمها عليه، وأشار إليها إشارة تعظيم لها لأنها موطن نبيه، وموضع وحيه)[5] والاعتقاد بتحريم مكة كان راسخًا في الشعر الجاهلي، فهذه سبيعة بنت الأحب توصي ابنها بذلك، وتعظم عليه حرمة مكة، وتنهاه عن البغي فيها، وتذكره بما حدث لمن أراد الظلم والإلحاد فيها، تقول:

أبنيَّ لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبيرْ
واحفظْ محارمها بنيَّ ولا يغرّنْكَ الغرورْ
أَبُنيَّ من يظلم بمكة يلقَ أطراف الشرورْ

وتكمل حديثها قائلة:

أبُنيَّ يُضْرب وجهُهُ ويلُحْ بخدّيهِ السَّعيرْ
أبنيّ قد جَرّبتُها فوجدتُ ظالمهَا يَبُورْ
اللهُ أمَّنَها وما بُنيتْ بعرصتِها قصورْ
واللهُ أمَّن طيرَهَا والعُصْمُ تأمن في ثَبِيرْ

(١) سورة التين آية ٣
(٢) سورة البلد آية ١
(٣) سورة البقرة آية ١٢٦
(٤) سورة النمل آية ٩١
(٥) إثارة الترغيب والتشويق إلى تاريخ المساجد الثلاثة ٥٠ .

ولـــــقـــــد غـــــزاهـــــا تُـــــبَّعُ
فـكـسـا بَـنِـيَّـتـهـا الحَـبـيـرْ
وأذلَّ ربـي مُـــــــــلْـــــــــكَهُ
فـيـهـا فـأوفى بـالـنـذور
يمـشي إلـيـهـا حـافـيًـا
بـفـنـائـهـا ألـفـا بَـعِـيـر
ويَـظَلُّ يُـطْـعِمُ أهـلـهـا
لحمَ المـهَـاري والجَـزور
يـسـقـيـهمُ الـعـسلَ الـمُـصَـفْـ
ـفَى والـرّحـيضَ من الـشـعـيـر
والـفـيل أهـلكَ جـيـشهُ
يـرمـون فـيـهـا بـالـصـخـور
والمـلـكُ في أقـصى الـبلا
دِ وفي الأعـاجِمِ والخَـزير
فـاسـمع إذا حُـدّثْتَ وافـ
ـهمْ كـيف عـاقـبـةُ الأمـور(١)

ومن قصده كان مكفرًا للذنوب، حاطًّا للخطايا والأوزار، كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه(٢) .

وإذا كانت مكة أحبّ بلاد الله إلى الله عز وجل، فهي أحبها إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي يوم خروجه منها، وهجرته، قال: (والله إنّكِ لخير أرض الله،

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢٥. يبور: يهلك. والعصم: الوعول لأنها تعتصم بالجبال. بنيتها: يعني مكة. والحبير: نوع من الثياب. المهاري: الإبل النجيبة، منسوبة إلى بلاد المهرة في حضرموت. الرحيض: المنقى . الخزير: أمة من الأعاجم يقال لها الخزر.

(٢) صحيح مسلم باب (الحج) ٤٣٨

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم ١ / ٤٨٦

وأحبّ أرض الله إليَّ، ولولا أنّي أُخرجتُ منك ما خرجت)[٣].

وقد وردت أحاديث عديدة في فضل مكة ومكانتها وخصوصيتها، وقد أجمع العلماء على أنّ مكة أفضل بقاع الأرض تليها المدينة المنورة، فبيت المقدس.

وفي ذلك ننقل ما ورد من (أنّ مكة والمدينة زادهما الله شرفًا وتعظيمًا أفضل بقاع الأرض بالإجماع)[١]. ثم اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في أنّ مكة شرفها الله تعالى أفضل، أم المدينة الشريفة عظمها الله تعالى؟ فذهب الإمام الأعظم أبو حنيفة وأصحابه، والإمام أحمد وأصحابه، والإمام الشافعي وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين أنّ مكة أفضل من المدينة زادها الله شرفًا وتعظيمًا، لحديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلاّ المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة في مسجدي)، رواه أحمد وابن حبان في صحيحه، ولا يرتاب في الفضائل التي أثبتها الله تعالى لبلده الحرام، ولقد قال القائل:

أرضٌ بها البيتُ المُحَرَّمُ قِبْلةٌ
للعالمين له المساجد تعدلُ
وبها المشاعرُ والمناسكُ كلُّها
وإلى فضيلتها البريةُ ترحلُ
والمسجدُ العالي المحرّمُ والصَّفا
والمشعران لمن يطوفُ ويرملُ
حرمٌ حرامٌ أرضُها وصيودُها
والصَّيدُ في كلّ البلاد مُحلَّلُ
وبها المقَامُ وحوضُ زمزمَ مشرعًا
والحِجْرُ والركنُ الذي لا يرحلُ
وبمكةَ الحسناتُ ضُوعِفَ أجرُها
وبها المُسي عنهُ الخطايا تُغسلُ

وفي فضلها وشرفها، وعلو مكانتها، وأن لا شبيه لها بين الأمكنة يقول ابن دقيق

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ١٣

العيد:

وإذا رأيتَ مَهابطَ الوحي التي
نشرتْ على الآفاقِ نورًا نوَّرا
فاعلم بأنَّكَ ما رأيتَ شبيهها
مُذْ كنتَ في ماضي الزمانِ ولا ترى
شرفًا لأمكنةٍ تنزَّلَ بينَها
جبريلُ عن ربِّ السَّماءِ مُخَبِّرا
فتأثّرتْ عنهُ بأحسن بهجةٍ
أفدي الجمالَ مُؤثَّرًا ومُؤثِّرا(١)

وكل ما ورد يبين عن فضلها، وأن ّ فضائلها كما قيل: (لا تعدُّ ولا تحصى، ولو لم يكن فيها غير أنها مهبط الوحي، ومسقط رأس خير الأنام، ومنْزل القرآن، ومظهر الإيمان والإسلام، ومنشأ الخلفاء الراشدين الكرام... وملاذ العابدين، وملجأ الصالحين، ومقصد الطالبين، وقرة عين المشتاقين.. لكفى ذلك شرفًا وفضلاً وعزّاً وقدرًا، فكيف وفيه بيت الله الحرام، والحَجَر، والحِجْر، وزمزم، والمقام، ودار خديجة، وفيها مجلس جبريل ومحمد عليهما السلام:

انظر بعينكَ بهجةَ الحسناءِ
ما بعدَ هذا منظرٌ للرّائي
فهي التي سلبت فؤادَ مُحِبِّها
بجمالِ بهْجَتِها ونورِ بهاءِ
جعلَ المُهَيْمِنُ كلَّ عامٍ حجَّها
فَرْضًا وهذا صحَّ في الأنباءِ
بُشراكِ يا عيني انظري وتدلّلي
وتلذَّذي منها بطيبِ لقاءِ
شنِّفْ بذكرِ مَطَافِها ومقَامِها

(١) ابن دقيق العيد حياته وديوانه ١٤٠

(٢) إثارة الترغيب والتشويق ٣١ – ٣٢

أُذُني فــهــذا الـــيـــومُ يـــومُ هـــنـــاءِ[٢]

■ التأليف في مكة المكرمة

انشغل الكتاب قديمًا وحديثًا في تتبع أشرف البقاع، ويرجع ذلك لتلمسهم بابًا يُرفعُ فيه شأنهم، وتنحطُّ عنهم خطاياهم، وإنّك إذا تصفّحت المؤلفات والمصنفات التي صُنِّفت في المدن الهامة كأن تكون عواصم لدول قوية، أو حواضر علم، أو ممر قوافل، أو مركز اقتصاد، أو لكونها نقطة ارتكاز عسكري، أو تاريخي، أو أثري، فإنّك بلا شك ستجد العديد من المؤلفات، كما هو الحال في الكتب المؤلفة في المدينة المنورة، والقدس و تاريخ دمشق وبغداد والقاهرة وغرناطة ، وغيرها من المدن الإسلامية التي كان لها عبر التاريخ مكانةٌ وأهمية.

ولكنك عندما تتصفح كتاب (معجم ما أُلِّف عن مكة) للدكتور عبدالعزيز السنيدي، فستصاب بالدهشة والعجب معًا، وسينقل إليك هذا الكتاب عظمة اهتمام المؤلفين بمكة المكرمة، وما لا ينتهي العجب منه هو أنّ التصنيف كان متنوعًا وثرّاً، إذ لم يبق من جوانب هذه المدينة العظيمة في تاريخها وأحداثها، جانب إلاّ أُلِّف فيه، بدءًا من بداياتها الأولى، وبناء الكعبة الشريفة ، وظهور الإسلام والبعثة، والإسراء والمعراج والفتح، والتطورات التي مرت عليها عبر العصور، وفي رجالاتها، ومواقعها كما في المسجد الحرام، والكعبة الشريفة، وبئر زمزم، والمقام ، وفي فضائلها، وحياتها العلمية، والفكرية، وتنظيماتها الحضارية والجغرافية، ومنشآتها، وعيونها وآبارها، وجوانبها المعمارية والأثرية، وقبائلها، وأنسابها، وتراجم رجالاتها ونسائها، وما يتعلق بالحج وشؤونه وتنظيماته، إلى ما أُلِّف فيها من رحلات عديدة، وغير ذلك من الكتب في الجوانب التشريعية والفقهية والدعوية.

وهذا الكتاب المفهرس الذي ذكرناه آنفًا يقع في ٥٥٠ صفحة لمدينة واحدة، وهذا يدلك حقّاً على الكم الهائل من المؤلفات، وكم كنت أتمنى على الكاتب لو قام بترقيم الكتب

تسلسلياً، لكنه للأسف لم يفعل، فقمت بإحصاء الكتب والرسائل والأبحاث والمقالات الواردة في الفهرس الموضوعي في هذا المعجم فوجدتها (٢٨٧٨) ولا شك أن ما فات المؤلف الاطلاع عليه ليس باليسير، فهناك العديد من المؤلفات لم يرد اسمها في هذا المعجم، وهذا أمر منطقي، فعملية الحصر الكلي الشامل والدقيق تصعب على فرق العمل، فكيف على الفرد الواحد؟ ولا شك أن هذا الرقم الذي أوردناه ليمثل عظم الاهتمام بهذه المدينة المقدسة.

وتذكر كتب المعاجم والمصنفات أنّ أوّل من صنّف في مكة هم: محمد بن عمر الواقدي (١٣٠ – ٢٠٧هـ) وعلي بن محمد المدائني (١٣٥ – ٢٢٥ هـ) وأبو الوليد الأزرقي (٠٠٠ – ٢٥٠ هـ) والزبير بن بكار (١٧٢ – ٢٦٢ هـ) وعمر بن شبة (١٧٢ – ٢٦٢ هـ) ومحمد بن إسحاق الفاكهي (٠٠٠ – ٢٨٠ هـ) .

ولعلّ أشهر الكتب التي أُلّفت عن مكة ولها حضورها، في أغلبها كتب تاريخية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار لأبي الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي (ت ٢٥٠ هـ) وقد اختصره عدد من العلماء
- تاريخ مكة لعمر بن شبة (٠٠٠ – ٢٦٢ هـ).
- أخبار مكة لعبدالله بن محمد الفاكهي (٠٠٠ – ٢٧٢ هـ).
- شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام لأبي الطيب محمد بن شهاب الدين المكي الفاسي، واختصره إلى أربع مختصرات، وله: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين.
- القرى في أخبار أم القرى للمحب الطبري (٠٠٠ – ٦٩٤ هـ).
- تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقدس الشريف، تأليف الإمام أبي البقاء محمد بن أحمد بن الضياء المكي الحنفي (٠٠٠ – ٨٥٤ هـ).

– إتحاف الورى بأخبار أم القرى للنجم عمر بن فهد (٨١٢ – ٨٨٥ هـ)

– الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف لابن ظهيرة القرشي (٠٠٠ – ٩٨٦ هـ).

– خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام للسيد أحمد بن زيني دحلان

وهناك كتب غاية في الأهمية، وما يهمنا هنا هو ما يرتبط بموضوعنا، وسأورد أسماء هذه الكتب والرسائل والمقالات علّها تطلع القارىء والدارس على ما تناولته هذه المصنفات في الجانب الأدبي المتصل بمكة:

– إثارة الحجون لزيارة الحجون للفيروزابادي، مطبعة الترقي بمكة.

– احتفالات الموالد النبوية في الأشعار الأندلسية والمغربية والمهجرية لحسن جمال الدين، بغداد ١٩٦٧م .

– الحج في الأدب العربي لعبدالعزيز الرفاعي، دار الرفاعي، الرياض ١٤٠٦هـ.

– حقيقة المجاز إلى الحجاز لصلاح الدين الصفدي.

– الحياة الأدبية في مكة في القرن الأول الهجري لزكي عابدين غريب، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م.

– الدر النظيم في قصة مولد ومعراج النبي الكريم، منظومة لمحمد أمين الجندي العباسي.

– رحلة الحج منظومة لعلي بن أحمد السوسي الدوقاري.

– رحلة الحج من يلملم إلى بلد الله الأمين منظومة لعلي بن حسن العجيلي التهامي، تحقيق عبدالله محمد أبو داهش.

– الشعر الحديث في الحجاز من ١٩٦١ – ١٩٤٨م لعبدالرحمن بن فيصل المعمر، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

– الشعر في الجزيرة العربية للدكتور عبدالله الحامد، دار الكتاب السعودي،

الرياض ١٤٠٦هـ.

- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بالقاهرة.

- الظرف والظرفاء في الحجاز في العصر الأموي، تأليف البشير المجذوب، دار التركي للنشر، تونس.

- قبيلة خزاعة في الجاهلية والإسلام، تأليف عبدالقادر فياض حرفوش، دار البشائر، دمشق.

- قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، تأليف عبدالله عبدالجبار، ومحمد خفاجي، دار مصر للطباعة، القاهرة.

- هديل الحمام في تاريخ البلد الحرام (تراجم شعراء مكة على مر العصور) لعاتق بن غيث البلادي.

- وهناك مقالات وبحوث عديدة حول الموضوعات والأغراض والشخصيات الشعرية التي لها علاقة بمكة المكرمة، سيطول الأمر لو ذكرناها، ولكن العودة إلى الدوريات المتخصصة، والمجلات الأدبية وبخاصة في المملكة العربية السعودية تعطي القارئ فكرة عن طبيعتها وما تناولته بالدراسة.

والغريب في الأمر أن هذه المصنفات على كثرتها ونفاستها، وشموليتها لأدق التفاصيل عن مكة، فإنك لا تكاد تجد كتابًا واحدًا يبحث في الشعر الذي يرتبط بمكة، ويختص بها، سواء في عصر أو عصور، أو فترة من الفترات، ويبدو أن ميدان السباق خال، فأركضتُ جوادي وقديمًا قال العرب (كل مجر في الخلاء يُسر).

وقد أُلّف في فضائل مكة العديد من المؤلفات مثل: فضائل مكة للحسن بن يسار، ولأبي زيد أحمد بن سهل البلخي، ولرزين بن معاوية، ولعبدالله بن الزبير الأسدي، ولمحمد بن أبي بكر محمد اللباد اللخمي، ولعبدالغني النابلسي، ثم التأليف في فضائل الحرم والكعبة والحجر الأسود وماء زمزم، ثم الجمع بين فضائل مكة والمدينة، أو فضائل المدن

الثلاث: مكة والمدينة والقدس.

واستمرّ التأليف في هذا الموضوع حتى عصرنا الحاضر من ذلك ما كتبه عاتق بن غيث البلادي في فضائل مكة المكرمة وحرمة البيت الحرام، وبجانب الكتب ظهر العديد من البحوث والمقالات.

وقد تنازع العلماء والمؤلفون الأفضلية هل هي لمكة على المدينة؟ أم للمدينة على مكة؟ من ذلك كتاب فضل المدينة على مكة لمحمد بن عبدالله صالح الأبهري المتوفى سنة (٣٧٥هـ) (وذكر القاضي عياض أن موضع قبر نبينا صلى الله عليه وسلم أي ما ضمّ أعضاءه الشريفة أفضل بقاع الأرض.. وقال الإمام مالك رضي الله عنه المدينة أفضل من مكة لما روي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال حين خروجه من مكة إلى المدينة: (اللهم إنك تعلم أنهم أخرجوني من أحبّ البلاد إليّ فأسكني أحبَّ البلاد إليك[١]) رواه الحاكم في المستدرك.

ويبدو أنّ هذا التنازع امتدّ إلى الشعر، فوجدنا الشعراء يناقض بعضهم بعضًا في هذا الفضل، ويتمارون فيه، فقد أورد النجم بن عمر في حوادث سنة أربع وتسعين ومائة (كتب يحيى بن مسكين بن أيوب بن محارب على لسان أهل المدينة إلى داود بن عيسى بن موسى الهاشمي أمير مكة يسألونه التحوّل إليهم، ويعلمونه أنّ مقامه بالمدينة أفضل من مقامه بمكة، وأهدوا إليه في ذلك شعرًا، قال شاعرهم فيه[٢]:

أداودُ قد فُزْتَ بالمَكْرُماتِ
وبالعدل في بلد المصطفى
وصرتَ ثِمَالاً لأهلِ الحجازِ
وسرتَ بسيرةِ أهل التُّقَى
وأنتَ المهذّبُ من هاشمٍ
ومن منصبِ العزّ والمرتجى
وأنتَ الرّضا للذي نابَهَمْ

(١) الإعلام بأعلام مكة ١٣-١٤

(٢) إتحاف الورى ٢/ ٢٥٠-٢٥٦وفيه القصائد الثلاث وفي أخبار مكة للفاكهي ٢/٢٩٨وهديل الحمام٩٥٩/٣-٩٦٤

وفي كلّ ذلك وابن الرضا

وبالفيءِ أغنيتَ أهلَ الخصاصِ

فَعَدْلُكَ فينا هو المُنتَضَى

ومكةُ ليست بأرض المقامِ

فهاجرْ كهجرةِ من قد مَضَى

مقامُكَ عشرين شهرًا بها

كثيرٌ لهم عند أهل الحِجَا

فقم ببلادِ الرسول التي

بها اللهُ خصّ نبَي الهُدَى

ولا يلفِتَنّكَ عن قربهِ

مشيرٌ مَشُورته بالهوى

فقبرُ النبيِّ وآثاره

أحقُّ بقربِكَ من ذي طُوَى

فلما ورد الكتاب والأبيات على داود بن عيسى أرسل إلى رجال من أهل مكة فقرأ عليهم الكتاب، فأجابه رجلٌ منهم يقال له عيسى بن عبدالعزيز بن السعلبوس بقصيدة يردّ عليه، ويذكر فيها فضل مكة، وما خصها الله تعالى به من الكرامة والفضيلة، ويذكر المشاعر والمناقب، فقال:

أداودُ أنتَ الإمامُ الرّضَا

وأنتَ ابنُ عمّ نبي الهُدَى

وأنتَ المُهذَّبُ من كل عيبٍ

كبيرًا ومن قبلهِ في الصِّبَا

وأنت المُؤمَّلُ من هاشمٍ

وأنت ابنُ قومٍ كِرامٍ تُقَى

وأنتَ غِياثٌ لأهل الخصاصِ

تُبيدُ خَصاصَتَهُمْ بالغِنَى

أتاك كتابُ حسودٍ جحودٍ

أَسَــا في مــقــالــتهِ واعــتَــدَى

يُــخــيّــر يــثــربَ في شــعــرهِ

عــلى حــرمِ الــلهِ حــيثُ انــبــنَى

فــإن كــانَ يــصــدقُ في مــا يــقــولُ

فلا يُــنــجــدنّ إلى مــا هــنــا

وأيّ بلاد تــفــوق امَّــهَــا

ومــكَــةُ مــكــةُ أمّ الــقُــرَى

وربي دَحَــا الأرض من تحــتِــهَــا

ويــثــرب لا شكّ في مــا دحــا

وبــيتُ المــهــيــمنِ فــيــنــا مــقــيمٌ

يُــصــلَّى إلــيهِ بــرغمِ الــعِــدَى

ومــســجِــدُنــا بــيّنٌ فــضــلُهُ

عــلى غــيــرهِ لــيس في ذا مِــرا

صلاة المــصــلي تُــعــدُّ له

مــئــين ألــوفًــا صلاة الــوفــا

كــذاك أتى في حــديث الــنــبيِّ

ومــا قــال حقٌّ به يُــقــتــدى

وأعــمــالُــكُم كلّ يــومٍ وفــودٌ

إلــيــنــا شــوارع مــثل الــقَــطَــا

فــيــرفعُ مــنــهــا إلــهي الــذي

يــشــاءُ ويــتــركُ مــالا يَــشَــا

ونــحن يــحجّ إلــيــنــا الــعِــبَــادُ

يــرمــون شُــعْــثًــا بِــوتــر الحَــصَى

ويــأتــون من كلِّ فجٍّ عــمــيقٍ

عــلى أَيْــنُقٍ ضُــمَّــرٍ كــالــقــنــا

لــيــقْــضُــوا مــنــاسِــكَــهُم عــنــدنــا

فمنهم شتاتٌ ومنهم مَعَا

فكم من مُلَبٍّ بصوتٍ حزينٍ

يرى صوتَهُ في الهوى قد عَلا

وآخر يذكرُ ربَّ العبادِ

ويُثني عليه بحُسنِ الثَنَا

فكلُّهُمُ أشعثٌ أغبَرٌ

يؤمُّ المُعرَّف أقصى المَدَى

فظلوا به يومَهُم كُلَّهُ

وقوفًا على الجَبْلِ حتى المسَا

حفاةً عراةً قيامًا له

عجيجٌ يناجون ربّ السَّما

رجاءً وخوفًا لما قدّموا

وكلٌّ يسائل دفعَ البَلا

يقولون يا ربنا اغفرْ لنا

بعفوِكَ واصفحْ عمّن أسَا(*)

فلما دنا الليلُ من يومهم

وولّى النهارُ أجدُّوا البُكَا

وسار الحجيجُ لهم رجّةٌ

فحلّوا بجَمْعٍ بُعيد العِشَا

فباتوا بجَمْعٍ فلما بدا

عمودُ الصَّباح وولّى الدُّجَى

دَعَوْا ساعةً ثمّ شدُّوا النُّسوعَ

على قُلُصٍ ثمّ أمّوا مِنَى

فمِنْ بينِهم من قَضَى نُسْكَهُ

وآخرُ يبدأ سفكَ الدِّمَا

وآخرُ يهوي إلى مكةٍ

(*) هكذا ورد البيت في الأصل، وفيه خلل عروضي.

لـــيَــسْــعى ويـــدعـــوه في من دعَـــا

وآخـــــرُ يــــرملُ حــــالَ الــــطـــواف

وآخـــرُ مـــاضٍ يـــؤمُّ الـــصَّـــفَـــا

فـــآبـــوا بـــفـــضلٍ ممّـــا رجَـــوا(*)

ومـــا طـــلـــبـــوا من جـــزيلِ الـــعَـــطَـــا

وحجّ الملائـــكـــةُ الـــمُـــكـــرمـــونَ

إلى أرضـــنـــا قـــبلُ في مـــا مـــضَى

وآدمُ قـــــــد حــجّ من بـــــعـــــــدهمْ

ومن بـــعـــده أحـــمـــدُ الـــمُـــصـــطـــفى

وحجّ إلـــــيـــــنـــــا خـــــلـــــيلُ الإلهِ

وهـــــجّـــــر بـــــالـــــرمي في من رمى

فـــهـــذا لَـــعَـــمْـــري لـــنـــا رِفْـــعَـــةٌ

حَـــبَـــانـــا بـــهـــذا شـــديـــدُ الـــقِـــوَى

ومـــنّـــا الـــنـــبيُّ نـــبيُّ الـــهُـــدى

وفـــيـــنـــا تـــنَـــبَّـــا ومِـــنّـــا ابـــتـــدا

ومـــنَّـــا أبـــو بـــكـــرٍ ابن الـــكـــرام

ومـــنـــا أبـــو حـــفصٍ المـــرتَـــجَى

وعـــثـــمـــانُ مـــنّـــا فـــمن مـــثـــلُهُ

إذا عـــــدّد الـــــنـــــاسُ أهلَ الـــــتُّـــــقَى

ومـــنّـــا عـــليٌّ ومـــنّـــا الـــزبـــيـــرُ

وطـــلـــحـــةُ فـــيـــنـــا ومـــنـــا انـــتـــشَى

ومـــنّـــا ابن عـــبـــاسٍ ذو المـــكـــرمـــاتِ

نـــســـيبُ الـــنـــبيّ وحـــلفُ الـــنَّـــدَى

ومـــــنّـــــا قـــــريشٌ وآبـــــاؤهـــــا

فـــنـــحن إلى فـــخـــرنـــا الـــمُـــنْـــتَـــمَى

ومـــنّـــا الـــذين بـــهم تَـــفْـــخَـــرون

(*) هكذا ورد هذا الشطر في الأصل، وبه خلل عروضي.

فلا تَفْخَرُنَّ علينا بِنَا
فَفَخْرُ أولاءِ لنا رفعةٌ
وفينا من الفخر ما قد كفَى
وزمزمُ والحِجْرُ فينا فهل
لكم مكرماتٌ كما قد لنا
وزمزمُ طُعمٌ وشربٌ لمن
أراد الطعام وفيها الشِّفَا
وزمزمُ تنفي همومَ الصُّدورِ
وزمزمُ من كلّ سُقمٍ دوَا
ومن جاء زمزمَ من جائعٍ
إذا ما تضلَّعَ منها اكتفى
وليست كزمزمَ في أرضكمْ
كما ليس نحن وأنتم سَوَا
وفيها سِقايةُ عمّ الرسولِ
ومنها النبيُّ امتلا وارتوى
وفينا المقَامُ فأكرمْ بِهِ
وفينا المُحَصَّبُ والمُجْتَبَى
ففينا الحَجُونُ ففاخرْ بِهِ
وفينا كُدَيٌّ وفينا كَدَا
وفينا الأباطحُ والمَروتانِ
فَبَخْبِخْ فمن مِثْلُنا يا فتى
وفينا المَشاعرُ مَنْشَا النبيِّ
وأجيادُ والركنُ والمُتَّكَى
وثورٌ فهلْ عندكم مثلَ ثورٍ
وفينا ثَبيرٌ وفينا حِرَا
وفيه اختباءُ نبيِّ الإلهِ

ومـعْهُ أبـو بـكـرٍ المـرتـضَى
فـكم بـين أُحـدٍ إذا جـاء فـخـرٌ
وبـين الـقـبـيّس في مـا تـرى
وبـلـدتُـنـا حـرمٌ لم تـزلْ
مُـحَـرّمَـةَ الـصَّـيـدِ فـيـمـا خَلا
ويـثـربُ كـانت فلا تـكـذبنْ
حلالاً فـكم بـين هـذا وذا
فـحـرّمـهـا بـعـد ذاك الـنـبيّ
فـمن أجل ذلك مـاذا كـذا
ولـو قُـتلَ الـوحشُ في يـثـربٍ
لمـا فُـديَ الـوحش حـتى الـلـقـا
ولـو قُـتـلتْ عـنـدنـا نمـلـةٌ
أُخـذُتمْ بـهـا أو تـؤدوا الـفـدا
ولـولا زيـارةُ قـبـرِ الـنـبيِّ
لـكـنـتم كـسـائـر من قـد تـرى
ولـيس الـنـبي بـهـا ثـاويًـا
ولـكـنَّـهُ في جـنـانِ الـعُلا
فـإن قـلتَ قـولاً خلاف الـذي
أقـولُ فـقـد قـلتَ كلَّ الخَـطَـا
فلا تُـفْـحِـشَنَّ عـلـيـنـا المـقـال
ولا تَـنْـطِـقَنَّ بـقـول الخَـنـا
ولا تَـفْـخَـرَنَّ بمـا لا يـكـونُ
ولا مـا يَـشـيـنُكَ عـنـد الملا
ولا تـهْجُ بـالـشِّـعـر أرضًـا حـرامًـا
وكُفَّ لـسـانَكَ عن ذي طُـوَى

فأجابهما رجل من بني أسد ناسك كان مقيمًا بجدة مرابطًا، فحكم بينهما فقال:

إنّي قضيتُ على اللّذين تماريا

في فضلِ مكةَ والمدينة فاسألوا

فَلَسوفَ أُخْبركم بحقٍّ فافهموا

فالحكمُ حينًا قد يجور ويَعْدِلُ

فأنا الفتى العجلي جَدَّةُ مَسْكَنِي

وخزانة الحرم الذي لا يُجهلُ

وبها الجهادُ مع الرباط وإنّها

لَبِها الوقيعةُ لا محالةَ تنزلُ

معَ آل حامٍ في أواخر دهرها

وشَهيدُها بشهيد بدرٍ يعدلُ

شهداؤنا قد فُضّلوا بسعادةٍ

وبها السرور لمن يموتُ ويُقْتَلُ

يا أيها المَدَنِيُّ أرضُكَ فضْلُها

فوق البلادِ وفضلُ مكةَ أفضلُ

أرضٌ بها البيتُ المُحرَّمُ قِبْلَةٌ

للعالمين له المساجد تُعْدَلُ

حرمٌ حرامٌ أرضُها وصيودُها

والصَّيْدُ في كلّ البلادِ مُحلَّل

وبها المشاعرُ والمناسكُ كلُّهَا

وإلى فضيلتها البريةُ تَرْحلُ

وبها المقامُ وحوض زمزم مشرعًا

والحِجْر والركنُ الذي لا يُجهلُ

والمسجدُ العالي المحرَّمُ والصّفا

والـــمَـــشْـعَـــران ومن يــطــوفُ ويــرملُ

هل في الـــبلاد مَــحَــلَّـــةٌ مــعـــروفـــةٌ

مــثل الــمُـعــرّف أو مــجــمِّــرُ يُــحــللُ

أو مـــثلُ جــمْعٍ في المـــواطن كـــلـــهـــا

أو مـــثلُ خــيفِ مـــنًى بـــأرضٍ مـــنـــزلُ

فـــلـــكم مـــنـــازلُ لا يــرى بـــخـــرابـــهـــا

إلاّ الــــدمــــاء ومُــــحــــرمٌ ومـــحـــلّلُ

شـــرفًـــا لمن وافى المـــعـــرّف ضـــيـــفُه

شــــرفًـــــا له ولأرضهِ إذ يَـــــنْـــــزل

وبمــكــةَ الحــســنــاتُ ضُـعِّفَ أَجْــرُهَــا

وبــهــا الــمُسيء عن الخــطــيــئــةِ يُسألُ

يُــجْـزَى المسيءُ عن الخــطــيــئــةِ مِــثْــلَــهــا

وتُــضــاعفُ الحــســنــاتُ مــنهُ وتُــقــبَلُ

مــا يــنــبــغي لك أن تــفــاخــرَ يــا فــتًى

أرضًــا بـــهـــا وُلـــدَ الـــنـــبيُّ الـــمُـــرسلُ

بـــالـــشِّـــعب دون الـــردم مـــســـقطُ رأسهِ

وبــهـــا نــشــا صــلّى عــلــيه الــمُــرْسِلُ

وبـــهـــا أقـــام وجـــاءه وحي الـــسَّـــمـــا

وسَــرَى بــه المــلكُ الــرفــيعُ الـــمُـــنْــزَلُ

وَنُـــبُـــوَّةُ الـــرحـــمن فـــيـــهـــا أُنـــزلتْ

والـــدين فـــيـــهـــا قـــبل ديـــنك أولُ

هل بـــالمـــديـــنـــةِ هـــاشـــميٌّ ســـاكنٌ

أو من قــــريشٍ نــــاشىءُ أو مُـــكْـــهِلُ

إلاّ ومــــــــكــــــــةُ أرضُـهُ وقـــــــرارُهُ

لـكـنَّـهمْ عـنـهـا نَـأوْا وتَـحَـوَّلـوا

فـكـذاك هـاجَـرَ نَـحْـوَكم لـمَّـا أتى

إنّ المـديـنـةَ هـجـرةٌ تـتـحـوّلُ

فـأجـرتُمُ وقَـريـتمُ ونـصـرتمُ

خـيـرَ الـبـريـةِ حـقـكم أن تـفـعـلـوا

فـضلُ المـديـنـةِ بـيّنٌ ولأهـلِـهَـا

فـضلٌ قـديمٌ نـورُهُ مُـتَـهَـلِّلُ

من لم يـقلْ إنّ الـفـضـيـلـةَ فـيـكمُ

قـلـنـا كَـذبتَ وقـولُ ذلك أرذلُ

لا خـيـرَ في منْ لـيس يـعـرفُ فـضـلـكمْ

من كـان يَـجْـهـلُهُ فـلـسـنـا نجـهلُ

في أرضـكم قـبـرُ الـنـبيّ وبـيـتُهُ

والـمِـنـبـرُ الـعـالي الـرفـيعُ الأطـولُ

وبـهـا قـبـورُ الـسـابـقـين بـفـضـلـهمْ

عـمـرٌ وصـاحـبُهُ الـرفـيقُ الأفـضلُ

والـعِـتْـرةُ المـيـمـونـةُ اللائي بـهـا

سـبـقت فـضـيـلـةُ كلٍّ من يـتـفـضلُ

آلُ الـنـبيِّ بـنـو عَـليٍّ إنّـهمْ

أمـسـوا ضـيـاءً لـلـبـريَّـةِ تـشـملُ

يـا من تـبضُّ إلى المـديـنـةِ عـيـنُهُ

قـبل الـصـغـارِ، وصـغـرُ خَـدِّكَ أسـفلُ

إنّـا لَـنَـهـواهـا ونَـهْـوَى أهـلَـهَـا

ووِدادهـا حقٌّ عـلى من يـفـعلُ

قل لـلـمـديـنيِّ الـذي يـزدانُ ذا

ودٌّ الأمــيــرِ ويــســتــحثُّ ويــعــجلُ

قــد جــاءكم داوُودُ بــعــد كــتــابــكمْ

قــد كــان حَــبْــلُكَ في أمــيــرِك يــفــتلُ

فــاطــلبْ أمــيــرك واســتــزره ولا تــقعْ

في بــلــدةٍ عَــظُــمَتْ فــوعــظُكَ أفــضلُ

ســاق الإلهُ لــبــطنِ مــكــةَ ديمــةً

تُــروى بــهــا وعــلى المــديــنــة تُــسْــبِلُ

****



القسم الأول

مكة $ عصور الشعر العربي

أولاً: مكة في الشعر العربي القديم

هل كان لمكة شعراء يطاولون شعراء القبائل الأخرى كتميم وقيس وغيرهما؟ ويقفون على قدم المساواة مع شعراء الطبقات الأولى من شعراء الجاهلية: كشعراء المعلقات، أو الشعراء الفرسان، أو من شهروا لسبب أو لآخر؟

وإذا كان الجواب بالنفي، فما هي الأسباب التي جعلت مكة لا تشتهر بالشعر اشتهار القبائل الأخرى؟ أهي حياة مكة الهادئة الوادعة، حياة الرفاه والانشغال بالتجارة؟ فلم تبعث على قول الشعر، قد قيل ذلك، فصرفت بانشغالها بالتجارة صيفًا وشتاءً عن قول الشعر إلى الاستمتاع به وسماعه، وفتح نواديها وأسواقها الأدبية لتكون ميدانًا للتباري بين شعراء العرب في جاهليتهم، كما كان الحال في سوق عكاظ وذي المجنة والمجاز، واكتفت بأن تكون حكمًا لهذا الشعر وعليه، ورضيت بأن يرضاها العرب قاضيًا بين شعرائهم، وكما تروي الرواة فقد (كانت العرب تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردّوه منها كان مردودًا، فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي، فأنشدهم قصيدته: **هل ما علمتَ وما استودعتَ مكتومُ**، فقالوا: هذا سمط الدهر.

ثمَّ عاد إليهم العام المقبل، فأنشدهم قصيدته:

طحا بك قلبٌ في الحسان طروب

فقالوا هاتان سمطا الدهر[1]

وإذا كانت قريش قد استغلت هذه الوظيفة النقدية في الحكم على الشعر، فقد وظفت هذه المعرفة في تخير اللغة الفصيحة، كما ذكر السيوطي: (كانت قريش أجود العرب انتقاءً

(١) الأغاني طبع الهيئة المصرية العامة ٢٠١/٢١-٢٠٢

للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا، وأبينها إبانةً عما في النفس)[1].

ولم تكن قريش حكمًا على الشعر والشعراء فقط، بل كانت حكمًا في اختلافات القبائل، والمنافرات، فهذا عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة يحتكمان إليها في المنافرة التي جرت بينهما في أيهما أحقّ بالسيادة، وفي ذلك يقول مروان بن سراقة:

يا آل قريش بيّنوا الكلاما
إنّا رضينا منكم أحلاما
فبينوا إذ كنتمُ حكّاما[2]

أقول مع هذه الخاصية لقريش، فإنها لم تظهر في ميدان الشعر ظهور غيرها، ولم يكن لها من المكانة الشعرية ما كان للقبائل الأخرى، وفي ذلك يقول ابن سلام الجمحي: (والذي قلّل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة، ولم يحاربوا)[3] ولعل ربط ابن سلام الشعر بالحرب هو لما تثيره الحرب من الحماسة في النفوس، وإلا فإنّ دوافع الشعر لا تقف عند هذا السبب، ومع ذلك ففي حديثه عن شعراء القرى العربية يضع مكة ضمن القرى التي لها شعراء في الجاهلية، فيقول: (وبمكة شعراء، فأبرعهم شعرًا: عبدالله بن الزبعرى.. وأبوطالب.. والزبير بن عبدالمطلب شاعر، وأبو سفيان بن الحارث شاعر، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية شاعر، وضرار بن الخطاب الفهري شاعر، وأبو عزة الجمحي شاعر، .. وعبدالله بن حذافة السهمي، .. وهبيرة بن أبي وهب..)[4] ومن النساء الشواعر، ذكرت كتب الأدب : هند بنت عتبة، وهند بنت أثاثة، ورقية بنت عبدالمطلب، وصفية بنت عبدالمطلب، وقتيلة بنت النضر، وصفية بنت مسافر.

ومن المعروفين من شعراء مكة في العصر الأموي: عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وعبيدالله بن قيس الرقيات، وعبدالرحمن الجشمي، والعرجي، ومحمد بن عبدالله النميري، ويزيد بن ضبة، وقيس بن ذريح، وغيرهم كثير.

---

(١) المزهر للسيوطي ١ / ٢١١
(٢) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ٨٠
(٣) طبقات فحول الشعراء ١/٢٥٩
(٤) المصدر نفسه ١/٢٣٣-٢٣٥

ونجد في العصر العباسي عدداً من المشهورين، منهم: سديف بن ميمون وأبوالحسن التهامي، ويظهر في القرن الخامس وما يليه: ابن الحكاك المكي، وأبو الفتوح أمير مكة، والمجاشعي القيرواني شاعر الحرمين، وأبو عبدالله محمد بن إبراهيم الأسدي، وأبوبكر محمد بن عتيق البكري السوارقي، وكافور النبوي، والشريف علي بن عيسى المعروف بابن وهاس، والأمير دهمش بن وهاس الحسني، وأبو الحسن علي بن الحسن المعروف بابن الريحاني، وسالم بن أبي سليمان.

وتتضخم أعداد الشعراء في العصور المتتابعة، وتفرد كتب التراجم لهم صدر صفحاتها، مثل: كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني، ودمية القصر للباخرزي، ونفحة الريحانة وغير ذلك من المصادر الشعرية التي ذكرت لنا أعداداً كثيرة، نذكر منهم على سبيل المثال: علي بن الحسن الريحاني، وابن وهاس الحسني، وعلي بن محمد العليف، وأحمد بن الحسين العليف شاعر البطحاء، وعلي بن محمد الطبري، وعلي بن أحمد بن معصوم، وعمار بن بركات الحسني، وكثير غيرهم من الذين توزعوا على مدى القرون من القرن السادس وحتى الثاني عشر الهجري.

وفي العصر الحديث يترصع تاريخ مكة الشعري بعدد من نجوم الشعر، مثل: حسن ابن عبدالله القرشي، وحسين سرحان، وحسين عرب، وحمزة شحاتة، وطاهر زمخشري، والغزاوي، والفلالي، وأحمد قنديل، ومحمد حسين فقي، ومحمود عارف، ومحمد حسن عواد، ومحمد علي مغربي، وعدد كبير من المعاصرين الذين ينتمون إلى مكة موطناً.

ونحن في حديثنا عن مكة في الشعر القديم جملة واحدة، نقصد ما اصطلح عليه في تاريخ الأدب، العصور الثلاثة وهي: العصر الجاهلي، والعصر الإسلامي والأموي، والعصر العباسي، وهذه الحزمة هي التي فرضت نفسها على الدرس لأن الشعر في مكة: موضوعاتٍ وأغراضاً يكاد يكون متشابهاً، إذ هو يصب في إناءٍ واحد، ويسيل في أبطح واحد هو أبطح مكة.

وكذلك لأن العصر الواحد قد يرينا جزءاً من الصورة لا تكتمل إلاّ بضم الأجزاء الأخرى إليها، ولذلك كان تناولنا للشعر في هذه العصور في أضيق مساحة، إذ الحديث

التام الحلقات، المكتمل الهيئة لن نجده في كل عصر على حدة، وإنما نعثر عليه على امتداد هذه العصور، ومن هنا سار البحث في عرض لقطات سريعة لهذه العصور، لتعطي لمحة خاطفة، ويأتي القسم الثاني حيث الحديث المستفيض، والشواهد المتعددة، والتتبع الدقيق.

وقد كانت الرؤية في أن نجعل (مكة في الشعر القديم) شاملة للعصور الأدبية الأولى الثلاثة، وإن كان البعض سيعترض لبعض اختلاف الصورة ما بين الجاهلي والإسلامي، حقًا هو يختلف عقديًا، ولكنه يتفق في كثير من الموضوعات والأغراض، وإذا كان تصور الجاهليين للحج هو المختلف، فإن القسم بغير الله يكثر عندهم، ومع هذا الاختلاف إلاّ أن بعض الشعراء ممن جاء بعدهم في العصر الإسلامي يشاركونهم في هذا الانحراف، وتبقى البنى الفنية والموضوعية متقاربة، حقًا لقد كان التأسيس لمعظم الموضوعات المذكورة في هذا البحث للعصر الجاهلي، وكذلك الأحداث التي وقعت، ولكن شعراء العصور التالية ساروا على نهجهم سواء في المدح أو الفخر، أو الوصف أو الحنين، كما أنهم ذكروا الحوادث التي حدثت كعام الفيل وغيره، ومن هنا فإن الاقتصار على التنويه بهذه العصور ليكون البحث والاستقصاء من خلال الأقسام التالية كي تتضح لنا الدراسة في صورتها المطلوبة، ولكي لا نحتاج إلى إعادة الأدلة والشواهد، والنصوص.

ثانياً: مكة في الشعر العربي في العصر الوسيط

كان العصر الوسيط يغلي بمراجل الشعر الديني، ويرجع في شدة أواره وغليانه، والحث عليه، إلى أنّ هذا العصر شهد تراجعًا سياسيًا وعسكريًا ملحوظًا، وتبعثرت القوى الإسلامية، وضعفت وانحلّت، وتسلّط عليها الصليبيون الغربيون والمغول الشرقيون، وكان الصراع لا يمثل صراع نفوذ ومصالح، بمقدار ما كان يمثل صراع بقاء ووجود.

وكان التدمير الذي أحدثته الحروب الصليبية وحروب المغول في بلاد الإسلام هائلاً ومروعًا، دُمِّرَ فيها الإنسان والمكان والحضارة، فقتلت أعداد لا تحصى، ودُمّرت عواصم زاهرة، وبادت حضارة وثقافة زهت على الدنيا وأغنتها.

كل ذلك عزّز العودة للجذور والأصول، وكان حرص الشعراء على بث الروح الديني من خلال أشعار تربط المسلم بدينه، بدءًا بالمديح النبوي، ومرورًا بالارتباط بأماكن ومشاعر الإسلام، وانتهاءً بالدعوة للجهاد.

وقد تحمّل الشعر الديني في هذه الفترة مسؤولية قيادة الكلمة، وكان له أثره البالغ في تعزيز الانتصارات التي حققها المسلمون ضد الغاصبين من الصليبيين والمغول.

واشتهر في هذا الباب العديد من الشعراء، منهم: البوصيري، وابن دقيق العيد، وصفي الدين الحلي، وابن جابر الأندلسي، والعفيف التلمساني، وشهاب الدين محمود، وعبدالرحيم البرعي، وابن نباتة المصري، وشمس الدين النواجي.. وتبعهم عدد كبير، مثل: ابن سيد الناس اليعمري، ومجد الدين الوتري، ومحيي الدين الفيروزابادي، والحافظ بن حجر العسقلاني، وابن حجة الحموي، وعبدالغني النابلسي، وغيرهم كثير.

وقد عرفت مكة عددًا من الشعراء من أبنائها أو المنسوبين إليها، أو الزائرين والمجاورين، وقد أورد الفاسي عددًا من الشعراء في القرنين السابع والثامن الهجريين، منهم: نصر الدين بن محمد النهاوندي البغدادي، وعمر بن علي بن مرشد الحموي الملقب بسلطان العشاق، وعبدالصمد بن عبدالوهاب بن هبة الله الدمشقي المعروف بابن عساكر، والشيخ قطب الدين القسطلاني، ويحيى بن يوسف المكي، وأحمد بن موسى المكي، ومحمد ابن يعقوب الفيروزابادي [1]، ويورد الباخرزي عددًا آخر من الشعراء في مكة ضمن تناوله شعراء الحجاز حتى عصره.

ويظهر الشعر الصوفي في هذا العصر الذي اختص بالربّانيات، واعتد بالمدائح النبوية، وسلوكه طريق الغزل الرمزي جعله في كثير منه يتطابق موضوعًا وطريقة وشكلاً. من هنا فقد تداول شعراء الصوفية معانيَ وألفاظًا وصورًا تتآلف وتتقارب، حتى أصبحت كأنها طريقٌ مرسومٌ يسيرون عليه، ومنهج محدد يلتزمونه، والاختلاف يكمن في القدرة الشعرية وأسلوب التناول.

ونتيجة لذلك اشتهرت معانيهم التي يتناولها اللاحق عن السابق، وفي ذلك يقول ابن خلدون (وكذلك المعاني المبتذلة بالشهرة فإن الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضًا، فيصير مبتذلاً، ويقرب من عدم الإفادة... ولهذا كان الشعر في الربّانيات والنبويات قليل الإجادة

---

(١) أخبار مكة ٢ / ٣٩٢ – ٣٩٧

في الغالب، ولا يحذق فيه إلاّ الفحول، وفي القليل على العسر، لأنّ معانيها متداولة بين الجمهور، فتصير مبتذلة لذلك)[1].

ولسنا بصدد الحديث عن الشعر الصوفي في موضوعاته وخصائصه ورموزه، وإنما نعلق منه بقدر ما يتعلق بموضوعنا، فإذا تحدّث هذا الشعر عن مكة شوقًا أو حنينًا أو غزلاً، فذلك مطلبنا لا نتجاوزه، ومن هنا كان مرورنا على دواوين أعلام الصوفية من: ابن الفارض وابن عربي، وعبدالقادر الجيلاني وغيرهم، لنجلي ما فيها من عشق مكي، وقد ظهر لنا أغلبه في مدائحهم النبوية.

ثالثاً: مكة في الشعر العربي الحديث والمعاصر

ظهر في مكة في الشعر الحديث والمعاصر أعداد من الشعراء من أبنائها، نذكر منهم على سبيل المثال: (أحمد إبراهيم الغزاوي، وعبدالوهاب آشي، وحمزة شحاتة، وفؤاد شاكر، ومحمد حسن فقي، وحسين سرحان، وطاهر زمخشري، وحسين عرب، وإبراهيم أمين فودة، وحسن عبدالله القرشي، وإبراهيم خليل العلاف، وأحمد عبدالغفور عطار، وحامد دمنهوري، ومحمد عمر توفيق، وحسين فطاني، وعبدالله بلخير، وإبراهيم نتّو، وعلي ابن عابدين، وغيرهم كثير، وقد ارتبط هؤلاء الشعراء بمكة القداسة، ومكة مسقط الرأس، فكان لها في قلوبهم المنزلة المضاعفة).

وبلا شك فإنَّ حب مكة يضيء الجَنان، وتلمس أركانها يهب الأمان، ورؤياها فيض أشواق، ومن خلال اطلاعنا على الكثير من القصائد المعاصرة، وجدنا الشعراء يفردون لمكة قصائد كاملة تتحدث عنها وتصفها، وهذا الأسلوب يبين عن أن المحدثين افترقوا عن الأقدمين في هذا المضمار، صحيح أننا نلقى عند القدماء قصائد الشوق والحنين تتحدث عن لهفتهم لرؤية المشاعر، ولكن القصيدة المعاصرة..تختص أم القرى بقصيدة معبرة عن الشوق والحب، وتجمع إلى ذلك الوصف والإحساس بعظمة المكان، كما يتوضح الحب الخالص، ومن عنوانات القصائد نكاد نستجلي الكثير من المعاني، واقرأ معي هذه

(١) المقدمة ١١٠٧- ١١٠٨

العنوانات لتتبين صحة ما أذهب إليه، فهذه (أم القرى لحسن عرب، و لأحمد الشامي، ولأحمد أبو بكر، وعرس النور في أم القرى للدكتور إحسان عباس... ومن القلب إلى أم القرى للدكتور رجاء الجوهري، ومكتي قبلتي لأحمد قنديل، ومكة المكرمة لحسين عرب، ومحمد إبراهيم جدع، وأحمد عبدالسلام غالي، ومفرج السيد، وأحمد موصلي، ومحمود عارف، وحسن عبدالله القرشي، ومحمد حسن عواد، ومحمد حسن فقي، وفرحة العودة إلى مكة لعلي زين العابدين، ومناجاة الرحاب المقدسة لطاهر زمخشري ومن وحي المسجد الحرام لنديم الرافعي، والوحي نبع المحبة لمحمد رائف المعري، وأرض القداسات لمقبل عبدالعزيز العيسى، والمشاعر المقدسة لمحمد بن أحمد العقيلي، ويا بيت الله لياسين قطب الفيل، ومن مكة إلى روما لأحمد الجدع، وأم القرى للدكتور عبدالرزاق حسين).

وما مكة في قصائد الشعراء المعاصرين؟ إنها هدى الحائر وأرض الهدى، والبلاد المشرفة، ومنار العلم ورحاب العز، إنها أم القرى، وأم البطاح، وهي نفحات الهدى، ومطلع المصطفى ومسرح نجواه، منها سطع النور، وفيها تجلّى وحي السماء، إنها مهد الإسلام، وملاذ الإيمان، وموطن النور، إنها كما يقول محمد حسن فقي الجلال والجمال، والعشق والرشاقة، والحسن الذي لا يبلى:

مكتي أنتِ لا جلالٌ على الأرض يُداني جلالها أو يفوقُ
ما تُبالينَ بالرشاقةِ والسحرِ فمعناكِ ساحرٌ ورشيقُ
سجدتْ عنده فما ثمَّ جليلٌ سواهُ أو مرموقُ
ومشى الخلدُ في ركابكِ مختالاً يمدُّ الجديدَ منهُ العتيقُ
أنتِ عندي معشوقةٌ ليس يخزى العشق منها ولا يملُّ العشيقُ
ما أُباهي بالحسنِ فيكِ على كثرةِ ما فيكِ من معانٍ تشوقُ
أنتِ قدسٌ فليس للهيكل الفاني بقاءٌ كمثلهِ وسموقُ
كل حسنٍ يبلى وحسنكِ يا مكةُ رغم البلى الفتيُّ العريقُ
درج المصطفى عليكِ فأغلاكِ وأغلاكِ بعده الصِّدِّيقُ
وشكولٌ من الرجالِ سبوقٌ جدَّ من خلفه فجلّى سبوقُ[1]

(١) مكتي قبلتي ٦٩

وهي مكة الخير، التي يعتز محمد حسن عواد بأنها بلده، ولذلك تتكرر لفظة بلدي في قصيدته (مكة) مرات عدة، وهذا الإصرار على التكرار، هو لون من العاطفية الحريصة المتشبثة، وكأنّ هناك من ينافسه عليها، لذلك يقول:

مكة الخيرِ والهوى والحفيفِ
واللقاءات كالسّنا كالرفيفِ
يا ملاذَ الإيمانِ يا موطنَ النو
رِ تَهَادى من الإلهِ اللطيفِ
بَلَدي يا رؤى الطفولَةِ يا مَهْ
دَ القداسات يا لواءَ الزَّحُوفِ
بلدي بالهوى وبالدين والحبْ
بِ، وبالعطفِ من أبرِّ عَطُوفِ
بلدي يا صحيفةَ المجد من جِبْ
ريلَ من أمهاتِ تلك الطيوفِ
بلدي أيُّها السّماءُ على الأر
ضِ إذا الأرضُ حوربتْ بالعَزيفِ[1]

وأم القرى تلك النفحات القدسية السامية، إنها مرابع المجد، ومنهل الدين، إنها البلد التي أقسم بها الله عز وجل، وباركها وشرفها، هذه مكة عند أحمد موصلي:

سطع النورُ والهدى في رُبَاها
وتجلّى وحيُ السّما في حِمَاها
نفحاتٌ قدسيةٌ قد تَسَامتْ
وسرتْ في القلوبِ تُروي صَدَاها
تلك أمُّ القُرى مرابعُ مجدٍ
هي مهدُ الإسلامِ موطنُ طه
هي للدين منهلُ طابَ وِردًا
هي للعلمِ منبعٌ قد تناهى

---

(١) المرجع نفسه ١١٥

شعٌ منها التوحيدُ في خيرِ نهجٍ
رفعَ اللهُ قَدْرها وحماها
وبها أقسمَ الإلهُ بحقٍّ
باركَ اللهُ أرضَها وسَمَاهَا[1]

ولا يكاد الخطاب الموجه لمكة في العديد من القصائد يبتعد عن النبرة الوصفية، التي تبين عن عظمة مكة ومكانتها، ولذلك قلما تجد اختلافًا واضحًا عند شعراء مكة في التعبير عن حبهم لمكة، فهم في أغلبهم يتكئون على شرف وسمو وقداسة مدينتهم، وانظر إلى قول محمد إبراهيم الجدع الذي يتوافق مع من سبقه ممن عرضنا لشعرهم:

يا هدى الحائرِ إنْ جارَ الزمنْ
واعترى النفسَ رزايا ومحنْ
يا منارَ العلمِ يا أرضَ الهدى
يا رحابَ العزِّ يا أسمى المدن
يا بلادًا شرَّفَ اللهُ بها
كلَّ منْ عاشَ لديه بالمنن[2]

ويطلعنا حسن عبدالله القرشي على قول مختلفٍ مؤتلف، فما أن نقرأ مطلع قصيدته (مكة) حتى نحس بنفس مختلف، ورؤية مجددة لما عهدناه عند عشاق مكة، فالوصف التجريدي لمكة المحبوبة هو ما يصادفنا في الأبيات الثلاثة الأولى التي يقول فيها:

تَفَتَّقَ عن راحَتَيْها الصّباحْ
وشعشعَ في شفتيها القمرْ
وأزهتْ بها الشمسُ فوقَ البطاحْ
وجُنَّ بها الليلُ حلو الصورْ
عذيريَ هل يبلغنَّ النشيدْ
رؤى مكةٍ أو تُحيطُ الفِكَرْ[3]

(١) المرجع نفسه ١٨٩ – ١٩٠
(٢) مكتي قبلتي ٢١٥
(٣) المرجع نفسه ١٣٣

ولكنه بعد البيت الثالث يسير في الإطار الذي سار فيه من معه من شعراء مكة، حيث يتحدث عن ماضيها ومكانتها، وبعض أماكنها مثل الكعبة وجبل النور. ونجد بعض اللقطات عند طاهر زمخشري لكنه سرعان ما يعود إلى الصفات العامة، من ذلك وصفه لمكة بالعروس، في قصيدته (مناجاة الرحاب القدسية) يقول:

وعـــروسٌ تـــمـــيسُ في مـــوكبِ الـــفـــتـ
ـــنـــةِ تـشـدو فـتـسـتـعـيـدُ الـزهـورُ
نـــايُـــهـــا لا يـــنـي يُـــغـــرِّدُ في الـــكـــو
نِ ورجعُ الـــصـــدى جـــمـــالٌ مـــثـــيـــرُ
وَهْـــوَ مـــا زالَ في المـــرابع يـــخـــتـــا
لُ فُـــتـــونًـــا به المجـــالي تـــمـــورُ

إلى أن يقول:

يـا عـروسي الـتي بـهـا هـتفَ الـقـلـ
ـبُ وغـنّى بـهـا الـفـؤادُ الـكـسـيـرُ
يـا عـروسَ المـنَى الـطـروبِ لـمُـضـنًى
عـاثَ فـيهِ الـشَّـجـا وعـزَّ الـنّـصـيـرُ[1]

ويتفق شعراء مكة مع غيرهم من الشعراء سواء انتسبوا لمكة أو كانوا زوارًا أو حجاجًا، فالشوق لمكة يجمعهم، ولذلك نجد عبارات الشوق العامة عند شعراء مكة في العصر الحديث، كما في قول أحمد عبدالسلام غالي:

مـا لِـقـلـبي يَـهْـفُـو ويـسـمـو الـدّعـاءُ
مـكـةُ قَـصْـدُنـا ويـحـلـو الـنّـداءُ
نـــفـــحـــاتُ الـــهـــدى تـــرفُّ وتُـــذْكي
كل شـــوقٍ ويـــســـتـــفـــيضُ الـــعـــطـــاءُ
بـــلـــدٌ حـــبُّهُ تـــغـــلـــغلَ في الـــنـــفـ
ـسِ كـمـا انـسـابَ في الـفـضـاءِ الـضـيـاءُ

---

(١) مكتي قبلتي ٩٦

فـــإذا انـــداحَ فـــالأمـــاني عِـــذابٌ

وكـــأنَّ الـــشّـعـــاعَ مـــنهُ رجـــاءُ[١]

ويحن محمود عارف حنين من سبقه، فيقول:

هــتفَ الــشــعــرُ صــادحًــا بــالحُــدَاءِ

في هَــوَى مـكــةٍ هــوى الــبَــطْــحــاءِ[٢]

وتشتعل ثورةُ الحنين في قلب طاهر زمخشري، الذي يعبر عن لواعج القلب في مناجاة الرحاب المقدسة، يقول:

في دمي ثــورة الحـــنـــين لـــهـــيـــبًـــا

لـــيسَ يُـــطـــفـــيهِ من عـــيـــوني نمـــيـــرُ

وبـــنـــفـــسي لـــواعجٌ من جـــوى الـــشّـــجـ

ـــوِ عـــلـــى خـــافـــقي لـــظـــاهـــا يـــثـــورُ

واحـــتـــراقُ الـــضـــلـــوعِ في عـــاصف الحبْـ

ـبِ جـــحـــيـــمٌ يـــشفُّ عـــنـهُ الـــزفـــيـــرُ

واشـــتـــعـــالُ الـــهـــوى الـــعـــتيِّ بـــأنـــفـا

سي قـــتـــامٌ في الجـــوِ مـــنه قـــتـــيـــرُ

كـــلَّـــمـــا نـــاحَ طـــائـــرٌ فـــوقَ أيْكٍ

كـــانَ لي من نُـــواحـهِ تـــذكـــيـــرُ

فـــتـــرامتْ خـــوافـــقي أغـــنـــيـــاتٍ

من فـــؤادٍ بـــرجـــعـــهـــا مـــخـــمـــورُ

لِـــحِـــمَى الـــبـــيتِ عـــنـــدَ أكـــرمِ وادٍ

غـــيـــرِ ذي الـــزرعِ وهـــو روضٌ نـــضـــيـــرُ[٣]

---

(١) المرجع نفسه ٢٢٣

(٢) المرجع نفسه ١٤٣

(٣) مكتي قبلتي ٩١

لكن المختلف هو في الحنين إلى مسقط الرأس، ذلك الحنين المشوب بالذكريات الجميلة عن مكة ملاعب الصبا والطفولة، ومسرح الشباب والرجولة، وذكريات الأماسي الرائعة، كما يظهرُ هذا الاختلاف أيضًا في النسبة إليها، ولذلك نجد الإصرار على ذكر الانتساب لمكة موطنًا، أما الأمر الثالث، فهو الشعور بالفخر لكونهم من مكة، وهذه الأمور الثلاثة يفتقدها شعر الشعراء الذين ينتسبون إلى مكة دينًا لا وطنًا.

ولذلك فإنَّ مسار الحنين عند شعراء مكة، هو مسار من اغترب عن موطنه، فإحساس فقد المكان الذي هو البلد ومسقط الرأس، هو ما يختلف فيه هؤلاء الشعراء عن غيرهم، لذلك نراه أدخل في باب الحنين إلى الأوطان، وهذا ما يستشعره أحمد قنديل بقوله:

إنّـــنـــا أهـــلُـــهَـــا وللأهلِ فـــيـــهـــا
مـــيـــزةٌ لا تُـــقـــاسُ حـــدّاً وقـــدرا[1]

وقصائد شعراء مكة فيها لقطة الذكريات المتميزة، فهذا أحمد قنديل يجلو لنا ذكرياته، ويحن لأيام الشباب التي قطعها في مكة تلك التي تعد أجمل ذكرى، وأروع أيام حياة، فالحنين يبدأ من مكة، وبها ينتهي:

الـــشـــبـــابُ الـــذي قـــطـــفـــنـــاهُ زهـــرا
وقـــطـــعـــنـــاهُ في المـــســـيـــرة عُـــمْـــرَا
فـــيكِ يـــا مـــكـــةُ الـــحـــبـــيـــبـــةُ فـــيـــنـــا
لم يـــزلْ لـــلـــنـــفـــوسِ أجـــملَ ذكـــرى
قـــد مـــشـــيـــنـــاهُ بـــين واديكِ يـــومًـــا
فـــاقَ عـــامًـــا لـــدى ســـواكِ وشـــهـــرا
مـــذْ عـــرفـــنـــاكِ في الـــوجـــودِ حـــيـــاةً
وألـــفـــنـــاكِ في حـــيـــاتكِ كُـــبْـــرى
فـــاجـــتـــلـــيـــنـــاهُ في مـــغـــانـــيكِ حُـــبّـــاً
واجْـــتَـــبـــيـــنَـــاهُ في رحـــابكِ طُـــهْـــرَا

---

(١) المرجع نفسه ٢٧

وهو يذكّر مكة بهذا الشباب المترع باللهو، الفيّاض بالأماني:

في مـغـانٍ بـهـا لـديكِ عَـرفْـنَـا
وألِـفـنـا الـترابَ شـبـرًا فَـشِـبْـرَا
كم قـضـيـنـا في حـارةٍ في زقـاقٍ
خـيـرَ أيّـامـنـا بـهـا نَـتَـمَـرّى
خـيـرَ أيـامـنـا الـتي نـتـمـنّى
كـلّـمـا الـعـمـرُ من يـدِ الـعـمـرِ فـرّا
كم مـشـيـنـا بل كم سـهـرنـا وعـشـنـا
فـيكِ يـا مـكـتي الأحـاسـيسَ جَـهْـرَا
بـين مـغـنًى قـد طـابَ لـلـنـفس مـجـلًى
بـين مـعـنىً قـد لـذَّ لـلـفـكـرِ فـكـرا
نـتـرجّى مـا كـان بـالأمسِ حُـلـمًـا
وغـدا الـيـومَ واقـعًـا جلَّ ذكـرا
أنتِ لا بـدَّ تـذكـرينَ شـبـابًـا
بـينَ واديكِ لم يـكـن فـيـهِ غـرّا
عـاشَ فـيهِ رهنَ الأحـاسـيسِ نـشـوى
ورعـاهُ نـهبَ الأمـانيِّ خـضْـرَا
لاعـبًـا بـالحـيـاةِ أنّى تـبـدّى
لاهـيًـا بـالـشـبـابِ أينَ اسـتـقـرّا

وغيمة الذكرى لا تقف عند حد التذكر، بل تسرد لنا أماكن اللهو والجمال واللعب والتنقل، تلك الأماكن التي كان يعبرها مع رفاقه، متنقلاً بين أفيائها، عابرًا وديانها، وصاعدًا جبالها، وكأنه عصفور لا يستقر على غصن واحد، وهو في ذلك يعرفنا بهذه الأغصان التي تنقل خلالها غصنًا غصنا، يقول:

مـثلَ سـربٍ من الـطـيـورِ غـدونـا
أو عَـدَوْنـا صـوبَ المـنـاهلِ نَـهْـرَا

أَفَــنَــنْــسَــاكِ؟ لا، فــهل ملَّ طــيــرُ
من طــيــورِ الــوادي حــوالــيكِ وَكْــرَا

إلى أن يقول:

عــرفــتهُ أجــيـادُ يــخــطــرُ فــيــهــا
ملءَ عــينٍ إلــيهِ تــنــظــرُ شَــزْرَا
واصــطــفــتهُ الــنّــقــا وقــد حلَّ مــنــهــا
بــينَ أجــبــالــهــا الــعــلــيّــةِ صَــدْرَا
واحــتــوتْهُ الــمَــعْلاةُ يــهــجــعُ فــيــهــا
بــالخــريق المــعــانقِ الــسُّــهــدَ فَــجْــرَا
ودعــتْهُ ســويــقــةُ حــيثُ يــبــقى
حــيثُ مَــهْوى الجــمــالِ يــقطــرُ سحْرَا[1]

فأجياد والنقا والشعب والمعلاة وسويقة وغيرها هي هذه الأغصان من شجرة مكة المباركة التي كان يتنقل عليها هذا الشحرور.

ولم يكن أحمد قنديل وحده الذي يطرب لذكر هذه الأماكن، وقص ما كان فيها من ذكريات، بل شاركه العديد منهم في هذه الحكاية، فهذا أحمد الموصلي يقول:

قــد قــضــيتُ الــشــبــابَ غــضّــاً ربــيــعًا
في مــغــانــيكِ حــامــدًا نُــعْــمَــاهــا
وتــضــلَّــعتُ سَــلْــسَــبــيلاً نَــمِــيــرًا
من صَــفــا زمــزمٍ وحــلــو غِــذَاهــا
مــكــةٌ في بــطــاحِــهَــا الــرّحبِ نَــمْــضي
يــطــمــئنُّ الــفــؤادُ من ذِكْــرَاهــا[2]

ويعيد علي زين العابدين على مسامعنا قصة طفولته البريئة، وذلك اللهو الطفولي الذي كان هو وصحبته يشنون الغارات، ويلهون في الحارات، يقول:

(١) مكتي قبلتي ١٩
(٢) المرجع نفسه ١٩٢

فـــوقَ هـــذا الـــرملِ من أحـــيـــائـــهـــا
كـــانَ لَـــهْـــوي واعْـــتِـــزازي وانـــتِـــشَـــائِي
كم سَـــرَحْـــنـــا صُـــحـــبـــةً مـــخـــتـــارةً
تـــنـــشـــدُ الألحـــانَ في سـمـعِ الـفـضـاءِ
كم شَـــنَـــنّـــا غـــارةً وهـــمـــيـــةً
نـــتـــبـــارى في قـــشـــاعٍ واعـــتـــداءِ
إنّهُ الـــلـــهـــو الـــذي تـــعـــشـــقهُ
فـــتـــيـــةُ الحـــاراتِ أبـــطـــالُ الـلـقـاءِ
يـا لـهـا ذكـرى بـنـفـسـي مـا امّـحت
يـــا رعى الـــلـــهُ زمـــانَ الأبـــريـــاءِ
حـــارةَ الـــبـــابِ اذكـــريـــنـــي إنـــنـــي
ذلكَ الـــيـــافعُ مـــوفـــورُ الإبـــاءِ[1]

وإيراد النماذج يزيد في عدّ الأوراق أكثر مما نحتاجه للتدليل.

أما الانتساب إلى مكة، فهو الآخر يكاد ينطق في كل قصيدة من شعرهم المختص بذكرها، فالشاعر يذكر ياء النسبة أو الملكية، فمكة هي مكته، يقول مكتي، قبلتي ، بلدي، أو يذكر الانتماء صريحًا، وسأورد بعض الشواهد التي لا تحتاج لفضل بيان أو تعليق، ولننظر إلى قول علي زين العابدين:

هـــذه الـــبـــلـــدةُ فـــيـــهـــا أقـــربـــائِي
وأبي مـــنـــهـــا وخـــالي وانْـــتِـــمَـــائي[2]

وأحمد عبدالسلام غالي يكرر بلدي:

بـــلـــدي مـــكـــةُ فـــدعـــني أنـــاجِـــيـ
ـــهـــا مـشـوقًـا يـهـزّني الانـتـمـاءُ
بـــلـــدي كم درجتُ في حـــرم الـــلـ
ـهِ سـعـيـدًا ولـلـفـؤادِ ازدهـاءُ

(١) المرجع نفسه ٢٣٨

(٢) مكتي قبلتي ٢٣٧

بـــــلـــــدي مَـــــوطِـــــني ودارةُ قَـــــومِي

كُـــــرمـــــاءُ يـــــقـــــودهم كُـــــرَمـــــاءُ[1]

ومثله محمد حسن عواد يكرر بلدي:

بـــلـــدي يـــا رُؤى الـــطـــفـــولـــةِ يـــا مـــهـ

ـــدَ الـــقـــداســـاتِ يـــا لـــواءَ الـــزّحـــوفِ[2]

أما الفخر الذي يلتقي مع الفخر القديم في هذا الانتساب فنكاد نقرأه في كل بيت من هذه الأبيات الدالة على الشوق والحب والانتماء، ونورد نموذجين للشاعرين أحمد قنديل وأحمد عبدالسلام غالي لعلهما يفيان في التدليل على ما نقول، فهذا قنديل يقول مفتخرًا:

قـــد كَـــفَـــانـــا أنّـــا بـمـــكّـــةَ كُـــنّـــا

نـــحـنُ ابـــنـــاءَهـــا هـــوًى ومَـــقَـــرّا

فـــزهـــانـــا بـمـــكـــةٍ مـــا زهـــاهـــا

أنّـــهـــا مـــلـــتـــقـى الـــعـــوالمِ طُـــرّا

أنَّ فـــيـــنـــا الـــتـــاريخَ عـــشـــنـــاهُ حـــيّـاً

بـــعـــيـــونٍ من الـــمَـــدامعِ شـــكـــرى[3]

وأحمد غالي يقول أيضًا:

هـــا هـــنـــا تُـــشـــحـــذُ الـــعـــزائمُ لـــلـــمـــجـ

ـــــدِ وتـــــرقـى إرادةٌ وإبـــــاءُ

من هـــنـــا المـــكـــرمـــاتُ تُـــنـــشـــرُ في الأر

ضِ فـــتـــســـمـــو الـــشـــمـــائلُ الـــغـــرّاءُ

هـــا هـــنـــا الـــيُـــمْنُ والـحـــضـــارةُ تـــرقى

فـــإذا الـــنـــاسُ كـــلُّـــهم أصْـــفِـــيـــاءُ

---

(١) المرجع نفسه ٢٢٣

(٢) المرجع نفسه ١١٥

(٣) مكتي قبلتي ٢٧

دارةُ الـــعـــزِّ والـــهُـــدى حَـــرَمُ الـــلـ
ـهِ مـــنـــارٌ يَـــشعُّ مـــنـهُ الـــسّـــنـــاءُ[1]

ومقارنة مكة بغيرها من المدن أمر وارد، وقد ورد في ثنايا القصيد كلون من ألوان التميز، والتفرد، فمكة لا تقارن بغيرها، كما يقول محمد حسن فقي:

لكِ فضلٌ على المدائن يا مكة ما يجتويهِ إلاّ المروقُ
أينَ منهُ فضلُ المدائنِ يخلبنَ؟ وأينَ الإغراءُ والتشويقُ
قد تركتِ البريقَ للبلدِ الخاملِ ماذا يجدي عليكِ البريقُ
وتمخّضتِ عن فخارٍ طوى الأرضَ وما أحدبت عليكِ العروقُ
أينَ منهُ الكِلْدانُ يا مكةَ الخيرِ وأينَ الرومانُ والإغريقُ
والبلادُ التي تتيهُ أجاءتْ بالذي جئتِ؟ أم هو التلفيقُ؟[2]

وإذا كانت هذه المقارنة والتفضيل في التاريخ القديم، فلننظر في هذا الرأي الذي يفضلها على سائر بقاع الدنيا.

هذا أحد أبنائها يطوف الدنيا ليعود أخيرًا ويقول لنا هذه القولة:

طــفتُ بـــالـــدنـــيـــا فـــمـــا هَـــدْهَـــدني
غــــيـــرُ داري في ربـــوعِ الأنـــبـــيـــاءِ
مــا فــرنــســا حــيــثُـمَـا عــشتُ بـــهــا
غــــيـــرُ ســــجنٍ مــــرفــــدٍ من كلِّ داءِ
كــلُّ أوربّـــــــــــــــــا ظــلامٌ دامــسٌ
أســـودُ الآفـــاقِ مـــوبـــوءُ الـــفـــنـــاءِ
بــــئسَ أيـــامي الـــتي ضــــيــــعـــتُـــهـــا
في بلادٍ لم يـــطبْ فــــيــــهـــا هـــوائي
هـــا أنـــا قـــد عُـــدتُ يـــاأمَّ الـــقُـــرى
ـحْيي ذِمَائي[3]

(١) المرجع نفسه ٢٢٦
(٢) المرجع نفسه ٧٠
(٣) مكتي قبلتي ٢٤١

وإذا كانت فرنسا وكل أوربا لا تساوي شيئًا في عيني زين العابدين كما يقول، فإنها وإنْ كانت بوادٍ غير ذي زرع، فالشوق إليها زرع دائم الخضرة، وكل خضرة لبنان وجمال جنانها وجبالها، وفتنة غاداتها، لا ينسي حسين عرب رائع مكة، وجمال ربوعها، يقول:

ذكرتُكِ في لبنانَ والسهلُ مُمرعٌ
وفوقَ الذرى أسرابُ طيرٍ مغرِّدِ
ولبنانُ جنّاتٌ حِسانٌ تورّدتْ
بسِرْبِ الصَّبايا في جمالٍ مورّدِ
ففاضت دموعُ العينِ منّي صبابةً
إلى كلِّ مَغْنَى في الحِمى مُتَغَرِّدِ[1]

وهو يعدد أماكنها واحدًا واحدًا، ويطوِّف حسين عرب ببلاد الدنيا، وكأنه بهذا التطواف ما بين لبنان وباريس وفيينا، وبكل بلاد أوروبا جنوبًا وشمالاً، وشرقًا وغربًا، يريد أن يقول لنا: قد تجد الجمال الظاهري في كل هذه البلاد، لكنك لن تجد الجمال الروحي والراحة القلبية إلا في ذرى مكة وأبطحها:

ذكرتُكِ في باريسَ والجوُّ ماطرٌ
وباريسُ تجلو كلَّ همٍّ مُؤيّدِ
بلادٌ كأنَّ الجنَّ فيها تماوَجَتْ
ورانَ عليها السّحرُ في كلِّ مِرْبَدِ
ولكنني لم أدرِ ما الحسن في الذي
رأيتُ ولم أشهدهُ في أيِّ مَشْهَدِ[2]

وتبقى مكة قبلة الدنيا وقمتها:

فيا قمةَ الدنيا ويا ذروةَ المُنَى
أمانًا لقلبِ المُستهامِ المُسَهَّدِ
ويا كعبةَ الآمالِ من كلِّ جانبٍ
ومستقبلَ الأجيالِ من كلِّ موردِ[3]

---

(١) المرجع نفسه ٥٣
(٢) المرجع السابق ٥٤
(٣) المرجع نفسه ٥٧

لأن الحسن الظاهري يكبل العقل والروح كما يقول محمد حسن فقي:

إنَّ حسنًا يُكبِّلُ العقلَ والروحَ لحسنٌ وإن أنالَ حنيقُ

وإذا كانت لبنان وفرنسا وسائر بلاد أوروبا لا تنسي حسين عرب مكة، فإنَّ بلاد النيل، وكل روابيها الجميلة، وكؤوس المنى المقطرة فيها تزيد التياع طاهر زمخشري لمكة، يقول:

أهيمُ بروحي على الرابيهْ
وعندَ المطافِ وفي المَروتَينْ
وأهفو إلى ذِكَرٍ غاليهْ
لدى البيتِ والخَيْفِ والأخْشَبَين
فيهدرُ دمعي بآماقيهْ
ويجري لظاهُ على الوجنتين
ويصرخُ شوقي بأعماقيهْ
فأُرسلُ من مُقْلتي دمعتين
أهيمُ وقلبي بدقّاتهِ
يطيرُ اشتياقًا إلى المسجِدين
وصدري يضجُّ بآهاتهِ
فيسري صداها على الضفتين
على النيلِ يقضي سويعاتهِ
يُناغي النجومَ بسمعٍ وعين
وخضر الروابي لأنّاتهِ
تُردِّدُ من شجوهِ أنَّتين
أهيمُ وفي خاطري التائهِ
رؤى بلدٍ مشرقِ الجانبين

يطوفُ خيالي بأنحائهِ
ليقطعَ فيهِ ولو خطوتين
أُمرِّغُ خدي ببطحائه
وألمسُ منهُ الثّرى باليدين
وأُلقي الرِّحالَ بأفيائهِ
وأطبعُ في أرضه قُبْلَتين
تعيدُ النشيدَ إلى أُذْنِهِ
حنينًا وشوقًا إلى المروتين[1]

والغربة عن مكة فوق طوق الشاعر محمد حسن فقي:

ما نطيقُ الفراقَ عنكِ وهل يَحْـ
ـمل قلبٌ في الحبِّ ما لا يطيقُ

لماذا لا يطيق؟ لأنه:

درجتُ بها طفلاً فكانت طفولتي
تُدندنُ في نُعْمى وتمرحُ في دَدِ
وعشتُ بها غضَّ الشّبيبةِ أرتوي
من العلمِ عن أشياخهِ خير موردِ[2]

ولعلّ هذا الحب الذي درج معه منذ الطفولة، وشرخ الشباب، امتد إلى الكهولة، وعبر الشيخوخة، وسيستمرُّ إلى ما بعدها، بل إنه يتمنى أن يضم ثراها جسده بعد الموت:

(١) مكتي قبلتي ١٠٣ – ١٠٦
(٢) مكتي قبلتي ٧٥

وأرجو أنا الشيخُ المتيَّمُ بالهَوَى

هواها ثوائي تحت أكرمِ فدفدِ

لعلَّ الذي أحيا يجودُ بفضلهِ

على ميِّتٍ عند المعلا بمرقدِ[1]

وتتكرر هذه الأمنية عند حسين عرب، كما ورد في قوله:

تخيرتُ لي أمَّ القُرى موطنًا به

أقمتُ وما فارقتُهُ عن تَعَمّدِ

وإني لأرجو حُسْنَ خاتمتي بها

يكون بها قبري كما كان مولدي[2]

ولا شك في أن من يقرأ أشعار شعراء مكة يحس بتحول الشوق والحنين إلى عشق، وهو عشق تليد طارف، هو عشق الحياة كما هو عند قنديل:

مكتي قبلتي هوايَ تليدًا

وطريفًا بالروحِ حلَّ فَقَرّا

مكتي قِبْلَتي وحبّي حياةً

ذكرياتٍ تلوحُ طوعًا وقَسْرَا

فيكِ يا مكةُ الحبيبةُ فينا

لم يزل للنفوسِ أجملُ ذِكْرى

إنَّ هذا الغرام المشبوب بمكة، يجعله ينشدها أعذب الألحان، ويتغزل بها وكأنها الفتاة المعشوقة:

قد تغنّى بما لديكِ بما فيـ

ـكِ كما فيكِ مغرمًا يتَقَرّى

أو حبيبًا إليكِ ألهمتِهِ الرشـ

ـدَ غرامًا حلوًا يطيبُ ومُرّا

(١) المرجع نفسه ٧٥

(٢) المرجع نفسه ٦٤

وستبقى حبه الأكبر والأول والأخير، إنها العشق الدائم المتجدد الذي لا تفنيه الأيام، ولا تبليه الدهور:

عشقناكِ أطفالاً صغارًا وفتيةً
وزدناكِ أشْيَاخًا عظيمَ التَّوجّدِ
رويناكِ بالدمع السَّخينِ محبةً
تنمُّ على الوجدِ المكينِ المؤكّدِ

والعاشق يعتزٌّ بمعشوقته، ويفخر بها، ويعترف الفقي بأن عشاقها لا يعدّون:

أنتِ عندي معشوقةٌ ليس يخزى العشق منها ولا يضلُّ العشيقُ
لستُ وحدي متيمًا فالملايينُ فريقٌ يمضي فيأتي فريقُ
تتوالى عليكِ منهم صَبَاباتٌ فيصغي لها الفؤادُ الرقيقُ

وأخيرًا، فإنَّ صفة هذا العشق أنَّهُ عشق طاهرٌ نقيٌّ، مبرأ من اللهو، إنه عشق العابد الزاهد كما هو عند محمد حسن فقي:

ولكنّنا نُصْفِيكِ حبّاً مبرأً
من اللهو، حبَّ القانتِ المُتعَبِّدِ
تجرّدَ مِنْ نَفْعٍ تجردَ من هوًى
حقيرٍ، وأسمى الحبِّ حبُّ التجردِ[1]

وإذا كانت مكة تمثل هذا التقدير وتلك المكانة في نفوس أبنائها، فإنَّ لها ذات المكانة في نفوس الشعراء من خارجها، فالنظرة إليها تكاد تكون واحدة، ويبقى الفرق فرق المواطنة، والأميري من الشعراء الذين فاضت أشواقهم، وعمرت جوانحهم بحب المشاعر، يقول عنه الدكتور خالد الحليبي: (ويرتبط الشاعر بالحرمين الشريفين ارتباط الإنسان بمسقط رأسه، يجد في البعد عنهما غربة، وفي القرب منهما حياة وطمأنينة.. فها هو ذا بعد طول اشتياق إلى السكينة والصفاء يقف أمام مقام إبراهيم مصليًا، فيحس بأنه استعاد روحانيته المفقودة بين تراكمات الحياة المادية، يقول:

(١) مكتي قبلتي ٨٢

وقفتُ أُصلّي أمام المقامِ
وفي مقلتيَّ السّنا والسناءْ
وللبيتِ ملءُ جناني جلالٌ
وَنَشْوةُ وجدٍ ووجدُ انْتِشَاء
يلازمني راكعًا ساجدًا
ويكحلُ عينيَّ منه البَهَاء[1]

وهو يرى أن قيمة الكعبة ليست في أحجارها، وإنما في جمع هذه الأمة وتوحيدها:

الكعبةُ الشمّاءُ في مذهبي
قيمتُها ليستْ بأحجارِها
والقربُ من خالقِهَا ليس في
تشبّث المرءِ بأستارِها
قدسيةُ الكعبةِ في جمْعِهَا
أمتنَا من كلِّ أقطارها
وأنها محورُ أمجادِها
وأنها مصدرُ أنوارِها[2]

وينادي حجاج بيت الله الحرام للتوجه إلى فلسطين:

يا حجيجَ البيتِ الحرامِ المفدَّى
وجِّهوا حشدكم إلى القدس سَعْيَا
في فلسطينَ حفنةٌ من يهودٍ
تتحدّى الإسلام حربًا وبغْيَا
أيها الناحرون أكباشَ عيدِ الـ
ـحجِّ وعيًا لخطبهِ الضخمِ وعيَا
لو نحرنا تفريطنا وبدلنا الـ
حجَّ مالاً يُساقُ للقدس هديا

(١) عمر بهاء الدين الأميري حياته وشعره (رسالة دكتوراه) ١/ ٢٣٨ والأبيات في ديوانه إشراق ٦٦-٧٦
(٢) ديوان مع الله ١١٥

فـــإذا مـــا تحـــرّر المـــســـجـــد الأقـ
ــصى فـحـجٌّ حقٌ وعــيـدٌ ولُـــهـيـا[1]

وأمُّ القرى هذه المدينة المختارة تعلو على كل المدن، ولا تكاد مدينة في الدنيا تدانيها، فسر اختيارها هو سر عظمتها، كما يرى أحمد بن محمد الشامي:

بـــــــأبي وبـي أمُّ الـــــــقُـــــرى
بــــيتُ الــــذي خـــــلقَ الـــورَى
أمُّ الـــقُـــرى اخْــــتِـــيــــرتْ عـــلى
عِـــــلْمٍ تـــــقـــــدَّسَ جــــوهَـــــرَا
كم ســـــافـــرتْ فـــيهِ الـــعـــقـــو
لُ، وكم تــــهـــــاوتْ حُـــسَّـــــرا
الـــــــــــلـهُ من بـــــــرأ الأوا
دمَ والـــــشّــــمــــوسَ وصَـــــوَّرَا
ولـهُ مـن الأســـــــمــــــاء أحـ
ـــــسَنُ مـــا يُـــقـــالُ ولا يُـــرَى
فـي ذلكَ الـــــوادي الجــــديـ
ـبِ أمـــازهـــا وتــــخـــيَّـــرا
لا فـي مــــــــرابـعِ أرُّجــــــا
نَ ولا ســـفـــوحِ ســـويـــســـرا
ســــرٌ تـــعـــالى كـــنـــهُهُ
وجلالـهُ أنْ يـــــظـــــهـــــرَا
أو أن يُـــتـــــرجمَ أو يُــــفــــسْ
ــــسَــرَ أو يُــفَــلْــسَفَ لــلــورَى[2]

****

(١) ديوان من وحي فلسطين ١٠٣

(٢) ديوان الشامي ٣ / ١٣٠٩

القســم الثــاني

من أغراض الشعر في مكة وموضوعاته

جمعنا بين الأغراض والموضوعات التي تعاورها الشعراء في مكة، حتى تلتحم الأجزاء، وتظهر لنا صورة مكة في الشعر واضحة تامة، ومن بين هذه الأغراض والموضوعات التي تناولناها: (الفخر، والمدح، والوصف، والغزل، والحنين، والشعر التعليمي، والشعر التاريخي) وقد جلينا في هذه الأغراض والموضوعات ما يرتبط بمكة فقط، دون النظر إليها كأغراض أو موضوعات شعرية تقليدية، فالمدح لا يكون مدحًا إلا إذا ذكرت مكة، أما إذا مدح أمير من أمراء مكة دون ذكرها، فهذا ليس غرضنا، وقد سرنا على هذا المنهج في بقية الأغراض والموضوعات.

أولاً: الفخر القديم

الفخر بالانتماء للمكان لم يكن ظاهرة واضحة في الشعر القديم، إذ استقر الفخر بالأنساب والقبيلة عرفًا تناوله الشعراء في أشعارهم جيلاً بعد جيل، ومما يلفت النظر أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم وجّه كعب بن مالك توجيهًا نبويّاً كريمًا بأن يفخر بدينه، عندما قال:

مـدافـعـنـا عن جِـذْمِـنـا كلُّ فـخـمـةٍ
مُـذَرَّبَـةٍ فـيـهـا الـقَـوانِسُ تَـلْـمَعُ

فقال له: قل عن ديننا.

حتى جاء نهار بن توسعة اليشكري، فقال:

أبـي الإسـلام لا أبَ لـي سـواهُ
إذا افـتـخـروا بـقـيسٍ أو تَـمـيمِ

ولكنّ مدّ الفخر بالنسب يستمرّ في غلوائه، ويشتد، وبخاصة في العصر الأموي، والناظر في النقائض وفي دواوين أعمدتها (جرير والفرزدق والأخطل) يجد ذلك واضحًا جليّاً.

ولكن مكة بين بقاع الأرض لها فرادتها وقداستها وعظمتها في القلوب، ومن هنا جاء الفخر بالانتساب إليها مكانًا مبكرًا، حتى أولئك الذين مزجوا في فخرهم بين النسب والمكان، فإنّ هذا المزج نبع من هذه الخصوصية، ولا يهمنا بعد ذلك سريان هذا اللون المكاني من الفخر عندما أرسي بناء المدن الإسلامية الجديدة، وبدأ التعلق بالمكان والانتماء إليه أمرًا مألوفًا.

وحقّ لمكة أن تفخر على غيرها من الحواضر، وحقّ لأهل مكة وشعرائها أن يفخروا بانتسابهم إليها، إذ إنّ قريشًا نالت مكانتها وعظمتها بين العرب كونها تسكن مكة، ولتوارثها حماية البيت، سميت (أهل الله) ويفسّر الثعالبي ذلك فيقول: (لما تميزوا به عن سائر العرب من المحاسن والمكارم والفضائل والخصائص التي هي أكثر من أن تُحصى.

فمنها مجاورتهم بيت الله تعالى، وإيثارهم سكن حرمه على جميع بلاد الله، وصبرهم على لأواء مكة وشدتها، وخشونة العيش بها.

ومنها ما تفرّدوا به من الإيلاف والوفادة والرفادة والسقاية والرياسة واللواء والندوة.

ومنها كونهم على إرث من دين أبويهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.. ومنها كونهم قبلة العرب، وموضع حجهم الأكبر)[١].

قال بعض السلف: حسبك من قريش أنهم أهل الله، وأقرب الناس بيوتًا من بيت الله، وأقربهم قرابة من رسول الله، ولم يسمّ الله تعالى قبيلة باسمها غير قريش، وصارت فيهم ولهم الخصال الأربع التي هي أشرف خصال الإسلام: النبوة والخلافة، والشورى، والفتوح[٢].

---

(١) ثمار القلوب ١٠– ١٢

(٢) المصدر السابق ١٢

وقال الأعشى يعاتب رجلاً ويخبره أنه مهما بلغ فلن يبلغ مبلغ قريش:

فـمـا أنتَ من أهلِ الحَـجـونِ ولا الـصَّـفَـا
ولا لكَ حقُّ الـشُّـرب من مـاءِ زمـزمِ(١)

وفي تسميتها بآل الله، يقول محمد بن عبدالملك بن صالح الهاشمي:

أنـا ابنُ آل الـلـهِ من هـاشمٍ
حـيثُ نمـا خـيـرٌ وإحـسـانُ
من نـبـعـةٍ مـنـهـا نـبي الـهُـدى
مُـونِـقَـةٍ والـفـرعُ فَـيـنـانُ(٢)

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله في فضل كنانة وقريش «إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى هاشمًا من قريش، واصطفاني من بني هاشم»(٣).

وقال دغفل النسابة: (فاخر بكنانة، وكاثر بتميم، وحارب بقيس)(٤)

قال الشاعر:

وقـد عَـلِمَ الـنـاسُ عـنـد الـفَـخـا
رِ أنّ كـنـانـةَ أنفُ الـعـربْ(٥)

وهذا قصي بن كلاب أول زعيم لمكة من قريش يتسلم حجابة الكعبة، وأمر الرفادة والسقاية والندوة والقيادة، يفاخر بأرومته، ويعتدّ بنسبه، ويشعر بالاعتزاز كونه من مكة وبها تربّى:

أنـا ابنُ الـعـاصـمـين بـنـي لـؤيٍّ
بمـكـةَ مـولـدي وبـهـا ربـيتُ

(١) ديوان الأعشى وثمار القلوب ١٥
(٢) ثمار القلوب ١٥
(٣) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي كتاب الفضائل ٤/١٧٨٢
(٤) العقد الفريد ٣/٣٢٩
(٥) البرصان للجاحظ ٣٠١

ولي البطحاءُ قد عَلِمتْ مَعَدٌّ

ومروتُها رضيتُ بها رضيتُ

وفيها كانت الآباءُ قَبْلي

فما شُويَتْ أخيَّ ولا شُويتُ

فلستُ لغالبٍ إن لم تأثَّلْ

بها أولادُ قَيْدَرَ والنَّبيتُ[1]

كما يفتخر حذافة بن غانم الجمحي بأن كانت مكة دار إقامة له، تلك البيئة القاسية القليلة المياه، ومن هنا فإنه يفتخر كذلك بحفر الآبار، ويجعل ذلك مما يفتخر به، فيقول:

أقمنا بها والناسُ فيها قلائلٌ

وليس بها إلاّ كهولُ بني عمرِو

هُمُ ملأوا البطحاء مجدًا وسؤددًا

وهم طردوا عنها غواةَ بني بكرِ

وهمْ حفروها والمياهُ قليلةٌ

ولم يستقى إلا بنكدٍ من الحفرِ[2]

بل إن الفخر بالانتساب لمكة والنزول فيها يختلف من مكان لآخر، فمن ينزل بالبطاح غير الذي ينزل بالظواهر، قال القرشي:

هلاّ سألت عن الذين تبطّحوا

كرم البطاح وخيرَ سرّة وادِ

وعن الذين أَبَوْا فلم يُسْتَكْرهوا

أن ينزلوا الولجاتِ من أجيادِ

يخبرْك أهلُ العلمِ أنّ بيوتَنا

منها بخيرِ مضارب الأوتادِ[3]

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/١٠٧

(٢) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١٠٨

(٣) الكامل للمبرد ١/ ١٤٧

قال البكري: (الأبطح بمكة معلوم، وهي البطحاء [1] وجاء في اللسان: (بطحاء مكة وأبطحها معروفة لانبطاحها، ومنى من الأبطح، وقريش البطاح الذين ينزلون ما حول مكة، قال:

فلو شَهِدَتْني من قُريشٍ عصابَةٌ
قريشِ البطاحِ، لا قُريشِ الظواهِرِ[2]

وعن الأزهري، قال ابن الأعرابي: (قريش البطاح الذين هم ينزلون الشِّعب بين أخشبي مكة، وقريش الظواهر الذين ينزلون خارج الشعب، وأكرمهما قريش البطاح) ولذلك كان الشعراء يمدحون الرسول عليه الصلاة والسلام، بالأبطحي، يقول عبدالرحيم البرعي:

الأبطحيّ المنتقى من غالبٍ
والطاهرِ الطُّهرِ البشيرِ المنذرِ[3]

وتتنوع مظاهر الفخر، ولا تقف عند حد الانتساب لمكة والسكنى فيها، فالفخر بولاية مكة له وقع في نفوس من ولي أمرها، فهذا الحارث بن مضاض الجرهمي يتغنى بهذه الولاية قائلاً:

ونحن وَلِينا البيتَ من بعد نابتٍ
بعزٍّ فما يَحْظَى لدينا المُكاثرُ
مَلَكْنا فَعَزّزْنا فأعظمْ بمُلْكِنا
فليس لحيٍّ غيرِنَا ثمَّ فاخِرُ[4]

وبالولاية نفسها يفتخر عمرو بن الحارث الغبشاني أحد بني خزاعة، فيقول:

نحن وَليناه فلم نغشَّهُ
وابنُ مُضاضٍ قائمٌ يهشّهُ
يأخذ ما يُهدى له يفشّهُ
نتركُ مالَ اللهِ ما نمشّهُ[5]

---

(١) لسان العرب مادة (بطح)
(٢) لسان العرب مادة (بطح)
(٣) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٢ / ٨٠
(٤) سيرة ابن هشام وأخبار مكة ١/٩٧–٩٨
(٥) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١٠٢

وكانت الأعمال التي تناط بأبناء قصي في خدمة البيت الحرام مثار اعتزاز وافتخار، كقول أبي طالب مفتخرًا بالسقاية:

وكـان لـنـا حـوضُ الـسِّـقـايـةِ فـيـهمُ

ونـحـن الـكُـدَى من غـالبٍ والـكـواهلُ

ويفتخر سوّار بن أوفى القشيري بما أعطاه نهيك القشيري وكان جوادًا لحجاج بيت الله من ماله، فيقول:

ومـنّـا نُـهـيكٌ أنـهب الـنـاسُ مـالَهُ

مـئـين ألـوفًـا لا جـرادٌ يَـرومُـهَـا

فطـارتْ علـى أيـدي الـحـجـيجِ وأحـفظتْ

قـريـشًـا وظـنّتْ أنّ ذاكَ يُـلـيـمُـهَـا[1]

ويقول فهد الجربوع: (ولعلَّ من أبرز المعاني الغريبة التي افتخر بها الشاعر الكناني ما يُعرف بالنسيء، وهو أمر اختصت به كنانة، فكان بنو مالك بن كنانة ينسئون الشهور، فيؤخرون المحرم ويبيحون القتال في الأشهر الحرم، وهذا ما حرّمه الإسلام وجعله توغلاً في الكفر، ولكن شعراء كنانة الجاهليين كانوا يرونه مفخرة لهم و يتباهون به بين قبائل العرب، فمن ذلك قول عمير بن قيس بن جذل الطعان:

لـقـد عـلـمتْ مـعـدٌّ أنَّ قـومي

كـرامُ الـنّـاسِ إنَّ لـهم كِـرامَـا

ألـسْـنَـا الـنـاسِـئـين عـلى مـعـدٍّ

شـهـورَ الحِلِّ نَـجْـعـلُـهَـا حَـرامَـا

وكان افتخارهم بالنسيء منطلقًا من إحساسهم بقيمة قبيلتهم، وبمكانتها الدينية، ويؤكد القلمس الكناني أنّ من كان هذا شأنه، فإنّه موفور الحظّ والنصيب، حيث يقول:

وأنّـا أريـنـاهمْ مـنـاسكَ ديـنـهم

وحُـزنـا لـهم حـظّـاً من الحظِّ أوفَـرَا[2]

(١) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ٣٥٠

(٢) شعر كنانة من الجاهلية إلى آخر العصر الأموي (رسالة ماجستير) وانظر الأوائل لأبي هلال العسكري ١ / ٩٢

و يقول عبدالله بن وداعة مفتخرًا بابن عمه سعد بن سهم الذي يُعدُّ أول من بنى بيتًا بمكة، ويثني عليه أيضًا بتوثيق عهود مكة وأحلافها وإشاعة الود بينهم بحصافة رأيه وعميم فضله، وكرم أصله:

وسـعـدُ الـسّـعـودِ جـامعُ الـشَّـمل إنّهُ
بـــــدا الحِـــــلْفَ والأحْـلافُ أهلُ خـلافِ
فـأوثـقَ عـهـدَ الحـلفِ والـودَّ بـيـنـهمْ
بــأمــرٍ حــصــيفٍ فـيــهمُ ونــصــافِ
وذلك مـــا أرسى ثـــبـــيـــرٌ مـــكـــانَهُ
ومــا بلَّ بــحــرٌ صــوفــةً بــنــطــافِ
وأولُ من بـــوّا بمـــكـــةَ بـــيـــتَهُ
وســوَّرَ فــيــهــا مــســكـنًـا بــأثــافي
وأكـــرمُ مَنْ تحت الـــسَّـــمـــاءِ أبـــوةً
وأمــجــد أمّـــاً عــطَّــفتْ بــعــطــافِ
وذاك ابن عمٍّ شـــادَ غــيـــرَ مُـــكَــلّفٍ
ولــكنْ بــإفــضــالٍ وفــضل عــفــافِ[1]

ويفخر ذو الرمة بجذوره وأصوله، فجرثومة الشجرة التي ينتمي إليها هي مضر أبو العرب العدنانية، وساكن مكة، وهذا الفخر كما ترى فخرًا عامّاً، فهذا الشاعر عدوي يستظل بشجرة تميم التي هي من غرس الجد الأكبر أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر، ويعتد بهذا الفخر، ويمتدّ ليحوز البدايات منذ سيدنا إبراهيم عليه السلام، وبنائه الكعبة، وتنقل في فخره من جرهم إلى معد وعدنان، ثمَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلائف من بعده، ولا يكتفي بالأنساب بل إنّ المكان أيضًا هو الذي قوّى فيه روح هذا الفخر، فمواقف الحجاج في المشاعر ومنى والمزدلفة ومكة بكل ما فيها تبعث هذا الفخر، كما في هذا الشعر الفاخر:

لـنـا الـهـامـةُ الـكـبـرى الـتي كلُّ هـامـةٍ
وإنْ عَــظُــمَتْ مــنـــهـــا أذلُّ وأصـــغـــرُ

---

(١) الأوائل ١ / ٩٤ والنطاف: جمع نطفة وهي الماء

إذا ما تَمَضَّرْنا فما الناسُ غيرُنا
ونُضْعِفُ إضعافًا ولا نَتَمَضَّرُ
إذا مُضَرُ الحمراءُ عبَّ عُبَابُها
فمن يتصدّى مَوْجَها حينَ تَطْحَرُ
أنا ابنُ النَّبيينَ الكرام ومن دعا
أبًا غيرهمْ لا بُدَّ أنْ سوفَ يُقْهَرُ
ألم تعلموا أني سموتُ لمن دَعَا
لَهُ الشيخُ إبراهيمُ والشيخُ يُذكرُ
لياليَ تحتلُّ الأباطحَ جُرْهُمٌ
وإذْ بأبينا كعبةُ اللهِ تُعْمَرُ
نبيُّ الهدى منّا وكلُّ خليفةٍ
فهل مثلُ هذا في البَرِيَّةِ مَفْخَرُ
لنا الناسُ أعطاناهمُ اللهُ عَنوةً
ونحنُ لهُ واللهُ أعلى وأكبرُ
أنا ابن معَدٍّ وابنُ عدنانَ أنتمي
إلى من له في العزِّ وِرْدٌ ومَصْدَرُ
لنا موقفُ الدّاعينَ شُعْثًا عشيةً
وحيثُ الهدايا بالمشاعر تُنْحَرُ
وجمعٌ وبطحاءُ البطاحِ التي بها
لنا مسجدُ الله الحرامُ المُطهَّرُ
وكلُّ كريمٍ من أناسٍ سَوائنا
إذا ما التقينا خلفنا يتأخّرُ
إذا نحنُ سَوَّدْنا امرءًا سادَ قومَهُ
وإنْ لم يكنْ من قبلِ ذلك يُذْكَرُ
هل الناسُ إلاّ نحنُ أم هل لغيرنا
بني خندفٍ إلاّ العواريَّ مِنْبَرُ

أبـــونـــا إيـــاسٌ قَـــدَّنـــا من أديمهِ
لـــوالـــدةٍ تُـــدهي الـــبـــنـــينَ وتُـــذكِـــرُ
ومـــنّـــا بُـــنـــاةُ المجـــد قـــد عُـــلِـــمتْ بهِ
مَـعَـدٌّ ومـنّـا الجـوهـرُ الـمُـتـخـيَّـرُ
أنـــا ابنُ خـــلـــيلِ الـــلهِ وابن الـــذي له الـ
ـمَشاعرُ حتى يَصْدُرَ الناسُ تُشْعَرُ

وينشد الفراء شعرًا يفتخر فيه صاحبه بكرامة قومه على الإنس والجن، وأنهم يشعلون نيران القرى للأضياف في حراء:

أَلَـــسْـــنـــا أكـــرمَ الـــثـــقـــلـــينِ رحلاً
وأعـــظـــمَـــهم بـــبـــطن حِـــراءَ نـــارا[١]

ويفتخر الحريش بن هلال القريعي، وتروى للعباس بن مرداس، بحضوره غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وشهود خيله يوم فتح مكة، فيقول:

شـــهـــدتُ مع الـــنـــبيِّ مُـــســـومـــاتٍ
حُـــنـــيـــنًـــا وهي دامـــيـــةُ الحـــوامِي
ووقـــعـــةَ خـــالـــدٍ شـــهـــدتْ وحـــكَّتْ
ســنــابــكَــهــا عــلــى الــبــلــدِ الحــرامِ[٢]

وهذا الشريف المرتضى يفخر وفخره تليد وموروث وطارف وحديث، وهل هناك فخر أعلى وأرقى في سلم الأمجاد من كون البيت الحرام وما يحويه هو للمفتخر وله فيه الدرجة العليا والصدارة، يقول:

أمَّـا الـطـريفُ من الـفـخـارِ فـعـنـدَنَـا
ولـــنـــا من المجـــد الـــتَّـــلـــيـــدِ ســـنـــامُهُ
ولـنـا من الـبـيت الـمُـحَـرمِ كـلّـمَـا
طــــافتْ بـه فـي مــــــوسمٍ أقـــــدامُهُ

(١) المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٠٨
(٢) شرح ديوان الحماسة ١ / ١٤٠

ولـنـا الحَـطِـيمُ وزمـزمٌ وتـراثـنـا
نِـعْمَ الـتـراثُ عن الخـلـيلِ مـقـامُهُ
ولـنـا المـشـاعـر والمـواقفُ والـذي
تُـهـدى إلـيه من مـنًى أنـعـامُهُ
وبـجـدنـا وبِـصِـنْـوه دُحِـيَتْ عن الـ
ـبـيت الحـرام وزُعْـزِعتْ أصـنـامُهُ[1]

ويفتخر بأن بيوت آبائه وأجداده هي البيوت التي نزل فيها الوحي، ويكرر الفخر بكون المشاعر لهم، فيقول:

وبـيـوتُـهم مـأوى الـرشـادِ وبـيـتُـهمْ
سُـطـرَ الـكـتـاب ونُـزّل الـتـنـزيلُ
وتـراهمُ صُـبْـحًـا وكلَّ عـشـيـةٍ
يـأتـيـهمُ مـيـكـالُ أو جـبـريلُ
فـهمُ عن الأمـر الـدَّني جـوامـدٌ
وهمُ إلى الأمـر الـعـليِّ سـيـولُ
بـيتٌ أقـام دعـامَهُ وقـبـابَهُ
إمّـا إمـامٌ أو أخـوهُ رسـولُ
بـيتٌ يـنـاجي الـلـهَ حلاّلٌ به
وعـلـيـهمُ الأملاكُ فـيه نـزولُ
ومـسـاكنٌ مـا غـاب عن أفـواهـهمْ
فـيـهنَّ تـقـديسٌ ولا تـهـلـيلُ
لـهمُ مـنًى والمـوقـفـان وزمـزمٌ
والـبـيتُ والـتـطـوافُ والـتـجـويلُ
والحِـجْـرُ والحَـجَـرُ الـذي لـصـفـاتِهِ
أبـدَ الـزمـانِ الـضمُّ والـتَّـقْـبـيلُ[2]

(١) ديوان الشريف المرتضى ١ / ١٦١
(٢) المصدر نفسه ٣ / ٣١

وهذا جرير بن عطية الخَطفَى يفتخر بوراثة النبوة، وأنّ منهم من كان يجيز جمع الحجيج، يقول:

لـــنـــا حـــوضُ الـــنـــبـيِّ وســـاقـــيـــاهُ
ومَنْ ورثَ الـــنـــبـــوَّةَ والـــكـــتـــابَـــا
ومـــنّـــا من يـــجـــيـــزُ حـــجـــيـــجَ جـــمعٍ
وإنْ خـــاطـــبـتُ عـــزَّكمُ خـــطـــابـــا[1]

ويعير جرير تغلبًا، ويفاخرهم بالبيت الحرام والمشاعر، فيقول:

إنَّ الـــذي حـــرمَ الـمـكـــارمَ تـــغـــلـــبًـــا
جـــعلَ الـــنـــبـــوَّةَ والخلافـــةَ فـــيـــنـــا
هل تـمـلـكـون من الـمَشـاعـرِ مَشْـعَـرًا
أو تـــشـــهـــدون مع الأذانِ أذيـــنـــا
مـــضـــرٌ أبي وأبـــو المـلـــوكِ فـــهل لـــكم
يـــا خُـــزْرَ تـــغـــلبَ من أبٍ كـــأبـــيـــنـــا[2]

والفرزدق كذلك يفتخر بوراثة بيت خليل الله، يقول:

ورِثْـــنـــا عن خـــلـــيلِ الـــله بـــيـــتًـــا
يُـــطـــيَّبُ لـــلـــصلاةِ ولـــلـــطـــهـــورِ
هـــو الـــبـــيـــتُ الـــذي من كلِّ وجهٍ
إلـــيهِ وجـــوهُ أصـــحـــابِ الـــقـــبـــورِ
خـــيـــارَ الـــلـــهِ للإسلامِ إنّـــا
إلـــيكَ نـــشـــدُّ أنـــســـاعَ الـــصُّـــدورِ[3]

ويمتد فخر الفرزدق ليفتخر بملكية البيتين بيت الله الحرام في مكة وحمايته، وبيت المقدس في إيلياء، يقول:

---

(١) ديوان جرير ٧٩

(٢) المصدر نفسه. الأذين: الأذان. الخزر: شعب من الترك يسكن حول بحر قزوين.

(٣) ديوان الفرزدق ١ / ٣٥٠

لـنـا الـعـزةُ الـغـلـبـاءُ والـعـددُ الـذي

عــلــيـهِ إذا عُــدَّ الحَــصَى يَــتَــخَــلَّفُ

وبــيــتــان: بــيتُ الـلـهِ نــحنُ حــمــاتُهُ

وبــيـتٌ بــأعــلى إيــلــيــاءَ مُــشــرَّفُ

لــنــا حــيثُ آفــاقُ الــبــريَّــةِ يـلــتــقي

عـمـيدُ الحـصى والـقسوريُّ الـمُـخَـنْدفُ

إذا هــبطَ الــنّــاسُ الــمُــعَــرَّفَ من مــنًى

عـشـيــةَ يــومِ الــنَّــحــرِ من حــيثُ عـرَّفـوا

تـرى الـنـاسَ مـا سِرْنـا يـسيـرون خَـلْـفَنا

وإنْ نـحنُ أومَـأْنـا إلـى الـنّـاسِ وقّـفُوا[1]

ويتكرر فخره، فيقول:

ورثــنــا كــتــابَ الــلـهِ والــكـعـبـةَ الــتي

بمـكـةَ مـحـجـوبًـا عـلـيـهـا سُـتُـورهـا[2]

ويتكرر الفخر بالطريقة نفسها عند ذي الرمة الذي يرى ملكية المواقف المقدسة والمشاعر الكريمة، فيقول مفتخرًا:

أنــا ابنُ الــنـبـيــينَ الــكـرام ومن دعــا

أبًــا غــيــرهم لا بــدَّ أن ســوف يُــقْــهَــرُ

ألـمْ تــعــلــمــوا أنّي ســمــوتُ لمن دعــا

له الــشــيخُ إبــراهــيمُ والــشــيخُ يُــذكــرُ

لــيــالـيَ تحــتــلُّ الأبــاطحَ جُــرْهمٌ

وإذْ بــأبــيــنــا كــعــبــةُ الــلـهِ تُــعْــمَــرُ

نــبيُّ الــهُــدى مــنــا وكلُّ خــلــيــفــةٍ

فــهل مــثلُ هــذا في الــبَــرِيَّــةِ مَــفْــخَــرُ

(١) ديوان الفرزدق ٣٨٣ – ٣٩٤ وفي شرح الديوان للصاوي ٢ / ٥٥١ – ٥٦٩

(٢) ديوان الفرزدق ١٩٧ وشرح الديوان للصاوي ١ / ٢٧٤

لـنــا الــنــاسُ أعــطــانــاهُمُ الــلهُ عــنــوةً

ونـــحــنُ لـهُ والـــلـهُ أعـــلـى وأكـــبــرُ

لـنــا مــوقفُ الــداعــينَ شُـعْــثًــا عــشــيــةً

وحــيــثُ الــهــدايــا بــالمــشــاعــرِ تُــنْــحَــرُ

وجــمعُ وبــطــحــاءُ الــبــطــاحِ الــتي بــهــا

لـنــا مــسـجــدُ الــلـهِ الحــرامُ الــمُــطــهَّــرُ[١]

ويفتخر عبدالله بن قيس الرقيات بحجابة البيت في قصيدة همزية جميلة، يفاخر فيها بني أمية، ويهددهم، فيقول:

لـــيسَ لـــلـهِ حـــرمـــةٌ مـــثلَ بـــيتٍ

نـــحنُ حُـــجّـــابُهُ عـــلـــيـهِ المـلاءُ

خــصَّهُ الــلـهُ بــالــكــرامــة فــالــبــا

دونَ والـــعـــاكـــفــونَ فــيـهِ ســواءُ[٢]

وقال النعمان بن بشير مفاخرًا بفتح مكة ومهددًا معاوية بن أبي سفيان:

ضَــرَبْــنــاكُمُ حــتى تــفــرَّقَ جَــمْــعُــكُمْ

وطـــارت أكفٌّ مـــنـــكمُ وجـــمـــاجمُ

وعــاذت عــلـى الــبــيتِ الحــرامِ عــوانسٌ

وأنتَ عــلـى خــوفٍ عــلــيكَ تــمــائمُ[٣]

وفي الموضوع نفسه يأتي رجل من اليمن بعد قرون، فيفخر الفخر نفسه، يقول محمد ابن أحمد الأوساني اليمني مفتخرًا بأن أجداده هم الذين فتحوا مكة:

ونــحنُ جَــدَعْــنــا أنفَ قَــيسٍ ولم نــدعْ

بمــكــةَ من يَــنْــثُــوا ومن يَــتــكَــلَّمُ[٤]

(١) ديوانه ١ /١٦٢

(٢) ديوانه ٨٧ . الملاء: القائمون

(٣) شعرالنعمان بن بشير ١٥٥

(٤) المحمدون من الشعراء ٨٢

ويظهر الفخر المعكوس، فهذا عمر بن أبي ربيعة يعكس طرفي الفخر، فبدل أن يفتخر بانتسابه لمكة، فإنّ مكة وبقاعها تفخر بهم، فيقول:

فــهلاّ تَــسْــألي أقْــنَــاء سَــعْــدٍ
وقــد تَــبْــدو الــتّــجــاربُ لــلّــبــيبِ
سَـبَـقْـنَـا بـالمـكـارمِ واسْـتَـبَـحْـنَـا
قُــرًى مــا بــينَ مــأربَ فــالــدّروبِ
ونــحن فــوارسُ الــهَــيْــجــا إذا مــا
رئــيسُ الــقــوم أجــمعَ لــلــهــروبِ
نــقــيمُ عــلى الحِــفَــاظ فــلن تــرانــا
نَــشُلُّ نــخــافُ عــاقــبــةَ الخُــطُــوبِ
ويمــنعُ سِــرْبَــنَــا في الحــربِ شُمٌّ
مــصــالــيتٌ مَــسَــاعــرُ لــلــحــروبِ
ويــأمنُ جــارُنَــا فــيــنــا وتــلْــقَى
فــواضــلــنــا بمــحــتــفظٍ خَــصِــيبِ
ولــوسُــئــلتْ بــنــا الــبــطــحــاءُ قــالتْ
هُمُ أهلُ الــفــواضلِ والــسّــيــوبِ
ويُــشــرقُ بــطن مــكــةَ حــينَ نُــضــحي
بــه ومــنــاخُ واجــبــةِ الجُــنــوبِ(1)

وتفتخر مكة بشيخ العلماء الشيخ محمد صالح كمال، كما ورد في مدح عبدالمحسن الصحاف له، حيث يقول:

كــمــالُ عــلــمكَ قــد زانتْ بــه الــرتبُ
ومــكــةُ عَــمّــهــا من فَــخْــرِهَــا الــطَّــربُ(2)

---

(1) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ٣٧٩-٣٨٠

(2) نشر الرياحين ٢/ ٦١٧

الفخر الحديث:

وكما افتخر القدماء بالانتماء لمكة، فإنَّ المحدثين هم كذلك يفخرون بمكة القداسة والعظمة والشرف والتاريخ، ويعتزون بمشاعرها، ويزدهون بمكانتها، يقول أحمد قنديل:

أنت أبــصــرتــنــا بــواديك نــحــيــا
كِ حــيــاةً مــلــيــئــةً بكِ فَــخْــرَا

ويفخر محمد حسن فقي بأنّها مسقط رأسه، وأنَّه فتح عينيه فوق الثرى الذي درج عليه سيد الخلق، وصحابته الأماجد:

لـقـد عـشتُ فـيـهـا مـنـذ سـتـينَ حـجـةً
فــأطــربــنـي أنّي بمــكّــةَ مــولــدي
لــقــد ولــد المخــتــارُ فـيــهــا فــأشــرقتْ
ديـاجـيـرُهـا بـالـنّورِ من خـيـرِ مـحـتـدِ
وقــد وُلِــدَ الأمــجــادُ من كلِّ مــلــهمٍ
بــشقٍّ يــراعٍ أو بــحــدٍّ مُــهَــنَّــدِ[1]

وبماذا تفخر مكة؟ إنّها تفخر بميلاد سيد ولد آدم وصفوة الخلق، وبها نزل القرآن الكريم، وفيها الكعبة المشرفة، وهي قبلة المسلمين، وفيها المقام والحطيم وزمزم، وكل المشاعر التي تهوي إليها أفئدة المسلمين، أفلا يحق لأم القرى أن تفخر بكل هذه المزايا، يقول الشاعر أحمد قنديل على لسانها:

أمــهــاتُ الــقُــرى لــديــكُمْ وإنّي
أنــا أمُّ الـقُـرى عـلـى الـدهـرِ كُـبْـرَى[2]

ولهذه المزايا حُقَّ لها أن تفخر على سائر بقاع الدنيا، كما يرى محمد حسن فقي:

قــد تــركتِ الــبــريقَ لــلــبــلــد الخَــا
ليكِ البريقُ[3]

---

(١) مكتي قبلتي ٧٣
(٢) المرجع نفسه ٣٨
(٣) المرجع نفسه ٧٠

ولماذا نفتخر بها؟ لأنها كما يقول زين العابدين:

هي أغلى البلادِ عندي وأسْمَى
أمةٍ في صعيدهِ نتباهَى
هي مني الحياةُ والرّوحُ والحِسْـ
ـسُ ونَجْوَى الفؤادِ ما أغلاها[1]

ويفخر محمد هاشم رشيد ومنبع هذا الفخر أن أرض الحجاز تضم كل شيء، يقول:

وقفتُ عليكِ وفي أضْلعي
أُحسُّ بأنّي أضمُّ الجزيرهْ
وأسمعُ صوتكِ في مسمعي
يُدمدِمُ بالذكرياتِ النَّضيرهْ
فذكرى أراها بأرضِ الحجازِ
ترفرفُ فوقَ السهولِ الفِسَاحْ
فأشعرُ بالفخرِ والإعتزازِ
وألثمُ كلَّ الرُّبى والبِطَاحْ[2]

ثانياً: المديح

لا يعنينا هنا المديح على إطلاقه، ولا يظن القارئ أننا نريد المدح المتعلق بالأشخاص الذين حكموا مكة أو تولوا أمرها، فنكرر ما قاله من عرضوا للشعر في بيئة مكة في عصورها المختلفة، لأن خطتنا كما أوردنا ذلك في مقدمتنا للكتاب أننا لا نريد تطويل البحث بما لا يرتبط به ارتباطًا وثيقًا، وإنما نقصد هنا المدح المتعلق بمكة، فإذا ذكرت مكة في مدح الشخص سواء أكان من مكة أو من خارجها، فهذا ما يعنينا هنا، إذًا هو ذلك المديح المرتبط بمكة حديثًا عن صفاتها، أو ذكرًا لأماكنها وما حدث فيها، ولعلنا نبدأ بالمديح النبوي.

---

(١) المرجع نفسه ٢٤٧

(٢) الشعر الحديث في الحجاز ٦

والبداية به تشريف، وسنقتصر في مديحه صلى الله عليه وسلم على ما ارتبط بمكة ارتباطًا وثيقًا، كالحديث عن حال مكة عند ولادته، أو في مبعثه، أو عند فتحها.

والمديح النبوي بدأ مع بداية تأسيس الدولة، فكان شعراء الدعوة: حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك، هم نواة هذا المديح، ثم بدأ يتسع ليشمل الشعراء المنضوين تحت لواء الإسلام، أو الذين تابوا وأنابوا، مثل كعب بن زهير، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وعبدالله بن الزبعرى، ولسنا بصدد ذكر كل الشعراء الذين مدحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن غايتنا مقصورة على الحديث عن مكة حتى لا نخرج عن شرط البحث وخطته وتكييفه، ومن هنا فالمدح النبوي المتعلق بمكة هو مطلبنا.

وما أطلق عليه من غرض المديح النبوي بعد وفاة النبي عليه السلام اشتدَّ اشتدادًا عارمًا في قرون الضعف، وفي الفترات التي كانت فيها الدولة أو الدول الإسلامية تواجه أعتى الحملات، كما في عصر الحروب الصليبية، والحروب المغولية والتترية، ولذلك نرى أن هدير هذا المدح بدأ يشتد في القرن الخامس واستمرَّ مريره حتى القرنين الثامن والتاسع، ولا يعني هذا أن القرون القبلية والبعدية خلت من مدحه عليه الصلاة والسلام، لا لم يخل عصر بل فترة من مدحه، فمدحه غاية وشرف، ولكن أقول: إن المدائح النبوية كانت في تلك الفترة في أظهر حالاتها، وفي هذا الصدد يقول الدكتور شوقي ضيف: (وانبثقت من الشعر الصوفي منذ ابن دريد في أوائل القرن الرابع الهجري مدائح نبوية عطرة بالسيرة الزكية، وما نصل إلى القرنين السادس والسابع حتى يتكاثر هذا المديح، ويزدهر، ونظن ظنّاً أنه كان للحروب الصليبية أثر في ذلك) وقراءة قصائد المديح النبوي تطلعنا على ثلاث حلقات أو مفاصل تربط ما بين شخصية الرسول الأعظم عليه السلام ومكة المكرمة، وهي:

الميلاد والبعثة والهجرة هذه الوحدات الثلاث التي تعاورها الشعراء في مدحه عليه السلام هي قصدنا، ويمر الشعر المدحي من خلال البعثة على بعض الحوادث التي حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة، كنقض الصحيفة، وحادثة الإسراء والمعراج،

وبعض معجزاته عليه السلام، ولقد تتبعتُ المجموعة النبهانية في المدائح النبوية فوجدت اتفاق الكثير من القصائد المدحية على عرض هذه الإضاءات ، ولذلك فإنني سأقتصر على إيراد بعض النماذج اختيارًا لا تفضيلاً.

فميلاد المصطفى عليه السلام وارتباطه بمكة التي حازت الفخار بمولده، وضجت سرورًا وفرحًا، هذه الأرض التي بها نشأ، وعليها درج تعلن فرحها ومسرتها بميلاده العظيم ، فالشاعر الإمام يحيى الصرصري من شعراء القرن السابع الذي يُعدُّ من أكثر الشعراء مدحًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يمزج ما بين الولادة وعام الفيل يقول معلنًا أنّ ميلاده كان من أسرار رد حملة أبرهة، وبه أشرقت عرصات الأرض:

ثمَّ استقلَّتْ به الزهراءُ آمنةُ الـ
حصانُ لمْ يلْقها في الحملِ تثقيلُ
حتى بدا عامُ سارتْ نحوَ مكةَ أو
شابُ الأحابيشِ يحدو جيشَها الفيلُ
فكانَ من سرِّهِ المكنونِ أنْ دَفَعَتْ
عنها أعاديها الطيرُ الأبابيلُ
فأشرقتْ عَرَصاتُ الأرضِ حينَ بدا
نورٌ لهُ في الطباقِ السّبعِ تجويلُ(١)

والشيخ عبدالعزيز الزمزمي من شعراء القرن العاشر يرى ازدهاء الليل والنهار لمولد النبي عليه الصلاة والسلام، وتبتهج مكة سرورًا بمقدمه :

يوم ميلادهِ وليلة مَسْرا
هُ ازدهى الليلُ والنهارُ ازدهاءَ
وسما القدرُ منهما بفخارٍ
طبَّقَ الأرضَ سؤددًا والسّماءَ
وامتلتْ مكةُ سرورًا ولِمْ لا؟
يملأُ البِشْرُ قُطرها سرّاءَ

---
(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٣ / ٢٣

هـي أرضٌ فـــيـــهـــا ولادةُ طه
وهـــو مـــنـــهـــا قـــد ابـــتـــدا الإســـراءَ
كـــان تـــردادُهُ ومـــربـــاهُ فـــيـــهـــا
فـــجلا نـــورُ شـــمـــسهِ الـــبـــطـــحـــاءَ
وعلا الأنسُ والـــبـــهـــاءُ جـــبـــالاً
راســيــاتٍ بــهــا خــصــوصًــا حــراءَ[1]

وذكر الإسراء وانتقال الرسول الكريم من مكة إلى القدس يعرض له الشعراء ويراه البرعي فوق كل فخر، وأكرم من كل كرامة كما في قوله:

تـــنـــاهـى فـــخـــرُ كلِّ أخي فـــخـــارٍ
ولن تـــلـــقـى لمـــفـــخـــرهِ انـــتـــهـــاءَ
كَـــفَـــتْهُ كـــرامَـــةُ المـــعْـــراجِ فَـــضْلاً
بـــهـــا في الـــقُـــربِ ســـادَ الأنـــبـــيـــاءَ
ســـرى من مـــكـــةٍ بـــبـــراقِ عـــزٍّ
لأقــصـى مــســجــدٍ وعلا الــســمــاءَ[2]

وكما ذكر البرعي في النموذج السابق عن الإسراء من البيت الحرام، يشير إليه الحافظ بن حجر في مدحته فيقول:

ســـرى لـــلـــمـــســـجـــدِ الأقـــصى بـــلـــيلٍ
من الـــبـــيـــتِ الحـــرامِ إلى الـــســـمـــاءِ
رفـــيـــقُ الـــروحِ بـــالجـــسم ارتـــقى في
طـــبـــاقٍ حُفَّ فـــيـــهـــا بـــالـــهـــنـــاءِ
عَلا ودَنـــا وجـــازَ إلى مَـــقَـــامٍ
كـــريمٍ خُصَّ فـــيـــهِ بـــالاصْـــطِـــفَـــاءِ[3]

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ١ / ١٦٠
(٢) المصدر نفسه ١ / ١١١
(٣) المصدر نفسه ١ / ١٤٨

وعرض الشاعر يوسف النبهاني جامع المدائح النبوية في قصيدته الهمزية (طيبة الغراء في مدح سيد الأنبياء) لحادثة الإسراء والمعراج، وينهيها بتكذيب كفار مكة لهذه الرحلة السماوية، فيقول:

ثمَّ عادَ الضيفُ الكريمُ إلى الأهـ
ـلِ وتمَّتْ مِنْ ربِّهِ النّعماءُ
عادَ قبلَ الصباحِ فارتابَ في مكْـ
ـكَةَ قومٌ من قومهِ بُلَداءُ
أعظموا الأمرَ وهْو فعلٌ عظيمٌ
لمْ تُشابهْ صِفاتِهِ العظماءُ[1]

أمّا حصار الشعب ونقض الصحيفة، فهو من جملة ما تحدث عنه الشعراء في مدائحهم، من ذلك قول شرف الدين البوصيري:

خمسةٌ طُهِّرتْ بقطعهمُ الأر
ضُ فكفُّ الأذى بهم شلاّءُ
فُديتْ خمسةُ الصحيفة بالخمـ
ـسةِ إنْ كانَ بالكرامِ فداءُ
فتيةٌ بيَّتوا على فعلِ خيرٍ
حَمِدَ الصبحُ أمرَهم والمساءُ
يا لأمرٍ أتاهُ بعدَ هشامٍ
زَمْعَةٌ إنّهُ الفتى الأتّاءُ
وزهيرٌ والمُطْعِمُ بنُ عديٍّ
وأبو البَخْتريِّ من حيثُ شاؤوا
نَقَضُوا مبرمَ الصحيفةِ إذْ شدْ
دَتْ عليهم منَ العدا الأنداءُ
أَذْكَرتنا بأكلها أكلَ منْسا
ةِ سليمانَ الأرْضَةُ الخَرْسَاءُ

(١) المصدر نفسه ١ / ٢٠٢

وبـــهـــا أخـــبـــرَ الـــنـــبيُّ وكم أخْـ
ـــرَجَ خَــبْــأً لهُ الــغــيــوبُ خِــبــاءُ[1]

ويذكرون بعض معجزاته عليه السلام في مكة، مثل انشقاق القمر، يقول الصرصري:

ولـهُ بـــالأبـــاطحِ الـــقــمـــرُ انـــشــقْ
ـقَ بـنـصـفـينِ لـيسَ فـيهِ خَـفَـاءُ[2]

ويوصف الرسول عليه السلام بالأبطحي، كما في قول البرعي:

نـــــبـيٌّ هـــــاشـــــميٌّ أبْـــــطَـــــحِيٌّ
شـمـائـلهُ الـسّـمـاحـةُ والـوفـاءُ[3]

وتتكرر هذه الصفة عند جمال الدين بن نباتة، فيقول:

ومـــا انـــتـــقـــبت مـــنـــاقبُ أبـــطـــحيٍّ
وعـنـهـا الأرضُ تـفـصحُ والـسّـمـاءُ[4]

ويذكر المادحون هجرة المصطفى عليه السلام، وما حدث فيها من نوم علي في فراشه، وخروجه من بينهم، ووضع التراب على رؤوسهم، وتوجهه عليه السلام للغار بصحبة أبي بكر الصديق، ولعل التشابه يفرض علينا عرض نموذج لما أورده شرف الدين البوصيري في همزيته، حيث يقول:

لـــــله يـــــومُ خـــــروجهِ من مـــــكَّـــــةٍ
كـخـروجِ مـوسى خـائـفًـا يـتـرقّبُ
والجنُّ تُـــنـــشـــدُ وحـــشـــةً لـــفـــراقهِ
شـعـرًا تـفـيضُ بـهِ الـدمـوعُ وتـسـكبُ
والـــغـــارُ قـــد شَـــنَّتْ عـــلـــيهِ غـــارةً
أعـداؤهُ حـرصًـا عـلـيهِ وأجـلَـبُـوا[5]

(١) المصدر نفسه ١ / ٨٢– ٨٣
(٢) المصدر نفسه ١ / ١٠٩
(٣) المصدر نفسه ١ / ١١٤
(٤) المصدر نفسه ١ / ١١٧
(٥) المصدر نفسه ١ / ٣٠٣

وأخيرًا يعبر المديح النبوي فتح مكة، هذا الفتح الأعظم الذي يذكره يوسف النبهاني في مدحيته المطولة، فيقول:

مـا شـفى الـنـفسَ بـعـدَ هـذا وهـذا
غـيـرُ فـتـحٍ بهِ اسـتـمـرَّ الـشّـفـاءُ
فـتـحُ أمِّ الـقُـرى وسـيـدةِ الـكُـلْـ
ـلِ سـوى طـيـبـةٍ فـكلٌّ إمـاءُ
أيُّ فـتـحٍ لـلـمـصـطـفى كـان فـيهِ
فـوقَ عـرشِ الـبـيتِ الحـرامِ اسـتـواءُ
أيُّ فـتـحٍ لـلـمـصـطـفى كـانَ عُـرسًـا
ولأمِّ الـقُـرى عـلـيـهِ جلاءُ
أشـرقتْ شـمـسُهُ بـبـرجِ كَـداءٍ
فـاسـتـنـارتْ عـلـى الـبـطـاحِ كَـداءُ
حَـسَـدتْـهـا كُـدىً فـلـمّـا اسـتـشـاطتْ
هـاجَ فـيـهـا الـغـواةُ والـغَـوغَـاءُ[1]

وفي مقصورة الإمام عبدالرحمن المكودي من شعراء القرن الثامن والمتوفى في بداية القرن التاسع وصف حرفي ودقيق لفتح مكة، فقد جاءها بالكتائب الجرارة، فملأ بطاحها خيلاً ورجالاً، بعشرة آلاف فارس من مختلف القبائل، وأقبل الرسول عليه الصلاة والسلام في كتيبته الخضراء، تصحبها الركائب، ويظل مستمرّاً في وصفه ودخول مكة، وتحطيم الأصنام، والعفو عن الطلقاء[2].

■ المديح العام

كما نجد في مديح ابن الزِبعْرى لقريش وعبدمناف، حيث يقول:

كـانت قـريشٌ بـيـضـةً فـتـفـلّـقتْ
فـالمحُّ خَـالِـصُـهـا لـعـبـدِ مـنـافِ

---

(١) المصدر نفسه ١ / ٢١٦

(٢) انظر المصدر السابق ١ / ٢٨١ – ٢٨٢

الـــرَّايـــشـــينَ ولـــيس يُـــوجَـــدُ رايشٌ
والـــقـــائـــلـــينَ هَـــلُمَّ لـلأضْـــيـــافِ
والخـــالـــطـــينَ غـــنـــيَّـــهم بـــفـــقـــيـــرهم
حـــتى يـــعـــود فـــقـــيـــرُهُمْ كـــالـــكـــافِي
والـــضَّـــاربـــينَ الـــكـــبشَ تَـــبْـــرقُ بـــيـــضُـهُ
والمـــانـــعـــينَ الـــبـــيـــضَ بـــالأسْـــيـــافِ
عـــمـــرُو الـــعُلا هَـــشَمَ الـــثـــريـــدَ لمـــعـــشـــرٍ
كـــانـــوا بمـــكـــةَ مـــســـنـــتـــين عـــجـــافِ[1]

ويمدح الحطيئة ابن شماس مقسمًا بكل السارين إلى بيت الله قائلاً:

إلـــيـــكمُ يـــا ابنَ شَـــمَّـــاسٍ شَـــجَـــجْـــتُ بـــهـــا
عُـــرْضَ الـــفَلاةِ إذا لاحَتْ فـــيـــافِـــيـــهـــا
حـــتَّـــى أنَـــخْـــتُ قَـــلـــوصي في ديـــاركمُ
بـــخـــيـــرِ من يَـــحْـــتـــذي نـــعلاً وحـــافـــيـــهـــا
إنّـي لـــعَـــمْـــرُ الـــذي يَـــسْـــري لـــكـــعـــبـــتِهِ
عُـــظْمُ الحَـــجـــيـــجِ لمـــيـــقـــاتٍ يُـــوافـــيـــهـــا
لـــقـــد تـــداركَـــني مـــنـــه ولاحَـــمَـــني
سَـــيْبٌ كـــســـا أعْـــظُـــمًـــا قـــد لاحَ عـــاريـــهـــا
فـــلـــيـــجـــزِهِ الـــلـــهُ خـــيـــرًا من أخي ثـــقـــةٍ
ولْـــيَـــهْـــدِهِ بـــهُـــدَى الخـــيـــراتِ هـــاديـــهـــا[2]

ويبدأ العصر الإسلامي بمدح أكرم الناس وصفوتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعل العرض لمدح سيد الخلق على عمومه يخرج بنا عمّا التزمناه من ارتباط الموضوعات بمكة، ولذلك لنا من مدحه عليه الصلاة والسلام ما تذكر فيه مكة، من ذلك قول كعب في قصيدته المشهورة (البردة):

(١) أخبار مكة ١/ ١١٢ وإتحاف الورى ١/ ٣٧

(٢) ديوان الحطيئة ٢٨١

في فـتْـيَـةٍ من قـريشٍ قـال قـائلـهُمْ
بـبـطن مـكـةَ لـمّـا أسْـلَـمُـوا زُولـوا
زالـوا فـمـا زال أنـكـاسٌ ولا كُـشُفٌ
عـنـدَ الـلـقـاءِ ولا مـيلٌ مَـعَـازيلُ[1]

ويقول أبو الأسود الدؤلي في مدح علي بن أبي طالب، وأنه ثالث العابدين بها، يوم لم يكن بها عابد لله:

أمـا أنّـهُ ثـالثُ الـعَـابـديـ
ـن بمـكـة والـلـهُ لا يُـعـبـدُ[2]

ويمدح عبيدالله بن قيس الرقيات عبدَ الله بن الزبير بأنه ابن مكة، فيقول:

أنتَ ابنُ مـعْـتَـلِجِ الـبـطـا
ح كُـدَيِّـهـا فَـكَـدائِـهَـا
فـالـبـيتِ ذي الأركـانِ فـالـ
ـمُـسْـتنِّ من بَـطْـحـائِـهـا[3]

ويمدح الأحوص الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز بإرثه في مكة، فيقول:

ولـه إذا نُـسِـبَتْ قـريشٌ مـنـهمُ
مَـجْـدُ الأرومَـةِ والـفَـعـالُ الأفـضلُ
ولـهُ بمـكّـةَ إذ أمَـيَّـةُ أهـلُـهَـا
إرثٌ إذا عُـدَّ الـقـديمُ مُـؤثَّلُ[4]

وسقاية الحاج هي ما يُتمدَّح بها المرء، فمروان بن أبي حفصة يمدح الفضل بن يحيى الذي ولي خراسان سنة ١٧٨هـ فأحسن السيرة، واتخذ جندًا من العجم سمّاهم العباسية، وجعل ولاءهم لهم، وإنَّ عُدَّتهم بلغت خمسمائة ألف رجل، فيمدحه بحسن ولائه لبني ساقي الحجيج الذين ورثوا ذلك وراثة، فيقول:

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ١٩ – ٢٣

(٢) ديوانه ١٥٢

(٣) ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات ١١٧س

(٤) شعر الأحوص الأنصاري ١٦٩

مـــا الـــفـــضـلُ إلاّ شـــهـــابٌ لا أُفُـــولَ لهُ

عـنـــد الحـــروبِ إذا مـــا تَـــأْفُلُ الـــشُّـــهُبُ

حـــامٍ عـــلـى مُـــلْك قـــومٍ عـــزَّ ســـهـــمُـــهُمُ

من الـــوراثـــةِ في أيـــديـــهمُ ســـببُ

أمـستْ يـدٌ لـبـني ساقي الحَجـيجِ بـها

كــتــائبُ مـــا لـــهـــا في غَـــيـــرِهمْ أربُ

كـتـائبٌ لـبـني الـعـبـاسِ قـد عَـرفتْ

ما ألّف الـفضلُ منـها الـعُجْمُ والـعَرَبُ[1]

وفي هذا المعنى يمدح معن بن أوس المزني حمزة بن عبدالله بن الزبير الذي له بطحاء مكة والسقاية، فيقول:

فـــإنّك فـــرعٌ من قـــريشٍ وإنّـــمـــا

تـمـدُّ الـنّـدى مـنـهـا الـفـروعُ الـشـوارعُ

غَـنُـوا قـادةً لـلـنـاس بـطـحـاءُ مـكـةٍ

لـهم وسِـقـايـاتُ الحَـجـيجِ الـدَّوافعُ[2]

ويمدح أبو دهبل الجمحي عبدالله الأزرق أحد ولاة عبدالله بن الزبير، لأنه أزهر من سكن البطحاء، يقول:

لا يـــبـــعـــد الـــلـهُ عـــبـــدَالـــلـه لـــيس له

عـــنـــدي مـــزايـــلـــةٌ مـــا هـــبّت الـــريحُ

أُزَهْـــرٌ من ســـاكنِ الـــبـــطـــحـــاء ألحَـــقَهُ

بـالمجـد والـسـؤددِ الـبـيضُ المسـامـيحُ[3]

ومن مشـهور المدح، ما ورد من مدح الفرزدق في علـي بن الحسـين بن علي بن أبي طالب رضـي الله عنهم، حيث الممدوح هـو المعروف من جمـيع الأماكن في مـكة، ويجعل

---

(١) شعر مروان بن أبي حفصة ١٨

(٢) جمهرة نسب قريش ٤٧ وشعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ١٦١

(٣) ديوان أبي دهبل الجمحي ٤٥

الشاعر العلاقة التي تربط الممدوح بهذه الأماكن علاقة ود ومحبة متبادلة حيث يمد الحطيم يده ليمسك يد الممدوح، يقول:

هـذا الـذي تَـعْـرِفُ الـبـطـحـاءُ وطْـأتَهُ
والـــبـــيتُ يـــعـــرِفُهُ والحِلُّ والحَـــرَمُ
هـذا ابنُ خَـيـرِ عـبـادِ الـلـهِ كـلـهمُ
هـذا الـتـقيُّ الـنـقيُّ الـطـاهـرُ الـعـلمُ
إذا رأتـهُ قـريشٌ قـال قـائـلُـهَـا
إلى مـكـارمِ هـذا يـنـتـهي الـكـرمُ
يُـنْـمى إلى ذُرْوَةِ الـعـزِّ الـتي قَـصُـرتْ
عن نـيـلـهـا عَـرَبُ الإسلامِ والـعـجمُ
يـكـادُ يُـمْـسِـكُهُ عـرفـانُ راحـتهِ
ركنَ الحَـطِـيمِ إذا مـا جـاءَ يَـسْـتَـلِمُ(١)

ويمدح دعبل الخزاعي آل البيت لكونهم أهل مكة، فيقول:

يـا آلَ بـيـتِ المـصـطـفى
يـا أهلَ مـكـةَ والـصَّـفَـا
يـا خـيـرَ مَنْ قـد حَجَّ لـلْـ
ـبـيت الحـرامِ وعـرّفَـا(٢)

ويمدح الشافعي آل البيت قائلاً:

يـا راكـبًـا قِفْ بـالـمُـحَـصّبِ من مِـنًى
واهـتِفْ بـقـاعـدِ خَـيـفِـهَـا والـنـاهضِ
سَـحَـرًا إذا فـاضَ الـحـجـيجُ إلى مـنًى
فَـيْـضًـا كـمُـلْـتَـطِمِ الـفُـراتِ الـفـائضِ

---

(١) ديوان الفرزدق ٢/ ١٧٨
(٢) شعر دعبل الخزاعي ٣٤٣

إنْ كـــان رفْــضًـــا حبُّ آل مـــحـــمـــدٍ
فَـلْـيـشْـهَـدِ الـثَّـقَلانِ أنّي رافـضِي[1]

ويهتز البيت طربًا وشوقًا لقدوم الممدوح، كما أحسّ بالوحشة لبعده عنه، والمدح بصيانة مكة، وتطهيرها من المارقين، كما في قول شهاب الدين المرشدي في مدح الشريف مسعود بن الشريف إدريس:

وصـــنتَ مـكـةَ إذْ طـهّـرتَ حـوزتَـهـا
من ثـلّـةٍ أهلِ تـثـلـيثٍ وإلحـادِ[1]

وبدر الدين العليف يمدح حسن بن عجلان أمير مكة بالطريقة ذاتها، فعودته إلى إمارة مكة بعد عزله عنها تمثل عودة للفتح المبين، وتجديد لفتح النبي عليه السلام، وقد تطهّرت مكة من الرجس، كما في هذا المدح:

حـسـبي مـجـاورةُ المـشـاعـرِ والـصَّـفـا
والمـروتَـيْنِ وتـلـك خـيـرُ شَـعَـائِـري
وجـنـاب مـلْكِ الأبـطـحـين بمـكـةٍ
بـدرِ الـهُـدَى الـقـمـرِ المـنـيـرِ الـزاهـرِ
سـلـطـان مـكـةَ والمـشـاعـرِ كـلّـهـا
وإمـامـهـا الـنـاهي المـطـاع الآمـرِ
ومُـجَـدِّد الـفَـتْحِ المـبـين بـهـا ومَنْ
أحـيـا بـهـا فَـتْحَ الـنـبيّ الحـاشـرِ
وغـدتْ شـعـابُ الأبـطـحـين كـأنمـا
سـالتْ بـسَـيْلِ أسـنَّـةٍ وبـواتـرِ
ودخـلـتَ في يـومِ الـثلاثـا مـكـةً
يـومًـا عـلى الأعـداء مـنك قـمـاطـرِي

(١) معجم الأدباء ٦/ ٢٤٠٨ ديوان الشافعي ١١٧
(٢) السلافة ٩٢

وَتَــطَــهَّــرَتْ بك مــكــةٌ من رِجْــسِــهــا
تــطــهــيــرَ مُــغْــتَــسِلٍ بمــاءٍ طــاهــرِ
واخــتــاركَ الــلهُ الــعــظــيم لــبــيــتِه
ولــســاكنِ الــبــيتِ الــعَــتــيقِ وحــاضــرِ

ويمدح عبدالقادر الطبري الشريف حسن بن أبي نمي بن بركات بأنه قد ورث حكم مكة أبًا عن أب:

خــلــيــفَــةُ الــلــهِ في أم الــقُــرى شــرفًــا
مــا زال وارثَهُ فــيــهــا أبًــا فــأَبَــا
إمــامُ قــبــلــتِــنَــا الــغــرّاء أفــضل من
حَمَى حِمَاهــا لــوجهِ الله مُــحْــتَــسِبَــا[1]

وهم يمدحون لأنهم أهل تلك المشاعر كما يقول موفق الدين علي بن محمد الحنديدي في مدح الشريف حميضة بن أبي نُمي:

ومِنْ بَــــنِي نجمِ نُــــميٍّ أنجمٌ
طَــبَّــقَتِ الأرضَ ســنــاءً وسَــنَــا
أهل المــســاعي والــصّــفــا وزمــزمٍ
والــمَــشْــعَــرْينِ والــمُــصــلّى ومِــنَى[2]

والمدح بوراثة الوقوف بالحجيج وإمارتهم، والقيام على الرفادة والسقاية، والرفادة هو ما يمدح به إدريس الحسني، تماما كما قال الرضي سابقًا:

له وقــفــاتٌ بــالــحــجــيجِ شُــهــودُهــا
إلى عَــقِبِ الــدنــيــا مِــنًى والمخــيّفُ[3]

وأبو نواس يمدح العباس بن عبيدالله بن جعفر بكونه يقوِّمُ للناس حجهم، ويقوم بإطعامهم حتى لا يجد الأكل من يأكله، لصدور الناس وشبعهم من موائده، يقول:

(١) السلافة ٤٧
(٢) هديل الحمام ٣ / ٩٠٤
(٣) ديوان الرضي ٢ / ٢٠

لـقـدْ قـوَّمَ الـعـبّـاسُ لـلـنّـاسِ حـجَّـهُمْ
وسـارَ بـرهـبـانـيـةٍ ووقـارِ
وعـرَّفـهُمْ أعـلامَـهُمْ وأراهمُ
مـنـارَ الـهُـدى مـوصـولـةً بمـنـارِ
وأطـعمَ حـتّى مـا بمـكـةَ آكلٌ
وأعـطى عـطـايـا لم تـكنْ بـضـمـارِ
وحُـملانُ أبـنـاء الـسـبـيل تـراهمُ
قِـطـارًا إذا راحـوا أمـامَ قـطـارِ[1]

والعمل من أجل مكة هو ما يُتمدّح به، فالشريف بركات يمدح قانصوه الغوري، فيدعو له بالعودة سالماً لأن ذلك منة على مكة، فيقول:

وامـنْ عـلى مـكـةَ الـغـرّا وسـاكـنـهَا
بـعـودهِ سـالـمًـا في أشـرف الـرّتبِ[2]

وتثني أم الغوث بن أخزم على ابنها الذي خدم الكعبة طويلاً، ثمّ تولّى الإجازة بالناس لمكانه من الكعبة، فقالت:

إنّي جـعـلـتُ ربِّ من بَـنـيَّهْ
رَبـيـطـةً بمـكـةَ الـعَـلِـيَّهْ
فَـبَـاركنْ لي بـهـا من ألـيّهْ
واجـعـلـهُ لي من صـالحِ الـبَـريهْ[3]

ومُدح أهل مكة بالثناء عليهم لمكانة بلدهم، فهم غرس الدين، وصفوة المولى، وقد ارتفعت صفاتهم، وسموا قدرًا، كما نجد في رد الإمام زين العابدين بن عبدالقادر الطبري المكي على بيتين من الشعر قالهما الشيخ غرس الدين الخليلي في أهل مكة عندما نزلها فلم يلتفت إليه أحد، فقال:

---

(١) ديوان أبي نواس ٤٣٥- ٤٣٦
(٢) بلوغ المرام ٣/١٥٨
(٣) أخبار مكة للأزرقي ١/١٨٧

جـــيـــرانُ مــكـــةَ جـــيـــرانُ الإلهِ لـــذا
لا يَــعْــبــؤون بمن قــد غــابَ أو حــضــرا
لـولا الـطـبـيـعـةُ عـاقـتـهـمْ لـكـان لهُ
إسـراءُ روحٍ بـسـرِّ الـسّـرِّ قـد ظـفـرا[1]

فردَّ عليه قائلاً:

وأهلُ مــكـــةَ غــرسُ الــدين فــاجْــتَنِ من
أغـصـانِهِ ثـمـر الـتّـقـوى وكُن ثـمـرا
فــإنــهـمْ صـفـوةُ المـولى وخـيـرتُهُ
من خـلـقهِ ولـهم في الـفـضلِ مـا اشـتـهرا
سَمَـوْا فخـارًا وطـابـوا مـحـتـدًا وزكوا
أصلاً وعـلـمًـا وطـالـوا مُـرتـقًى وذُرا
وكلُّ فـضلٍ فَـعَـنْـهـم قــد رُوي ورُؤي
وكلّ سِـرّ فـمـنـهم في الـوجـودِ سَـرَى
وكــــيــف لا وهـمُ أهـلُ الإلـهِ وفـي
جِـوارهِ وقــد امــتــازوا بمـا ذكـرا
لا يـشـهـدون سـوى مـولاهمُ فـلـذا
لا يـعـبـؤون بمن قـد غـاب أو حـضَـرا
وحـيث كـانـوا كـمـا قـد قـلتُ حُقَّ لـهم
إسـراءُ روحٍ بـسـرِّ الـسّـرِّ قـد ظـفـرا
وإن يـكـونـوا مع الأملاكِ في قـرَنٍ
لـولا الـطـبـيـعـةُ أعـني كـونَـهُم بـشـرا
فـخـذْ حـديـثًـا قـديمًـا مـسـنـدًا لـهمُ
عنـهم صـحـيـحًا صـريـحًا واقـتفِ الأثرا
والـقطْ فَـرائـدَ دُرٍّ من فـوائـدهمْ
فـإنـهم بـحـرُ عـلمٍ يـلـفظ الـدُّررا

(١) سلافة العصر ٥٠

أمـا تـراهُ بـجـيـدِ الـدهـر مُـنْـتـظـمًـا
وفي ذُرا المجـدِ والـعـلـيـاءِ مُـنْـتـثـرا
ولــو نــشــاءُ نـظـمـنَــا من جــواهــرِهِ
قـصـائـدًا في مـعـاني فـضـلــهمْ غُـرَرا
تــفــوقُ نــظمَ الــلآلي من بـلاغــتِــهَــا
لـكن يـقـول لـسـان الحـالِ والـشُّـعَـرا[1]

ويمدح الشعراء بالحج، كما مدح أشجع السلمي هارون الرشيد الذي جمع بين الحج والغزو، يقول:

أَلِفَ الحَجَّ والجِــهــادَ فــمــا يـــنْـ
ـــفكُّ من سَــفْـــرتــــينِ في كلِّ عـــامِ
سَــفَــرٌ لـــلــجــهــادِ نــحــو عــدوٍّ
والمــطــايــا لــســفــرة الإحــــرامِ
طــلبَ الــلهَ فــهْــو يــســعى إلــيهِ
بــالمــطــايــا وبــالجِـيــادِ الــسَّــوامِ
فَــيَــدانِ يــدٌ بمــكــةَ تــدعـــو
هُ وأخـــــرى في دعـــــوةِ الإسلامِ[2]

ويكرّر أشجع السلمي مدحه لهارون الرشيد بالمزاوجة بين الحج والغزو، وتكرار الحج في كل عام، وهو من كثرة حجه استأنس به الحرمان، يقول:

اســـتـــأنسَ الحَـــرَمَـــانِ مـــنـ
ـكَ بـــــــزورةٍ فـي كـلِّ عــــــامِ
والحِـــجْـــرُ والحَـــجَـــرُ الأصـــمْـ
ـمُ بـــــطــــولِ مَسٍّ واســــــتلامِ

(١) سلافة العصر ٥٠

(٢) شعر أشجع السلمي ١١١

قَـــضَّـــيْتَ نُـــسْـــكَكَ وانْـــصَـــرَفْ
ـتَ بـــخـــيـــرِ ظـــعنٍ أو مـــقـــامِ[1]

ويمدح ابن مناذر البرامكة على الطريقة ذاتها التي مدح بها أشجع الخليفة الرشيد، فهم كذلك يقرنون الجهاد بالحج، يقول:

أتـــانـــا بـــنـــو الأمْلاكِ من آلِ بَـــرْمكٍ
فـيـا طـيبَ أخـبـارٍ ويـا حُـسنَ مـنـظـرِ
لـــهم رحـــلـــةٌ في كلِّ عـــامٍ إلى الـــعِـــدا
وأخـرى إلى الـبـيتِ الـعتـيقِ الـمُستَّرِ[2]

وهذه المزاوجة بين الفعلين نجدها تتكرر عند أبي المعالي الكلابي الذي قال في الرشيد بعدما اتخذ قلنسوة كتب عليها (غاز حاج):

فـــمنْ يـــطـــلبْ لـــقـــاءَك أو يُـــردْهُ
فـبـالـحـرمـين أو أقـصى الـثّـغُـورِ[3]

ولعل من جميل المشابهة ما بين الحج ومناسكه والقتال وآثاره، والربط بينهما على طريق المقابلة والتشبيه هو ما مدح به أبو تمام أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري، الذي كان يتولى حرب الروم، وحفظ الثغور، فالتلبية هنا في الحج، مثلها هناك في المعركة، ونداء الواجب، والإحرام وسفك دم البُدْن شبيه بسفك دم الأعداء والملحدين، ورمي الجمرات كإشعال نار الحرب، والسعي والإرقال بين الصفا والمروة شبيه بسرعته نحو عدوه، كل ذلك يتتابع في مشهدين جميلين ينقلنا فيهما أبو تمام ما بين مشاعر الحج في مكة، وأرض المعركة في بلاد الروم، حتى أنه في النهاية يقرن الحج والجهاد، ويجعلهما في إطار واحد يجمعهما كما في قوله:

سَـلْـنِي عن الـدينِ والـدنـيـا أُجِـبْكَ وعن
أبي ســـعـــيـــدٍ وفـــقـــديهِ فلا تَـــسَلِ

(١) المصدر نفسه ١٠٤
(٢) طبقات ابن المعتز ١٢٥
(٣) ديوان ابن حيّوس ٢ / ٦٥٢

حُـــطَّتْ إلى عُـــمْـــدةِ الإسلامِ أَرْحُـــلُهُ

والشمسُ قد نفضتْ ورسًا على الأُصُلِ

مُـــلَـــبـــيّـــاً طـــالمـــا لـــبّى مُـــنـــادِيَهُ

إلى الـــوغى غـــيـــرَ رِعْـــديـــدٍ ولا وَكِلِ

ومُـــحْـــرِمًـــا أحـــرمتْ أرضُ الـــعـــراقِ لهُ

من الـنَّدى واكـتـستْ ثـوبًـا من الـنـخلِ

وسـافـكًـا لـدمـاءِ الـبُـدْنِ قـد سُـفِـكتْ

به دمـــاءُ ذوي الإلحـــادِ والـــنِّـــحَلِ

وراميًـــا جَـــمَـــراتِ الحجِّ في سـنـةٍ

رمى بـهـا جـمـراتِ الـيـوم ذي الـشُّـعَلِ

يـردِي ويُـرقِلُ نـحـو المـروتـينِ كـمـا

يـردي ويـرقلُ نـحـوَ الـفـارسِ الـبـطلِ

لـمّـا تـركتَ بـيـوتَ الـكـفـرِ خـاويـةً

بـالـغـزو آثـرتَ بـيتَ الـلـهِ بـالـقَـفَلِ

والحجُّ والـغـزوُ مـقـرونـانِ في قَـرَنٍ

فـاذهب فـأنتَ زعـافُ الخـيلِ والإبلِ[1]

ويشبه أيامه في معاركه ضد الروم بأيام النحر والتشريق، يقول:

إنَّ أيـــامَكَ الحِـــســـانَ من الـــرُّو

مِ لَـحُـمـرُ الـصَّـبـوحِ حـمـرُ الـغَـبُـوقِ

مُـعْـلَـمـاتٍ كـأنـهـا بـالـدم الـمُـهـ

ـراقِ أيّـامُ الـنّـحـرِ والـتّـشْـريقِ[2]

ويستمرُّ مريرها مع أبي تمام، فيمدح خالد بن يزيد الشيباني الذي ولاّهُ المعتصم الحرمين ثمَّ عزله، ، بالطريقة السالفة ذاتها، فيقول:

---

(١) ديوان أبي تمام ٣ / ٨٨ – ٩٣

(٢) المصدر نفسه ٣ / ٢٤٣

أَقـري الـسَّلامَ مُـعَـرَّفًـا ومُـحـصَّـبًـا

من خـالـدِ المـعـروفِ والـهـيـجـاءِ

سـيلٌ طـمـا لـو لمْ يَـذُدْهُ ذائـدٌ

لـتـبـطَّـحتْ أُولاهُ بـالـبـطـحـاءِ

وغـدتْ بـطـونُ مِـنىً مُـنىً من سَـيْـبهِ

وغـدتْ حَـرًى مـنهُ ظـهـورُ حِـراءِ

وتـعـرَّفتْ عَـرَفَـاتُ زاخـرَهُ ولمْ

يُـخْـصَصْ كَـداءٌ مـنه بـالأكَـداءِ

لا يُـحـرمِ الحَـرمـان خـيـرًا إنَّـهم

رامـوا بهِ نـوءًا من الأنـواءِ(١)

ويقول في مدح الأفشين:

فـتـركتَ أرشقَ وهْيَ يُـرقَى بـاسْـمِـهَـا

صُمُّ الـصّـفـا فَـتَـفـيضُ مـنهُ عُـيـونُ

لـو تـسـتـطـيعُ الحجَّ يـومًـا بـلـدةٌ

حـجَّتْ إلـيـهـا كـعـبـةٌ وحَـجُـونُ(٢)

وعلى الطريقة ذاتها يمدح ابن حيّوس سابق بن محمود إذ يجمع بين الحج والغزو، يقول:

ولـقـد شَـفَـعْتَ الحجَّ بـالـغـزوِ الـذي

لـولاك أعْـجـزَ أهـلَهُ إمـكـانُهُ

وبـذلتَ حـمـرَ المـال في تـنـفـيـذهمْ

أيّـامَ عـزَّ عـلـيـهمُ وجـدانُهُ

فـمُـعـجَّلٌ لكَ من إلـهكِ نـصـرُهُ

ومـؤجَّلٌ لـكَ عـنـدهُ رضـوانُهُ

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي١/٨-١١ ومعرَّف: الموضع الذي يقف الناس فيه يوم عرفة.والمحصّب: الموضع الذي تُرمى فيه الجمار. وحَرىً: أي خليقة وجديرة، أو بحرا الدار: أي بفنائها.

(٢) ديوان أبي تمام ٣/٣١٨

هي مِــنّــةٌ يــبــقى عــلــيك ثــنــاؤهــا

في الــنــاس مــا صَــحِــبتْ حِــراءَ رعــانُهُ

فــالــبــيتُ يــشــكــرهــا إذا طــافتْ بهِ

زمنَ الحــــجــــيجِ وقُــــبِّــــلتْ أركــــانُهُ

فــأجــابَ فــيكَ الــلــهُ دعــوةَ قــارئٍ

يــتــلــو هــنــاك قــرانَهُ قــرآنُهُ(١)

وينال وفد الحجيج أيضًا قسطه من المدح، فهذا صدقة بن الحجاج، يمدح وفدًا قدموا للحج، فيقول:

أكــرمْ بــهــم وفــدًا يــطــيبُ بــنــشــرهمْ

ظُــهــرانُ مــكــةَ كــلُّــهــا والأبــطحُ

مــا مــثــلُــهمْ أحــلى نــدًى وشــمــائلاً

غُــرّاً وأعــطى لــلــجــمــيل وأســمحُ

وبــــهمْ أُبــاهي كلَّ من وافى مــنًى

في عَــصْــرنــا ولــهم أودُّ وأنــصَحُ(٢)

وإذا كان المادح يمدح الممدوح لتشرفه بانتسابه لمكة، أو لكونه من آل البيت، أو لحكمه لها ورعايته وصيانته لمرافقها، فإن بعضهم يرى أن مكة أضاءت بوفود الممدوح إليها، كما يقول ابن مناذر في مدح يحيى البرمكي وأولاده:

سَـتُـظـلِمُ بـغدادٌ ويـجـلـو لـنـا الـدّجَى

بمــكــةَ مــا عِــشْــنــا ثلاثــةَ أبــحــرِ

إذا وَرَدوا بَــطْــحــاءَ مــكــةَ أشــرقتْ

بيحيى وبالفضلِ بن يحيى بن جعفرِ(٣)

---

(١) ديوان ابن حيوس ٢ / ٦٥٢

(٢) تكملة خريدة القصر للعماد الأصفهاني قسم شعراء العراق ٧٩٠

(٣) معجم الأدباء ٦ / ٢٦٤٩

وفي مدح أمير الجيوش يقول ابن حيّوس في مبالغة بعيدة:

وقــدْ ســمعَ الــلهُ الــكــريمُ لأمَّــةٍ
تــيــمَّمت الـبـيتَ الـعـتـيقَ الـمُـحـرَّمَـا
ولـــولاك لم يــنــزلْ غــريبٌ بمــكــةٍ
ولا وردت تـــلـك الخلائقُ زَمْــزَمَــا
ومــوســمُــهــا في كلِّ عــامٍ وإنّــنــا
نـرى كلَّ يـومٍ في جـنـابِكَ مـوسِـمَـا[1]

وتأنس أم البلاد كما يسميها الشاعر يحيى النشو بأميرها عطيفة بن أبي نمي:

أضــحتْ به أمُّ الــبلادِ أنــيــســةً
فـالـعـدلُ مـنـهـا بـالمـسَـرّةِ مـوثقُ[2]

ويجرِّد الشعراء من أماكن مكة أشخاصًا يبشون لمقدم الممدوح، فالمشاعر تسلّم عليه، والبيت يهتزُّ ركنه اشتياقًا، وها هو المصلى والحطيم وزمزم يسجع كما يسجع الحمام، وترحب به الأركان، وتسر به الجبال، كل هذه الاحتفالية نلقاها في مدح الشريف علي بن حسن بن عجلان، من قصيدة قالها فيه قطب الدين أبو الخير محمد بن عبدالقوي المكي، ومما قاله يمدحه:

ثــغـورُ الــهَـنـا لــمَّـا قَـدِمْتَ بَـواسِمُ
ســرورًا وكلُّ الــكــائــنــاتِ مَـبَــاسِمُ
ولــمَّـا تـراءتكَ الـمَـشـاعـرُ مُـحْـرِمًـا
أشـارتْ بـتـسـلـيمٍ عـلـيكَ الـمَـحـارِمُ
ولـــمَّــا رآكَ الــبـيتُ أقــبـلتَ هــزّةٌ
إلــيكَ اشــتــيــاقٌ إنّهُ بكَ عــالـمُ
كـذاكَ الـمُـصـلّى والحَـطـيمُ وزمـزمٌ
وقـد سـجـعتْ من حـولـهنَّ الحـمـائمُ
ورحّــبت الأركــانُ لــمَّـا رأيــتَـهـا
كــأنَّ الــمُـثـنَّى قـد أتـاهـا وكـاظمُ

---

(١) ديوان ابن حيّوس ٢ / ٥٦١

(٢) الإشراف في تاريخ الأشراف ١٠٧

وسُـرَّتْ جـبـالُ الأبـطـحـين كـأنّـهـا
عـلـيـهـا أبـو الـنـفس الـزكـيَّـةِ قـادمُ
وكـادَ الـصّـفـا يـخـتـالُ لـمَّـا صـعـدْتَهُ
ومـاستْ سـروراً إذ رأتكَ الـمَـعـالمُ
مـهـابطُ وحي الـلـهِ والحـرمُ الـذي
نمـاكَ بـبـطـحـاه الـوصيُّ وهـاشمُ(١)

وإذا كانت الكعبة هي كعبة البطحاء والحرم تأتيها الوفود للحج، فالممدوح هو كعبة أخرى، والشاعر ما سار من حرم إلاّ إلى حرم، كما يقول عمارة بن أبي الحسن اليمني من شعراء القرن السادس في مدح خليفة مصر الإمام الفائز بن الظافر، وكان أمير مكة قد أرسل الشاعر في سفارة إليه، يقول في مدحه:

الحـمـدُ لـلـعـيسِ بـعـدَ الـعـزمِ والـهـممِ
حـمـداً يـقـومُ بمـا أولـيتَ من نِـعَمِ
لا أجْـحَـدُ الحقَّ عـنـدي لـلـرِّكـابِ يـدٌ
تـمـنَّتِ الـلُّـجمُ فـيـهـا رتـبـةَ الخُـطُمِ
قـرَّبْنَ بُـعْـدَ مـزارِ الـعِـزِّ من نـظـري
حـتى رأيتُ إمـامَ الـعـصـرِ من أمَمِ
ورُحْنَ من كـعـبـةِ الـبـطـحـاءِ والحـرمِ
وفـداً إلى كـعـبـةِ المـعـروفِ والـكـرمِ
فـهلْ دَرى الـبـيتُ أنّي بـعـد فـرقـتِهِ
مـا سِـرتُ من حـرمٍ إلاّ إلى حـرمِ(٢)

ويغدو المدح بأن يكون الممدوح ركنًا من أركان مكة، بل الركن الأيمن من أركان

---

(١) الإشراف في تاريخ الأشراف ١٢٨ –١٢٩

(٢) النكت المصرية في أخبار الوزارة المصرية ٣٢

الكعبة، كما في قول الشاعرعفيف الدين علي بن عبدالله بن جعفر في مدح أمير مكة رميثة:

أَمُـيَـمِّمَ الحـرمِ الـشّـريفِ وقـاصـدًا
آلَ الـنـبيِّ ظـفـرتَ غـايـاتِ الـمُـنى
لا تحـسـبنَّ أبـا نُـمـيٍّ غـائـبًـا
فـرمـيـثـةُ بنُ أبي نُـمـيٍّ هـا هُـنـا
ضَـرَب الـسّـرادقَ حـولَ كـعـبـة مـكـةٍ
وغـدا لـهـا ركـنًـا وكـان الأيمـنـا[1]

ويملك الشريف مبارك بن عطيفة سواكن، فيمدحه الشاعر يحيى بن يوسف المكي المعروف بالنشو، ويستحثه على العودة لمكة، فما سواكن هذه بدار إقامة لشريف مثله، يقول:

فـمـا سِـواكُنَ أرضٌ أو تُـقِـيم بـهـا
ومـا مـقـامكَ إلاّ الـركنُ والحَـجَـرُ
فَـسِـرْ إلى مـكـةٍ وانـزلْ بـسَـاحَـتِـهـا
فـأنتَ بـالـلـهِ ربِّ الـعـرشِ تـنـتَـصِـرُ
أَمِـثْلَ مـكّـةَ تَـسْـلـوهـا وَتَـتْـرُكُـهَـا
عَـجِـبْتُ منكَ فَعَنْـهـا كـيفَ تـصْـطَـبِـرُ[2]

ويمدح الممدوح بأنه سلطان مكة، وفي عجلان بن رميثة يقول يحيى النشو:

سـلـطـان مـكـة والمـشـاعـر والـصّـفَـا
من لا يـخـافُ من الـزّمـانِ نـزيـلُه[3]

والممدوح هو فرحة البلد الحرام، كما يقول القاسم بن علي بن هتيمل في مدح السلطان الملك المظفر ملك اليمن في القرن السابع الهجري:

يـا فـرحـةَ الـبـلـدِ الحـرامِ ويـا ضِـيـا

(١) الإشراف في تاريخ الأشراف ٢١٧
(٢) الإشراف في تاريخ الأشراف ١٢٨ –١٢٩
(٣) الإشراف في تاريخ الأشراف.١٥٠
(٤) كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ١ / ١٩٧

جــوِّ الــعــراقِ وفــرحــةَ الأمــصــارِ[٤]

وفي الشعر الحديث:

نجد المدح يرتبط ارتباطًا واضحًا بمن يقدم خدمات لهذه البلدة المقدسة، ولعلَّ أولهم هو الملك عبدالعزيز آل سعود، ذلك الملك الذي استطاع أن يجمع البلاد بالقوة، فهذا أحمد الغزاوي يمدح الملك عبدالعزيز بوصف بطولاته، وإنجازاته الحربية، وهو بذلك قد جاور البيت العتيق، كما في قوله:

مــلــكــتُمْ فِــجــاجَ الأرضِ بــالــسـيفِ عـنـوةً
وجــاورتمُ الــبـيتَ الــعـتـيقَ الــمُــحـرَّمـا[١]

وبهـذا النصـر تغمر البهجة قلـوب كل النـاس، حتى حَمَام البيت العتيق، يقـول الغزاوي أيضًا:

في كلّ دارٍ مـــــهـــرجـــانٌ ســـــاهــــرٌ
لكَ فـــيـهِ عـــينُ الحبِّ لـــيس تـــنـــامُ
وبـــكلّ قـــلبٍ فـــرحـــةٌ غـــنّى بـــهـــا
في جــانبِ الــبــيتِ الــعــتــيقِ حَــمَـامُ[١]

ومن صور المدح في الملك عبدالعزيز تهيئة مكة لحجاج بيت الله، وتأمين الطرق لهم، ويتساءل فؤاد شاكر تساؤل العارف عن الرجل والزعيم الذي أمَّن الحرم:

انـهضْ إلى الـبـيتِ وارفعْ فـوقهُ الـعَـلَـمـا
واســألْ هـــنـــالكَ عـــمَّنْ أمَّن الحـــرَمَـــا
اســألْ تُــجــبْكَ وفـودُ الــبـيتِ عن ثـقـةٍ
لا غــروَ في من عــرفــنــاهُ ولا جَــرَمَــا
إنَّ الــمَــلـيكَ الــمُـرجّى الــمُـرتَـضَى أبـدًا
عبدَالـعزيـزِ الـمُفدّى الـمُفـردَ العَـلَمَا[١]

وإذا كان فؤاد شاكر يسأل ويجيب، فإنَّ الغزاوي يكرر السؤال تلو السؤال، ويلح في

(١) ديوان الغزاوي ٢ / ١ / ٦٠٦

(٢) نفسه ٢ / ٢ / ١٥٦٨

(٣) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى١٤٣

ذلك، لأنه يرى الانقلاب الواضح، فمن بعد الخوف والاضطراب والقلق، حلَّ الأمن والطمأنينة، وأصبح الحاج يغدو ويسير آمنًا لا يخشى على نفسه شيئًا، كما في هذه الأبيات:

فَمنْ كان مِنْ قَبْلِ السُّعودِ وبأسه
يطيقُ بُلوغَ الحَجِّ دونَ تَزْلزلِ
ومن كان يَسْطيعُ المَناسكَ آمنًا
على نفسه ما بينَ جمعٍ وجرولِ
ومن كان في الرؤيا يُصَدِّقُ أنّهُ
يروحُ ويغدو في أمانٍ مخوَّلِ
ومن كان يأتي للحجاز وقلبُهُ
يُرجّي نجاةً مِنْ حِمَامٍ مُعَجَّلِ
ومن كان لا تُغري الثيابُ بحتفِه
ولو هِيَ ساوتْ نصفَ حبّةِ خَردلِ
ومن هو هذا الزاعمُ اليومَ أنّهُ
يُقاسي الذي قد كان زعم المُضلّلِ
ومن يَبْغني ألاّ أقولَ الذي أرى
فكل لسانٍ غير عضبي مقولِ
ومن ذا الذي لا يشكر اللهَ نعمةً
تحدّثَ عنها كلُّ شاكٍ وأعزلِ
فهل أنا إلا مؤمنٌ لحقيقةٍ
هي الشمسُ لا تَخْفَى على متأمِّلِ
وهل يجحدُ الفضَلَ الذي هو ظاهرٌ
سوى أكمهٍ عن منهجِ الحقِّ معدلِ[1]

يذكر فؤاد الخطيب ذلك، فيقول:

وأنتَ مهّدتَ للحجّاجِ مَوطِئهمْ
في البحر لا خطرًا يخشون أو عطَبَا

(١) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى ١٢٧–١٢٨

تـــصـــونُـــهمْ فـــيهِ أبـــراجٌ مـــوطّـــدةٌ

من المـــرافئِ أعـــيتْ لُـــجَّةُ الـلَّـــجِـبـا[٢]

ولتفرح مكة ما شاء الله لها أن تفرح بابن فيصل الملك عبد العزيز، وبهذا الأمن والاطمئنان الذين أرخاهما عليها، كما يقول ابن بليهد:

فـبـشـراكِ يـا أُمَّ الـقُرى بـابنِ فـيـصلٍ

وبـــشـــراكِ إذْ آبَ المـلـيكُ الـسَّـمَـيْـدَعُ

وكـــانت به أمُّ الـــقـــرى مـــطـــمـــئـــنـــةً

بـــأمنٍ وأهـــلـــوهـــا سُـــجـــودٌ وركَّعُ

كـــأنَّ عـــلـــيـــهـــا حُـــلَّـــةً عـــبـــقـــريـــةً

تُـــنـــاطُ بـــأركـــانِ امِّ صـــبحٍ وتـــرفعُ

وأصـــبحَ بـــاديـــهـــا مـــقـــيـــمًـــا بـــنـــعـــمـــةٍ

بـــعـــيشٍ أنـــيقٍ والـــسَّـــوائمُ رُتَّعُ

حـــمـــاهـــا من الأعـــداءِ من كلِّ جـــانبٍ

وأمَّـــنـــهـــا والـــسـيفُ بـــالـــسيفِ يُـقـرَعُ[١]

ويتكرر المدح بنشر الأمن والأمان، فهذا رشيد أيوب يقول مادحًا:

أيُّـــهـــا الـــنـــاشـــرُ أعلامَ الأمـــانِ

فـي ربـــــــــــوعِ الحـــــــــــرمِ

يـا نـصـيـرَ الحقِّ يـا ثـبتَ الجـنـان

يـــــا كـــــريمَ الـــــشّـــــيمِ[٢]

ويؤكد ذلك خليل مطران قائلاً:

نـــعْمَ الأمـــينُ لـــبـــيتِ الـــلهِ يـــوســـعهُ

(١) الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر ٩٢ وأم صبح اسم من أسماء مكة

(٢) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء الشام ١٣٣

(٣) نفسه ٢٠

بـــرّاً ويـــرعـــاهُ في تـــقـــوى وإيمـــانِ
أقـــرَّ حـــاضـــرهُ أمـــنًـــا وبـــاديَهُ
مـا أنـفعَ الـعـدلَ مـقـرونًـا بـإحـسـانِ[٣]

وشـاعر هـو عبـدالعـزيـز بن شعبـان يطرق هـذا المعنى، وينهي بالشكر لمن جعل الحج ميسورًا:

بِـعَـزْمَـتِكِ ازدهى الـبـيتُ الحـرامُ
وسـادتْهُ الـسـكـيـنـةُ والـسلامُ
حـبـوتَ حـجـيـجَهُ أمـنًـا ويُـسـرًا
فـطـابَ لـهمْ بمَـغْـنـاهُ المـقَـامُ
وأضـحـى الحجُّ مـيـسـورًا وزالتْ
بلا مـهلٍ مـصـاعـبُهُ الجِـسَـامُ
وكـنتَ لـنـا الـكـفـيلَ بـذَا فـشـكـرًا
لـفـضـلكَ أيُّـهـا المـلكُ الـهُـمَـامُ[١]

وتكاد هذه النغمة تسيطر على كثير من معاني المدح في الملك عبدالعزيز، وأغلب قصائد المدح، تظهر هذا المعنى، لأنها ترى فيه ما يدعم وجهة نظرها، والأمثلة على ذلك كثيرة، وقد عرضنا لنماذج منها، وذلك كاف في التدليل عليها لأنها متشابهة، وطرائق التعبير عنها متقاربة.

وفي ذلك يقول الدكتور حسن بن فهد الهويمل: «والقارئ لهذا الشعر يدرك أنه جاء عفويًا وصادقًا أثارته تلك الشخصية، وما أنجزتهُ في مدة قصيرة من متغيرات غيرت ملامح الجزيرة العربية، ويكفي أن نقرأ تركيز الشعراء على الأمن والاستقرار، وجمع الشمل الذي حققه الملك عبدالعزيز بعد الفوضى، والخوف، والذين يفدون إلى الديار المقدسة لأي غرض ثم لا يجدون منّاً ولا أذًى، ويؤدون حجهم أو عملهم بكل راحة، يتذكرون ما كانت عليه البلاد، وما يلاقيه الحجاج من قتل ونهب وأوبئة.

---
(١) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى ٢٣٠
(٢) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى ١٤

هذه المتغيرات المفاجئة أثارت كوامن مشاعرهم، وفجرت ينابيع شعرهم، فسجلوا إعجابهم وشكرهم لهذا المنقذ الذي أمَّن السبل، ويسَّر الطرق إلى الحج، وطهّر البيتَ للطائفين والعاكفين والركع السجود» [٢].

ويظهر خير الدين الزركلي إعجابه بإلغاء الرسوم عن الحجاج، ويراها منحة من الملك عبدالعزيز في التخفيف على حجاج بيت الله، يقول:

منحتَ ضيوفَ الله في حجِّ بيتهِ
فَخَفَّ إلى أبوابِ مكةَ مُجْهَدُ

رجعتَ بهم عبرَ القرونِ فأصبحوا
يُعَلُّونَ ما عَلَّ النبيُّ محمدُ

إذا جاءها جارٌ فأهلاً ومرحبًا
وفي ظلِّكَ الممدودِ نُزْلٌ مُمَهَّدُ[١]

وهذا المعنى نجده عند محمد أحمد العقيلي الذي يقدم إلغاء الرسوم عن الحجاج كبشرى لهم، يقول:

وأباحَ الحجَّ لا رَسْمًا لهُ
رَهَقًا يَغْشَى وفودَ المسلمينْ

أكبرَ العَالمُ في تصريحهِ
خطّةً قَصَّرَ عنها المُصلِحونْ

وسرى البرقُ بهِ مُؤتلقًا
يحملُ البُشْرى إلى أكرمِ دينْ[٢]

ومن صور مدح الملك عبدالعزيز استغلال المناسبات الدينية، وبخاصة في أيام الحج، يقول الشاعر جعفر عوض في مدحه بأداء مناسك الحج:

يا مليكًا بهِ الكوارثُ زالتْ
وأُزيحتْ بَوادرُ الحَدَثانِ

(١) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء الشام ٢٠

(٢) المجموعة الشعرية الكاملة ٢٣٩

فُــــزتَ بـــــالحجِّ في عُـلا عــــرفـــــاتٍ
ثـمَّ لــــبَّـــيتَ خـــــالـقَ الأكـــــوانِ
وازدلــــفتَ المــــنى لمــــزدلــــفــــاتٍ
واقــفًـا عــنـدَ مَــشْـعــرٍ في تَــهـانِي
وبـــهـــا قــد لــقـطتَ شُــهبَ جِـمَـارٍ
لـلـشـيـاطـينِ وهْي كـالـنـيـرانِ
وحـــبــاكَ الجــلــيلُ كُــسْــوةَ بــيتٍ
قِـبْـلـةِ الـنـاسِ من قــديم الــزمــانِ
وبــلــغتَ المــنى بــأبــهجِ عــيــدٍ
هــو عـيـدُ الأضـحى وتـاجُ الـتّـهـاني[1]

ومن صور المدح في الملك عبدالعزيز في ما يرتبط بموضوعنا هو ما يراه الشعراء في عهده من تجديد عهد النبوة، كما يقول محمد أحمد السياغي الصنعاني:

يـا جـيـرةَ الـبـيتِ الـعـتـيقِ سلامُ
يـهـديـكـموهُ الـشـرقُ والإسلامُ
جَـددتمُ عـهـدَ الـنـبـوةِ مُـشْـرقًـا
فـزهـتْ بمـا جـددتمُ الأيّـامُ
من يَـرْعَهُ عـبـدُالـعـزيـز يـصلْ به
في المجـدِ أُفْـقًـا في الـهـوى وغـرامُ[2]

وآنًا آخر يبدو عهد الفاروق عمر، كما يقول الغزاوي:

أفي أمِّ الـقُـرى قـد عـاد عـهـدٌ
بهِ الـفـاروقُ يـلـتـئمُ الـصِّـحَـابَـا
كـذلكَ قـد رأيتُ ولـستُ أخـشى
عـلى مـا قـلتُ في الأخـرى حِـسَـابَـا[3]

(١) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى ١٠٣
(٢) نفسه ١٧٤ – ١٧٥
(٣) أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية ٢/١/٦٨٧

أمّا صور فرح مكة بالممدوح وسعيها للقائه، تلك الصور التي تكررت عند القدماء نجده أيضًا في الشعر الحديث، فالغزاوي يمدح الملك عبدالعزيز من خلال نعمه التي حلّت على مكة، وها هي تفرح وتهش لقدومه، ولو استطاعت الصعود إليه لسمت رياحها، فمكة تشعر بعظيم المنن التي قدمها لها، يقول:

نَعِمَتْ بأوْبِكَ مكةُ وبطاحُهَا
واخضرَّ واديها وشحَّ شحاحُهَا
حنَّتْ إليكَ فلو أطاقتْ مُرْتَقًى
لَسَمَتْ إليكَ بها الغَدَاةَ رياحُهَا
أَوْلَيتَها مِننًا تقلَّدَ جيدُها
بعقودِها وبها استدارَ وشاحُهَا
أمَّنْتَ خائفَهَا وشِدْتَ صروحَها
وبها استنارَ غُدوُّها ورواحُهَا[1]

وهذه أم القرى تختال بحلل الفخار، ويطل السناء من أجياد لقدوم الملك سعود بن عبدالعزيز، كما يقول الغزاوي:

لِمَنِ السّناءُ أطلَّ من أجيادِ
فَهَفتْ إليهِ طوالعُ الأجيادِ
شِبْلُ المليكِ سعودُنا الشّهمُ الذي
شرُفتْ بهِ قدرًا حُمَاةُ الضّادِ
أمستْ بهِ أمُّ القرى تختالُ في
حُللِ الفخارِ بِطَارفٍ وتلادِ[2]

وتتكرر هذه النغمة في مدح الملك فيصل بن عبدالعزيز، فهذا النور والجلال يملأ أرجاء مكة حيث يؤم الملك فيصل أقطاب الملوك في الحج، وهذه مكة تزدان به، ويزهو به البيت، ويفخر به المقام، حتى الحجر يبدو سعيدًا، كما في قول محمد بن أحمد العقيلي:

(١) أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية ١/٢ / ٦١٦
(٢) المصدر نفسه ٢ / ١/ ٦١٠

جلالٌ على البيتِ الحرامِ يسودُ
يرفُّ على الإسلامِ منهُ بُنُودُ
وَيغْمُرُ أرجاءَ المشَاعرِ من مِنى
ومكةَ أنوارُ الهدى ويجودُ
يُضيءُ كنورِ البَدرِ مُنْطَلِقَ السَّنَا
وفي أفْقهِ زهرُ النجومِ وفودُ
ملوكٌ وأقطابٌ إلى البيتِ وانبروا
لتجديدِ حبلِ الودِّ وهْو أكيدُ
تؤمُّهُمُ في موقفٍ بعدَ موقفٍ
وأنتَ إمامٌ للورى وعميدُ
وإنّكَ راعي البيتِ والبيتُ قِبْلةٌ
ولله يعنو ركَّعٌ وسجودُ
زها البيتُ وازدان المقامُ بِكُسْوةٍ
من الوشي قد هفَّتْ عليهِ بُرودُ
تَبَدَّى يميسُ الركنُ فخرًا وأشرقَ الـ
ـمقامُ ومادَ الحِجْرُ وهْو سعيدُ
هنا عاهلُ الإسلامِ غير مدافعٍ
ترفُّ لهُ في المأزمينِ وفودُ[1]

والملك فهد بن عبدالعزيز يُمدح لأنه خادم الحرمين الشريفين، فنسبته إليهما نسبة تشريف، كما يقول حمزة بن أحمد الشريف:

ولخدمةِ الحَرمينِ أخلصَ إسمهُ
فغدا بتاريخ العصورِ مُسَطَّرا
في مكةَ التنزيلُ في بيت الهدى

(١) المجموعة الشعرية الكاملة ٥٥٣ – ٥٥٦

(٢) خادم الحرمين الشريفين في الشعر السعودي المعاصر ٨٤

أعـمـالهُ الجُـلَّى يُـشـيـدُ بـهـا الـورَى[٢]

ويؤكد هذا المعنى إبراهيم المالكي، فيقول:

خـدمـتمُ الحـرمـين الـطـاهـريْن وقـد
هـيـأتـمـوا عـرفـاتِ الـلـهِ ثمَّ مِـنَى
كلُّ المـشـاعـرِ قـد أضـحتْ مـهـيَّـأةً
حـتى غـدا الحجُّ سـهلاً لـيس فيه عَـنَـا[١]

ويرتبط اسمه بخادم الحرمين في الشعر الحديث، فيقول يوسف بن عبدالظاهر:

يـا خـادمَ الحـرمـين جـودُكَ غـامِـرٌ
وسـخـاءُ فـضـلِـكَ مُـشْـرِقٌ وَضَّـاءُ[٢]

والمعنى نفسه عند الشاعرة إنصاف علي البخاري:

يـا خـادمَ الحـرمـين كـفّكَ أمـطـرتْ
فـاعْـشَـوشَـبتْ أُممٌ من الخَـيـراتِ[٣]

ثالثًا: الوصف (وصف الأماكن والبقاع المكية)

وصف مكة بصفاتها القدسية والمكانية، ووصفها ببيئتها ومما تتميز به، أو تفتقر إليه، هو ما نجده في الأشعار التي تعرض لمكة في مختلف العصور، وانظر إلى هذا الوصف لشاعر جاهلي، حيث يبين لنا في وصفه لها عن اتصافها بقلة الماء، وبخاصة قبل إعادة تأهيل بئر زمزم:

همُ نـزلـوهَـا والمـيـاهُ قـلـيـلـةٌ
ولـيس بـهـا إلاّ كـهـولُ بـني عـمـرِو[٤]

ويقول آخر:

(١) خادم الحرمين الشريفين في الشعر السعودي المعاصر ١٦٧
(٢) المرجع نفسه ١
(٣) المرجع نفسه ٢٨
(٤) أخبار مكة للأزرقي ١/١٠٨
(٥) سيرة ابن هشام ١/١٧٤

بَـنَـوْهـا ديـارًا جَـمَّـةً وطَـوَوْا بـهـا
بـئـارًا تَـسُحُّ المـاءَ من ثَـبَجِ الـبَـحْـرِ[٥]

ويرد ذكر الأماكن في الشعر العربي على مختلف عصوره، فهذا المتوكل الليثي يذكر ذا المجاز في شعره فيقول:

لـلـغـانـيـاتِ بـذي المجـازِ رسـومُ
في بَـطنِ مـكـةَ عَـهْـدهنّ قـديمُ[١]

■ وصف الحج والمناسك والمشاعر

يكاد شعر ما قبل الإسلام ينضوي في: الحديث عن مكة، وتصوير الحج، والحلف والقسم بالبيت الحرام، والحديث عن أحداث مكة، وبعض مظاهر المدح والفخر، والوصف.

وفي قصيدة أبي طالب اللامية نجده يذكر حركة الناس في مشاعر الحج دون أن يقصد قصداً في وصف الحج في الجاهلية، فالقصيدة في معرض تبيان موقف الشاعر من الأحداث التي تجري حوله، كما يبدو في هذا الحديث، فهو يتعوذ بهذه الأماكن، ولكنه من خلال ذلك يوضح تنقلات الحجاج ما بين المشاعر، فمن الطواف، ولثم الحجر، إلى موقف إبراهيم عليه السلام، ثم السعي بين الصفا والمروة، والوقوف عند المشعر الحرام، وعرفة، ثم تجمعهم في المزدلفة ومنى، ثم رمي الجمرات:

وأحضَرتُ عند البيت رَهْطِي وإخوتي
وأَمْسَكتُ من أثوابِهِ بالوَصَائِلِ
قـيـامًـا مـعًـا مُـسْـتَـقـبـلِـينَ رتـاجَهُ
لـدى حـيـثُ يـقْـضي حَـلْـفَهُ كلّ نـافلِ
وحـيثُ يُـنـيخُ الأشْـعَـرون رِكـابَـهمْ
بمُـفْضَى الـسّـيول من إسَـافٍ ونـائلِ
مـوسّـمـةَ الأعْـضَـادِ أو قَـصَـراتُـهـا
مُـخَـيَّـسـةً بـين الـسَّـديس وبـازلِ

---

(١) شعر المتوكل الليثي ٧٤

تـرى الـوَدْعَ فـيـهـا والـرّخـامَ وزيـنـةً
بـأعـنـاقـهـا مَـعْـقُـودةً كـالْـعَـثـاكِلِ
أعــوذُ بــربّ الــنــاسِ من كلّ طــاعنٍ
عـلـيـنـا بـسُـوءٍ أو مُـلِحٍّ بـبَـاطلِ
ومن كَـاشحٍ يَـسْـعَى لـنـا بمَـعِـيـبـةٍ
ومن مُـلْـحِقٍ في الـدين مـا لم نُـحـاولِ
وثَــوْرٍ ومَنْ أرسَى ثَــبِــيــرًا مــكــانَهُ
وراقٍ لــيَــرْقَى في حــراءَ ونــازلِ
وبـالـبـيت، حقِّ الـبـيت ، من بـطن مكَّةٍ
وبــالــلـهِ إنّ الـلـهَ لـيسَ بـغـافلِ
وبـالحَـجـر الـمُـسْـوَدّ إذ يمـسـحـونَهُ
إذا اكـتـنـفـوه بـالـضُّحى والأصـائلِ
ومـوطىءِ إبـراهـيمَ في الـصَّخـر رَطْـبـةً
عـلـى قـدمـيهِ حـافـيًـا غـيـرَ نـاعلِ
وأشـواطِ بـين الـمَـروتـيْن إلى الـصّـفا
ومـا فـيـهـمـا من صُـورةٍ وتـمـاثُلِ
ومَنْ حَجَّ بــيتَ الــلـه مـن كلِّ راكبٍ
ومِـنْ كـلّ ذي نَــذْرٍ ومـنْ كـلّ راجـلِ
وبـالـمَـشْـعَـرِ الأقـصَى إذا عَـمـدوا لهُ
إلالٌ إلى مُـفْـضَى الـشّـراجِ الـقَـوابل
وَتَـوْقـافِـهمْ فـوقَ الجـبـالِ عَـشِـيَّـةً
يُـقـيـمـون بـالأيـدي صـدورَ الـرواحلِ
ولـيـلـةِ جَـمعٍ والمـنـازلِ من مِـنًى
وهلْ فـوقـهـا من حُـرْمـةٍ ومـنـازلِ
وجـمْعٍ إذا مـا الـمُـقْـرَبـاتُ أجـزْنَهُ
سِـراعًـا كـمـا يَـخْـرُجْنَ من وَقْعِ وابلِ

(١) ديوان أبي طالب ٦٣ – ٧٠

وبـالجَـمْـرة الـكُـبْـرَى إذا صَـمَـدوا لـهـا

يـؤمُّـون قَـذْفًـا رأسَـهـا بـالجَـنـادلِ

وكِـنْـدة إذ هـمْ بـالحِـصـابِ عـشـيَّـةً

تُـجِـيـز بـهـم حُـجَّـاجُ بَـكْـرِ بنِ وائلِ[1]

وإذا كان أبو طالب قد ذكر الأماكن التي يسير فيها الحاج، فإنّ ضباعة بنت عامر تبين لنا الكيفية التي كان الناس يطوفون بها، ويبدو أنهم كانوا يقومون بذلك عراة، كما تقول:

الـيـوم يـبـدو بـعـضُهُ أو كـلّهُ

ومـا بـدا مـنه فلا أحـلُّهُ[1]

وهذا ميمون بن عامر القشيري يقسم بالذي حجّت قريش بناءه، وهم يركبون الإبل، ويعلون أصواتهم بالتلبية، ويبدون من كثرتهم كنجوم السماء عددًا:

أمـا والـذي حـجّتْ قـريشٌ بـنـاءَهُ

عـلى كلِّ مَـوّارِ الـيَـدينِ طَـلـيحُ

يـنـادون لَـبَّـيْ ذي الجلالِ كـأنّـهمْ

نجـومٌ بـدتْ بـين الـسّـمـاء تـلـوحُ[2]

إنّ وصف مناسك الحج ومشاعره يملك على الشعراء ألبابهم وخيالاتهم، ذلك النسك العظيم الذي يبدأ بوفود الحجيج من كل فج إلى مكة، يستأثر في كل العصور حتى ما قبل الإسلام في عديد القصائد باهتمام بالغ، وهذا ابن دريد من شعراء القرن الرابع يذكر لنا ما يقوم الحاج به من مناسك في مقصورته المشهورة، فيتحدث بدءًا عن النية للتوجه لمكة ثم يتحدث عن كل منسك من مناسك الحج قائلاً:

يـنـوي الـتي فـضَّـلـهـا ربُّ الـعُـلَى

لـمَّـا دحـا تُـربـتَـهَـا عـلى الـبُـنى

حـتّى إذا قـابـلَـهَـا اسـتـعـبـرَ لا

يمـلكُ دمعَ الـعـينِ من حـيثُ جَـرَى

(١) المستدرك في شعر بني عامر ١٢١

(٢) المستدرك في شعر بني عامر ٢/٣٧٦-٣٧٧، وموّار اليدين: والطليح من الإبل: الذي جهده السير.

ثُمَّتَ طافَ وانثنَى مُسْتَلِما

ثمَّتَ جاءَ المروتيْنِ فَسَعَى

وأوجَبَ الحجَّ وثَنَّى عُمْرةً

من بعدِ ما عجَّ ولبَّى ودعا

ثُمَّتَ راحَ في المُلَبِّينَ إلى

حيثُ تحجَّى المأزمانِ ومِنَى

ثمَّ إلى التعريفِ يقرو مُخْبِتًا

مواقِفًا بينَ ألالٍ فالنَّقَا

ثمَّ أتى المَشْعَرَ يدعو ربَّهُ

تَضَرُّعًا وخُفيةً حتى همَى

واستأنفَ السَّبعَ وسَبْعًا بعدها

والسَّعيَ ما بينَ العقابِ والصُّوى

وراحَ للتوديعِ فِي منْ راح قدْ

أحرزَ أجرًا وقلى هُجْرَ اللَّغَا(١)

وهذا عبدالرحيم البرعي يذكر لنا وفد الحجيج، ويصف لنا حركتهم وطوافهم وسعيهم، فيقول:

وفي أمِّ القُرى قرّتْ عيونٌ

عَشيةَ لاحَ زمزمُ والحَطِيمُ

أولاكَ الوفدُ وفْدُ اللهِ لاذوا

إليهِ بفَقرهِمْ وهْو الكريمُ

وطافوا قادمينَ ببيتِ ربٍّ

فتمَّ لهمْ طوافَهمُ القدومُ

وبين المروتينِ سَعوا سبوعًا

لكي يمحو شَقَاءَهمُ النّعيمُ

---

(١) ديوان ابن دريد ١٢٠ – ١٢١ دحا: بسط . البنى: جمع بنية والمقصود مكة. استعبر: بكى. التعريف: عرفات. يقرو: يتتبع المواضع. ألال: موضع بعرفات. العقاب والصوى: موضعان.

وقــامــوا في تــمــام الحَجِّ فــرضًــا
ونــدْبًــا طــالــبــينَ رضًــا يــدومُ
وأدّوا فـي المــشَــاهــدَ كلَّ حقٍّ
ومــا ســمــعــوا ملامَــةَ من يــلــومُ
وراحُــوا بــعــدُ لــلــتــوديع لَــمّــا
قَـضَـوْا تَـفَـثًـا هـنـاكَ ولم يُـقـيـمـوا[1]

وهذا الوصف الذي يورده البرعي هنا إيجازًا، يأتي به في قصيدة أخرى تفصيلاً، فيذكر كلّ أمور الحاج حتى من الاغتسال والإحرام والتلبية، يقول:

حــتى انــتــهـيتُ إلى المـيـقـاتِ في زُمَـرٍ
من وفـد مـكـةَ يـا طـوبى لـهـا زُمَـرا
ثمَّ اغـتَـسـلْـنَـا وأحْـرَمْـنَـا وسَـارَ بـنـا
حـادي الـمَطيِّ يـخوضُ الـهولَ والخَـطَرا
ولـم أزلْ رافـعًـا صـوتي بـتـلْـبِـيَـتي
معَ المــلــبّــين ممنْ حـجَّ واعــتَــمَــرا
حــتى أنــاخت مـطـايـانـا بـذي كـرمٍ
لــكلِّ وفــدٍ لــديه زُلــفــةٌ وقِــرى
من ريفِ رأفـةِ ربِّ الحِـجْـرِ والحَـجَـرِ الـ
ـميمونِ لـمَّا وصلنا الحِجْرَ والحَجَرا
طُـفْـنـا الـقُـدومَ وصَـلّـيـنـا لـنُـدركَ مـا
رُمـنَـا وجِـئـنـا بـركنِ الـسَّـعيِ إنْ شُـكُـرا
ثمَّ اطـمـأنّ بـنـا الـتَّـعـريفُ بـعـدئـذٍ
في مـوقفٍ جـمعَ الـسـاداتِ والـكُـبَـرا

---

(١) شرح ديوان البرعي ١٠٥-١٠٦، والتفث في المناسك: ما كان من قص الأظفار والشارب وحلق الرأس ورمي الجمار، ونحر البدن، وما شابه ذلك.

(٢) نفس المصدر ١٠٩ وانظر في وصف مناسك الحج العديد من القصائد في العصر الوسيط والقرون الممتدة من القرن الخامس وحتى العاشر في المجموعة النبهانية في المدائح النبوية في المواضع التالية: ١ / ٩٤، ١٢٦، ٢ ١٠٥/، ١١١، ٣٠٤، ٤ / ٣٩

وفي الـمُـفـيـضـينَ عـدنـا حـين تمَّ لـهمْ
رميُ الجِـمَـارِ وهـاجَ الـنَّـفْـرُ مَنْ نَـفَـرا
حـجّـوا وراحـوا يـزورون ابن آمـنـةٍ
وعُدْتُ في الـفـرقـةِ الجـافـينَ مُـنْـتـظـرا[٢]

والشعر الحديث هو الآخر وقف عند مناسك الحج، وأوفاها حقها من الوصف والتبيان، يقول الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي: «وفي الشعر الحديث أخذ الحج نصيبًا موفورًا من الذكر... وعرف شعر الحج ملاحم الحج وينبغي هنا أن أذكر بالاعتزاز أن الحفلات الحولية التي وضع تقليدها الملك عبدالعزيز رحمه الله كان لها الأثر الكبير في ملاحم الحج، فقد كانت المائدة السنوية التي كان يقيمها لكبار الحجاج، تحفل بالقصائد الجياد، وكذلك الشأن في حفلة الاستقبال الكبرى التي تقام في منى، وقد شارك في ذلك شعراء محليون من المملكة العربية السعودية، وشعراء من خارجها، فاستمعنا إلى شعراء فحول من خارج المملكة، من أمثال: عمر أبو ريشة، وأبو الإقبال اليعقوبي شاعر فلسطين، وحسين بستانه، وهادي خفاجي، وغير هؤلاء كثيرون من شعراء مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين والمغرب العربي.. وللأستاذ عمر أبو ريشة ملحمة إسلامية كبرى.. وقد سجلت حوليات الحج الكثير من الشعر الرائع الذي اشتمل على وصف الحج ومشاعره، وتأثيره في نفوس المسلمين»[١]. ولعل الكتابين اللذين أُلِّفا عن الملك عبدالعزيز، وهما: الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى، والملك عبدالعزيز في عيون شعراء الشام يوردان العديد من المقاطع التي تتحدث عن الحج، وتصفه من بداية الرحلة إلى ختامها، وسنأخذ بعض اللقطات المعبرة، لأن أخذها جميعًا، معناه أنّ كتابنا هذا سيتضاعف مرات ومرات، ولذلك سأقتصر على نماذج محدودة لشعراء من المملكة، وبعض النماذج لشعراء من خارجها، حتى نتبين كيفية الوصف والمعالجة.

ففؤاد شاكر يصف لنا الحجيج وقد مشوا في مواكبهم الخاشعة يدعون الله عز وجل ويلبّون:

هَـتفَ الحَـجِـيجُ وأشْـرَقَ الحَـرَمَـانِ

---

(١) الحج في الأدب العربي ١٧

وَهَفَتْ على كَنَفِ القلوبِ أمَاني
وتَطلّعتْ زمرُ الحَجيجِ تَشَوّقًا
للبيتِ في حُلَلٍ من الإيمانِ
ومَشتْ كتائبُها تروحُ وتغْتَدي
تَخْتَالُ في أمنٍ وبينَ أمَانِ
في موكبٍ خَشَعتْ لهُ أبْصَارُهَا
غَضّاً بكلِّ جوارحٍ وجِنانِ
فاضتْ بهِ خُلَلُ الشِّعَابِ مَسَالكٌ
فيَّاحةُ الأرباضِ والوديانِ[1]

والغزاوي يصف لنا هذه الجموع، فيقول متسائلاً:

لمنِ الجموعُ تنشَّرتْ بالوادي
متخشّعينَ على هدىً ورشادِ
ولمنْ تَحدَّرتِ المدامعُ خيفَةً
وتضَرُّعًا في لهفةٍ وتنادي
ولمن عَنتْ هذي الوجوهُ كريمةً
وتجرَّدتْ في الموقفِ المعْتادِ
ولمن مَشتْ كلَّ الفِجَاجِ وأقبلتْ
بالوفدِ يهتفُ باسمهِ وينادي
للَّهِ للرحمنِ جلَّ جلالهُ
هذا الخضوعُ يلجُّ بالعبّادِ[2]

وفي لقطة أخرى للغزاوي، يصف مسيرهم، فيقول:

سُبْحانَ من جمعَ الحجيـ
ـجَ فلا فُسُوقَ ولا جِدالْ
لبَّى خلائقُكَ الدّعا

(١) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى ١١٠
(٢) أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية ٢/١/٨٩٧

من كلَّ فجٍّ بـــــامــــتِـــــثَـــــالْ

وتَــــتــــابَــــعُــــوا زُمَـــرًا عـــلـى

مَـــتنِ الـــبـــحــــارِ أو الجـــبـــالْ

شُـــعْثَ الـــنـــواصي حُـــسَّـــرًا

لم تُـــلْـــهِـــهِم دنــــيــــا ومــــالْ

يــــتــــســــابــــقــــون لمــــوقفٍ

خــلتِ الــقــرونُ ومــا اســتــحــال

لا فــــرقَ بـــينَ عـــظـــيـــمِـــهِمْ

وحـــقـــيـــرهِمْ بـــين الـــتلالْ

كلُّ امــــرئٍ مــــنـــهُمْ تَـــسَـــا

وى في الـــلـــبـــاسِ وفي الـــظِّلالْ(١)

وهذا شاعر معاصر هو حبيب معلا المطيري يصف سير الركبان إلى البيت المحرم، ودموعهم تجري، وأصواتهم تلبي، يقول بعد تحية البيت الحرام:

ألا أيُّـهـا الـبـيتُ الـعـتـيقُ تحـيـةً

إلـيكَ عـلى الأيـام مـا نـاحَ نـائحُ

سَـرتْ نَـحْـوكَ الـركـبـانُ من كلِّ وجْـهـةٍ

قـد ابـيـضّتِ الأثـوابُ والـقـلبُ صـالحُ

يَـؤُمّـونَ نـحـوَ الـبـيتِ تَـهْـمِي عُـيونُـهمْ

كـأنَّ مـدارَ الـعـينِ فـيـهنَّ نـاضحُ

يـنـادون يـا لـبَّـيْكَ لـله سـعـيُـهُمْ

فَـتَـسْـمـعُـهمْ تـلكَ الجـبـالُ الـنـواطِحُ

لكَ الحـمـدُ يـا ربّـاهُ مـا طـافَ طـائفٌ

ومَـسَّحَ بـالـركنِ الـيـمـانيِّ مـاسحُ

---

(١) ديوان نوافذ الشمس ٧

ويتصور نفسه مع الحجاج فيقول:

كـأنّيَ في تـلكَ الـربـوعِ مُـلـبِّـيًـا
معَ الـقـومِ حـتى يـبلغَ الـقـربَ طـامحُ
لـدى الـكـعـبـةِ الْـغَـرّاءِ طـابَ مَـزارُهَـا
أتـاهـا من الـنـاسِ الـكـرامِ الجـحـاجحُ
فـفي عـرفـاتِ الـله يَـمْـحُـونَ حُـوبَـةً
لـهـا في صَـمـيمِ الـقـلبِ لَـذْعٌ يُـراوِحُ
وفي الـمَـشْـعَـرِ الـقُـدسيِّ مَـدّوا أكـفَّـهُمْ
أيـا ربِّ في الأعْـتـابِ تـأتي المـنـائحُ[1]

وإذا كان الشعراء في العصر الحديث من المكيين وغيرهم قد ترنموا بحب مكة، فإنَّ من شعراء الوطن العربي في كلِّ بقاعه، من كانت لهم مكة طموحًا وغاية، والوصول إليها أمنية ورغبة، والحديث عنها تقربًا وطاعة، ولعل أمير الشعراء أحمد شوقي كانت لديه الرغبة الأكيدة في الوصول إليها، وما قصيدته إلى (عرفات الله) إلاّ تعبير عن ذلك الشوق الأكيد، فشوقي يعبر عن شوقه من خلال هذه القصيدة المدحية، حيث يؤكد على ذكر التفاصيل، فيقول:

إلى عَـرَفـاتِ الـلـهِ يـا خـيـرَ زائـرٍ
عـلـيكَ سلامُ الـلـهِ في عـرفـاتِ
ويـومَ تـولّي وجـهـةَ الـبـيتِ نـاضـرًا
وسـيمَ مـجـالي الـبِشْـرِ والـقَـسَـمَـاتِ
عـلـى كلِّ أُفْقٍ بـالحـجـازِ مَلائكٌ
تـزفُّ تحـايـا الـلـهِ والـبـركـاتِ
وفي الـكـعـبـةِ الـغـرّاءِ ركنٌ مُـرحِّبٌ
بـكـعـبـةِ قُـصّـادٍ وركنِ عُـفَـاةِ
ومـا سَـكَبَ المـيـزَابُ مـاءً وإنَّـمـا

(١) ديوان نوافذ الشمس ٧ – ٩

(٢) الشوقيات ١ / ٩٨

أفـاضَ عــلــيكَ الأجــرَ والــرَّحــمــاتِ
وزمــزمُ تجـري بــينَ عَـيـنـيكَ أعْـيُـنًـا
من الـكـوثـرِ المـعـسـولِ مُـنْـفَـجِـراتِ[٢]

وهذا إحسان عبّاس يخاطب مكة ويهنئها بمولد الرسول الأعظم في قصيدته (عرس النور في أم القرى) يقول:

حَــرّكي مــزهــرَ الــمَــبَــاهجِ إنَّ الْـ
ــلَـيلَ يـصـحـو عـلـى اهـتـزازِ الـنّـشـيـدِ
واسْـكُـبي في الـشّـعـابِ تـرنـيـمـةَ الـنُّـو
رِ ونــاغـي الأطــيــارَ بــالــتــغــريــدِ
واغْـمُـري الـكـونَ بـالـهـتـافِ فـقـدْ هـبْـ
ـبَ عــلـى الـكـونِ نـفـحـةٌ من خــلــودِ
بــشّــري الـدهــر فـالـغـيـوبُ تجـلَّتْ
عن ســنــاءٍ في وجهِ خَــيــرِ ولــيــدِ
أنتِ يــا مــنــزلَ الملائكِ والــوَحـ
ـيِ ومَــهْــوَى الإيمــانِ والــتَّــوحــيــدِ
أحــرمتْ حَــوْلَكِ الــقــلــوبُ وراحتْ
تَــنْــهَلُ الأمنَ من لَــمَــاكِ الــبَــرُودِ
الــنُّــبــواتُ من جــبــيــنكِ فــاضتْ
وجَـثَـا الـكـونُ في عـمـيقِ الـسُّـجُـودِ
غــادةُ الــبــيــدِ أنتِ في كلِّ قــلبٍ
مــعــبــدٌ طــائفٌ بــعــيــدُ الحــدودِ
أنتِ تــســبــيــحــةٌ يـظلُّ الحَــيَــارى
حَــوْلَــهــا حُــوَّمًــا لــيــومِ الــورودِ[١]

■ ذكر الأمكنة والبقاع

(١) ديوان إحسان عباس ٢٥٧

فهذا أبو طالب يذكر لنا في لاميته التي مدح بها نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام العديد من أمكنة مكة مثل: (جبل ثور وحراء والبيت الحرام وما فيه من الحجر الأسود، ومقام إبراهيم والصفا والمروة، والمشعر الحرام، وجبل عرفة، ومزدلفة، ومنى والمحصب)، ولا يكاد يترك مكانًا أو مشعرًا إلا وأتى به في هذه اللامية الرائعة في مدح سيد البشر، يقول:

ولَـمّـا رأيتُ الـقَـوْمَ لا وُدَّ فـيـهمُ
وقـدْ قـطَّـعـوا كلَّ الـعُـرَى والـوسـائلِ

صَـبـرتُ لـهم نـفـسي بـسـمـراءَ سَـمْـحـةٍ
وأبـيـضَ عَـضْـبٍ من تُـراثِ الـمَـقـاولِ

وأحـضـرتُ عـنـد الـبـيتِ رَهْـطي وإخـوتي
وأمـسـكتُ من أثـوابه بـالـوَصَـائلِ

قـيـامًـا مـعًـا مُـسْـتـقـبلـينَ رتـاجَهُ
لـدى حـيثُ يَـقْـضي حـلْـفَهُ كلُّ نـافلِ

أعـوذُ بـربِّ الـنّـاسِ من كلِّ طـاعنٍ
عـلـيـنـا بـسُـوءٍ أو مُـلِحٍّ بـبـاطلِ

وثَـوْرٍ ومَنْ أرسى ثَـبِـيـرًا مـكـانَهُ
وراقٍ لـيَـرْقى في حِـراءَ ونـازلِ

وبـالـبـيتِ، حقِّ الـبـيتِ من بـطنِ مـكـةٍ
وبـالـلـهِ إنَّ الـلـهَ لـيسَ بـغـافلِ

وبـالحَـجـرِ الـمُـسْـودِّ إذْ يمـسـحـونهُ
إذا اكـتـنـفـوهُ بـالـضُّـحـى والأَصَـائلِ

ومـوطئِ إبـراهـيمَ في الـصَّـخـرِ رطـبـةً
عـلى قَـدَمـيهِ حـافـيًـا غـيـرَ نـاعلِ[1]

(١) ديوان أبي طالب ٦٣ – ٧٤
(٢) ديوان الأعشى الكبير ١٧

وهذا الأعشى يذكر عدداً من الأماكن في قوله يهجو عمير بن عبدالله بن المنذر بن عبدان، فيقول:

فمـا أنتَ من أهل الحَـجُـون ولا الـصَّـفـا
ولا لكَ حقُّ الـــشّـــربِ من مـــاءِ زَمْــزمِ
ومـا جَـعلَ الـرحـمنُ بـيـتَكَ في الـعُلا
بـأجـيـاد غـربيّ الـصّـفـا والـمُـحـرَّمِ[٢]

وذكر الأماكن في الشعر الحديث يلتقي مع القديم، وإن كان بعض المسميات قد تغير، يذكر مفرج السيد الكعبة الشريفة، والمقام والحجر وحطيم وزمزم والمنارات وحراء، يقول:

وبكِ الـكـعـبـةُ الـشّـريـفـةُ تـزهـو
بِـسَـنـاهـا وطِـيـبِـهَـا الـفَـوّاحِ
والمـقـامُ الـكـريمُ والحـجـرُ فـيهِ
يـجـدُ الـصّـدرُ لـذّةَ الإنـشـراحِ
وحَـطِـيمٌ وَزَمْـزمٌ وهْـو أحـلى
لـفـؤادي مـن الـزُّلالِ الـقَـرَاحِ
والمـنـاراتُ في دُجَى الـلـيل أهْـدَى
من مَـنَـارِ الـبِـحـارِ لـلـمَلاّحِ
وحِـراءُ أعْـظِمْ بـغـارِ حـراءٍ
مـنـزِلِ الـوحي والـهُـدى والـصَّلاحِ[١]

ويعدد حسين عرب هذه الأماكن، فيقول:

وحـراءٌ وزمـزمٌ والمـصـلّى
ومِـنًى والمـقـامُ والمـروتـانِ
والمحـاريبُ والمـشـاعـرُ كـونٌ
نـاطقٌ بـالـتُّـقَى وبـالإيمـانِ
هـذه مـكـةٌ فـحيِّ المـغـاني

(١) مكتي قبلتي ٢٠٦
(٢) المرجع نفسه ٤٥

بـــينَ أرجـــائـــهـــا بـــعـــذبِ الأمـــاني

فـإذا مـا نـظـرتَ لـلـكـعـبـة الـغَـرْ

راءِ فـــاســجـــدْ لـــفـــاطـــرِ الأكـــوانِ

فـــهـــنـــا بـــيـــتهُ وهـــذا حـــمـــاهُ

فـــازَ فـــيهِ الحـــجـــيجُ بـــالـــغـــفـــرانِ

والمـــنـــاراتُ حـــولهُ شـــامـــخـــاتٌ

رجَّـعتْ في الـسـمـاءِ صـوتَ الأذانِ[٢]

ويذكـر الغـزاوي هـذه الأمـاكن من خـلال القصـيدة المدحـية، ففـي مدحـه للملك فيصل يقول:

في رُبى الخَـيفِ من مِـنىً شِـمْتُ بـرقًـا

ثمَّ وَدْقًـا هـو الـسّـحـابُ الـثّـقَـالُ

ربــــعتْ مـــــنهُ ذاتُ عِــــرقٍ وَوَجٌّ

وعــــكــــاظٌ وكــــبْــــكبٌ والآلُ

وبِـــنَـــعْـــمَـــانَ ذي الأراكِ تَـــهَـــادَى

مـوكبُ الـنـصـرِ وانْـبَـرَى الأبـطـالُ[١]

ويقول في أخرى مادحًا الملك فيصل وذاكرًا العديد من الأماكن:

هـــذا ثَـــبِـــيـــرُ في الـــبِـــجَـــادِ مُـــزَمّلٌ

وشِـــغَـــافُهُ تَـــعـــلـــو بـــهـــا الأنْـــسَـــامُ

إنَّ الـــمَـــشَـــاعِـــرَ مـــا ازدهتْ إلاّ لأنْـ

ـنَ بـــهـــا الـــفـــرائضَ والحـــدودَ تُـــقـــامُ

وحِـــرا وجـــمعُ والـــبـــطـــاحُ ومـــكـــةٌ

والخَـــيفُ والـــتَـــنْـــعِـــيمُ والأعْلامُ

لَـــهَـــجَتْ بـــفـــيـــصلَ إنّهُ المـــلكُ الـــذي

(١) أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية ٢ / ٢ / ١٥٦٨

(٢) أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية ٢ / ٢/ ١٦٧٥

يــزهــو الــرشــيــدُ بــعــصــرهِ وهــشــامُ[٢]

ويحظى غار حراء أو جبل النور من الشعراء المحدثين والمعاصرين بلفتات وصفية جميلة، تؤكد على مكانة هذا الجبل في النفوس، وما كان له من أثر، حيث المكان الأول الذي احتوى تعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه أشرق النور، يقول حسين عرب متسائلاً عن ذاك العهد الرائع، عهد الوحي والقرآن، هذا العهد الذي جعل الغار مكللاً بالغار:

جــبلَ الــنــورِ كــيفَ عَــهْــدُكَ بــالــوحــ
ــي وعــــهـــدُ الـــربـــوعِ والـــقـــرآنِ
أيُّ ســــرٍّ أحـــاطَ بـــالــغـــارِ حـــتّى
صـــار غـــارًا عـــلـى جـــبـــين الــزمـــانِ
أشْــرَقَ الــفــجــرُ مــنهُ فــاشْــتَــعلَ الــلــيْــ
ــلُ ضـــيــــاءً وهـــلّلَ المـــشْـــرِقَـــانِ
وصلَ الأرضَ بـــالـــســـمـــاءِ حـــديثٌ
عـــبـــقـــريُّ الـــظّلالِ والألـــوانِ
آيـــةٌ بـــعـــدَ آيـــةٍ بـــعـــدَ أخْـــرَى
يَـــتَـــوارى من نـــورِهَـــا الـــنَّـــيِّـــرانِ
سُـــوَرٌ كـــالـــنّـــجـــوم بل هي أسْـــمَى
بـــالمـــعـــاني وبـــالـــهـــدى والـــبَـــيـــانِ[١]

وجبل النور الذي شهد المعجزات عند حسن عبدالله القرشي، منه شع اليقين، وهو قمة الخلود، كيف لا وقد تعبد فيه سيد البشر؟ يقول:

هَـــيَـــا جـــبلَ الـــنـــورِ كم ذا شَـــهِـــدْتَ
من المـــعْـــجِـــزاتِ وكَمْ ذا ظَـــهَـــرْ
تحـــدَّثْ فـــفي الـــغـــارِ شعَّ الـــيـــقـــينُ

(١) مكتي قبلتي ٤٧

وقـد تُـنْـطِقُ الـذِّكْـريـاتُ الحَـجَـرْ

أيـا قِـمَـةً فَـوقَ هـامِ الخُـلـودِ

سـمتْ بِـسَـنـاهـا الـشّـذيِّ الـعَـطِـرْ

إذا مـا ارتَـقَـيتُ إلـيكَ انـطـوى

بِـحِـسِّي الـزمـانُ وَكَلَّ الـبَـصَـرْ

وخَـفَّـقْتُ وطْـئيَ أنْ يـسـتـقِـرَّ

أمـا سـارَ فـيكَ نـبيُّ الـبَـشَـرْ

وكَم قَـدْ تَـعَـبَّـدَ ثَـبتَ الجَـنـانِ

يَـزينُ مُـحَـيَّـاهُ أسْـمَى أثـرْ

إلى أن أطلَّ عـلى الـكـائـنـاتِ

كـإطلالـةِ الـفـجـرِ بـعـدَ الـسَّحَـرْ(١)

الأقحوانة: موضع بمكة ما بين بئر ميمون إلى بئر ابن هشام قديمًا، وحديثًا تشمل أحياء الروضة والششة وما جاورهما. وقد ذكرت في الشعر، فمن ذلك ما ورد في شعر يفتخر فيه الحارث بن خالد المخزومي بانتمائه وانتسابه لمكة، وبالذات إلى مكان بعينه في مكة هو الأقحوانة، فيقول:

من كـان يَـسْـألُ عـنّـا أين مَـنْـزِلُـنَـا

فـالأُقْـحُـوانـةُ مـنّـا مَـنـزلٌ قَـمِنُ

إذ نـلـبسُ الـعَـيْشَ غـضًـا لا يـكـدِّرُهُ

قَـولُ الـوشَـاةِ ولا يَـنْـبـو بـنـا الـزمنُ(٢)

أبو قبيس: جبل من جبال مكة، ومكة تقع بين جبلين هما: أبو قبيس وقعيقعان، ويتصل بأبي قبيس الخندمة، وقال فيها حماس بن قيس البكري:

إنّكِ لـو شَـهِـدْتِ يـومَ الخَـنْـدمَهْ

(١) المرجع نفسه ١٣٤

(٢) غاية المرام ١ / ١٣٠

(٣) كتاب المناسك ٤٧٣ - ٤٧٤

(٤) المحمدون من الشعراء ٢٢

(٥) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ٤٩٨

إذْ فـــرَّ صـــفـــوانٌ وفـــرَّ عِـــكْـــرِمَهْ[٣]

يقول علي بن محمد التنوخي القاضي يذكره:

قـــد قَـــدِمَ الـــعُـــجْبُ عـــلى الـــرُّويس
وشـــارفَ الـــوهـــدُ أبـــا قُـــبَـــيْسِ[٤]

بئر ميمون: بئر بمكة بين البيت والحَجُون بأبطح مكة، وفيه قال عمر بن أبي ربيعة:

نـــزلتْ بمـــكـــةَ من قَـــبـــائلِ نَـــوفلٍ
ونـزلتُ خـلفَ الـبـئـرِ أبـعـدَ مَـنْـزِلِ[٥]

وقيل:

وهم حـفـروا الـبـئـرَ الـتي طـابَ مـاؤُهَـا
بمـــكـــةَ والحُـــجَّـــاجُ ثَمَّ شُـــهُـــودُ[١]

بطن مكة: بطحاؤها وداخلها. وقريش قسمان: قريش البطحاء وهم الذين يسكنون أباطح مكة، وهم أشرافها، وقريش الظواهر وهم الذين ينزلون ما حول مكة، يقول أمية بن أبي الصلت الثقفي في رثاء عبدالله بن جدعان:

ألا تَـــــرَوْنَ كـــــمـــــا أرى
ولـــــقـــــد أبـــــانَ لـــــكلِّ لامحْ
أنْ قـــد تـــغـــيَّـــرَ بـــطنُ مـــكْ
ـــكَـــةَ فـــهْي مُـــوحِـــشَـــةُ الأبـــاطِحْ[٢]

ويقول مرة أخرى في رثاء ابن جدعان ذاكرًا أنه من قريش الأباطح الأشراف، لا من الظواهر:

نَـــزلـــوا الـــبِـــطَـــاحَ وفُـــضِّـــلتْ
بـــهمُ الـــبـــواطنُ والـــظّـــواهِـــرْ
فَـــحَـــلَـــلْتَ مـــنـــهـــا بـــالـــبـــطـــا

(١) معجم ما استعجم ٤ / ١٢٨٥
(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٤٧
(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت ٤١٤
(٤) هامش ديوان أمية ٤١٤

حِ وحلَّ غــيــركَ بــالــظــواهــر[٣]

وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

فــلــو شَــهِـدتْـنـي من قـريشٍ عِـصَـابـةٌ
قـريشِ الـبـطـاحِ لا قـريش الـظـواهـرِ[٣]

ويقول أبو دهبل ذاكرًا بطن مكة:

ولا تــوعــدْ لــتَــقْــتُــلَهُ عــلــيّــاً
فــإنَّ وعــيــدَهُ كـلأٌ وبــيــلُ
ونــحــن بِــبــطــنِ مــكــةَ إذ تَــدَاعى
لِــرهــطِكَ من بــنــي عــمــروٍ رَعِــيلُ[١]

الحَجون: بفتح أوله على وزن فَعول: موضع بمكة عند المُحَصَّب هو الجبل المشرف بحذاء المسجد الذي يلي شعب الحرارين، على ما بين الحوضين اللذين في حائط عوف.. قال أبو ذؤيب الهذلي:

ألِــكْــنِي إلــيــهــا وخَــيْــرُ الــرَّســو
ل أَعْــلَــمُــهُمْ بــنــواحي الخَــبَــرْ
بــآيــةِ مــا وقَــفَتْ والــرِّكــا
بُ بــيــنَ الحَــجُــونِ وبــيــن الــسِّــرر[٢]

ويذكر الأسدي متشوقًا:

ديــارَ الحــيِّ أينَ هــمُ قــطــونُ
أنــعــمــانُ الأراكِ أمِ الحَــجُــونُ[٣]

---

(١) ديوان أبو دهبل ٩٨
(٢) معجم ما استعجم ١/ ٣٣٦
(٣) المحمدون من الشعراء ١٤١
(٤) المصدر نفسه ٢٥٠
(٥) ديوان ابن المقرب ٢ / ٩٩٤
(٦) معجم ما استعجم ٢/ ٤٢٧

ويقول محمد بن جعفر:

فصلّى عليه اللهُ ما ذرَّ شَارقٌ
ووافتْ حَجونَ البيتِ أركُبُ مُحْرِمِ[٤]

ويدعو ابن المقرب، فيقول:

أَنْعِمْ علينا بالدّعاءِ إذا الْتَقَى
بحَجُونِ مكةَ مَشْرِقٌ وشَآمُ[٥]

الحِجْر: حطيم الكعبة، وهو المدار بالبيت كأنه حجْرُه، مما يلي المشعب[٦] (ويقع في شمال الكعبة، وهو ما حُطم من الكعبة وكُسر، وهو بناء مستدير على شكل نصف دائرة.. وهذا البناء مغلّف بالرخام، وأحد طرفيه محاذ للركن الشامي، والآخر محاذ للركن الغربي)[١] وقال ابن دريد: (كانوا يحلفون عنده، فيحطم الكاذب) [٢].

وقد ورد ذكر الحطيم كثيرًا في الشعر العربي، ويقرن بزمزم دائمًا، يقول عروة بن أذينة:

لو كان حَيّا قَبْلهنَّ ظَعَائنًا
حَيّا الحطيمُ وجُوهَهُنَّ وزمْزمُ
وكأنّهُنَّ وقد حسرنَ لواغِبًا
بيْضٌ بأكنافِ الحَطِيمِ مُركَّمُ[٣]

ويقول الشريف المرتضى معلنًا ملكيته للحطيم:

ولنا الحَطِيمُ وزمزمٌ وتُراثُنَا
نِعْمَ التّراثُ عن الخليلِ مقَامُ
والحِجْرُ والحَجَرُ الذي لِصِفَاتِهِ

(١) جغرافية شبه جزيرة العرب ١٦٤ – ١٦٥
(٢) كتاب الأمكنة والمياه للزمخشري ٦٨
(٣) شعر عروة بن أذينة ٣٦٨
(٤) ديوان الشريف المرتضى ٣ / ٣١
(٥) شعر أشجع السلمي ١١١

أبـدَ الـزمـانِ الـضمُّ والـتّـقْـبـيلُ[٤]

وفي مثله يقول أشجع السّلمي:

والحِـــجْــرُ والحَـــجَـــرُ الأصـــمْـ
ـمُ بـــطـــولِ مسٍّ واســـتلامِ[٥]

حراء: جبل يقع إلى الشمال الشرقي من مدينة مكة، ويسمى جبل النور، ويحتوي على غار حراء الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام يتعبد فيه قبل الرسالة، وفيه كان أول نزول الوحي، ويلفظ بكسر أوله، ممدود على وزن فعال، جبل بمكة، قال الأصمعي: بعضهم يذكِّره ويصرفه، وبعضهم يؤنِّثه ولا يصرفه، قال عوف بن الأحوص في تأنيثه:

فـــإنّي والـــذي حَـــجَّتْ قـــريشٌ
مَــحَـــارمَهُ ومـــا جَـمَـعتْ حِـراءُ[١]

وأنشد الفراء:

أَلَـسْـنـا أكْـرمَ الـثَّـقَـلـيْن رَحْلاً
وأعــظــمَــهُم بــبــطنِ حِــراءَ نــارا

قال ابن الأنباري: إنما لم يجر حراء لأنه جعله اسمًا لما حول الجبل، فكأنه اسم لمدينة، وأنشد لابن هرمة في التأنيث:

وخــيــلتْ حِــراءٌ من ربــيعٍ وصــيِّفٍ
نــعــامــة رملٍ وافــرًا ومُــقَــرْنــصَــا

وأجراها لضرورة الشعر، وقال أبو حاتم التذكير في حراء أعرف الوجهين[٢] .

ويشبهه أحد الشعراء برأس الفارسي المتوج، كما في قوله:

تَــفَــرَّجَ عــنــهـا الـهَمُّ لمـا بـدا لـهـا

(١) معجم ما استعجم ٢/ ٤٢٦

(٢) معجم ما استعجم ٢٤٧/٢ والبيت في ديوانه ١٣٤ والمقرنص: الذي سقط ريشه

(٣) انظر المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٠٨

(٤) ديوان حسان بن ثابت ٧٠

حــراءُ كــرأسِ الــفَــارسيِّ الــمُــتَــوَّجِ

مُــنَـعَّـمَــةٌ لم تــدرِ مـا عــيشُ شِـقْـوةٍ

ولم تَـعْـتـرد يـومًـا عـلـى عودِ عَـوسَجِ[٣]

وورد في شعر حسان بن ثابت يشبه جمع الكفار يوم بدر بجبل حراء، يقول:

غـــداةَ كـــأنَّ جَـــمـــعَـــهُمُ حـــرَاءُ

بَـــدتْ أركـــانُهُ جُـــنْحَ الـــغـــروبِ

فَلاقَـــيْـــنَـــاهُمُ مـــنّـــا بِـــجَـــمْعٍ

كَـــأُسْـــدِ الـــغـــابِ مُـــرْدَانٍ وشِـــيبِ[٤]

الخيف:

ويذكره عبدالله بن قيس الرقيات، فيقول:

لــيتَ شِــعْــري أفــاحَ رائــحــةَ المــسـ

ـك ومــا إنْ إخــالُ بــالخَــيف أُنْــسِي[١]

ويقول كُثَيِّر:

تــوهَّــمتُ بــالخَــيف رســمًــا مــحــيلا

لِــعَــزَّةَ تَــعْــرِفُ مــنهُ الــطُّــلُــولا[٢]

ولمهيار يقول:

لـيتَ بـيـتًـا بـالخَـيْفِ أمسِ اسـتـضفـنـا

هُ قَــرانــا ولـــو غـــرامًـــا ووَجْـــدًا[٣]

ويقول الشريف الرضي:

---

(١) ديوانه ٥٨

(٢) معجم ما استعجم ٣ / ٧٨٧

(٣) مثير العزم الساكن ٣١٨

(٤) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٧٩

(٥) سنن النسائي رقم ٣٣٧٤

وإذا مــرَرْتَ بــالخَــيفِ فــاشْــهَــدْ
أنَّ قــلــبي إلــيهِ بــالأشــواقِ[٤]

ثبير: جبل بمكة.. كانوا يقولون في الجاهلية: (أشرق ثبير كيما نُغير) وهو الذي صعد فيه النبي صلى الله عليه وسلم، فرجف به، فقال: «اسكن ثبير، فإنّما عليك نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيد[٥] » وقد روي هذا في حراء.

ويقول العرجي ذاكرًا ثبيرًا في غزله:

وما أنسَ مِ الأشياء لا أنسَ موقفًا
لنا ولها بالسّفحِ دونَ ثَبِيرِ
ولا قولَها وَهْنًا وقد سَمَحَتْ لنا
سوابقُ دمعٍ لا تجفُّ غزيرِ
أأنتَ الذي خُبِّرتُ أنّكَ باكرٌ
غداةَ غدٍ أو رائحٌ بِهَجيرِ
فقلتُ: يسيرٌ بعضُ يومٍ بغَيْبَةٍ
وما بعضُ يومٍ غَيبةً بيسيرِ[١]

دار الندوة:

أنشأها قصي بن كلاب لتكون مركزًا وناديًا يجتمع فيه زعماء قريش، لتبادل المشورة في ما يخص مصالح مكة الاقتصادية، والسياسية والاجتماعية والعسكرية، وكانت ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الجهة الشامية من الكعبة، وكانت فسيحة وسيعة، وفيها كانت قريش تقضي شؤونها العامة، وقد سُمّيت الندوة لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر ندُّوا إليها للتشاور [٢].

قال ابن سلام:

أَلْهَى قُصَيّاً عن المجدِ الأساطيرُ

(١) المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٠٣
(٢) انظر الأغاني ٤ / ٣٨٤، وياقوت الحموي١٩ / ٢٧٩
(٣) طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٣٥ – ٢٣٦
(٤) كتاب المناسك ٤٧٦

ورشـوةٌ مـثل مـا تُـرشى الـسَّـفَـاسـيـرُ
وأكـلُـهـا الـلـحمَ بـحـتًّـا لا خـلـيطَ لهُ
وقـولُـهـا رحـلـتْ عِـيـرٌ مَـضتْ عـيـرُ[٣]

الريان: وفي ظهر دار العجلة جبل الريان، قال الشاعر:

يـا حـبّـذا جـبـلُ الـريّـانِ من جـبلٍ
وحـبّـذا سـاكنُ الـريّـان من كَـانَـا

ويذكر حمد الجاسر: والبيت لجرير، ومن المستبعد أن يقصد جبلاً بعيدًا من بلاده[٤] ولا أدري سبب استبعاد حمد الجاسر ذلك، فجبل نعمان أيضًا بعيد عن كل من ذكروه، ولم يكن ذلك مما يستبعد.

ذو المجاز:

سوق من أسواق العرب، وهو عن يمين الموقف بعرفة، قريبًا من كبكب[١]، وورودها في الشعر يدل على أهميتها، يقول أبو ذؤيب الهذلي:

وراحَ بـهـا من ذي الـمَـجَـازِ عَـشـيَّـةً
يُـبَـادرُ أولى الـسَّـابـقـاتِ إلى الحَـبْلِ[٢]

ويقول المتوكل الليثي:

لـلـغـانـيـاتِ بـذي المجَـاز رسُـومُ
في بـطنِ مـكـةَ عَـهْـدُهُنَّ قَـديمُ[٣]

ويرى الأستاذ سعيد الأفغاني أن ذا المجاز الذي ورد في معلقة الحارث بن حلّزة اليشكري في قوله:

واذكـروا حِـلْفَ ذي الـمَـجَـاز ومـا قُـدْ

(١) معجم ما استعجم ٤ / ١١٨٥
(٢) أسواق العرب ٣٤٧
(٣) شعر المتوكل الليثي ٧٤
(٤) أسواق العرب ٣٤٨
(٥) معجم ما استعجم ٣ / ٧٣٣

ـــــدِمَ فـــيهِ الــعُـــهُـــودُ والـــكُـــفَلاءُ

أنها التي في شمال الجزيرة لأن مقام قبيلته يشكر والأحداث بينها وبين غيرها كانت هناك[4]، ولا أتصور أنّ هناك ما يمنع أن يكون هذا الحلف قد عقد في هذا السوق قرب مكة تأكيدًا على الالتزام به، وبخاصة أن قبيلة يشكر كانت من القبائل التي ترد هذه الأسواق كما ذكر هو نفسه قبل قليل في حديثه عن ورود القبائل موسم الحج، وسوق عكاظ.

ويبدو أنّ إقامة هذه السوق في وقت الحج ما يدعم القول بأنها هي المقصودة في هذا الشعر.

السِّرَر: بكسر أوّله موضع مذكور في رسم الحجون، كما في بيت أبي ذؤيب:

بِـــآيـــــةِ مـــا وقَـــفَتْ والــرِّكـــا
بُ بـــينِ الحَـــجُـــونِ وبَـــيْنَ الـــسِّـــرَر[5]

الطوي:

يقول الحطيئة:

يـــا دارَ هـــنـــدٍ عَــفَتْ إلاّ أثَـــافِـــيــهَـــا
بـــينَ الـــطّـــويِّ فَـصَـــاراتٍ فَـــوادِيـــهَـــا

قلهى: موضع قريب من مكة، وفيه يقول زهير بن أبي سلمى:

إلى قَـــلَـــهَى تـــكـــونُ الـــدّارُ مـــنّـــا
إلى أكْـــنـــافِ دَوْمَـــةَ فـــالحَـــجُـــونِ[1]

عكاظ: وعكاظ مشتق من قولك: عكظت الرجل عكظًا إذا قهرته بحجتك، لأنّهم كانوا يتعاكظون هناك بالفخر، قال ياقوت الحموي: (عكاظ اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة، ويتفاخرون بها، ويحضرها شعراؤهم، ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر، ثم يتفرقون)[2] (وقيل: عكاظ ماء، قال: إنَّ

(١) معجم ما استعجم ٣ / ١٠٩٣
(٢) معجم البلدان: عكاظ
(٣) كتاب الأمكنة للزمخشري ١٥٤
(٤) شرح ديوان الحماسة ٣ / ١٥١٤
(٥) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ٢٨٥

عكاظًا ماؤنا فخلّوه، وقيل: عكاظ ما بين نخلة والطائف إلى بلد يقال له الفتق، كانت سوق تقام هلال ذي القعدة فلا تزال قائمة عشرين يومًا)[٣] ويذكر المرزوقي في شرح الحماسة فيقول: (عكاظ : واد للعرب فيه سوق لهم يجتمع فيه طوائف الناس من جميع الأحياء، فيتعارفون فيها، ويتعلقون بالأخبار بعد التذاكر بها، والتنسم لها، وبينهم المواعدات، والمقايضات، والإحن والتِّرات، والمنافرات، والمناقضات)[٤] ويصفه الأستاذ سعيد الأفغاني بقوله: (عكاظ هي المعرض العربي العام أيام الجاهلية، معرض بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم لدينا نحن أبناء هذا العصر، فهي مجمع أدبي لغوي رسمي، له محكمون تُضربُ عليهم القباب، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم)[٥] وكانت بعكاظ وقائع مرَّة، وفي ذلك يقول دريد بن الصمة:

تَغَيَّبْتُ عن يَومَيْ عُكاظٍ كِلَيهِمَا
وإنْ يكُ يومٌ ثالثٌ أتغيَّبُ

وإنْ يكُ يومٌ رابعٌ لم أكنْ بهِ
وإنْ يكُ يومٌ خامسٌ أتجنّبُ[١]

ويشير حاتم الطائي إلى مكانة عكاظ الشعرية، وأن الشعر من عكاظ ينتشر بقوله:

فلا أعرفنَّ الأُدمَ والدُّهْمَ تَغْتَلِي
يَزُرْنَ عُكَاظًا بالذي أنا قائلُ[٢]

ويذكر النابغة الذبياني عكاظ، وكان فيه شيخ النقاد والمحكمين، فقد أشار عليه زُرعة ابن عمرو بن خويلد وقد لقيه في عكاظ بأن يشير على قومه بقتال بني أسد وترك حلفهم، فأبى النابغة الغدر وقال بعد أن توعده زرعة:

نُبّئت زرعة والسّفَاهةُ كاسمها
يُهْدي إليَّ غَرائبَ الأشْعَارِ

---

(١) معجم ما استعجم ٣ / ٩٦٠-٩٦١

(٢) ديوان حاتم الطائي ٢٨٤ والأدم: صفة للإبل، والدهم: صفة للخيل.

فَــحَــلَــفْتُ يــا زَرْعَ بن عــمــروٍ إنّــني
رجلٌ يَــشُقُّ عــلى الــعَــدُوِّ ضِــراري
أرأيتَ يــومَ عــكــاظَ حــين لَــقِــيــتَــنِي
تحت الــعَــجَــاج فــمــا شَــقَــقَتَ غُــبَــارِي
أنّــا اقْــتَــسَــمْــنــا خُــطّــتَــيْــنــا بَــيْــنَــنَــا
فــحــمــلتُ بــرّةَ واحــتــمــلتَ فَــجــارِ
فَــلَــتَــأْتِــيَــنْكَ قــصــائــدٌ ولَــيَــدْفَــعَنْ
جــيــشًــا إلــيكَ قَــوَادمُ الأَكْــوَارِ
رهطُ ابنُ كــوزٍ مُــحْــقِــبي أدراعِــهم
فــيــهم ورهط ربــيــعــةَ ابنِ حُــذارِ
وبــنــو جَــذيمَــةَ حيُّ صــدقٍ ســادةٌ
غــلــبــوا عــلى خَــبْتٍ إلى تِــعْــشَــارِ
مُــتــكَــنِّــفي جَــنْــبَيْ عــكــاظَ كِــلْــيــهِــمَــا
يــدعــو بــهــا وِلْــدانُــهم عَــرْعَــارِ[1]

وكانت القبائل تأتي عكاظ للتجارة من قريش وهوازن وغطفان وخزاعة والأحابيش وعضل والمصطلق، ويؤمها من العراق والبحرين واليمامة وعمان والشحر وسائر أطراف الجزيرة، وكان أمر الموسم وقضاء عكاظ في بني تميم يكون ذلك في أفخاذهم: الموسم على حدة، وعكاظ على حدة، وكان من اجتمع له ذلك منهم عامر بن الظرب العدواني، وسعد بن زيد مناة من تميم، وقد فخر المخبل بذلك في شعره، فقال:

لَــيــاليَ سَــعْــدٌ في عُــكــاظٍ يــســوقُــهَــا
لــهُ كلُّ شَــرقٍ من عُــكــاظَ ومــغْــربِ[2]

(١) ديوان النابغة الذبياني ٣٧ وعرعار لعبة لصبيان الأعراب كانوا يتداعون بها ليجتمعوا للعب
(٢) انظر الأزرقي ١٣١ وأسواق العرب ٢٩١ والبيت في ديوان المخبل
(٣) انظر أسواق العرب ٣٠٥، والنثرة: الدرع الواسعة. والزغف: الدرع اللينة أو الرقيقة

وكان أصحاب الثارات يتعرفون إلى من لهم ثأر عندهم، ولذلك كان الفرسان يضعون على وجوهم أقنعة حتى لا يُعرفوا، وكان طريف بن تميم العنبري من فرسان العرب لا يتقنع، فنظر إليه رجل يتعرفه، فقال:

أوَ كُلـّمَا وَرَدَتْ عكاظَ قبيلةٌ
بعثوا إليَّ عريفَهُم يَتَوَسَّمُ
فَتَوَسَّموني إنّني أنا ذلكمْ
شَاكي سلاحي في الحوادثِ معلمُ
تحتي الأغَرُّ وفوقَ جلدي نَثْرةٌ
زغفٌ تردُّ السيفَ وهْو مُثَلَّمُ[٣]

فالمنافرة والمسابقة، والتجارة، والبحث عن الضائع، ومن له أسير، ومن يبحث عن عمل، ومن يريد إشهار عمل من أعماله، كل أؤلئك كانوا يأتون عكاظ، قال أبو ذؤيب الهذلي:

إذا بُنيَ القبابُ على عكاظٍ
وقام البيعُ واجتمع الألوفُ[١]

وقال آخر يضرب بها المثل:

فإنَّكَ ضحّاكٌ إلى كلِّ صاحبٍ
وأنطقُ من قُسٍّ غداةَ عُكَاظها[٢]

وهم إذا ارادوا نشر شعرهم بين العرب جاؤوا عكاظ وأنشدوا، كما ورد عن عمرو بن كلثوم في معلقته، حيث جاء عكاظ وأنشدها، والدليل على أهمية عكاظ في نشر الشعر قول أمية بن خلف الخزاعي يهجو حسان بن ثابت، يقول:

ألا مَن مبلغٌ حسّانَ عنّي
مُغْلغَلةً تدبُّ إلى عُكاظِ[٣]

---

(١) أسواق العرب ٣٣٩
(٢) المرجع نفسه ٣٣٩ – ٣٤٠
(٣) المرجع نفسه ٣٣٩
(٤) المرجع نفسه ٣٣٩

فأجابه حسان بقوله:

أتـــــاني عـن أمــــيّـــــةَ زورُ قـــــولٍ

ومــا هــو بــالــمـغـيبِ بــذي حِــفــاظِ

سَــأنــشــرُ مــا حَــيـيـتُ لــهم كلامًــا

يُــنَــشَّــرُ بــالمجــامِعِ من عــكــاظِ[٤]

وهذه امرأة قُتِلَ زوجها، فهجت قاتليه من بني عوف، مذكرة إياهم بأنهم سوف يلقون قولها هذا في عكاظ :

مــتى تَــرِدُوا عــكــاظَ تُــوافِــقُــوهــا

بــأســمــاءٍ مــجــادِعُــهــا قِــصَــارُ

أجـــيـــرانَ ابن مـــيَّـــةَ خـــبِّـــروني

أعـــينٌ لابنِ مـــيّـــةَ أم ضِـــمـــارُ

تَــجَــلَّلَ خِــزْيُــهَــا عــوفَ بنَ كــعبٍ

فــلــيسَ لخــلــفــهــا مــنهُ اعْــتِــذارُ

فــإنَّــكمُ ومــا تُــخْــفُــونَ مــنــهــا

كــذاتِ الــشــيبِ لــيسَ لــهــا خِــمَــارُ[١]

المأزمان:

وهما جبلان، قال أبو إسحاق الحربي: (وإذا كنت جائيًا من عرفات إلى منى فأنت تصير بين جبلين، وهما المأزمان)، قال كثير:

وقــد حَــلَــفتْ جَــهْــدًا بمــا نــحــرتْ لهُ

قــريشٌ غَــداةَ المــأزمــيْنِ وَصَــلَّتِ[٢]

المُحَصَّب:

بضمٍّ أوله، وفتح ثانيه، مُفَعَّل من الحصباء، موضع بمكة[٣]، يقول محمد بن إبراهيم الأسدي واقفًا على أطلال المحصب:

(١) شرح ديوان الحماسة ٣ / ١٥١٤ (٢) كتاب المناسك ٥٠٦ – ٥٠٧

(٣) معجم ما استعجم ٤ / ١١٩٢ وانظر كتاب الأمكنة والمياه والجبال ٦٢

(٤) المحمدون من الشعراء ١٣٩ (٥) شرح أشعار الهذليين ٩٤/١.

قف بـالـمُـحَـصَّبِ واسـألْ أيُّـهـا الـرجلُ
تـلكَ الـرسـومَ عن الأحـبـابِ مـا فَـعَـلـوا[4]

مجنَّة:

ماء مذكور في رسم عكاظ، ومجنة على أميال يسيرة من مكة، بناحية مرِّ الظهران، قال أبو ذؤيب الهذلي:

فَـوافَى بـهـا عُـسْـفـانَ ثمَّ أتى بـهـا
مَـجَـنّـةَ تَـصْـفـو في الـقِلال ولا تَـغْـلي[5]

وقد وردت في قول بلال بن رباح رضي الله عنه، في التشوق إلى مكة، بعد أن أصابته حمى المدينة:

ألا لـيتَ شِـعْـري هل أبـيـتنَّ لـيـلـةً
بـفخٍّ وحَـولِي إذخـرٌ وجـلـيلُ
وهلْ أرِدَنْ يـومًـا مـيـاهَ مـجـنَّـةٍ
وهل يـبـدُوَنْ لي شَـامـةٌ وطـفـيلُ[1]

مِنَى:

يقول الحارث المخزومي:

إنّي ومـا نـحـروا غَـداةَ مِـنًى
يـومَ الجِـمَـار تـؤُودُهـا الـعُـقلُ[2]

ويقول علي بن أفلح:

هـذه الخَـيفُ وهـاتـيك مِـنى
فـترفّق أيّـهـا الحـادي بِـنَـا[3]

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ١٣١، والإذخر والجليل: نبتان. وشامة وطفيل: جبلان مشرفان على مجنة

(٢) مثير العزم الساكن ١٣٢

(٣) المصدر نفسه ٣١٨

(٤) المجاز بين اليمامة والحجاز ٢٥٨

(٥) العفو والاعتذار ٢ / ٥٢٥

(٦) ديوان الفرزدق ٣٨٤

ولو تتبعنا ما ورد في منى لجمعنا ديوانًا كاملاً.

نَعْمَان: هو عُرنة.

يقول عنه عبدالله بن إدريس (: أنشودة الشعراء، ونغمة الهوى، وملعب الصبا، وريحانة تهامة، وميزابها، يذكر فيذكر الأراك والبشام والغَرَب، وتستذكر ليالي أنسه، ومجالي مرابعه، ونفحات نوره) [٤] ويصدق هذا القول على هذا الجبل الذي تغنى به الشعراء، ففاح أريجه، وعبقت روائحه، كما يقول النميري:

تـضـوَّعَ مِـسْكًـا بـطنُ نَـعْـمَـانَ أنْ مَـشَتْ
بـهِ زيـــنبُ في نِـــسْـــوَةٍ عَـــطِـــراتِ[٥]

ويذكر الفرزدق أراكه، فيقول:

دَعَـوْنَ بِـقُـضْـبَـانِ الأراكِ الـتي جَـنَى
لـهـا الـركبُ من نَـعْـمَـانَ أيّـامَ عَـرَّفُـوا[٦]

ويتخير عمر بن أبي ربيعة لمحبوبته هند أطيب هدية هي عود أراك من أعواد شجر نعمان:

تـــخـــيَّـــرتُ من نَـــعْـــمـــانَ عـــودَ أراكـــةٍ
لـــهـــنـــدٍ ولـــكنْ مَنْ يُـــبَـــلِّـــغـهُ هِـــنْـدا[١]

وقال أبو العميثل:

أمَـــا والـــرّاقـــصـــات بـــذاتِ عِـــرْقٍ
ومن صَـــلّى بـــنَـــعْـــمـــانِ الأراكِ
لـــقـــد أضْـــمَـــرْتُ حُـــبّكِ في فـــؤادي
ومـــا أضـــمـــرتُ حـــبّـــاً في سِـــواكِ[٢]

و يقول ابن الفارض في جبل نعمان متشوقًا إليه:

(١) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ٤٨٩
(٢) شعر أبي العميثل، وكتاب المناسك ٥٠٩
(٣) ديوان ابن الفارض ٢ / ٣٧٢
(٤) مثير العزم الساكن ١٣٦

يـــا راكبَ الـــوجْـــنَـــاءِ بُـــلِّـــغتَ الـــمُـــنَى
إنْ جُـــبتَ حَـــزْنًـــا أو طـــويتَ بِـــطَـــاحَـــا
وسَـــلـــكتَ نَـــعْـــمـــانَ الأراكِ فَـــعُـــجْ إلى
وادٍ هـــنـــاكَ عـــهِـــدتُهُ فـــيّـــاحَـــا[٣]

ويتكرر لفظ نعمان عند مهيار الديلمي، وكأنّه يستعذب هذه اللفظة، فيقول:
أمـــرتُـــكُمُ أَمْـــري بِـــنـــعْـــمَـــانَ نـــاصِـــحًـــا
وقـــلتُ: احـــبِـــسُوهـــا تـــلـــحقِ الحيَّ رائـــحَـــا
لِـــقَـــاءً عـــلـــى نَـــعْـــمَـــانَ كـــانَ غـــنـــيـــمـــةً
وهَـــيْـــهـــاتَ يـــدنـــو بـــعـــدمـــا فـــات نـــازِحَـــا
دعـــــونـي ونـــــعـــــمـــــانَ الأراكِ أرودهُ
تُـــجَـــاوبُ صـــوتـــي طَـــيْـــرُهُ الـــمُـــتـــنـــاوِحَـــا[٤]

الوجه:

منهل معروف بطريق مكة، وفيه يقول نورالدين بن الجزار الشافعي:
ولمـــا رأيتُ الـــوجْهَ ســـالَ من الحَـــيـــا
وقـــد طـــابَ فـــيه لـــلـــحَـــجـــيجِ مَـــقَـــامُ
وعـــايـــنتُ ركبَ الحَجِّ حلَّ بـــســـفـــحه
وقـــد ضُـــربتْ في جـــانـــبـــيهِ خـــيَـــامُ
ومـــدّوا إلى الـــغَـــيثِ الـــهَـــطـــولِ أكُـــفَّـــهُمْ
فـــجـــادَ عـــلـــيـــهم بـــالـــعـــطـــاء غـــمـــامُ
فـــقـــلتُ عـــلـــى الـــوجهِ المـــلـــيح تحـــيـــةٌ
مـــبـــاركـــةٌ من ربـــنـــا وسلامُ[١]

ومثله للقطب المكي:
أقـــولُ ووادي الـــوجهِ ســـالَ من الحَـــيَـــا

(١) ريحانة الألباء ٢/ ١٦٦- ١٦٧

(٢) ريحانة الألباء ٢/ ١٦٧

وقـد طـاب فـيه لـلـحَـجـيجِ مـقـامُ

عـلـى ذلك الـوجـهِ المـلـيحِ تحـيـةٌ

مـبـاركـةٌ من ربـنـا وسلامُ[٢]

ولا يزال شعراء من الشعراء المعاصرين يصرون في قصائدهم على المرور بكل أمكنة مكة، وكأن هذا الوصف والتعداد من التلذذ بالذكر (يُعاد حديثها فيزيد حسنًا) فالشاعر المعاصر الدكتور إبراهيم نتو يصف لنا بقاع مكة وصفًا ذهنيًا مجردًا كما في قوله:

أمكّةُ يـا عـمادَ الـدين والـرحـمنُ حـامـيـها

ثُريـا فـي مدائـنـنـا وحـاضرهـا ومـاضـيـها

وفـيـها كعبـةُ الـتوحـيدِ إسماعيلُ بـانـيـها

وإبـراهـيمُ أرسـاهـا عـلى الإيمـان بـاديـهـا

وهـاجرُ لم تـزل تـسعى بمَرْواهـا وصَـافـيـها

وغـارُ الـثـورِ ثمَّ حـراءُ كـان الـلـه مـنـشـيـهـا

إلى عـرفـاتَ مزدلفٍ ومن خـيفٍ ويـكـفـيـهـا

ومن بـئـرٍ عـلى ظـمـأٍ بـقـدر الـكفِّ يُـرويـهـا

وبـابُ شبيكةِ المشتاقِ في الشَّشَّا أقاصيها

وغـينمُ نـزهـةُ الـعشـاق جـرول في بـواديـهـا

بسوقِ الليلِ في الأسحار مـخـزومٌ يُنَـاغيـها

وأجيادٌ إلى الشِّعبينِ بل بـاقي حـواريـها[١]

ويقول مرة أخرى معددًا بعض الأسماء الحديثة لأماكن مكة:

شَـبـيـكـةُ أجـيـادٌ وحـارةُ بـابـهـا

وجـرولُ هـجلاهـا حَـجُـونٌ مُـكَـلّلُ

وغـارُ حـراءٍ فـالـشِّـعـابُ وشَـشَّـةٌ

وريـعـانُـهَـا الـغَـرّا وحَـوضٌ ومـسـفلُ[٢]

---

(١) هديل الحمام ١ / ٤٧– ٤٨

(٢) هديل الحمام ١/ ٤٩، وشبيكة: محلة الشبيكة جوار الحرم. وجرول: اسم محلة. وهجلاها: جزء من محلة الشبيكة.

ولا يختلف هذا التعداد عن تعداد علي حسن أبوالعلا الذي يذكر كل الأماكن والمشاعر المقدسة مثل: الكعبة وعرفات، وزمزم، والصفا والمروة، وحراء، وثور، وكدي وكداء وثبير:

كـعـبـةَ الـقـصـادِ من حجّ مُـنـيـبًـا
أبـلغَ الـنـفسَ من الأجْـرِ مُـنَـاهـا
ودعـا لـلـهِ في مَـوقـفِهِ
عـرفـاتِ الـلـهِ يـحـظى من أتـاهـا
لـيس في الأرضِ مـكـانٌ مِـثْـلـهـا
وبـهـا زمـزمُ مـوصـوفٌ دواهـا
وروابي المـروتَـيْنِ اسـتَـقْـبـلتْ
مَنْ سـعى لـلـه بـدءًا بِـصَـفَـاهـا
وحـراءٌ سَـابـحٌ في نـورِهِ
كم روى الآيـاتِ تَـتْـرى مِنْ سَـمَـاهـا
مـن كُـدَيٍّ وكَـدَاءٍ وثـبـيـرٍ
شـهـد الـهـجـرةَ ثـورٌ فَـرَوَاهَـا[1]

وقد أفرد بعض الشعراء وصفًا واضحًا للمكان، كما في هذا الوصف للشاعر صالح الشرنوبي الذي يصف المكان والحدث الذي جرى فيه، فيقول:

أَوَيـا إلى الـغـارِ الـكـريم فـعـشّـشتْ
فـوق المـغـار هـواتفُ الأَسْـحَـارِ
والـعَـنْـكَـبُـوتُ بـنى مَـعَـالمَ بـيـتِهِ
قَـدَرًا من الـمُـتَـصَـرِفِ الـقَـهَّـار
يـشـكـو أبـو بـكـرٍ إلى المخـتَـار مـا
يـلـقى فَـيُـذْكِـرهُ بـلُـطْفِ الـبَـاري
ويـقـول والـتـاريخ يـنـصتُ خـاشـعًـا
قـولاً تـخـلّـدَ في فمِ الأَدْهَـارِ
الـلـه ثـالـثـنـا فلا تَـحْـزَنْ ومنْ

(١) هديل الحمام ٣ / ٨٤٧-٨٤٨
(٢) ديوان صالح الشرنوبي ٤٣١

يَـــنْـــصُـــرْهُ يـــأمنْ من أذًى وضِـــرَارِ[٢]

ويطلب الشاعر حسين عرب من جبال مكة أن تأوّب لذكرى تلك الحادثة العظيمة، ويدعوها لتتذكّر - وهي بلا شك الشاهد الموثق الذي رأى الحدث كاملاً بأم عينيه - كيف انبثق النور من غار حراء، ليسير في هذه الجموع الوافدة من الشرق والغرب جاءت مؤتمة بهذا النور الباهر:

أوّبِي يــا جــبــالَ مــكــةَ لــلــذكــــرى جلالاً وكــبّــري لــلــعــيــدِ
واذكُــري كــيفَ أشــرقَ الــنّــور من غــارِ بــعــيــدٍ في الأفْقِ غــيــرِ بــعــيــدِ
وأطِــلّي عــلى حِــمَى الــكــعــبــة الــغــرْ راء إطلالــةَ الــرَّفــيقِ الــودودِ
وانْــظُــري لــلــوفُــودِ من كلِّ فَجٍّ قــد تلاقتْ كــريمــةً بــالــوفــودِ
نــهــلــتْ من روافــد الحَــرمِ الآ من، من مــنــهل الــنّــدَى والجُــودِ
وأفــاضتْ بــه إلى الــشَّــرق والــغَــرْ ب، نمــيــرًا مــعــطــرًا لــلــورودِ[١]

وتتعدد أوصاف مكة، فهي: مرابع المجد، ومهد الإسلام، ومنهل الدين، ومنبع العلم، كما يقول أحمد بن محمد مصلي:

سـطعَ الــنــورُ والــهُــدَى في رُبَــاهَــا وتجــلّى وحيُ الــسَّــمــا في حِــمَــاهَــا
نَــفَــحَــاتٌ قُــدسِــيــةٌ قــد تــســامت وسَــرتْ في الــقــلــوبِ تُــروي صَــداهَــا
تــلــكَ أم الــقُــرى مــرابعُ مــجــدٍ

(١) ديوان حسين عرب ٦٣/١-٦٩

(٢) هديل الحمام ١ / ٢٥٩

(*) هكذا ورد في الأصل، وفيه خلل عروضي.

هي مـــــهــــدُ الإسلام مـــــوطنُ طه

هي لـــلـــدينِ مَــنْــهلٌ طــابَ وِرْدًا

وهْي لــلــعــلـم مَــنْــبَعٌ قــد تَــنَــاهَى

شعٌ مـنـهـا الـتـوحـيـدُ في خـيـرِ نَـهْجٍ

رفعَ الــلـهُ قــدرهـــا وحَـــمَـــاهـــا[٢]

وهي قبلة المسلمين، وملاذ الخائف، وهي آمنة من الجوع والخوف، كما يقول سراج بن عمر مفتي:

وإلى الآن مَـــجْــدُ مــكـــةَ بـــاقٍ

قـبـلـة المـسـلـمـين مـا أسْـمَـاهَـا

ســطعَ الــنــورُ هــاديًـا من رُبَـــاهـــا

فَـشَـفَى الـقـلـوبَ من بَـلْـواهَـا[*]

ورســولُ الــهُـدَى تـضــرّعَ يــرجــو

ربّهُ في حِــراءَ نـــصــرًا وجَـــاهَـــا

داعـــيًـــا طـــالـــبًـــا هـــدايـــةَ قـــومٍ

قــد تــمــادَوْا ضَلالــةً وسَــفَـــاهـــا

فــاسْـتَـجــابَ الإلهُ وانْــتَـصــرَ الـديـ

ـن ونــفسُ الحــبـيـبِ نــالتْ مُــنَـــاهَـــا

أصـــــبَـــحتْ مــــكــــةٌ ملاذَ وفــــودٍ

من بلادٍ بـــعـــيــــدةٍ مـــأْتَــــاهَـــا

لــيُــؤَدُوا الحَجَّ في أشــهــرِ الحْ

ـجِ وفي الــغــيــرِ عُــمْــرةٌ تُــؤتْــاهَـا[*]

أمّــنُــوا أهْـلَــهـا من الخَـوفِ والجـو

عِ فَــرَبُّ الــسّــمــاءِ فـضلاً حَـبَـاهَـا[١]

وهي عند عبدالله باشراحيل:

مــوطنَ الــهــدي يـا ملاذَ الــرَّشَــادِ

ومـــنـــارَ الــشّــمــوخِ والاعــتــدادِ

(١) هديل الحمام ٢ / ٥٤٩

(*) هكذا ورد في المصدر، وفيه خلل عروضي.

(٢) هديل الحمام ٢ / ٦٧٠

(٢) هديل الحمام ٣ / ٨٤٧

له أيضًا قصب السبق في هذا الميدان الغزلي التجريدي، ونحن هنا لسنا معنيين بمقاصد ورموز الصوفية التي ترى في هذه المسميات كُنى عن عوالم الروح، بمقدار عنايتنا بورود هذه الأسماء والصفات على الحال، وواقعية الشوق إليها كما في هذا القول لابن الفارض مترنمًا بأسماء اللواتي خيمن في كدا، أو اجتمعن على ماء زمزم على سبيل التجريد، حيث يطلب من صاحبه الشدو بأسمائهن، وأن يذكره عندهنَّ على طريقة عمر بن ابي ربيعة، وأن يبلغهنَّ حزنه الشديد لفراقهن والبعد عنهنَّ:

واشْــدُ بــاسمِ اللاَّءِ خــيَّــمْنَ كــذا
عن كُــدا واعْنَ بمــا أحــويهِ حيْ
نِــعْمَ مــا زمــزم شــادَ مُــحــسنٌ
بــحِــســانٍ تَــخِــذوا زمــزمَ جيْ[١]

وها هو ذا يجرد من الكعبة فتاة عذبة الثنايا، يتمنى النهل من ريقها العذب، ويشيد بجمالها، ويدعوها لأن تمن عليه بنظرة، فيقول:

أيـا كـعـبـةَ الحُـسنِ الـتي لجـمـالـهَـا
قـلـوبُ أولي الألـبـابِ لـبَّتْ وحَـجَّتِ
بـريقُ الـثّـنـايـا مـنك أهـدى لـنـا سَـنًـا
بَـريق الـثـنـايـا فـهـو خـيـرُ هـديـةِ
وأوحى لـعـيـني أنّ قـلـبي مـجـاورٌ
حِـمَـاك فَـتَـاقَتْ لـلـجـمـالِ وحـنَّتِ
ولـولاك مـا اسـتـهـديتُ بـرقًـا ولا شـجتْ
فـؤادي فـأبـكت إذ شـدت وُرقُ أَيْـكَـةِ
أرومُ وقـد طـالَ الـمـدى مـنك نـظـرةً
وكم من دمـاءٍ دون مـرمـايَ طُـلَّتِ
وقـد كـنتُ أُدعى قـبل حُـبِّـيكِ بـاسلاً
فـعـدتُ به مـسـتـبـسلاً بـعـد مِـنْـعَـتي
جـمـالُ مُـحَـيـاكِ الـمـصُـونُ لـثـامُهُ
عن الـلـثم فـيه عُـدتُ حـيّـاً كـمَـيِّتِ[٢]

(١) شرح ديوان ابن الفارض ٧٢ – ٧٣

(٢) المصدر نفسه ٢٣٩

والفرق بين الغزل الصوفي في أماكن مكة وبين شعراء المدائح النبوية، أو شعراء التشوق والحنين، هو أن الغزل الصوفي كما ذكرنا له كناهُ ورموزه ومقاصده التي يهدفون إليها، أما الآخر فهو لون من الغزل الذي يعبر عن الحب للمكان، وظاهر هذه الأبيات التائية لابن الفارض هو التغني بحب الكعبة، والشوق إلى حماها، ولكنك إذا أعدت الأمر إلى رموزهم لوجدت أن الكعبة هنا كما يرمزون هي الحضرة المقصودة من حيث تجليها في قلوب العارفين.[1]

ومع ذلك وإن وجّه الشعراء والشارحون إلى بعض الكنايات والرموز، فإنّ بعض القصائد لشعراء الصوفية تكاد تكون من تلك العاطفة المشتركة، والحنين الجامع الذي يجمع لك محبة هذه الأماكن المقدسة، التي يجري حبها في عروق كل مسلم.

وينشغل الشعر الحديث بهذا الحب كما انشغل سابقه، ولكنه حب واضح للمكان، وإن تلبس بلبوس العشق الأنثوي، فكثير من عشاق مكة في الشعر الحديث لا يورون عن حبهم للمكان، بل يصرحون، ويشاغل الشاعر فؤاد حمدي طيف مكة، فيعلن غرامه بطيف محبوبته، الذي سريعًا ما يتضح أنه غرامٌ بالوطن، وحب للمكان، كما في هذا القول:

طيفٌ يُشَاغلني أمْ ثورةٌ بدمِي
أم نورُ مكةَ غطّى رقعةَ الحرمِ
أمْ روضةٌ بجنَانِ الخُلد وارفةٌ
أمْ كعبةٌ بُنيتْ تهدي من الظُّلَم
يا لائمي بغرامٍ كنتُ أكْتُمُهُ
قد استفاض فدوّى ثورةً بدمي
إمّا عشقتَ جمالَ البيتِ من وجلٍ
يا ويحَ قَلْبكَ بالإثمِ العظيم رُمي[2]

ويعلن سراج مفتي حبه للحبيبة، ومن سواها يملك القلوب:

تِلْكُم البلدةُ الحبيبةُ في القلـ
ـبِ ومنْ مثل مكةٍ نَهْواها
هي أمُّ القُرى بكلّ جَلالٍ
مكّةُ الحبِّ مُشمخِرّاً بِناها[3]

---

(١) انظر شرح ديوان ابن الفارض ٢٣٩

خامساً: الحنين والشوق

حرارة الشوق والتوق، وشدة الحنين والوجد، والهيام والصبابة إلى مكة عام وخاص، فأما العام: فهو لكل المسلمين الذين يشملهم أمر الله تبارك وتعالى لنبيه إبراهيم الخليل ﴿وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[١].

ودعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ربّنا إنّي أسكنت من ذريتي بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عندَ بيتكَ المحرمْ ربَّنا ليقيموا الصلاةَ فاجعلْ أفئدةً من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[٢] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تحنُّ إليهم، قال: وأراد حب سكنى مكة، فكل من لم يزر مكة يتمنى زيارتها ويشتاق إليها، وكل من زارها يتمنى العودة إليها، وتكرار زيارتها لما يتوق إليه من ثواب الله عز وجل، وبخاصة أنّ مضاعفة الثواب فيها يزيد على غيرها من الأماكن، ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[٣] وكون المشوق الراغب للأماكن المقدسة يطفىء ظمأ الروح، ويستشفي بها من شدة الوجد وسقم البدن، من شدة معاناة البعد، سواء أكان ابتداءً ونهلاً، أم كان عودة وعللاً، إذ إنّ من لم يزر مكة تدفعه الرغبة الجامحة، والشوق الأكيد لتحقيق هذه الرغبة في الزيارة حجّاً أو عمرة، وأما العلل فهو شدة التعطش لعودة النهل، فمن رأى هذه الديار لا يرتوي إلا من زمزمها، ولا تكتحل عيناه إلا برؤية حرمها، ومن هنا يشتد العطش، وتشتعل نار الحنين في الصدور والقلوب، تحثُّ الفكر والخطى للعودة.

وأمّا الخاص، فيختصّ بأهل مكة التي هي وطنهم وبلادهم وأرضهم التي بها نشأوا، وعليها درجوا، فإن خرجوا منها عبّروا عن هذا الشوق العارم الذي يلازم كلّ بعيد ومغترب عن وطنه.

---

(١) سورة الحج آية ٢٧
(٢) سورة إبراهيم آية ٣٧
(٣) صحيح مسلم باب الحج ٤٣٨

ويعلّل فؤاد علي رضا هذا الحنين، فيقول: «ونعمت قريش بالهدوء العائلي، فقد فطنوا إلى متعة السفر في سبيل الكسب، ولذة الحنين إلى الوطن وهم بعداء، وفرحة العودة إلى الدار، ولقاء الأسرة والأصحاب، والتردد على مجالس السمر بعد طول اغتراب، ورغبت قريش عن الغزو والإثارة والأحقاد بينهم وبين جيرانهم، بل اتخذوا من هؤلاء الجيران أحلافًا وأعوانًا وأضيافًا»(١) ومع القناعة بهذا القول، وأنّ حب الوطن، والشوق إليه قد يزداد مع البعد، إلاّ أنَّ حب الوطن لايبرر، فالأوطان على أي حال كانت تحب ويشتاق إليها حتى لو كانت خيمة في صحراء قاحلة، كما قالت ميسون بنت بحدل الكلبية في تشوقها لخيمة الأهل، على الرغم من أنها كانت تنتعل العز، وتسكن قصور الخلافة:

لَبيتٌ تَخْفُقُ الأرواحُ فيهِ
أحبُّ إليَّ من قَصرٍ مُنيفِ
ولُبْسُ عَباءةٍ وتَقرّ عيني
أحبُّ إليَّ من لُبْسِ الشُّفُوفِ
وأكْلُ كُسَيْرةٍ في كسرِ بيتي
أحبُّ إليَّ من أكل الرّغيفِ
ونِضْوٌ من بني عمّي نحيفٌ
أحبُّ إليَّ من عِلْجٍ عَلِيفِ
وكلبٌ ينبَحُ الطُّرّاقَ دوني
أحبُّ إليَّ من قِطٍّ ألِيفِ(٢)

فحب الوطن يسكن العروق، ولذلك قرن الله تبارك وتعالى الجلاء عن الوطن بالقتل، فقال جلَّ ذكره: ﴿ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلاّ قليلٌ منهم﴾(٣) وجعل القتال بإزاء الجلاء عن الأوطان، فقال تقدّست أسماؤه: ﴿وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾(٤) وكفى أنّه جعل الخروج عن الوطن

(١) أم القرى مكة المكرمة ١٧٤
(٢) المنتخب والمختار ٤٦٦
(٣) سورة النساء ٦٦
(٤) سورة البقرة آية ٢٤٦

عقوبة، فقال عزَّ من قائل: ﴿إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يُقتّلوا أو يُصلّبوا أو تُقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٍ﴾[1].

وفي القول المأثور: «الخروج عن الوطن عقوبة»[2].

ومن هنا يبدو الحنين حنينين، والشوق شوقين، والتفريق بين هذين اللونين قد يبدو في ظاهره تعسفيّاً، فيقول القائل: الشوق والحنين لا ينقسمان ولا يتجزآن ولكن المدقق في ثنايا هذا القول، يجده منطقيّاً، وهما إن ظهرا فرعين إلا أنهما من شجرة واحدة، وإن تدفقا نهرين فنميرهما من نبع واحد، وهما بذلك شقيقان متلازمان، إلاّ أنّ لكل واحد منهما طعمه ورونقه، وإن كان مذاقهما هو سلسبيل الشوق، ولذة الحنين.

والحنين الأول هو حنين الذات إلى مسقط الرأس، وهو مسار من اغترب عنها من أهلها، وشعر الحنين عند هؤلاء يكاد يختلف عمّا يليه، إذ هو أدخل في باب الحنين للأوطان، وإن ظهرت فيه المسحة الدينية، فالمكان يفرض هذا الشكل لأنه ليس كغيره من الأمكنة، فأي مكان آخر وإن حمل الحب والشوق وتمني اللقاء فإنه لا يحمل في طياته ما تبعثه مكة في نفوس المشتاقين من قداسة وروحية، جعلت لشعر الحنين والشوق في مكة مذاقًا آخر وطعمًا ذا نكهة خاصة متميزة بعبقها الديني، وهذا اللون في جانب حب الأوطان يتشارك فيه كل من ينشأ في مكان، حتى لو كان هذا المكان حرّة من الحرات، فقد قيل لأعرابي: من أين أقبلت ؟ قال: من هذه البادية.

قلت: وأين تسكن منها ؟

قال مساقط الحمى، حِمى ضرية، موضعة أرضها لعمر الله ما أريد بها بدلاً، ولا أبغي عنها حولا، حفّتها الفلوات، ونفحتها العذوات، فلا يملولح ماؤها، ولا تحمى تربتها، ولا يُمعرُ جنابها، ليس فيها قذى ولا أذى، فنحن بأرفه عيش، وأوسع نعمة.

قلت: فما طعامكم ؟

---

(١) سورة المائدة آية ٣٣

(٢) الحنين إلى الأوطان للكسروي ٢٣

قال: بخ بخ عيشنا – والله – عيشٌ يُعلّل جاذبه، وطعامنا أطيب طعام وأهنؤه، الفثُّ والهبيد والضباب واليرابيع والقنافذ والحيات، وربّما – والله – أكلنا الجلد، وشوينا القد، فلا نعلم أحدًا أخصب منا عيشًا، فالحمد لله على ما بسط من النعم، وأنشد:

ألا هلْ إلى شَمِّ الخُزامَى ونظرةٍ
إلى موطني قبل المماتِ سبيلُ
فيا أثلاتِ القاع من بطن تُوضحٍ
حنيني إلى أطلالكنَّ طويلُ
ويا أثلاتِ القاع قلبي مُوكلٌ
بكُنَّ وجدوى خيركُنَّ قليلُ
ويا أثلاتِ القاع قد ملَّ صُحْبَتي
مَسيري فهل في ظلِّكُنَّ مقيلُ
أريد انحدارًا نحوكمْ فيَصدّني
ويمنَعُني دَيْنٌ عليَّ ثقيلُ
أحدِّثُ نفسي عنكِ أن لستُ راجعًا
إليك فحزني في الفؤاد دخيلُ(١)

والاصطفاء الرباني لمكة على سواها من البقاع بجعلها مثابة للناس وأمنا، واختيارها لتكون مقرَّ بيته، وحاضنة حرمه، وقبلة أمّته، ثبّتها في القلوب والأفئدة، وأحياها في الخواطر والنواظر، فلهجت بها الألسنة، وتداولتها الأقلام، وزادها مكانة في القلوب وشرفًا بين البلاد أن جُعلت زيارتها فرضًا على من استطاع من المسلمين، فدغدغت أحلامهم، وهفت إليها نفوسهم، وانشغلت بها مشاعرهم وعواطفهم.

وأجَّجَ نار الشوق إليها تلك الفضائل الجمة التي جاءت تحملها أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله عليه الصلاة والسلام «صلاة في المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة فيما سواه إلاّ مسجدي هذا (٢)»

(١) الحنين إلى الأوطان ٧ والفث: حب بري. والهبيد: حب الحنظل
(٢) صحيح مسلم (الحج) ٥١٢

فإذا تعلّق القلب، وانشغل الفؤاد، لهج اللسان، وانثال البيان ليعبِّر عن عظيم شوقه، وفيض حبّه.

وأول الغيث قطر، وهذه أول قطرات الحنين تعصر من عيني عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي، عندما أخرجته خزاعة من ملكه، وطردته عن مكة إلى خارجها يقول الأزرقي: «وقد كان أصابه من الصبابة إلى مكة ما أحزنه، فأرسل إلى خزاعة يستأذنها في الدخول عليهم، والنزول معهم بمكة في جوارهم... فأبت خزاعة.. فنزعت إبل لمضاض.. فخرج في طلبها، حتى وجد أثرها قد دخلت مكة، فمضى على الجبال من نحو أجياد، حتى ظهر على أبي قبيس يتبصّر في بطن وادي مكة، فأبصر الإبل تُنحر وتُؤكل، لا سبيل له إليها، فخاف إن هبط الوادي أن يُقتل[1]»، فكان أن أمضَّ الشوق والحنين مضاضاً، فقال متألمًا لما جرى، ومتشوقًا لربوع مكة:

وقائلةٍ والدمعُ سكبٌ مُبادرُ
وقد شرقت بالدمع منها المَحاجِرُ
كأنْ لم يكنْ بين الحَجُون إلى الصّفا
أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامِرُ
فقلتُ لها والقلبُ منّي كأنما
يُلَجلِجُهُ بين الجَناحينِ طائرُ
بلى نحنُ كنّا أهلَهَا فأزالنا
صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ
وكنّا ولاةَ البيتِ من بعدِ نابتٍ
نطوف بذاك البيت والخيرُ ظاهرُ
مَلكْنَا فعزّزنا فأعظمْ بملكنا
فليسَ لحيٍّ غيرنا ثَمَّ فاخرُ
فإنْ تَنْثَنِ الدنيا علينا بحالها
فإنَّ لها حالاً وفيها التَّشَاجُرُ

---

(١) تاريخ مكة ١/ ٩٦

فأخْرَجَنا منها المليكُ بقدرةٍ
كذلك يا للنَّاس تجري المقادرُ
أقولُ إذا نام الخليُّ ولم أنمْ
أذا العرش: لا يبْعُدْ سُهيلٌ وعامرُ
وبُدِّلْتُ منها أوْجُهًا لا أحبُّها
قبائلُ منها حمْيَرٌ ويحابرُ
وصِرْنا أحاديثًا وكنّا بغبْطَةٍ
بذلك عضّتنا السنونُ الغَوابرُ
فَسَحّتْ دموعُ العينِ تبكي لبلدةٍ
بها حَرمٌ أمْنٌ وفيها المشَاعِرُ
وتبكي لبيتٍ ليس يُؤذى حمامُهُ
يظلُّ به أمْنًا وفيه العصافرُ
وفيه وحوشٌ لا تُرَمُّ أنيسةٌ
إذا خرجتْ منه فليستْ تُغَادرُ[1]

وما أروع ليالي الأنس! وما أجمل ذكريات السمر ! وانظر كيف اختصر هذا الشاعر ماضيًا طويلاً في (كأنَّ) التي غدت فيصلاً بين ليال مقمرة مضت، وبين ليال مظلمة حلّت، (فكأنَّ) هذه بحروفها الثلاثة تمثّل النقلة والفرق ما بين اجتماع الشمل والتئامه، وتصدّعه وتمزّقه، ما بين الأنس والألفة، والوحشة والغصة، ما بين العزة والسلطان، والذلة والهوان، ففي لحظة واحدة، انفضَّ السامر، وانهدَّ البنيان العامر، ومن بعد خضرة وطيب عيش، إلى كدرة وقتام واغبرار علت وجه الحياة:

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصّفا
أنيسٌ ولم يَسمرْ بمكةَ سامرُ

(١) أخبار مكة للأزرقي ١ / ٩٧ – ٩٨ وهديل الحمام ٣ / ٩٥٢ وقد نسبت هذه القصيدة في بعض مصادر الشعر المكي إلى مضاض، وإلى عمرو بن الحارث بن مضاض، وإلى الحارث بن عمرو بن مضاض.

لقد غدا هذا البيت معنىً سيَّارًا لكلّ حالة مشابهة. وأصبح نموذجًا يحتذى لكل من عرض له ما عرض للجرهمي من التحول والتنقل.

ونجد جرهميّاً آخر يحنُّ إلى مكة حنينًا يفيض بالأسى لما آل إليه أمر جرهم من الخروج عن مكة، بعد أن كانوا مالكيها، وأصحاب الأمر فيها، ويبدو أنّ هذا الجرهمي قد طرد من مكة لاعتراضه سيد خزاعة عمرو بن لحي الذي نصب الأصنام حول الكعبة وغيّر الحنيفية. فقال له ناصحًا وموجهًا:

يـــا عــــمْـــرُو لا تـــظــــلـمْ بمــــكْ
ــــكَـــةَ إنّـــهـــا بـــلـــدٌ حـــرَامْ
ســـــائـلْ بـــــعــــادٍ أيْـــــنـــــهمْ
وكــــذاكَ تُـــــخْــــتَـــــرمُ الأنـــــامْ
وبـــــني الـــعــــمـــالـــيق الـــذيـ
ـن لـــهمْ بـــهـــا كـــان الـــسَّـــوامْ[1]

فأخرجه عنها، فقال متشوقًا إليها:

ألا لــيت شــعــري هل أبــيــتنَّ لــيـلــةً
وأهــلي مــعي بــالــمــأزمــيْنِ حُــلــولُ
وهلْ أرينَّ الــعــيسَ تــنــفخُ في الــبُــرا
لـــهـــا بمِـــنىً والـــمـــأزمـــينِ ذمـــيلُ
مــنــازلُ كُــنَّــا أهــلَــهـا لم تحلْ بــنــا
زمـــانَ بـــهـــا في مـــا أراهُ تحـــولُ[2]

(١) المصدر نفسه ١ / ١٠١
(٢) أخبار مكة ١ / ١٠١

وهذا ابن أمِّ مكتوم من شدة شوقه إلى مكة يسير بها ويطوف ـ على الرغم من كف بصره ـ بلا قائد ولا هادي ويقول:

حبّذا مكةُ من وادي
بها أرضي وعوّادي
بها تَرسخُ أوتادي
بها أمْشي بلا هادي[1]

(وكأنَّ) هذه التي تفيد التحسر على المرور السريع، وانقضاء الأيام الجميلة التي عبّر عنها الحارث بن مضاض تتكرّر عند سديف بن ميمون الذي يقول:

كأنِّيَ لم أقطنْ بمكة ساعةً
ولمْ يُلْهِني فيها ربيبٌ مُنعَّمُ
ولم أجلس الحوضين شرقيَّ زمزمٍ
وهيهاتَ أينا منكَ لا أينَ زمزمُ
يحنُّ فؤادي إنْ سهيلٌ بدا له
وأُقسمُ أنَّ الشوقَ منِّي لمنهمُ[2]

ويستمرُّ مرير (كأنَّ) من العصر الجاهلي مرورًا بالإسلامي إلى العصر العباسي وكأنّ نغمة الحنين التي أطلقها الحارث بن مضاض نغمة أبدية سائرة، وانظر في هذا الألم الذي يبديه عبيدالله بن عبدالله بن طاهر عندما خرج من بغداد، إن ذكرى الجرهمي في خروجه من مكة هي التي تنتصب أمام عبيدالله في خروجه من بغداد وتبدو المماثلة، فيقول:

وقائلةٍ والسَّكبُ منها مبادرُ
وقد قرّحتْ بالدمع منها المحاجرُ
وقد أبصرتْ بغدادَ من بعد أُنْسها
بنا وهْي منها مقفراتٌ دواثرُ
كأنْ لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيسٌ ولم يسمرْ بمكةَ سَامرُ

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ١٥٤

(٢) العقد الفريد ٥ / ٨٧

فـقـلـتُ لـهـا والـقـلـبُ مـنّي كـأنّـمـا
تـخـلّـبَهُ بـين الجـنـاحـين طـائـرُ
بـلـى ! نـحنُ كـنّـا أهـلَـهَـا فـأزالـنـا
صـروفُ الـلـيـالـي والجـدودُ الـعـواثـرُ
ولم تُـبقِ مـنّـا طـاهـريّـاً مـؤمَّـرًا
رئـيـسًـا وأعـلى سـاسَـةِ الـمُـلْكِ طـاهـرُ
أرِقْتُ ومـا لـيلُ الـمُـضـامِ بـنـائمٍ
وقـد تـرقـدُ الـعـيـنـانِ والـقـلـبُ سـاهـرُ
فـيـا نـفسُ لا تَـفْنَيْ أسًى واذكري الأُسى
فـيـوشكُ يـومًـا أن تـدورَ الـدوائـرُ[1]

بل إن هذا المعنى الذي يفيض بالأسى والحزن لمفارقة الديار والحنين إليها، يصبح مثلاً سائرًا تتمثله الألسنة في الحالات المشابهة، بل غدا الشعراء يضمنونه قصائدهم، كما في هذا القول لأبي علي اليوسي:

فـأصْبَحَ في أرْجَـائـهـا الـبـومُ مُـنْـشِدًا
يُـردِّدُ ممـا قـال من قـدْ خَلا شِـعْـرا
كـأنْ لم يـكن بـين الحَـجُـون إلى الـصـفـا
أنـيسٌ، بـلـى لـكن هـوى جـدُّهم عـثْـرَا[2]

وهذا شاعر يتعلق قلبه جبل نعمان فيقول صادحًا:

ألا أيّـهـا الـركبُ الـيـمـانـون عَـرِّجـوا
عـلـيـنـا فـقـد أضـحى هـوانـا يمـانـيـا
نُـسَـائـلـكُمْ هل سـالَ نَـعْـمـانُ بَـعْـدنـا
وحُبَّ إلـيـنـا بَـطنُ نـعـمـانَ واديـا
عَـهِـدْنـا به صـيـدًا كـثـيـرًا ومـشـربًـا
به نـنـقعُ الـقـلبَ الـذي كـان صـاديـا[3]

(١) الموشح للمرزباني ٥٤٣ – ٥٤٤ والأسى: الحزن. والأُسى: التأسي جمع أسوة
(٢) النبوغ المغربي في الأدب العربي ٨٩٤

ويقول الحارث المخزومي وهو بالشام في تصوير هذا الشوق:

من كان ذا شَجَنٍ بالشام يحبِسُهُ
فإنَّ في غيرِهِ أمسى ليَ الشَّجَنُ
وإنَّ ذا القصر حقّاً ما به وطني
لكن بمكةَ أمسى الأهلُ والوطنُ
من ذا يسائل عنّا أينَ منزلُنا
فالأقحوانةُ منّا منزلٌ قَمِنُ
إذ نلبس العيشَ صفوًا ما يكدِّرُهُ
قولُ الوشاةِ ولا ينبو بنا الزّمنُ(1)

ويستطيل أمية بن عائذ العمري مقامه في مصر، ويتشوق إلى مكة، فيقول من قصيدة يمدح بها والي مصر عبدالعزيز بن مروان:

متى راكبٌ من أهل مصرَ وأهلُهُ
بمكةَ من مصرَ العشيّةَ راجعُ(2)

ويقول ابن جماعة باعثًا سلامه لمن بالمحصب:

يا سائقَ الأظعانِ إنْ جُزْتَ الحِمَى
سلِّمْ على من بالمحصَّبِ دارهُ
واشرحْ لهُ ما يلتقي مُشتاقهُ
من فرط شوقٍ أحرقتْهُ نارهُ(3)

ولابن الصاحب مثل شوق ابن جماعة، فيقول:

على الأبطَحِ المكيِّ طيبُ سلامي
وأزكى تحياتي كمسك خِتَامِ
إذا ذكروا في الحيِّ طيبَ حديثِهِ
خلعتُ على السُّمّار ثوبَ مَنَام

---

(1) المصدر نفسه ١ / ١٣٠
(2) شرح أشعار الهذليين ٢ / ٥٢١
(3) المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٠٦

مـــنـــــازلُ أفـــراحـي وأنــــسـي ولـــــذّتي
ومـــوسمُ أعـــيـــادي ودارُ هـــيـــامي[1]

ويهتز في صدر شاعر البطحاء الحنين إلى مكة، هذا الحنين الصافي النبع، الخالص لها والذي لا تشوبه شائبة الشوق لأحد غيرها، إنها وحدها المعنية بهذا الوجد الحار، والشوق المتلظي، والحنين الفياض، والعاطفة المتأججة، يقول:

إلـيكِ اشـتـيـاقي لا إلى الـربّع والحِمَى
وفـيك غـرامي لا لـسُـعْـدَى ولا لُـبْـنى
ومـــا الحيُّ لـــولا أنتِ إلاّ تَــعِـــلَّـــةٌ
ومـا الـربعُ إلاّ موحشُ الإنسِ والسُّكْنَى
سلامٌ عـلى وادي الـمُـحَـصّب والـلّـوى
وعـهـد الـغـواني والـمـعـاهـد والـمـغنَى
ولـــولاكِ مـا حـنّت ربـابي إلى الحِـمى
ولا حـــمـلـتْ رجـلي عُـذافِـرَةٌ وجْـنـا
سلامُ مـــــشـــــوقٍ لا سلامُ مُـــــودّعٍ
ولـكنْ كـئـيبٌ مـغـرمٌ مـدنفٌ مُـضْـنى
جَـنى ثَـمَـراتِ الـوصل بـالخَـيْفِ من مِنًى
وإنّ ثـمـارَ الـوصلِ أحـسنُ مـا يُـجْـنَى
ولـــلّه أيـــامي بمـــكّـــةَ والــصّـــفَـــا
وطـولُ مـقـامي مـا ألـذَّ ومـا أهـنَى
ومـسّحتُ بـالـبـيت الـعـتـيق مـحـاجِري
وقـبّـلتُ من بـعـد الـطّـواف به الـرُّكـنـا
قـضـيتُ بـهـا نُـسكي وحَـجِّي وعُـمـرتي
وخـفّـفتُ أوزاري ونـلـتُ بـهـا الحُـسْنَى
أُعـلّلُ نـفـسي بـالأمـاني ويـنـقـضي
زمـاني ودونَ الـوصلِ مـا يُسْـهِرُ الجَـفْنـا

---

(١) المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٠٧

إلى ما يُبيدُ الشَّوْقَ والوَجْدُ دونَهُ
غرامٌ يثيرُ الوجدَ والهمَّ والحزنا
أحنُّ إلى تلك المعاهدِ والرُّبا
حنينَ امرئٍ يُذكي الغرامَ إذا أنّا[١]

هذه النفثة الصافية من الحنين، تبعها نفثات من كل شاعر كانت مكة له موطنًا، ولعل الشريف الرضي صاحب الشوق القديم المتجدد من أكثر الشعراء تحنانًا إلى ربوع مكة، فهو نبتها الذي يبدي في تشوقه آيات الحب والحنين، وتتراقص الصور أمام عينيه، فيدعو قلم الدموع ليسجل في حافظته هذا الإبداع الذي ظلّ على الأيام جديدًا:

عارضا بي ركبَ الحجاز أُسائلْ
ـهُ متى عَهْدُهُ بأيّام سَلْعِ
واستملاّ حديثَ من سكنَ الخَيْـ
ـفَ ولا تكتباهُ إلاّ بدمْعِي
فاتَنِي أنْ أرى الديارَ بِعَيْني
فَلَعلّي أرى الديارَ بسمْعِي[٢]
يا غزالاً بينَ النَّقا والمُصَلّى
ليسَ تبقى على نِبَالك درعي
كلَّما سُلَّ من فؤاديَ سهمٌ
عادَ سهمٌ لكم مضيضَ الوقع
وتحرّجتَ يومَ رُحتَ حرامًا
مِنْ عطائي فَمَنْ أباحكَ مَنْعي
مَنْ مُعيدٌ أيّامَ سَلْعٍ على ما
كانَ منها وأينَ أيامُ سَلع
طالبٌ بالعراق ينشُدُ هيها
ت زمانًا أضلَّهُ بالجِزْع[٣]

(١) هديل الحمام ١/ ١٣٢
(٢) المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد الأندلسي ١٢٣
(٣) ديوان الشريف الرضي ١ / ٦٥٧ – ٦٥٨

ويتشوق أخوه الشريف المرتضى، وهم أهل الديار وأهل الشوق والحنين، فيقول:

ألا يـا نـسـيـمَ الـرّيح من أرضِ بـابلٍ
تحـمّلْ إلى أهل الخـيـامِ سلامِي
وإنّي لأَهْـوَى أن أكـونَ بـأرضـهمْ
على أنّني منـهـا استـفدتُ مقَامي
وقـد كنتُ كـالعِـقْدِ الـمنـظّم منـهُمُ
فـهـأنـذا سـلـكًا بـغـيـرِ نـظـامِ
أَبِـيتُ أُرَجِّي أنْ يُـلمَّ خـيـالُـهمْ
وكـيف يـزور الـطـيفُ دونَ مـنـامِ
فلا بـرقَ إلاّ خُـلَّبٌ بـعـد بَـيْـنِـهمْ
ولا عـارضًـا إلاّ بـيـاضُ جَـهَـامِ[1]

وهذا شاعر مكة محمد بن إبراهيم الأسدي يقف بالمحصب قبل مغادرته مكة، ويسأل عن أهله وماذا فعلوا:

قفْ بـالـمُـحصَّبِ واسألْ أيّـهـا الـرَّجلُ
تـلكَ الـرّسـومَ عن الأحـبـابِ مـا فـعـلـوا
هُمُ أقـامـوا كَـعَـهـدي في ديـارهمُ
أمْ صرَّفـتْـهمْ صروفُ الـدهـرِ فـاحْـتَـملـوا
فـمـا أسـائلُ عن آثـارهـمْ أحـدًا
إلاّ أجـابَ غـرابُ الـبـينِ قـد رَحَـلـوا[2]

وله قصيدة فريدة في التشوق لمكة، يذكر القفطي منها مطلعها:

ديـارَ الحـيِّ أينَ هـمُ قـطـونُ
أنَـعْـمـانُ الأراكِ أمِ الحَـجُـونُ[3]

(١) المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد الأندلسي ١٢٣

(٢) المحمدون من الشعراء ١٣٩

(٣) المحمدون من الشعراء ١٤١

وممّن ولد بمكة وتشوّق إليها البهاء زهير ذلك الشاعر الرقيق، الذي يبدي في تشوقه عن صبابة ما بعدها صبابة، ولهفة حارة تصدع ما بين جنبيه، إنه حنين الذكريات، والأسف على انقضائها، وامتزاج هذا الحنين بالشوق للمحبوبة يجعله أشد التهابًا، وأكثر حرقة، فيلفح قلب صاحبه، ويشغل باله، فيعتريه الخبال، كما يقول:

أحنُّ إلى عهدِ المحَصّبِ من منًى
وعيشٍ به كانت ترفُّ ظلالُهُ
ويا حبذا أمواهُهُ ونسيمُهُ
ويا حبّذا حصباؤُهُ ورمالُهُ
ويا أسفي إذ شطَّ عني مزارُهُ
ويا حَزَني إذ غاب عني غزالهُ
وكم ليَ بين المروتيْنِ لبانةٌ
وبدرُ تمامٍ قد حوتهُ حجالهُ
مقيمٌ بقلبي حيثُ كنتُ حديثُهُ
وبادٍ لعيني حيثُ سرتُ خيالُهُ
وأذكرُ أيّامَ الحجاز فأنْثَني
كأنّي صريعٌ يَعْتريه خبالُهُ
ويا صاحبي بالخيف كنْ ليَ مسعدًا
إذا آن من ذاكَ الحجيج ارتحالُهُ
وخذْ جانب الوادي كذا عن يمينهِ
بحيث القنا يهتزُّ منهُ طوالهُ
هناكَ ترى بيتًا لزينب مشرقًا
إذا جئتَ لا يخفى عليكَ جلالهُ
فقل ناشدًا بيتًا ومن ذاق مثلهُ
لدى جيرةٍ لم يدر كيف احتيالهُ
وكن هكذا حتى تُصَادفَ فرصةً
تُصِيبُ بها ما رمتَهُ وتنالهُ

فـعـرِّضْ بـذكـري حـيـثُ تـسـمعُ زيـنبٌ
وقلْ لـيس يـخـلـو سـاعـةً مـنك بـالهُ
عَـسَـاهـا إذا مـا مـرَّ ذكـري بـسَـمْـعِـهـا
تـقـول: فلانٌ عـنـدكم كـيف حـالُهُ ؟[1]

وهذا الشريف محمد بن بركات المكنى بأبي نُمي الثاني تتأججُ نار الشوق لمكة وأهل مكة في جوانحه، فيبدي في شعره عن عاطفة جياشة للمكان ومن حلّ به، يقول:

نـام الخـلـيُّ فـمـا لجـفـني الـسـاهـرِ
إذ بـاتَ سـلـطـانُ الـغَـرام مُـسَـامِـرِي
جَـفَتِ الـمَـضَـاجعُ جـانـبيَّ كـأنّـمـا
شـوكُ الـقـتـادِ عـلى الـفراشِ مُـبَـاشـري
وتـأجّـجتْ نـارُ الـغـرام وأضْـرَمَتْ
بـين الجـوانحِ في مـكَنِّ سـرائـري
وشـجـيتُ من ألم الـفـراق وخـانـني
صـبري الوفيُّ على الخُطوب ونـاصرِي
خَـلَتِ الـمـنـازلُ من أُهَـيْلِ مـودّتي
وهمُ همُ في الحيِّ قـرّةُ نـاظـري
أهل الـصّـفـا بـين الـصّـفـا وطُـويـلعٍ
مَـلْـقَى جـيـاد وفـيضُ أشْـعَبِ عـامـرِ
يـا أهْلَ ودّي لـو تـروني بـعـدكم
كـغـريبِ قـومٍ بـين أهـلي حـائـر
من بـعـدِ جـيـرانِ الـصَّـفـا أهل الـوفـا
سـمـحتْ بـإرسـالِ الـدمـوع مَـحَـاجـري[2]

ولا يقل شوق الشعراء المتشوقين لمكة من خارجها عن شوق أبنائها، بل لعله أشدّ حرقة ولهفة، وهذا ابن عساكر عبدالصمد بن عبدالوهاب الشافعي أبو اليُمن، يتحرّق شوقًا إلى جيرة الحرم، فيقول:

---
(١) ديوان البهاء زهير ١٤٧
(٢) الإشراف في تاريخ الأشراف ٣٠٢ – ٣٠٣

يـا جـيـرتي بـين الحَـجـونِ إلى الـصَّـفـا
شـــوقي إلـــيـــكمْ مـــجـــملٌ ومُـــفَـــصَّلُ
أهـــوى ديـــارَكُمُ ولي بـــربـــوعِـــهَـــا
وجـــدٌ يُـــثـــبِّـــطـــني وعـــهـــدٌ أوّلُ
ويــزيــدُني فــيــهــا الــعَــذولُ صــبــابــةً
فــيــظلُّ يُــغــريــني إذا مــا يَــعْــذلُ
ويــقــول لي لــو قــد تــبــدّلتَ الــهــوى
فــأقــولُ قــد عــزَّ الــغَــدَاةَ تَــبَــدُّلُ
بــالــلــهِ قلْ لي كــيف تُــحْــسنُ ســلْــوةً
عــنــهــا وحــسنُ تــصــبُّــري هل يــجــمُلُ؟
يـــا أهلَ ودّي بـــالـــمـــحـــصَّب دعـــوةً
من نـــازحٍ يـــلـــقـــاكُمُ يـــتـــعـــلَّلُ[1]

ويتشوق الحسن بن محمد الصغاني النحوي متشوقًا للكعبة:

شــوقي عــلــى الــكــعــبــة الــغــرّاء قــد زادا
فــاسْــتَــحــملَ الــقُلُصَ الــوخّــادةَ الــزادا[2]

وينقل الفيروزابادي بعض أبيات الشوق والحنين إلى الحجاز، فيقول: (وقد أكثر الشعراء ذكر الحجاز في أشعارهم، ومن ذلك قول أشجع السلمي:

بـــأكـــنـــافِ الـــحـــجـــاز هَـــوًى دفـــينُ
يـــؤرّقـــني إذا هَـــدَت الـــعُـــيُـــونُ
أحنُّ إلى الـــحـــجـــاز وســـاكـــنـــيهِ
حـــنـــينَ الإلفِ فـــارقَهُ الـــقَـــرينُ
وأبـــكي حـــين تـــرقـــدُ كلُّ عـــينٍ
بـــكـــاءً بـــين زفـــرتِـهِ أنـــينُ

(١) العقد الثمين ٥/ ٤٣٢
(٢) معجم الأدباء ٣/ ١٠١٥

فـــإنْ بَـــعُــدَ الـــهَــوى وبـــعــدتُ عــنهُ
وفي بُــعــد الــهــوى تــبــدو الــشّــجــونُ
فَـــأعـــذِرْ من رأيتَ عـــلى بـــكـــاءٍ
غـــريبٌ عن أحـــبَّـــتهِ حـــزينُ
يمــوتُ الــصَّبُّ والــكـتـمــانُ عــنهُ
إذا حَــسُنَ الــتــذكّــرُ والحــنــينُ[1]

وليس من شرط البحث الحديث عن الحجاز بعمومه، وإن كان الشوق والحنين في أغلبه للأماكن المقدسة، لكن ذلك قد يبعد بنا كما يقول الشاعر، فتتعدد الشجون، ويمتد البحث ويطول.

ويصور أحد الشعراء شدة شوقه إلى الأماكن المقدسة، ويبين عن عظيم صبره على فراقها وبعدها، ويرى أن تصبّره كتصبّر السقيم على طيب المقام، فيقول:

أعَـــلِـــمتَ كـــيف تـــصـــبُّـــري
عن رؤيـــة الـــبـــيتِ الحـــرامْ
والـــمَـــشْـــعـــريْنِ ومـــســـجـــدٍ
بـــالخـــيفِ يـــشـــهـــدُ كلَّ عـــامْ
وعن الـــزيـــارة لـــلـــنـــبيّ
الـــمـــصـــطـــفى خـــيـــرِ الأنـــام
كـــتـــصـــبُّـــر الـــمـــدْفُـــوع بـــالْـ
أســـقـــامِ عن طـــيبِ الـــمـــقَـــام[2]

ومن بديع التشوق والحنين قصيدة حجازية قالها علي بن الحسن الرُّعيني الشاعر الأندلسي متشوقًا إلى أرض الحرمين الشريفين، ومعبرًا عن شدة الظمأ لماء زمزم، ويتمنى أن يلصق خده بترابها الطاهر، يقول:

---

(١) انظر المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٢٩
(٢) الوطن في الشعر العربي لوهيب طنوس ٢٩٠

حنيني إلى البيتِ العتيقِ شديدُ
وشوقي إلى وادي العقيقِ يزيدُ
فيا ليتَ شِعْري هل يُباحُ إليهما
وصولٌ فيحظى بالوصالِ عميدُ
ومَنْ ليَ أنْ أُدعى إلى حَرميْ هدى
وهل لي على تلك البقاع وفودُ
وهل ناقِعٌ لي ماءُ زمزمَ غُلَّةً
لها بين أحناءِ الضّلوع وقودُ

ثمّ يحثُّ ركائبه مسرعًا ومبادرًا:

فما ليَ لا أسعى إليها مبادرًا
بقيّةَ عمرٍ تنقضي وتبيدُ
تحثُّ ركابي نحوها عزمةُ امرئٍ
بمَحْياهُ في ذات الإله يجودُ
يهمُّ فيُلقي بين عينيهِ عزمةً
ويمضي مضاءَ السّهم حيثُ يريدُ
فأقضي ذماءَ النفس في عَرصَاتها
غريبًا لديها والغريبُ شهيدُ
وإنَّ امرأً يقضي فريضةَ حَجِّهِ
وزوْرةَ قبر المصطفى لسعيدُ
وقد فاز بالحسنى ونال زيادةً
سعيدٌ يواريه هناك صعيدُ

وينهي بتوجيه السلام:

سلامٌ على البيتِ الحرام وطيْبَةٍ
يكرُّ على ربعيْهِما ويعودُ

سلامُ محبٍّ كلما ذكر ارْضَهَا

تبادرتِ الأجفانُ منه تجودُ[1]

وفي قصيدة حجازية أخرى يبين هذا الشاعر عن عظيم شوقه، ومحبته لتلك البقاع، ويبدي عدم صبره على فراقها، وهو يكثر السؤال وكأنه من لهفته لا يكاد يصدق أنه قد يشرب من ماء زمزم، وكما كان تأثير أبيات الجرهمي، فإن الشاعر هنا يختم قصيدته بما قاله بلال بن رباح رضي الله عنه في التشوق لمكة، فيقول:

ألا هل إلى البيتِ العتيقِ سبيلُ

وهل لِيَ في وادي الأراك مَقِيلُ

وهل لصَدٍ من ماء زمزمَ نُغْبَةٌ

يُفلُّ بها بين الضلوع غَليلُ

ومن لي أتاحَ الله سُؤليَ أن أرى

دموعيَ في بطن المَسيل تسيلُ

فيا نجدُ أنجدني بهبّةِ نفحةٍ

تمرُّ بعطف الروضِ وهْو بليلُ

ففي نَفَسٍ منها عليلُ عُلالةٍ

لقلبي وهل يُشْفي العليلَ عليلُ

ويا كعبةً رَصَّ الخليلُ بناءها

أما مُسْعدي يومًا إليك خليلُ

ثَكِلْتُ فؤادي يوم أنساكِ أو أرى

إلى الصبر والسلوان عنكِ سبيلُ

فلا زال بي شوقٌ إليك مُبَرِّحٌ

ولا فاتني وجدٌ عليك طويلُ

وقَبْلي بلالٌ قال يشكو غَرامَهُ

وقد شَاقَهُ ظلٌّ هناكَ ظليلُ

(١) الذيل والتكملة ٥ / ١/ ٣٦٤ – ٣٦٥

(ألا لـيتَ شـعـري هل أبـيـتنَّ لـيـلـةً
بـواد وحـولي إذْخِـرٌ وجَـلـيلُ[1])

ومكة هي القصد والغاية، وهي موضع الرحال وعندها يُقال: ألقى عصا الترحال، فهذا جار الله الزمخشري يجاور بمكة، فيرى أنها منتابه ومرجعه، وإليها يكون عوده لا إلى بلده، فهي ملتزمه، وملقى رحاله:

أنـا الجـارُ جـارُ الـله مـكـةُ مـركـزي
ومـضـربُ أوتـادي ومـعـقـدُ أطْـنَـابي
ومـا كـانَ إلاَّ زوْرةٌ نـهـضـتي إلى
بلادٍ بـهـا أوطـانُ رهـطي وأحْـبَـابي
فـلـمـا قَـضَتْ نـفـسي ولـلـهِ درُّهـا
لُـبـانـةَ دارٍ زَنْـدُهـا غـيـرُ خـيّـابِ
كَـرَرْتُ إلى بـطـحـاءِ مـكـةَ راجـعًـا
كـأنّي أبـو الـشـبـلـينِ كـرَّ إلى الـغـابِ
فـمنْ يُـلقِ في بـعضِ الـقُـريّـاتِ رَحْـلَهُ
فـأمُّ الـقـرى مَـلْـقى رحـالي ومُـنـتـابي
ومن كـانَ في بـعضِ الـمـحـاريبِ راكـعًـا
فـلـلـكـعـبـةِ الـبـيتِ الـمُـحَـرَّمِ مِـحْـرَابي
إذا الـتـصـقتْ في آخـر الـلـيلِ لُـبَّـتي
بمُـلـتـزمِ الأبـرارِ من أيمنِ الـبـابِ
أو الـتـصـقتْ بـالـمُـسـتـجـارِ أوِ الـتـقتْ
عـلـى الـرُّكنِ أجـفـاني بـسحٍّ وتَـسْـكَـابي
فـقلْ لمـلـوكِ الأرضِ يـلـهـوا ويـلـعـبـوا
فـذلكَ لـهـوي مـا حـيـيتُ وتـلـعـابي[2]

(١) المصدر نفسه ٥ / ١ / ٣٦٥ – ٣٦٦

(٢) مخطوطة ديوان الزمخشري ص ٩ عن الإسعاف بشرح شواهد القاضي والكشاف ٨٠٨

وإن ملأ الحنين الضلوع، وتأججت ناره في الكبود، فإن نار بعض شعراء الصوفية تتلهّب في شوقها، فهي أيام المنى عند ابن الفارض، تلك الأيام التي قضاها في ظلال تلك الديار، وهو يتمنى من صميم قلبه عودتها، فهل تعود ؟:

أيّامَ أرتعُ في ميادين المنى
جَذِلاً وأرفلُ في ذيول حَيائي
ما أعْجَبَ الأيّامَ توجبُ للفتى
فيحًا وتمنحُهُ بسلْبِ عطاءِ
يا هل لماضي عيشنا من عودةٍ
يومًا وأسمحُ بعدهُ ببقائي

وتنزع مهجة علي بن محمد بن حسن الأنصاري الإشبيلي لانتشاق رائحة هوى مكة، فبكاء الوجد ومعاناة الشوق، تجعله يستعجل المطايا للوصول إلى منى قبل أن يخترمه الموت، كيف لا ؟ وهو وصحبه الشعث الغبر تراهم وهم من شدة الأنين والبكاء يصدعون الصخر، لدرجة أنهم حرموا على أنفسهم الماء حتى يشربوا من زمزم، يقول:

كيفَ لا أندبُ عهدًا بالحِمى
عن جفوني طارقَ النَّوم حَمى
نزعتْ شوقًا إليهِ مهجةٌ
لم يدعْ منها الهوى غيرَ ذما
يا لياليها بذي الغَور أما
يتسلَّى القلبُ عنكنَّ أما؟
وعهودًا باللِّوى قد سلفتْ
لم أزلْ أبكي عليهنَّ دَما
يصدقُ البرقُ فؤادي حسرةً
فأنا أبكي إذا ما ابتَسَما
لا تلُومونِي على الوَجدِ فما
يَفغَرُ المنصفُ باللومِ فَمَا

كـيفَ لي بـالخَـيْفِ يـدنـو ومِـنىً
فـهُـمـا همُّ فُـؤادٍ فـهُـمـا؟
يـا حُـداةَ الـعـيسِ رفـقًـا إنَّـهـا
شـكتِ الجـهـدَ وبُـعْـدَ الـمُـرتـمى
إنَّـهـا قـد حـمـلتْ شُـعـثًـا إذا
مـا بـكـوا قـلتَ غَـمَـامٌ سَـجَـمـا
ومـتى أنُّـوا اشـتـيـاقًـا وشـكـوْا
صـدعوا الـصـخـرَ وشـاقـوا الأعْـصُـما
شـربـوا الـدمعَ حـمـيـمًـا وارتـووْا
ولـذا عـافـوا الـزُّلالَ الـشَّـبِـمَـا
لم يـزمّـوا الـعـيسَ حـتّى حـرَّمـوا
كلَّ مـاءٍ أو يـحـلّـوا زمـزمـا
لا تـلـمْـهُمْ في الـبـكـا مُـعْـتـديًـا
كلُّ جـفنٍ شـامَ أو هـامَ هـمـا[1]

وهو يعنّف نفسه على أن عينيه لم تعد تسح دمعًا شوقًا لتلك المعاهد، وهذا في القياس غير صحيح، فلو كان صادق الحب لرشحت مقلتاه كما يقول:

أرى دعـوى الـمَـحَـبـة لا تـصحُّ
وخُـلَّبَ بـرقِ عـزمكَ لا يـسحُّ
ولـو تـطـوى عـلى عـزْمٍ صـحـيحٍ
لـهـاجكَ من نـسـيمِ الـغـورِ نـفحُ
وكـنتَ تـطـيـرُ من طـربٍ مـتى مـا
يَـلُحْ لكَ من بـروقِ الخَـيْفِ لَـمْحُ
أتُـشْـجـيكَ الحـمـائمُ كلَّ حـين
ومـا في مـقـلـتـيكَ لـهنَّ رَشحُ[2]

(١) الذيل والتكملة ٢/٥/ ٢٩٣/ -٢٩٥

والرحلة طلبًا للمكارم هي الهم والغاية، ويترنم هذا الشاعر العاشق المتيم بالتغني بالحطيم وزمزم، ويدعو نفسه وهو يتضرع إلى الرحمن في تلك المعالم أن تظهر صحة الهوى بالبكاء الأحمر، حيث الدمع الأبيض لا يكفي للدلالة على صادق المحبة، وجميل شجوه، وعذب ترنمه علَّم الحمام، فأصغى إليه، يقول من قصيدة تكتنز عاطفة، وتتوهج حرارة:

بينَ الحطيمِ وزمزمِ
أرسلْ جفونكَ بالدَّمِ
واضرعْ إلى الرحمن في
تلكَ المعالمِ تُرْحَمِ
لا ترضَ إلاّ عن دمٍ
فيها كلونِ الْعَنْدمِ
إنَّ الدموعَ البيضَ لا
تمحو خطايا المجرمِ
باللهِ يا ريحَ الصَّبَا
أنهي سلامَ المُغْرَمِ
بُثّي حديثَ أساهُ في
نادي الحجيجِ الأعظمِ
وانْدَيْ بمَسْراكِ البَلي
لِ عليهمُ وتنسَّمي
وبِعَرفِ ريحكِ مَتِّعي
مُهَجَ المطايا الرُّزَّمِ
بُثّي حديثَ مُتَيَّمٍ
يهْوى المطارَ إليهمِ
تُصغي الحَمامُ لشجوهِ
فيقولُ: ويكِ تعلّمي
وتصيخُ نحوَ نحيبهِ
فتمدُّهُ بترنُّمِ[١]

(١) الذيل والتكملة ٥/ ٢/ ٢٩٩

ويشتدُّ الأسف والتحسر والندم على انقضاء تلك الأيام، ويتمنى لو زادت، فأصبحت عشرًا، وهذا يذكرنا بأمنية عمر بن أبي ربيعة الذي تمنّى لو أنّ الحج يتكرر في العام أكثر من مرة، فيقول:

آهًا لأيامنا بالخَيْفِ لو بَقِيَتْ
عشرًا وواهًا عليها كيف لم تَدُمِ
هيهاتَ وا أسفي لو كان يَنْفَعُني
أو كان يُجدي على ما فاتَ وا نَدَمي

والشوق إلى المكان بكل ما فيه من: أناس وجبال وتراب وشجر هو ذلك الشوق الجامع الذي يملأ على ابن الفارض سمعه وبصره وحسه، فيقسم:

وحياتكمْ يا أهلَ مكةَ وهْيَ لي
قسمٌ لقد كَلِفتْ به أحشائي
حُبِّيكُمُ في الناس أضحى مذهبي
وهواكمُ ديني وعَقْدُ ولائي
فَلِنازِلي سَرْحِ المُرَبَّعِ فالشبيـ
ـكَةِ فالثَّنيَّة من شِعَاب كَداءِ
ولحاضري البيت الحرام وعامري
تلك الخيام وزائري الحَثْماء
ولفتيةِ الحرمِ المريعِ وجيرةِ الـ
ـحيِّ المنيع تلفُّتي وعنائي
وربوعُهُ أَرَبي أجلْ وربيعُهُ
طربي وصارفُ أزمةِ الأهواء
وجِبالُهُ لِيَ مَرْبَعٌ ورمالُهُ
لِيَ مَرْتَعٌ وظلالُهُ أفيائي
وتُرابُهُ نِدّي الذكيُّ وماؤهُ
ورْدي الرَّوِيُّ وفي ثَراهُ ثَرائي

وشِــعَــابُهُ لِيَ جَــنَّــةٌ وقِــبــابُهُ
لِيَ جُــنَّــةٌ وعــلــى صَــفــاهُ صَــفــائي[1]

وأهل المغرب أحرى بالشوق وأجدر، لبعد الشقة، وما يلاقونه من العنت والمشقة، ومن هنا فالشوق يكون أشد، والمشوق أشوق، يروي أبوعبدالله الحميدي، قال: أنشدني أبو محمد بن عبدالله بن عثمان النحوي بالمغرب لبعض أهل تلك البلاد في الشوق إلى مكة ـ شرفها الله تعالى ـ شعرًا:

يَــحِنُّ إلى أرضِ الحــجــازِ فــؤادي
ويحدو اشتياقي نحوَ مكةَ حادي
ولي أملٌ ما زالَ يسمو بهمَّتي
إلى البلدةِ الغرّاءِ خيرِ بلادِ
بها كعبةُ اللهِ التي طافَ حولَها
عبادٌ همُ للهِ خيرُ عبادِ
لأقضيَ حقَّ اللهِ في حجِّ بيتهِ
بأصدقِ إيمانٍ وأطيبِ زادِ
أطوفُ كما طافَ النبيونَ حولَهُ
طوافَ قيادٍ لا طوافَ عنادِ
وأستلمُ الركنَ اليمانيّ تابعًا
لسُنَّةِ مهديٍّ وطاعةِ هادي
وأركعُ تلقاءَ المقامِ مُصَليًا
صلاةً أُرَجِّيها ليومِ معادي
وأسعى سبوعًا بينَ مروةَ والصفا
أُهلِّلُ ربّي تارةً وأُنادي
وأرقى على أعلى المُعَرَّقِ داعيًا
إلى اللهِ ربّي في صلاحِ فسادي

(١) شرح ديوان ابن الفارض ٣٧٢

وآتي مِـنـىً أقـضـي بــهـا الـتَّـفَثَ الـذي

يَــتِــمُّ بـهِ حِــجّي وهَـــدي رشَـــادي

فـيــا لـيـتـنـي شـارفتُ أجـبُلَ مـكـةٍ

فـــبتُّ بـــنـــادٍ عـــنـــدَ أكْـــرَمِ وادي

ويـا لـيـتـنـي قـد جـئتُ بـطنَ مُـحـسِّرٍ

عـلـى ذاتِ لـونٍ كـالـعـقـيقِ سـنـادِ

ويـــا لـــيـــتـــني رَوَّيْتُ من مـــاءِ زمـــزمٍ

صـــدى خَـــلَـــدٍ بـــينَ الجـــوانحِ صـــادي

ويـا لـيـتـنـي قـد زرتُ قـبـرَ مـحـمـدٍ

فـأشـفي بـتـسـلـيـمي عـلـيهِ فـؤادي[1]

ويتجدد الشوق، ويجمله المشوق ويفصّله، وتزداد صبابته بإغراء العذول، كما يقول أبو اليمن بن عساكر:

يـا جـيـرتي بـين الحَـجُـون إلى الـصَّـفـا

شـــوقي إلـــيـــكمْ مُـــجْـــملٌ ومُـــفَـــصَّلُ

أهـــوى ديـــاركمُ ولي بـــربـــوعـــهـــا

وَجْـــدٌ يـــؤرِّقـــني وعـــهـــدٌ أوَّلُ

ويـزيـدني فـيـهـا الـعـذول صـبـابـةً

فـيـظلُّ يُـغـريـني إذا مـا يـعـذلُ[2]

ويعبر الشعراء عن شدة الفرح والابتهاج لدخول مكة ورؤية الحرم، يقول ابن جبير لما رأى البيت الحرام:

بـــدت ليَ أعلامُ بـــيتِ الـــهـــدى

بمـــكَّـــةَ والـــنـــورُ بـــادٍ عَـــلَـــيْه

فـــأحـــرمتُ شـــوقًـــا له بـــالـــهـــوى

وأهـــديتُ قـــلـــبيَ هَـــدْيًـــا إلـــيـه[3]

---

(١) إثارة الترغيب والتشويق ١٢٣

(٢) المجاز بين اليمامة والحجاز٣٢٦

(٣) نفح الطيب ٢/ ٣٨٤

ولا يصدق الشبلي نفسه أنه بين أحضان مكة، فيقول من شدة الوله:

أبـــطْـــحَـــاءَ مـــكـــةَ هـــذا الـــذي
أراهُ عِـــيَـــانًـــا وهـــذا أنـــا[1]

وعلي بن أفلح يحبس الركب، ويندب الربع، ويبكي الدمن، ويتمنى عودة ذاك الزمن في ربوع الخيف ومنى:

هـــذه الخـــيفُ وهـــاتـــيك مـــنى
فـــتـــرفّقْ أيّـــهـــا الحـــادي بـــنـــا
واحـــبس الـــركبَ عـــلـــيـــنـــا ســـاعـــةً
نَـــنْـــدبُ الـــرَّبعَ ونـــبـــكي الـــدِّمـــنـــا
فـــلـــذا الـــمـــوقفِ أعـــددنـــا الـــبُـــكـــا
ولـــذا الـــيـــومِ الـــدمـــوعُ تـــقـــتـــنى
زمـــنًـــا كـــان وكـــنّـــا جـــيـــرةً
يـــا أعـــاد الـــلـــهُ ذاك الـــزمـــنـــا[2]

وهذا أحد شعراء دمشق يهتف عندما حلَّ بها:

أنخِ الـــركـــابَ فـــهـــذه أمُّ الـــقـــرى
قـد لاح نـورُ الـهـدْي من مِـشْـكـاتِـهـا
واجـعلْ شِـعـارَكَ مـنه تـقـوى الـله كي
تـسـتـنـتجَ الخـيـراتِ من بـركـاتـهـا[3]

وإذا كان الحنين إلى الأوطان جارفًا، فإنّ مكة تسلي عن الأوطان، وهذا شاعر صدّته الأمواج عن ركوب البحر والعودة لبلده، فكتب في ذلك قائلاً:

لـــئن صَـــدّني الـــبـــحـــرُ عن مـــوطـــني
وعـــيـــنـــي بـــأشـــواقِـــهـــا زاهـــرهْ

---

(١) مثير العزم الساكن ١٥٤

(٢) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ٣١٨

(٣) خلاصة الكلام ٩٩

فـــقـــدْ زَخْـــرفَ الـــلـهُ لـي مـــكَّـــةً
بـــأنـــوارِ كـــعـــبـــتـهِ الـــزاهـــرهْ[1]

وفي ذلك يقول أبو عبدالله محمد بن علي بن يحيى الأندلسي، ويعد ذلك من النعم العظيمة عليه:

إذا كـنتُ جـارًا لـلـنـبيِّ وصَـحْـبِهِ
ومـكَّـةُ بـيت الـله مـنّي عـلى قُـرْبِ
فـمـا ضـرّني أنْ فـاتـني رغْـدُ عـيـشـةٍ
وحسبي الذي أُوتـيتهُ نـعمةً حسبي[2]

ومن شدة الحب تُنسى القلوب، ويخلِّفها أصحابها خلفهم في مكة بعد الرحيل، فهذا شاعر يفتش عن قلبه فلا يجده، ويبدو أنه تركه وديعة كما يقول:

لي في الـحـجـازِ وديـعـةٌ خـلّـفـتُـهـا
أودعـتُـهـا يـوم الـوداعِ مُـوَدِّعِي
وأظـنُّـهـا لا بل يـقـيـني أنّـهـا
قـلـبي لأني لم أجـد قـلـبي مـعي[3]

والشوق يجعل ابن الفارض يتصور قلوب العاشقين مطروحة على أرض الخيف، ويطالب الإبل بأن تترفق حتى لا تطأها:

خَـفِّـفِ الـوطءَ فـفي الـخـيفِ سـلـمـ
ـتِ عـلـى غـيـر فـؤادٍ لـم تَـطِي[4]

ولا يكتفي بذلك بل هو ينشد ضالته التي ضاعت منه ـ على طريقة الشريف الرضي ـ وهي قلبه ما بين كداء وكدي، ويطالب أخلاّءه بالبحث عنه ورده إليه، وكما سبق فقلبه المتعلق بمكة ضاع فيها:

(1) نفح الطيب ٤ / ٣٢٧
(2) نفح الطيب ٢/ ٦٠
(3) شرح ديوان ابن الفارض ١٥١ والبيتان فيه لم يُنسبا لأحد
(4) المصدر نفسه ١٥٠

كـــان لـي قـــلـبٌ بـــجـــرعـــاء الحِـــمـى
ضـــــاعَ مـــــنّي هـل لـه ردٌّ عـــــلـيْ
إن ثـــنـى نـــاشــدتُــكمْ نُـــشْــدانـــكمْ
سُـــــجَـــــرائي لـيَ عـــــنهُ عَـيٌّ عيْ
فـــاعْـــهَـــدوا بَـــطْـــحـــاءَ وادي سَـــلَمٍ
فـــهْي مـــا بـــين كَـــداءٍ وكُـــدَيْ(١)

ويجعل روحه في مكة التي هي سؤله، وطيبه ثراها، ويتشوق إليها على البعد في شعر يقطر عذوبة، مما جعل عبدالله بن إدريس يتساءل في عجب عن هذه النفحات وهذا السمو الشعري الذي في رأيه أعجز شعراء الوجدان، وأخرس أعلام الوصف، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

يــا أُهَــيْلَ الحـــجــاز إنْ حــكمَ الــدهـ
ـــرُ بـــبـــينٍ قَـــضَـــاهُ حَـــتْمٌ إرادي
فـــغـــرامي الـــقـــديمُ فـــيـــكم غـــرامي
ووِدادي كـــــمـــــا عـــــهـــــدتم ودادي
قـــد ســكـــنـــتم من الـــفـــؤاد سُـــويـــدا
هُ، ومن مـــقـــلـــتي مـــحـلَّ الـــسَّـــوادِ
يــا سَــمِــيــري رَوِّحْ بمــكـــةَ روحي
شـــاديًـــا إن رغـــبتَ في إســـعـــادي
فَـــذُراهـــا سُـــؤلي وطـــيـــبي ثـــراهـــا
وســـبـــيلُ الـــمـــســـيل وِرْدي وزادي
كـــان فـــيـــهـــا أُنـــسي ومـــعـــراجُ قـــدسي
ومـــقـــامي الـــمـــقـــامُ والـــفـــتح بـــادي
نـــقـــلـــتـــني عـــنـــهـــا الحـــظـــوظُ فـــجُـــذَّتْ
وارداتـــي ولـــم تَـــــــــــدُمْ أَوْرادي
آهِ لـــو يـــســـمحُ الـــزمـــانُ بـــعَـــوْدٍ
فـــعـــسـى أن تـــعـــودَ لـي أعـــيـــادي

(١) المصدر نفسه ١٥١ – ١٥٢

فـــبـــربِّ الحـــطـــيم والـــركن والأسـ
ـتــارِ والــمـروتــينِ مَـسْـعى الـعِـبـادِ
وظِلالِ الجَـنــابِ والحِــجْــر والـــمـيـ
ـزابِ والــمـسـتـجـاب لـلـقُـصَّـادِ
مــا شَـمَـمْتُ الــبـــشـامَ إلاّ وأهــدى
لـــفـــؤادي تحـــيـــةً من سُـــعـــاد[1]

ويقسم ابن الفارض على حب أهل مكة، بل إنّ هذا الحب أصبح مذهبه، وهواهم أربه، وهو يعدد الأماكن، ويستعيد حديثهم شوقًا إليهم، ومحبة فيهم، حقًا إن قراءة هذا الشعر تجعلك تعيش حالة حب فريدة، جعلت الشاعر يستخدم كل الأدلة على صدق حبه، فهو لم يترك أسلوبًا من أساليب التأكيد والتكرار، والقسم، والدعاء، والتمني، والتصوير والوصف إلا وجاء بها، بالإضافة إلى الألفاظ الدالة على شدة التعلق، وسيطرة معاني الحب التي تؤكد الهيمان والحرقة، يقول:

يـا سـاكـني الـبـطـحـاء هل من عـودةٍ
أحـيـا بــهـا يـا سـاكـني الـبـطـحـاءِ
فــبــربــكم يـــا أهل مــكــة وهْـــو لي
قـسمُ لـقـد كـلـفت بـكم أحـشـائي
حُـبّـيـكمُ في الـنـاس أضحى مـذهـبي
وهـــــواكمُ أربي وعـــــقـــــدُ ولائي
يـــا لائِـــمِي في حبِّ مَنْ مِن أجــلهِ
قـــد جــدَّ بي وَجْـــدي وعـــزَّ عــزائي
لــو تــدرِ فـيمَ عَـذَلْـتـني لـعَـذَرتـني
خـــفِّضْ عـــلـــيكَ وخـــلِّـــني وبلائي
فـلـنـازلٍ سـرْحَ الـمُـربَّع فـالـشـبـيـ
ـكـة فـالـثـنـيّـة من شـعـاب كـداء

(١) المصدر نفسه ٢/ ٣٧٧

ولحاضِري البيتِ الحرام وعامري
تلك الخيام تلفُّتي وَعَنَائي
ولفتيةِ الْحَرمِ المريع وجيرة الـ
ـحيِّ المنيع وزائري الحَثْماءِ
فهمُ همُ صدُّوا دَنَوْا وصلوا جَفَوْا
غدروا وفَوْا هجَرْوا رثَوْا لضنائي
أَسْعِدْ أُخيَّ وغنِّني بحديث من
حلَّ الأباطحَ إنْ رعيتَ رجائي
وإذا أذَى ألمٍ ألمَّ بمهجتي
فشذا أُعيْشابِ الحجاز دوائي
وترابهُ ندِّي الذكيُّ وماؤهُ
وردي الرويُّ وفي ثراهُ ثرائي
وشعابهُ لي جنةٌ وقبابهُ
لي جُنَّةٌ وعلى صفاهُ صفائي
حيًّا الحَيا تلك المنازلَ والربى
وسقى الوليُّ مواطنَ الآلاء
وسقى المشاعرَ والمحصَّبَ من منًى
سحّاً وجادَ مواقف الأنضاء
ورعى الإلهُ بها أُصيحابي الأُلَى
سامرتُهمْ بمجامع الأهواء
يا هل لماضي عيشنا من أوْبَةٍ
يومًا وأسمحُ بعدهُ بفنائي[1]

وتفدية مكة بالنفس، والدعاء لها بالحماية والصيانة هو لونٌ من ألوان الحب والشوق، وتعداد مكارمها، وأسباب عظمته هو أيضًا من هذا الباب، كي يصل منه إلى

(١) ديوانه ٢ / ٣٧٠ – ٣٧٢

التعبير عما تتضمنه الجوانح من لهفة وشوق، كما يقول هذا الشاعر الأندلسي من قصيدة له:

أمــكــةُ تــفــديكِ الــنُّــفــوسُ الــكــرائمُ
ولا بــرحتْ تــنــهلُّ فــيكِ الــغــمــائمُ
وكُــفَّتْ أكفُّ الــســوءِ عــنكِ وبُــلِّــغتْ
مُــنــاهــا قــلــوبٌ كي تــراكِ حــوائمُ
فــإنَّكِ بــيــتُ الــلــهِ والحــرمُ الــذي
لــعــزَّتهِ ذلَّ الــمــلــوكُ الأعــاظمُ
وقــد رُفِــعتْ مــنكِ الــقــواعــدُ بــالــتّــقى
وشــادتْكِ أيــدٍ بــرَّةٌ وعــواصمُ
وســاويتِ في الــفضل الــصِّراح كلاكــمــا
تُــنــالُ بهِ الــزُّلــفى وتُــمــحى الــمــآثمُ
ومن أينَ تــعــدوكِ الــفــضــائلُ كــلُّــهــا
وفــيكِ مــقــامــاتُ الــهُــدى والــمــعــالمُ
ومبــعثُ من سادَ الــورى وحَــوى الــعُلى
بمــولــدهِ عــبــدُالإله وهــاشمُ
نــبيٌّ حــوى فــضلَ الــنــبــيِّــينَ واغْــتَــدَى
لــهم أوّلاً في فــضــلهِ وهْــو خــاتمُ
وفــيكِ يمــينُ الــلــهِ يــلــثــمــهــا الــورى
كــمــا يــلــثمُ الــيــمــنى منَ الــمَــلْكِ لاثمُ
وفــيكِ لإبــراهــيمَ إذ وطىءَ الــصَّــفــا
ضُــحى قــدمٍ بُــرهــانُــهــا مُــتــقــادمُ
دعــا دعــوةً فــوقَ الــصَّــفــا فــأجــابهُ
قَــطــوفٌ من الــفجِّ الــعــمــيقِ وراسمُ

وبعد تعداد جوانب الفضل وخصال الفضائل، يتلهف لزيارتها، ويدعو الله أن تتحقق أمنيته، في الشرب من زمزم، وفي التلبية مع الحجاج:

أَلَــهْــفِي لأقــدارٍ عــدتْ عــنك هــمَّــتي

فــلم تــنــتــهضْ مــنّي إلــيكِ الــعــزائمُ

فــيــا لــيتَ شــعــري هل أرى فــيكِ داعــيًا

إذا جــأرتْ لــلــه فــيكِ الــغــمــائمُ

وهلْ تــمْــحُــوَنْ عنّي خــطــايــا اقــتــرفــتُــهــا

خُــطــىً فــيكِ لي أو يَــعــمُــلاتٌ رواسمُ

وهل ليَ من سُــقــيــا حــجــيــجكِ شــربــةٌ

ومن زمــزمٍ يُــروي بــهــا الــنــفسَ حــائمُ

وهل ليَ في أجــرِ الــمُــلَــبِّــينَ مَــقــسَمٌ

إذا بُــذلتْ لــلــنّــاسِ فــيكِ الــمــقــاسمُ

وكم زارَ مَــغــنــاكِ الــمــعــظَّمَ مــجــرمٌ

فــحُــطَّتْ بهِ عــنهُ الخــطــايــا الــعــظــائمُ

لــئن فــاتــني مــنكِ الــذي أنــا رائمٌ

فــإنَّ هــوى نــفــسي عــلــيكِ لــرائمُ

وإنْ يَــحْــمِــني حامي الــمَــقاديــرِ مُــقْدمًا

عــلــيكِ فــإني بــالــفــؤادِ لــقــادمُ

ثمَّ يختم بإهداء أزكى السلام والتحية:

عــلــيك سلامُ الــلــه مــا طــافَ طــائفٌ

بــكــعــبــتك الــعــلــيــا ومــا قــامَ قــائمُ

إذا نــسَــمٌ لم تُــهْــدِ عــني تحــيــةً

إلــيكِ فمُــهــديــهــا الــرّيــاحُ الــنّــواسمُ[1]

ويتشوق أبو علي المروزي الحسن بن علي القطان بعد أن مكث مجاورًا بالحرم فترة، ويعبر عن نفس مترعة بالشوق، مولعة بحب البيت الحرام وكلّ الأماكن الشريفة من خيف منى، إلى المحصب والصفا وشعب عامر، ويظل يعالج الأسى، ويداري حزنه، فيقول:

(١) قلائد العقيان ٧٣٠ – ٧٣١

خليليَّ هل تشفي من الوجدِ وقفةٌ
بخيفِ منىً والسامرونَ هجوعُ
وهل لِلُلَيالاتِ المحصَّبِ عودةٌ
وعيشٍ مضى بالمأزمينِ رجوعُ
وهل سرحةٌ بالسفحِ من أيمنِ الصَّفا
رَعَتْ من عهودي ما أضاعَ مضيعُ
وهل قُوِّضتْ خَيْمٌ على أبرق الحمى
وما ذاكَ من غدر الزمان بديعُ
وهل تَرِدَنْ ماءً بشِعْبِ بنِ عامرٍ
حوائمُ لو يُقضى لهنَّ شروعُ
وإنّي متى أعصِ التجلُّدَ والأسى
فَللشوق مني والغَرامِ مطيعُ
كفى حَزَنًا أنّي أبيتُ وبيننا
من البيدِ ممتدُّ الفجاجِ وسيعُ
أُعالجُ نفسًا قد تولّى بها الأسى
وطرفًا يجفُّ المُزْنُ وهْو هَموعُ[1]

ومن جميل قوله دعوته على داعي التفرق بالعمى:

ألا قلْ لجيران الصَّفا ليتَ داعيَ التْـ
ـتَفرقِ أعمًى يومَ راحَ مناديا
لعمري لقد ودَّعتُ يومَ وداعكمْ
بشعبِ المُنقّى شُعبةً من فؤاديا[2]

ويبدو شوق المجرب أقوى وأشد، والدعاء بالسقيا يتكرر في كثير من قصائد الشوق، وابن الجوزي يبرر تشوقه لمكة، فيقول: (وصلني كتاب من بعض إخواني من

(١) معجم الأدباء ٣/ ٩٦٠

(٢) معجم الأدباء ٣ / ٩٦٠

الحاج يتضمن الاستيحاش لي في طريق مكة، فهيج شوقي إلى تلك الأماكن، فكتبت إليه أبياتًا منها:

أتُراكمْ في النَّقا فالمُنْحَنَى
يومَ سَلْعٍ تذكرونا ذِكْرَنا
انْقَطَعْنا ووصلْتُمْ فاعلموا
واشكروا المنعمَ يا أهلَ مِنى
قد ربحتُمْ وخسرنا فَصِلوا
بفضولِ الربح مَنْ قد غُبِنا
يا سَقَى اللهُ الحِمى أنتم بهِ
ورعى تلك الرُّبا والدِّمَنا
ما قطعتمْ واديًا إلاّ وقد
جِئْتُهُ أسعى بأقدامِ المُنى
إنْ سقتكمْ ديمةٌ هاطِلةٌ
فدموعي قد جَرتْ لي أعْيُنا
وأنادي كلَّما لبَّيْتُمُ
في فؤادي أسفًا وا حَزَنا
آهِ وا شوقًا إلى ذاك الحِمَى
شوقَ محرومٍ وقد ذاقَ الجَنَى)(١)

وعلى مدى الأعصر يظل شعر الحنين شعلة متوهجة لمكة بلدًا وقبلة، ومن شوق أهل البلد في القرن الحادي عشر ما ورد في شعرهم كثير، يقول الدكتور عائض الردادي: (وشعراء الحجاز في القرن الحادي عشر مرّت بهم تجربة الغربة عن الوطن والأهل، وظهر في شعرهم صدى الغربة والحنين)(٢) ويذكر من هؤلاء الشعراء: إبراهيم الخياري، ومحمد كبريت، وابن معصوم وابنيه، وأحمد بن مسعود، وأبو الفضل محمد بن العقاد، وعلي بن القاسم المنلا، وعمار بن بركات، وأحمد الجوهري وعددًا ليس باليسير.

(١) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ١٢٧
(٢) الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ٢٨٢-٢٨٣

ويلوم أحد الشعراء وهو محمد بن علان الصديقي هؤلاء الشعراء على ترك مكة، فيقول معاتبًا:

ولا عـــذرٌ لـــذي أمنٍ مـــقـــيمٍ
بمـكـةَ لـو يـكـونُ بـضـيقِ عـيشِ
بـتـرحـالٍ إلى بـلـدٍ سـواهـا
لخـفضِ الـعـيشِ إلاّ مـحضَ طـيشِ(١)

وهذا الذي ينهى عنه الصديقي ويلوم الشعراء عليه، هو ما يحسّه علي بن معصوم الذي يصور لحظة فراق مكة بلحظة فراق الروح، وأن هذا الفراق يأتي بتصريف الأقدار، ولولا الحاجة الماسة لما فارقها، وفي ذلك يقول:

فـارقتُ مـكـةَ والأقـدارُ تُـقـحـمـني
ولي فـؤادٌ بـهـا ثـاوٍ مـدى الـزَّمنِ
فـارقـتُـهـا لا رضًـا مـنِّي وقـد شـهـدتْ
بـذاكَ أملاكُ ذاكَ الحِـجْـرِ والـرُّكُنِ
فـارقـتـهـا وبـودِّي إذْ فـرقتُ بـهـا
لـو كـان قـد فـارقتْ روحي بـهـا بـدني(١)

ونقل لنا ابن الجوزي هذه الآهات المحترقة على لسان امرأة، يقول: (خرجت أم أيمن بنت علي امرأة علي الروذباري من مصر وقت خروج الحاج إلى الصحراء، والجمال تمر بها، وهي تبكي وتقول:

فـقـلـتُ دعـوني واتّـبَـاعي ركـابـكمْ
أكنْ طـوعَ أيـديـكمْ كـمـا يـفـعل الـعـبـدُ
ومـا بـال زعـمـي لا يـهـونُ عـلـيـهمُ
وقـد عـلـمـوا أن لـيسَ لي مـنـهمُ بـدُّ

(١) المرجع نفسه ٢٨٥

(٢) سلوة الغريب: مجلة المورد العراقية، المجلد الثامن، العدد الثاني، ص ١٦٢ سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

وتقول هذه حسرة من انقطع عن الوصول إلى البيت، فكيف تكون حسرة من انقطع عن رب البيت)[١].

ويمتلئ شعر العصر الحديث بالحنين، فشعراء مكة الذين غادروها لأمر ما كالأعمال العلمية أو الدبلوماسية أو لأي أمر هام، قد هاموا عشقًا بها، وشعر الشوق للمكان اشتد في الشعر الحديث، وكانت البواعث عديدة، ففترة الاستقلال، وغربة الشعراء عن أوطانهم طلبًا للرزق كما عند شعراء المهجر، أججت شعر حب الوطن في النفوس.

وهذا حسين فطاني الذي يبتعد عن بلده في مهمة دبلوماسية، يتشوق على البعد لمكة، ويحنّ إليها حنينًا هائمًا، فيقول:

يا قِبلةَ المجد في أعلى عواليها
ويا مُنى النَّفس يا أغلى أمانيها
في ذكرياتِكِ نُعْمَى كلّما خطرتْ
أحسستُ نشوةَ أيامي تناديها
تلك الصَّباباتُ في سنِّ الشَّبابِ لها
مباهجٌ وهْي أشواقٌ نُسميها
تأثيرُها في حنايا النفس متصلٌ
تقاصرَ البعدُ أم طالتْ لياليها
نَسبُ الفؤادِ أحاسيسًا تلمُّ به
في مهبط الوحي والإيمان يُمليها
لكلِّ جارحةٍ معنًى تهيمُ بها
تستودعُ القلبَ أسرارًا تداريها

لماذا كل هذا الشوق والحنين ؟ إنّ كل التبريرات التي يقدمها الشاعر معقولة ومنطقية، فقد ولد بها هو وأجداده، ومن عزّت بلاده عز، ومكة هي قبلة المسلمين أينما كانوا، فهي معهم في حلهم وترحالهم، يصوبون وجوههم نحوها في كل صلاة، ومع كل

(١) مثير الغزم الساكن إلى أشرف الأماكن ١/ ١٢١

هذه التبريرات، فليس هناك مثل مكة، ولا كأهلها جيران الله، ونحن نقول: الحب والشوق للوطن لا يبرران، فكيف إذا كان هذا الوطن مكة ؟

وعــزَّ في الــنــاس من عــزّت بلادهمُ
بمـا أشـادوا لـهـا أو شـيّدوا فـيـهـا
ولا كـمـكَّـةَ في الأمـجـاد من وطنٍ
حـاشـا ولا مـثـلـهـا أهلٌ كـأهـلـيـهـا
وَصِيَّةُ الـمـصـطـفى عتّـابُ يحـفـظـهـا
لـلـجـيل صـدقًـا وللأجـيـال يـرويـهـا
الـلـهُ يـخـتـارُ من يـرضى لجـيـرتِهِ
أهلاً وجـيـرةُ رب الـبـيت تُـرضِـيـهـا
ومـكـةُ قِـبـلـةُ الإسلامِ تَـجْـمَـعُـهُمْ
عـقـود نـورٍ أضـاءتْ بـين نـاديـهـا
ولـدتُ فـيـهـا وأجـدادي بـهـا نـشـأوا
عـلـى هـدى الـلـه إجلالاً لـبـاريـهـا
بـكل قـطـرٍ به الإسلام لي نـسبٌ
دُعـاةُ صـدق أقـامـوا في أقـاصـيـهـا
يَـرَوْنَ مـكـةَ في حِلٍّ ومُـرْتَـحَلٍ
وفي صلاتـهمُ لـلـه صـلّـوهـا
وجـوهُـهُمْ نـحـو بـيتِ الـلـهِ مـقـبـلـةٌ
وحـيث كـانـوا فـشـطـرَ الـبـيت ولُّوهـا[1]

والشاعر علي زين العابدين من أبنائها الذين ابتعدوا عنها، يدعوها لتجدد عمره الذي ضاع في الغربة، ولتضمد جراحه النازفة:

جـددي عُـمـري الـذي ضـيَّـعـتُهُ
وانـفُـثِي الـعـزمَ بـنـفـسي ذا مـضـاءِ

---

(١) هديل الحمام ٢ / ٤١٦

هـــدهـــديـــني فـــالـــنَّـــوى لَـــوَّعَـــني
لـــوعـــةً غـــالتْ شُـــمـــوخي وإبـــائي
ضَـــمّـــدي جُـــرحي الـــذي ســـالَ دمًـــا
وتـــنـــزّى دافـــقًـــا بـــالـــكـــبـــريـــاءِ

وعندما يعود ويراها يهتف:

يـــا لـــبـــشـــرايَ وهـــذي فـــرحـــتي
فـــرحـــةٌ شـــاعتْ بـــأهـــدابِ رجـــائي
عـــودةُ الـــنـــازحِ أضـــنـــاهُ الجَـــوى
وانْـــثَـــنَى يـــرفلُ في بُـــردِ الـــرضـــاءِ
ويحَ هـــذا الـــدَّهْـــرِ كم جَـــرَّعـــني
كـــأسَهُ الـــمُـــتْـــرَعَ من ذَوْبِ الـــشّـــقـــاءِ(١)

■ الشوق العكسي

ومع شدة الشوق الذي أبداه الشعراء في شعرهم نحو مكة ومشاعرها، إلاّ أننا نجد بعض الشعراء هاجهم الشوق، وهزّهم الحنين إلى بلادهم بعد طول مكثهم في مكة، فكان ابتعادهم عن أوطانهم، وفراقهم لذويهم دافعًا لأن يشدو بقصائد الشوق العكسي، ولعلّ نمير بن كهيل من أوائل من حنوا إلى ديارهم وهم في مكة، يقول في حنينه إلى نجد على لسان جمله:

يَـحِنُّ قَـعُـودي ذو الحـيـاطِ صَـبَـابـةً
بمـــكـــةَ وَهْـــنًـــا من تَـــذَكُّـــرِه نَـــجْـــدا
تـذكّـرَ نجـدًا مَـوْهـنًـا بـعـدمـا انـطـوتْ
ثـــمـــيـــلـــتُهُ وازدادَ عن إلـــفهِ بُـــعـــدا
تـــذكّـــرَ نجـــدًا حـــاديًـــا بـــعـــد قـــادمٍ
ولا يلبثُ الشّوقانِ أن يَصْدَعا الكِبْدا(٢)

---

(١) مكتي قبلتي ٢٤٠

(٢) شعر قبيلة أسد ٥٩٥

وهذه ناقة ذي الرمة تتشوق للعودة من منى بعد أن رأت الإبل تستعد للرحيل والعودة إلى أوطانها، فيقول واصفًا شوقه وشوقها:

أرى ناقتي عندَ المُحَصَّبِ شاقَها
رواحُ اليماني والهَديلُ المُرَجَّعُ
فقلتُ لها قِرِّي فإنَّ ركابَنا
وركبانَها من حيثُ تَهْوينَ نُزَّعُ[1]

ولعل شوق الشريف الرضي إلى العراق يمثل هذا الشوق العكسي، فكم أبدى تشوقه إلى مكة، ومثل لنا كل صور الحنين كترك قلبه هناك، وشدة لهفته إلى ديارها، ومع ذلك فهو يبدي عن شوق آخر معاكس، كما في قوله:

وبالعراق وَطَري
يا بُعْدَ ما لاحَ لنا
أشْتاقُهُمْ وَمُرْبَخٌ
إلى زَرودٍ بَيْنَنا
يا ويحَ لي من شَجَني
أما مَلَلْتُ الشَّجَنا[2]

ويتشوق أبو محمد اليزيدي إلى الأحبة بعد منصرفه من مكة قائلاً:

يا فرحتا إذْ صرفنا أَوْجُهَ الإبلِ
نحوَ الأحبَّةِ بالإزعاجِ والعجلِ
نحثُّهنَّ وما يُرْمَيْنَ من دأبٍ
لكنَّ للشَّوقِ حثّاً ليسَ للإبلِ[3]

كما رأينا عند البرعي من شدة الشوق إلى مكة، فإنّه بعد طول غياب يحنُّ إلى ربعه ودياره، فيقول:

(١) ديوان ذي الرمة ٧٢٦
(٢) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٤٨٢
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز٢٧٤

طيفُ الخيالِ من الثّيّابتين سرى
إلى الحجاز فوافى مَضْجعي سحرا
سَرَى على بعد دارينا يَنِمُّ بهِ
روْحُ النسيمِ فَيُهدي مَنْدَلاً عَطِرا
فكمْ وكم جازَ من سهلٍ ومن جبلٍ
ومن وعورٍ إلى أمِّ القُرى وقَرى
أفديه من زائرٍ ما زارني أبدًا
وذاكرٍ ما نَسي ودّي ولا ذكرا
وحاضرٍ نُصْبَ عيني وهْو مبتعدٌ
عنّي فما غابَ عن عيني ولا حَضرا
ليت الأراكَ التي مرَّ النسيم بها
تدري بشكواي بل ليت النَّسيمَ درى
ما صَبْرُ صَبٍّ لهُ في كلّ جارحةٍ
جرحٌ أعادَ عليه صبرُهُ صَبَرا
وطالما هاجتِ الشّكوى له شَجنًا
فذكّرتهُ زمانًا مرَّ فادّكرا
من لي بطفلين من خلفي كأنهما
زُغْبُ القطا إذْ عَدمْنَ الماءَ والشَّجَرا
فارقتُ ريحانتيْ قلبي وما رَضِيَتْ
نفسي الفراقَ ولا اخترتُ النّوى بَطَرا
ولم يكونا حبيبينِ افْتَقدتُهما
في غربتي بل فقدتُ السَّمعَ والبَصَرا
هما وديعةُ من يرعى وَدائعَهُ
ومن يَرى وهْو داني القرب ليس يُرَى[1]

(١) شرح ديوان البرعي ١٠٧– ١٠٨

ولما قفل ابن جبير من رحلة الحج الأولى عائدًا إلى الأندلس ولاحت له من على ظهر البحر جبال دانية، قال متشوقًا:

لي نحو أرض المُنى من شَرْقِ أندَلُسِ
شوقٌ يؤلِّفُ بين الماءِ والقبسِ
لاحتْ لنا من ذراها الشُمِّ شاهقةٌ
تُدني لزُهر الدّراري كفَّ مُلتَمسِ
وقد أغذَّتْ بنا في اليَمِّ جَاريةٌ
سوداءُ لا تستطيعُ الجريَ في يَبَسِ
تُنازعُ الريحُ منها صَعْبَ مِقْوَدِها
فترتمي بعنانٍ مُسمحٍ سلسِ
لولا حذاريَ أن أُذكي لها لهبًا
زجَّيتُها برياح الشوق من نفَسي
يا ليت شعريَ والآمالُ مُعْوِزَةٌ
وربما أمكنت يومًا لمُخْتَلسِ
هل يَدْنُوَنَّ مزارُ الشَّوقِ إنَّ به
ما شئتَ من نُهَزٍ للأنسِ أو خَلَسِ
وهل تعودنَّ أيّامٌ رشفتُ بها
سُلافةَ العيش أحلى من جَنَى اللّعَسِ[1]

وهذا شاعر عراقي هو فخر بن سيف يقول وهو بمكة متشوقًا إلى بلده العراق:

حملتُ من الشَّوق عبئًا ثقيلا
فأورثَ جسمي المُعنّى نُحولا
وصيَّرني كَلِفًا بالغرا
مِ أندبُ ربعًا وأبكي طُلولا
نشدتُكُما اللهَ يا صاحبيْ
يَ إنْ جُزتُما بِلِوا الطَّلحِ ميلا

(١) الذيل والتكملة ٥ / ١ / ٦٠٥

نُـــســـائلُ عن حـــيِّـــهم بـــالــعـــرا
قِ هلْ قُـــوِّضتْ أمْ تُـــراهْ حُـــلـــولا[1]

وهناك حنين مختلف، وشوق من نوع آخر، إنه شوق الحكم والتملك، حكم بلاد الحرمين، وهذا الملك المنصور بن أبي عامر ملك الأندلس يمنّي نفسه ويتشوق لحكم مصر والحجاز معًا، فيقول:

مـــنعَ الــعـــينَ أن تـــذوقَ الـــمـــنـــامـــا
حُـبُّـهـا أنْ تـرى الـصّـفـا والـمَـقـامـا
لـي ديـــونٌ بـــالــشـــرق عـــنـــدَ أُنـــاسٍ
قـد أحـلّـوا بـالـمَـشْـعَـرَيْنِ الحَـرامـا
إنْ قَـــضـــوهـــا نـــالـــوا الأمـــاني وإلاّ
جــعـــلـــوا دونـــهـــا رقـــابًـــا وهـــامـــا
عن قـــريبٍ تـــرى خـــيـــولَ هـــشـــامٍ
يـبـلـغُ الـنـيلَ خـطـوُهـا والـشـآمـا[2]

■ مثيرات الحنين ومنبهات الشوق:

تعددت مثيرات الحنين، ومنبهات الشوق، فكان البرق والخيال وركب الحجاج المسافرين ووصاياهم من أشد المثيرات التي تدفع بالشعراء لاستنهاض هممهم للرحيل إلى الأماكن المقدسة، فهذا البرق الحجازي يستثير لمعانه أشواق العاشقين، ويثير أوار حبهم وحنينهم، وانظر ما فعله البرق بابن دقيق العيد، لقد قدح في قلبه شرارة الشوق، فهام بها عشقًا وطربًا، فقال:

يـــهـــيمُ قـــلـــبي طـــربًـــا عـــنـــدمـــا
أســـتـــلـــمحُ الـــبـــرقَ الحِـــجَـــازيّـــا
يـــا هل أُقَـــضَّى حـــاجـــتي من مِـــنًى
وأنْـــحَـــرُ الـــبُـــزْلَ الـــمَـــهـــارِيّـــا[3]

---

(١) غاية المرام ١ / ٥٣٠
(٢) مطمح الأنفس ٣٩٠
(٣) ديوان ابن دقيق العيد ١٥٤

ويتمنى الشاعر يحيى النشو بأن يلوح له سفح منًى ويخفق البرق فوق جباله:

من لي بـسـفح مـنًى يـلـوحُ لـنـاظـري
والـــبـــرقُ خـــفّـــاقٌ عـــلـى أعلامهِ
قلْ لــلـمـقـيم عـلـى أُثَـيْلاتِ الـنّـقـا
لا تـقـتلِ الـمـشـتـاق قـبل حِـمَـامهِ[1]

■ خيال الطيف

استخدم الشعراء كذلك في التعبير عن أشواقهم طيف الخيال الذي يحمل في جعبته تحقيق الأماني، فالشاعر عبدالرحيم البرعي يستدعي خيالها ليتحدث عن أشواقه فيقول:

مـــا كـــان حُـــجَّـــةُ من أقـــام بمـــكـــةٍ
أنْ لا يُـــحـــدّثـــني حـــديثَ ســـعـــادِ
بَـعَـثتْ إليَّ من الحـجـاز خـيـالَـهَـا
شـــتّـــانَ بـــين بـلادهـــا وبـلادي[2]

ويرى طيفها على البعد من النيابتين تلك القرية البعيدة عن مكة في جبال اليمن، فيقول:

طـيفُ الخـيـالِ من الـنّـيـابـتـينِ سـرى
إلى الحـجـازِ فوافى مـضـجـعي سَـحَـرا
سَـرَى عـلـى بُـعـدِ داريـنـا يـنـمُّ بهِ
روحُ الـنَّـسـيمِ فـيـهـدي مـنـدلاً عـطـرا
أفـــديـهِ من زائـــرٍ مـــا زارني أبـــدًا
وذاكـــرٍ مـــا نـــسي ودّي ولا ذكـــرا[3]

وبرهان الدين القيراطي يستقبل طيفها بعد أن طال ترقبه له، وسهره من أجله، كما يقول:

أرسـلـتْ طـيـفَـهـا إلى الـصبِّ لـكنْ
بـعـد أن أسْـهَـرَتْهُ في الـظـلـمـاءِ

---

(١) الإشراف في تاريخ الأشراف ١٠٧
(٢) شرح ديوان البرعي ١٣٢
(٣) شرح ديوان البرعي ١٠٧

لا تَـمُـنِّي بـالـطـيفِ إلاّ عـلـى مَنْ
يـتـهـنّـا بـلـذةِ الإغـفـاءِ[1]

■ **الوصايا**

وهذا شكل آخر من أشكال الاستدعاء، استدعاء الحنين والشوق، إذ يغتنم الشاعر فرصة وداعه حجاج بيت الله، فيقف في وصيته لهم على الأماكن، وكأنه يراها رؤية العين، فيوصيهم بكل خير، كما في هذه الوصية لابن دقيق العيد، حيث يقول من قصيدة طويلة في مدح سيد الورى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم:

يـا سـائـرًا نـحـو الـحـجـاز مُـشَـمِّـرًا
أجـهـدْ فديـتُكَ في الـمـسير وفي الـسُّرى
وتـدرّعِ الـصَّـبـرَ الجـمـيل ولا تـكنْ
في مـطـلب الـمـجـد الأثـيلِ مُـقَـصِّـرا
اقـصـدْ إلى حـيثُ الـمـكـارمُ والـنّدى
يـلـقـاكَ وجـهُـهُـمـا مُـضِـيـئًـا مُـقْـمـرِا

ثمَّ يأمر الحاج بالوقوف في تلك المنازل، مُقَبلاً ثراها الذي مشى عليه سيد البشر عليه السلام:

قفْ بـالـمـنـازل والـمـنـاهل من لَـدُنْ
وادي قـبـاءَ إلى حِـمَـى أُمِّ الـقُـرى
وتـوخَّ آثـارَ الـنـبيِّ فـضعْ بـهـا
مُـتَـشـرِّفًـا خـديكَ في عَـفـر الـثَّـرى
وإذا رأيتَ مـهـابطَ الـوحي الـتي
نَـشَـرتْ عـلـى الآفـاقِ نـورًا نـوَّرا
فـاعـلـمْ بـأنّكَ مـا رأيتَ شـبـيـهَـهَـا

مان ولا ترى[2]

(١) المجموعة النبهانية ١ / ١٢٥
(٢) ابن دقيق العيد حياته وديوانه ١٣٩-١٤٠

ويغبط الشاعر عبدالعزيز الفشتالي الركب الـمرتحل إلى مكة، فيودعهم أحرّ ما عنده من أشواق، إنه الشوق الذي يصبح عقيدة ودينا، يقول:

لكَ الـلـهُ من ركبٍ يـرى الأرض خـطـوةً
إذا زمَّـهـا بُـدْنًـا نـواعمَ أبـدانِ
أَرِحْـهـا مطايا قـد تَمَشَّى بـهـا الـهوى
تَـمَـشِّي الحُـمَـيّـا في مَـفَـاصِلِ أبـدانِ
ويَـمِّمْ بـهـا الـوادي الـمـقـدَّسَ بـالحِـمَى
به الـمـاءُ صـدّا والـكلا نـبتُ سَعْـدانِ
أحنُّ إلى تـلـك الـمـعـاهـدِ إنّـهـا
مـعـاهـدُ راحـاتي وروْحي ورَيْـحـاني
وأهـفـو مع الأشـواق لـلـوطن الـذي
به صحَّ لي أُنـسي الـهَـنِـيُّ وسُـلـواني
وأصـبـو إلى أعلام مـكـةَ شـائـقًـا
إذا لاح بـرقٌ من شـمـامَ وثَـهلان
أُهَـيلَ الحِـمَى دَيْـني عـلى الـدهـر زَوْرَةٌ
أحثُّ بـهـا شـوقًـا لـكم عـزميَ الـواني
مـتى يـشـتـفي جـفـني الـقـريح بـنـظرةٍ
يُـزَجُّ بـهـا في نـوركم عـينُ إنـسـاني
سـقى عَـهْـدَهمْ بـالخَـيْفِ عـهـدٌ تـمـدُّهُ
سـوافحُ دمعٍ من شـؤونيَ هـتّـان
وحـيّـا ربـوعًـا بـين مـروةَ والـصَّـفـا
تحـيّـةَ مـشـتـاقٍ لـهـا الـدهـرَ حـيـرانِ
ربـوعًـا بـهـا تـتـلـو الـملائـكـةُ الـعُلا
أفـانـينَ وحيٍ بـين ذِكْـرٍ وقـرآن
وأوّلُ أرضٍ بـاكـرتْ عَـرَصـاتِـهـا
وطـرّزتِ الـبـطـحـا سـحـائبُ إيمـان

وعــرّسَ فــيــهــا لــلــنــبــوّةِ مــوكبٌ
هــو الــبـحـرُ طامٍ فـوق هُـضْبٍ وغـيـطـانِ
وأدّى بــهــا الــروحُ الأمـــينُ رســالـــةً
أفـادت بـهـا الـبـشـرى مـدائحَ عـنـوانِ[1]

ووصية الـمسافرين للتعريج على تلك الأماكن هي نوع من الاستشفاء باستدعاء الذكرى، كما في هذه الوصية لابن الفارض للركب الـمتحمل إلى تلك الـمشاعر:

يــا راكبَ الــوجــنــاءِ وُقِّــيتَ الــرّدى
إنْ جُــبْتَ حَــزْنًــا أو طــويتَ بِــطَــاحــا
وســلــكتَ نــعــمــانَ الأراكِ فَــعُجْ إلى
وادٍ هــنــاكَ عــهــدتُهُ فَــيَّــاحــا [2]

ومع هذه الوصايا، يحمّل الـموصي الركبَ الـمغادرين إلى مكة رسائل الشوق، وتحيات الـمشوق الظامئ للنهل، كهذه الرسالة التي يبعث بها الـمهذب بن الزبير مع الحجاج، وفيها يتمنى الفوز باللقاء بحروف تسيل رقة ولطافة، إنها الرقة التي تذوب حنينًا وشوقًا، والشوق الذي يذوب رقة وعذوبة، يقول:

يــا ســاكــني الــبــلــد الحــرام وإنّــمــا
في الـصّدر مَعْ شـحط الـمـزار سكـنـتمُ
يـا لـيـتـني في الـنـازلـينَ عَـشِـيَّـةً
بمـنىً وقـد جـمعَ الـرِّفـاقَ الـمـوسمُ
فـأفـوزَ إن غــفل الــرقـيبُ بـنـظـرةٍ
مــنــكمْ إذا لــبَّى الحــجــيجُ وأحْــرَمُـوا
إنّي لأذكُــــركم إذا مــــا أشــــرقتْ
شـمسُ الـضّـحى من نـحـوكمْ فـأُسـلِّمُ
لا تــبــعــثـوا لي في الـنّـسـيم تحـيَّـةً
إنّي أغــارُ من الــنّــســيم عــلــيــكمُ[3]

---

(١) النبوغ المغربي في الأدب العربي ٨٣٩
(٢) شرح ديوان ابن الفارض ٣٧٢
(٣) شعر المهذب ٢١٦

ويستخدم الشعراء في الحنين طرائق وأساليب ودلالات، من ذلك: الدعاء والوقوف على الأطلال، والتذكر والاستدعاء، والشوق والأرق، والمناجاة والحوار، والاسترواح بشم النسائم والحزن والتأوه على انقضاء تلك الأيام بهاتيك الربوع، وهذا من أشكال استرجاع لذة اللقاء، واستبقاء ذكرى البقاء، كما نجد ذلك عند ابن الفارض في قوله يتنسّم نسيمها:

أرواحَ نَعْمَانَ هلاّ نسمةٌ سَحَرًا
وماءَ وجرةَ هلاّ نهلةٌ بفمِ[1]

وكقوله متحسرًا على رحيله عن تلك الأماكن التي مضت كالحلم:

ورعى ليالي الخيفِ ما كانت سوى
حُلْمٍ مضى معْ يقظةِ الإغفاءِ
واهًا على ذاك الزمانِ وما حَوى
طيبُ المكان بغفلةِ الرقباءِ[2]

والاستفهام يأتي لشدة التعبير عن الشوق والتلذذ بذكر الأماكن والأوقات، وابن الفارض يستخدم أدوات الاستفهام كثيرًا، ويكثر من إيراد الأداة هل، التي تتبع ركب الحجيج منذ وفودهم في طواف القدوم وحتى طواف الإفاضة والوداع واستفهاميتها تثير التشوق لما يفعله هؤلاء الحجاج، وفيها لون من الاستعادة النفسية لما كان يفعله ابن الفارض في حجه، فهو إذًا يحاول كلون من ألوان المتعة الروحية أن يستروح بإعادة شريط الذكريات من خلال هذا الكم من السؤال عن الكيف والحال، يقول:

وهل نزلَ الركبُ العراقي مُعرِّفًا
وهل شُرّعتْ نحو الخيامِ شرائعُ
وهل رقصتْ بالمأزميْنِ قلائصٌ
وهل للقبابِ البيضِ فيها تَدافُعُ
وهل لي بجمعِ الشملِ في جمعٍ مسعدٍ
وهل لليالي الخيفِ بالعُمرِ بائعُ

(١) شرح ديوان ابن الفارض ٢٦٥

(٢) المصدر نفسه ٢٦٥

وهل سَلَّمَتْ سلمى على الحَجَرِ الذي
به العهدُ والتفَّتْ عليهِ الأصابعُ
وهل رَضَعتْ من ثدي زمزمَ رضْعَةً
فلا حُرمتْ يومًا عليها المراضعُ
لعلَّ أُصَيْحابي بمكةَ يُبرِدوا
بذكرِ سُليمى ما تُجِنُّ الأضَالِعُ[1]

والتذكار يؤجِّج الحنين، فإذا أتى موسم الحج، تذكر النازحون بكل الشوق تلك الأيام الرائعة الجميلة، التي يقضي فيها الحاج أعظم المناسك، فهذا الشاعر أحمد الجوهري، يتذكر في الميقات الزماني وهو في أرض الهند موقف الحجيج، فيقول:

تذكَّرتُ إذْ جاءَ الحجيجُ بمكةٍ
ونحنُ وقوفٌ ننظرُ الركبَ مُحْرِما
فصرتُ بأرضِ الهندِ في كلِّ موسمٍ
يُجدِّدُ تَذكاري لقلبيَ مَأْتَما[2]

وكلما تذكّرَ الشعراءُ أيّامَ الحج فاضت عيونهم بالدموع شوقًا لتلك الأماكن، كما يقول محمد يحيى بن معصوم:

تذكَّرتُ أيَّامَ الحجيجِ فأسبلتْ
جفوني دماءً واستجدَّ بيَ الوجدُ
وأيَّامنا بالمشعرَيْنِ التي مضتْ
وبالخيفِ إذْ حادي الرِّكابِ بنا يحدو[3]

سادسًا: الرثاء

وما قصدناه في ما سبق من موضوعات هو قصدنا هنا، فالرثاء المتعلق بمكة وصفًا وتصويرًا وبقاعًا هو ما نصرف همة البحث إليه، ومثال ذلك قول عبدالله بن ثور، أو الحارث بن أمية في رثاء هشام المخزومي، وقد اقشعر بطن مكة لما خلت الأرض بموته:

(١) المصدر نفسه ٣٨٢
(٢) نفحة الريحانة ٤ / ١٦٥

وأصبح بطنُ مكةَ مُقْشَعِرّاً
كأنّ الأرضَ ليس بها هشامُ[1]

وتقول ضباعة بنت عامر في رثائه مشبهة من يأوي إليه كمن يأوي إلى الحرم:

وإنك لو وَأَلْتَ إلى هشامٍ
أمنتَ وكنتَ في حرمٍ مقيمِ
كريم الخِيمِ خفَّافٌ حشاه
ثمالٌ لليتيمة واليتيم
فأصبح ثاويًا بقرار رمْسٍ
كذاك الدهرُ يَفْجعُ بالكريم[2]

ويرثي أمية بن أبي الصلت من قتلوا من قريش من المشركين في بدر، فيقول:

ألا بكيتَ على الكرا
مِ بني الكرام أُولِي الممادحْ
كَبُكا الحَمَامِ على فرو
عِ الأيْكِ في الغُصُنِ الجَوانحْ
ألا تَرَوْنَ كما أرى
ولقد أبانَ لكلِّ لامحْ
أنْ قد تغيّرَ بطنُ مكْ
كَةَ فهْي مُوحِشَةُ الأباطحْ[3]

ويرثي كُثَير بن المطلب بن أبي وداعة، من دفنوا في جبل الحبشي بأسفل مكة، يقول في رثائهم:

كم بذاك الحَجُونِ من حيٍّ صدقٍ
من كُهولٍ أعفَّةٍ وشبابِ

(١) بدائع البدائه ٢٦
(٢) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ١٢٤
(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٤٥ – ٣٤٧

سكنوا الجزعَ جزعَ بيت أبي مو
سى إلى النخل من صفيّ السّبابِ
أهلَ دارٍ تبايعوا للمنايا
ما على الدهر بعدهمْ من عتابِ
فارقوني وقد علمتُ يقينًا
ما لمن ذاقَ ميتةً من إيابِ(1)

ويرثي ابنُ مقبل الخليفةَ الثالث عثمان بن عفان، فيقول:

عفا بَطِحَانٌ من قريشٍ فيثربُ
فمُلقى الرِّحالِ مِنْ مِنىً فالمُحصَّبُ
فَعُسْفانُ إلاّ أنَّ كلَّ ثنيَّةٍ
بعُسْفانَ يأويها مع الليلِ مِقْنَبُ
فنِعفُ وداعٍ فالصِّفاحُ فمكةٌ
فليسَ بها إلاّ دماءٌ ومَحْرَبُ(2)

وترثي أسماء بنت أبي بكر الصديق ابنها عبدالله بن الزبير بعد مقتله، فتقول:

ليس للهِ مَحْرمٌ بعَد قومٍ
قُتِلوا بين زمزمٍ والمقامِ
قَتَلتْهمْ جُفَاةُ عكٍّ ولَخْمٍ
وصداءٍ وحمْيَرٍ وجُذامِ(3)

ويبكي دعبل تلك الرسوم الدارسات في رثائه لآل البيت، فعندما يراها تفك عرى صبره، وتتهيج صبابته، فيبكي منازل الوحي التي خلت من سكانها، فيقول:

---

(1) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٢١١

(2) ديوان ابن مقبل ١١ – ١٢ وعسفان: قرية بين مكة والمدينة. الثنية: الطريق في الجبل. مقنب: جماعة الخيل والفرسان ما بين الثلاثين إلى الأربعين. النعف: ما انحدر من الجبل وارتفع من مجرى السيل ونعف وداع: موضع بنعمان قرب مكة. والصفاح: موضع قريب من نعف وداع بين حنين وأنصاب الحرم. محرب: أي صارت بها حروب.

(3) هديل الحمام١ / ٢٧٩

بكيتُ لرسم الدار من عرفاتِ
وأذريتُ دمعَ العين في الوجَناتِ
وفكَّ عُرى صبري وهاجتْ صبابتي
رسومُ ديارٍ قد عفتْ وعراتِ
مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ
ومنزلُ وحي مُقْفرُ العَرَصَاتِ
لآل رسولِ الله بالخَيْفِ من مِنًى
وبالركن والتعريفِ والجَمَراتِ
فكم حسراتٍ هاجها بمحسّرٍ
وقوفيَ يومَ الجمعِ من عرفاتِ[1]

وقال قيس بن عيزارة يرثي أخاه الذي مات بمكة:

فَسَقَى الغَوادي بطنَ مكةَ كلَّها
ورستْ بهِ كلَّ النَّهارِ تجودُ
تروي الكرامَ بهِ وتروي صاحبي
وأخي جديرُ بالكرامِ سعيدُ[2]

وبالطريقة ذاتها يرثي أبو صخر الهذلي عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد:

عفا سَرِفٌ مِنْ جُمْلَ فالمُرتمى قفرُ
فشعبٌ فأدبارُ الثّنيّاتِ فالغَمرُ
فَخَيْفُ مِنىً أقوى خِلافَ قطينهِ
فمكةُ وحشٌ منْ جميلةَ فالحِجْرُ
تبدَّتْ بأجيادٍ فقلتُ لصاحبي
أألشمسُ أصحتْ بعدَ غيمٍ أمِ البدرُ[3]

(١) شعر دعبل الخزاعي ٢٩٣
(٢) شرح شعر الهذليين ٢ / ٥٩٨
(٣) شرح شعر الهذليين ٢ / ٩٥٠

وهي بداية غزلية لقصيدة رثائية، وما يهمنا هنا هو ما ورد من ذكر مكة وأماكنها.

وفي الرثاء نجد التأسي بالراحلين ممن سكنوا مكة والحرم، كقول ابن المقرب:

وأينَ آلُ مُضَاضٍ معْ عقَائلِها
من جُرْهمٍ ساكني بُحْبُوحَةِ الحرمِ[1]

ونجد الشعراء الراثين يتفقون على جعل المشاعر كلها تحزن لفقد الفقيد، وتغتمّ لفراقه، كما في رثاء أحمد بن العلاء الحلبي لأمير مكة محمد بن بركات أبو نمي الثاني:

فُجعتْ به الدنيا فلو يُفدى بها
لَفَدَتْهُ والأرواحُ بالأجسَامِ
وَسَهَتْ لِمَصْرعهِ الأنامُ تحيُّرًا
فكأنّها سَكْرى بغَيرِ مُدامِ
وغدا الصَّفَا مُتَكدِّرًا وجفونُهُ
مُذْ غاب لم تُكحل بميل مَنامِ
وعيونُ زمزمَ أُتْرحتْ ودموعُهَا
أسفًا عليك على الدوام دوامي
ومقامُ إبراهيمَ أمسى لابسًا
ثوبَ الحِدادِ أسىً وثوبَ سَقَامِ
ولِركنِ بيت اللهِ وحشةُ ذاكرٍ
أدبًا لقُبلة ثغرك البسّامِ
ولِطَوْفِكَ البيت الحرام مُكفّنًا
ذكرى بِطَوْفِكَ حالة الإحرامِ
لو خِلتَهُ في نَعْشهِ لعجِبتَ من
أسدٍ على فرسٍ بغيرِ لِجَامِ
قد سار من باب السَّلام ضحىً إلى
دار السلام إلى العلا بِسَلامِ[2]

(١) شرح ديوان ابن المقرب ٢ / ٨٤١

(٢) هديل الحمام ١ / ١٨٤ – ١٨٥

والقسطلاني المكي يرثي قاضي مكة نجم الدين الطبري، ويرى أنّ البيت قد استوحش لموت الطبري هذا:

مات الحياءُ ومات الجودُ والكرمُ
والعِلمُ والحِلْمُ والأحكامُ والحَكَمُ
والفضلُ مات لموتِ النجم قاطبةً
واستوحشَ البيتُ والأركانُ والحَرَمُ[1]

وتدهى أم القرى بمصيبة موت الشريف محمد بن بركات كما يقول نور الدين الحجازي في رثائه:

رزءٌ أنال المسلمين خبالا
وَوَهَى به الإسلامُ حتى مَالا
ومصيبةٌ رُمِيَتْ بها أمُّ القُرى
أهدتْ إلى أرضِ الحجازِ نَكَالا[2]

وهذا عمر بن فيصل آل زيد يرثي الشريف مسعودًا الذي توفي في موسم الحج فيقول:

فاض الحجيجُ من المَشَاعر بعدما
أدّوا المناسكَ بالتمام وكبّروا
جاءت جحافلُهمْ لأَشْعُب مكةٍ
فوجٌ يئمُّ بها وفوجٌ ينفرُ
في ذلك اليومِ العظيمِ فقدتُ مَنْ
قلبي عليه من الأسى يتفطّرُ
وَعَزايَ في أنّ الحجيجَ جميعَهمْ
حضروا الصلاةَ وبالمصاب تأثّروا
ودعوا الإلَه على اختلاف لُغَاتِهم
فَلَعلَّهُ أن يستجيبَ ويغفرُ[3]

---

(١) العقد الثمين ٤ / ١٨٢
(٢) الإشراف في تاريخ الأشراف ٢٦٢
(٣) هديل الحمام ٣/ ٩٥٠

سابعًا: الهجاء

ومن الهجاء هجاء خداش بن زهير لابن جدعان، وفيه يتهمه بأنّه لا يتورع عن سرقة ثياب الكعبة:

وأنبئتُ ذا الضّرعِ ابن جدعانَ سَبَّني
وإني بذي الضّرع ابن جدعانَ عالمُ
أغرَّكَ أنْ كانت لبَطنِكَ عُكْنَةٌ
وأنَّك مكيٌّ بمكةَ طاعمُ
وترضى بأن يهدي لك العَفْلُ مُصْلَحًا
وتحنقُ أنْ تُجنى عليك العظائمُ
أبى لكم أنّ النفوسَ أذلةٌ
وأنّ القِرَى عن واجبِ الضَّيفِ عاتمُ
وأنَّ الحلومَ لا حلومٌ، وأنتمُ
من الجهل طيرٌ تحتها الماءُ دائمُ
ولولا رجالٌ من عليٍّ أعزةٌ
سرقتمْ ثيابَ البيتِ والبيتُ قائمُ[1]

ويهجو حسان بن ثابت أبا سفيان، وقال يخاطبه في شأن أبي زهير، وكان الوليد بن المغيرة قتله، وكان أبو سفيان صهره، فأراد حقن الدماء، وأدّى عقله، ولم يطلب بدمه، فقال:

غدا أهلُ ضَوْجَيْ ذي المجاز كليهما
وجار ابن حرب بالمغمّس ما يغدو
ولم يمنع العيرُ الضروطُ ذمارهُ
وما منعتْ مَخْزاةَ والدها هندُ
كساكَ هشامُ بنُ الوليد ثيابَهُ
فأبلِ وأخلِفْ مثلَها جُددًا بعدُ[2]

---

(١) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ١٨١ والضرع: الجبان. والعكنة: الأطواء في البطن من السِّمن.العفل: بفتح العين وسكون الفاء: شحم خصيتي الكبش وما حوله. عاتم: متأخر. بنو علي: قال ابن قتيبة هم بنو كنانة والأبيات في الشعر والشعراء ٦٥٠

(٢) ديوان حسان بن ثابت ١٤١

ويهجو عبدالله بن جحش كفار قريش وصدهم عن سبيل الله، ويرد عليهم حين قالت قريش: قد أحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام:

تَـعُـدّونَ قـتلاً في الحـرام عـظـيـمـةً
وأعـظمَ مـنه لـو يـرى الـرُّشْـدَ راشِـدُ
صُـدودكُمُ عـمّـا يـقـول محـمـدٌ
وكـفـرٌ به والـلـه راءٍ وشـاهـدُ
وإخـراجُـكُم من مـسـجـدِ الـلهِ أهـلَهُ
لـئلا يُـرى لـله في الـبـيت سـاجـدُ
فـإنّـا وإنْ عَـيَّـرتُـمـوهُ بـقَـتْـلِهِ
وأرجفَ بـالإسلام بـاغٍ وحـاسـدُ
سَـقَـيـنـا من ابن الحـضـرميِّ رمـاحَـنَـا
بـنـخـلـةَ لـمَّـا أوقـدَ الحـربَ واقـدُ[1]

وتهجو زجلة بنت منظور الحجاج الذي جاء يخطبها بعد قتل زوجها عبدالله بن الزبير، فتقول:

أبـعـدَ عـائـذِ بـيت الـلهِ تَـخْـطُـبُـني
جَـهْلاً جـهـلتَ وغبُّ الجـهلِ مَـذْمُـومُ[2]

ويهجو الأحوص ابن حزم والي سليمان بن عبدالملك، فيقول ساخرًا:

أقـول وأبـصـرتُ ابنَ حـزم ابن فَـرْتَـنى
وقـوفًـا له بـالـمـأزمـين الـقـبـائلُ
تُـرى فـرْتَـنى كـانت بمـا بـلغ ابـنُـهـا
مُـصَـدِّقـةٌ لـو قـال ذلك قـائلُ[3]

ويحاول أن يوغر صدر الخليفة سليمان على واليه ابن حزم، فيقول:

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٦٠٥

(٢) العقد الثمين ٥ / ١٥٦

(٣) شعر الأحوص ٦٥ والمأزمان جبلا مكة، وقيل اسم موضع بين المشعر الحرام وعرفة

سليمانُ إذ ولاّكَ ربُّكَ حُكْمَنَا
وسلطانَنَا فاحكمْ إذا قلتَ واعدلِ

يؤمُّ حجيجَ المسلمينَ ابنُ فَرْتَنَى
فهبْ ذاك حجّاً ليس بالمتقبّلِ[1]

وقال فضالة بن شريك يهجو عبدالله بن الزبير لعدم إعطائه ناقة، ويدعو غلمانه للخروج من مكة:

أقول لغِلْمتي شدُّوا ركابي
أُجاوزُ بطنَ مكةَ في سوادِ

فما لي حينَ أقطعُ ذاتَ عَرْقٍ
إلى ابن الكاهلية من معادِ

أرى الحاجاتِ عند أبي خبيبٍ
نُكدنَ ولا أميّةَ بالبلاد

شكوتُ إليه أن نَقَبتْ قلوصي
فردَّ جوابَ مشدود الصِّفاد

يضنُّ بناقةٍ ويرومُ مُلْكًا
محالٌ ذلكم غيرُ السداد[2]

وقال عبيد الله بن الحر يهجو مصعبًا، ويتهدده متوعدًا بأنه إن لم يبك كما أبكاهم فلا طاف ولا سعى، وهذا من القسم على تأكيد الفعل، يقول:

أيرجو ابنُ الزبير ليومِ نصري
بعاقبةٍ ولم أنصُرْ حُسيْنا

فإنْ لم تبكِ ملحمةً وقتْلى
كما قتَّلْتنا وكما بكينا

(١) شعر الأحوص الأنصاري ١٧٨

(٢) شعر قبيلة أسد ٤٣٠ – ٤٣٢ وذات عرق: الحد بين نجد وتهامة. نقبت: حفت أخفافها من كثرة السير. القلوص: الناقة الطويلة القوائم. الصفاد: حبل يوثق به.

فلا طـــفـــنـــا بمـــكـــةَ في حـــجـــيجٍ
ولا زُرنـــا الـــمـــقـــامَ ولا سَـــعَـــيْـــنـــا[١]

ويهجو الحزين الكناني عمرو بن عمرو بن الزبير بن العوام لأنه مدحه فلم يعطه شيئًا فقال:

حـــلـــفتُ ومـــا صـــبـــرتُ عـــلى يمـــينٍ
ولـــــو أُدعى إلـى أيمـــــانِ صـــــبـــــرِ
بـــربِّ الـــراقـــصـــاتِ بـــشُـــعْثٍ قـــومٍ
يُـــوافـــونَ الجـــمـــارَ بـــصُـــبحِ عـــشـــرِ
لـــو انَّ الـــلـــؤمَ كـــان مع الـــثـــريَّـــا
لـــكـــانَ حـــلـــيـــفُهُ عـــمـــرَو بنَ عـــمـــرِو
ولـــــو أني عـــــرفتُ بـــــأنَّ عـــــمْـــــرًا
حـــليفُ الـــلـــؤمِ مـــا ضـــيَّـــعتُ شِـــعْـــري[٢]

ويحرض ابن عنين العزيز صاحب اليمن على أشراف مكة وسبب ذلك أنّ ابن عنين توجه إلى مكة ومعه مال وأقمشة، فخرج عليه بعض بني داود، فأخذوا ما كان معه، وسلبوه، وجرحوه، فكتب إلى الملك العزيز صاحب اليمن،..وحرضه على الأشراف الذين فعلوا به ما فعلوا:

وإنْ أردتَ جـــــهـــــادًا رُدَّ ســـــيـــــفكَ في
قـــومٍ أضـــاعـــوا فـــروضَ الـــلـهِ والـــسُّـــنَـــنـــا
طـــهِّـــرْ بـــســـيـــفكَ بـــيتَ الـــلـهِ من دنسٍ
ومـــا أحـــاطَ بهِ من خِـــسَّـــةٍ وخَـــنـــا[٣]

وقال صدقة بن الحجاج يهجو وفدًا قدم للحج، وأنهم لولا الفائدة التي تعود عليهم

---

(١) العفو والاعتذار ٢ / ٤٤١– ٤٤٢
(٢) شعر كنانة من الجاهلية إلى آخر العصر الأموي ٢٩٨
(٣) ديــوان ابــن عنــين ١٠٢ وانــظــر كتــاب عمــدة الطــالب في أنساب أبي طالب لجمال الدين أحمد بن علي الحسني ص ١١٢ .

من التجارة ما قدموا مكة:

لا يطمعُ السائلُ في مالِهم
قطٌّ ولا رقَّ لهم قلبُ
لولا تجاراتُهمُ ما أتى
مكةَ حُجَاجًا لهم رَكْبُ[1]

وقال غيره:

يحجّونَ بالمال الذي يجمعونهُ
حرامًا إلى البيت العتيقِ المحرَّمِ
ويزعمُ كلُّ منهمُ أنَّ وزرَهُ
يُحَطُّ ولكنْ فوقهُ في جهنّم[2]

ومن لطيف العتاب واللوم ما أنشده عمرو بن حبّان الضرير حين لم يهد إليه الحجيج شيئًا، فقال:

كأنَّ الحجيجَ الآن لم يقربوا منًى
ولم يحملوا منها سواكًا ولا نعلا
أَتَوْنا فما جاءوا بعودِ أراكةٍ
ولا وضعوا في كفِّ طفلٍ لنا نقلا[3]

ثامنًا: الشعر التعليمي والأراجيز

وجدنا كثيرًا من الشعر التعليمي أو النظم الشعري المتعلق بمكة ومشاعرها، وأماكنها، ولعل هذه الكثرة تبين عن الاهتمام والانشغال بهذا البلد الأمين، وما محاولات الشعراء في هذا الإطار إلا تعبيرًا عن شدة التعلق به، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- أرجوزة إبراهيم بن إسحاق الحربي

(١) تكملة خريدة القصر ٧٨٩
(٢) المستظرف في كل فن مستطرف ١/ ٣٢
(٣) المستظرف في كل فن مستطرف ١/ ٣١

- أرجوزة أحمد بن عمرو
- أرجوزة الحج لأحمد بن عيسى الخولاني
- أرجوزة الحجر للحسن بن عبدالكريم الصنعاني
- أرجوزة الحج لعبدالوهاب بن أبي نصر بن عربشاه (مخطوط بالمكتبة الخالدية بالقدس)
- أرجوزة في نظم تاريخ الأزرقي لعبدالملك بن أحمد الأرمنتي المصري
- در النظم في وقوع أركان البيت المعظم لإبراهيم بن يوسف المهتار المكي
- رسالة في أسماء مكة المكرمة لمجد الدين الفيروزابادي
- اللؤلؤ المكنون في ذكر أسماء أهل الحجون لعلي الصانع (منظومة)
- مثير الغرام إلى طيبة والبلد الحرام للمير محمد بن إسماعيل الصنعاني (منظومة)
- المعلقة الإسلامية في تاريخ الكعبة والمسجد الحرام لمحمد توفيق اليعربي، (منظومة)
- منظومة أبي شامة عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي (- ٦٦٥هـ)
- منظومة في الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء بمكة وحواليها لعبدالملك بن حسين العصامي المكي (- ١١١١هـ)
- منظومة في صفة أشهر بناء الكعبة المعظمة لمحمد طاهر بن عبدالقادر الكردي (- ١٤٠٠هـ)
- منظومة في مناهل طريق الحجاز لبدر الدين الزركشي
- منظومة محمد بن إبراهيم بن جماعة (- ٧٣٣هـ)
- النظم البديع في مولد الشفيع ليوسف بن إسماعيل النبهاني (- ١٣٥٠هـ)
- نظم تاريخ مكة للأزرقي لتقي الدين عبدالملك بن أحمد الأرمنتي المصري الشافعي
- نظم الدرر في اختصار نشر النور والزهر في تراجم علماء مكة وأفاضلها من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لعبدالله بن محمد غازي الهندي (- ١٣٦٥هـ)
- نظم مراحل الحجاز مع شرحه لابن غازي المكناسي

- نظم المولد الشريف لفيض الدين حسين أبو الفيض
- نظم المولد النبوي الشريف لمحمد بن سليمان بن الفقيه
- نظم مولد النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن حسن البرزنجي
- نظم النسب الشريف النبوي لعبدالله بن محمد الناشئ

ومن الشعر المنظوم ما نظم في أسماء مكة المكرمة، وذلك في قول القائل:

لمكةَ أسماءٌ ثلاثونَ عُدِّدَتْ
ومن بعدِ ذاكَ اثنانِ منها اسمُ بكةِ
صلاحٌ وكوْثى والحرامُ وقادسٌ
وحاطمةُ البلد العريشُ بقريةِ
ومعطشةٌ أمُّ القرى رحم باسةٍ
ونسّاسةٌ رأسٌ بفتحٍ لهمزةِ
مقدسةٌ والقادسيةُ ناشةٌ
ورأسٌ وتاجٌ أمُّ كوثى كبرَّةِ
سبوحة عرشٍ أمُّ رحمنَ عرشنا
كذا حرم البلدِ الأمينِ كبلدةِ
كذاكَ اسمها البلدُ الحرامُ لأمنها
وبالمسجدِ الأسنى الحرامِ تسمَّتِ
وما كثرةُ الأسماءِ إلاّ لفضلها
حباها بهِ الرحمنُ من أجلِ كعبةِ[1]

وقال الإمام نجم الدين الطرسوسي في منظومته عن ثياب الكعبة، وهل يجوز بيعها أو أخذها بلا ثمن ؟ فقال:

وما على الكعبةِ من لباسِ
إنْ رثّ جازَ بيعُهُ للناسِ
ولا يجوز أخذُهُ بلا شرا

(١) أوردها محقق كتاب أخبار مكة للأزرقي بهامش ص ١ / ٢٨٣

(٢) الإعلام بأعلام مكة ٤٩

للأغـــنــــيـــاءِ لا ولا لـــلــــفُـــقـــرا[٢]

ومن ذلك ما نظمه علي بن عبدالقادر الطبري في تاريخ عمارة البيت، فقال:

بـــنى الـــبـــيتَ خـــلــقٌ وبـــيتُ الإلهِ
مـــدى الـــدهـــرِ من ســـابقٍ يـــكـــرمُ
مـلائـــــــكـــــــةٌ، آدمُ وِلْـــــــدُهُ
خـــلـــيلٌ، عـــمـــالـــقـــةٌ جُـــرْهمُ
قـــصيٌّ، قـــريشٌ ونجلُ الـــزبـــيـــرِ
وحَـــجَّـــاجُ بـــعـــدهمُ يُـــعـــلمُ
وسـلـطـانُـنُـا الـمـلكُ الـمُـرْتَـضى
مـــرادُ هـــو الـــمـــاجـــدُ الـــمـــنـــعمُ
أدامَ الإلهُ لـــــنـــــا مـــــلـــــكَهُ
وأبـــقـــاهُ خَـــالـــقُـــنَـــا الأعـــظمُ[١]

ومن الشعر التعليمي أرجوزة أبي طالب عبدالجبار الأندلسي التاريخية، وفيها يذكر الدولة الأموية، وما حدث لابن الزبير على يد الحجاج، فيقول منها:

ثمَّ تـــولّى الأمـــرَ عـــبـــدُ الـــمَـــلكِ
وكـــانت الـــدمـــا به لم تُـــسْـــفَكِ
لـــكـــنّهُ كـــان شـــديـــدَ الحـــزْمِ
أبـــو الخلائف الـــرضيُّ الحُـــكْمِ
وكـــان من عـــمّـــالهِ الحـــجّـــاجُ
ســـراجُهُ في خـــطـــبه الـــوهّـــاجُ
حـــتى إذا بـــابن الـــزبـــيـــر ظَـــفِـــرَا
وكـان في مـكـةَ يـعـلـو الـمِـنْـبـرا
لـلـحـــرمـــين والـــعـــراق مـــالـــكـــا
ومُـــصْـــعبٌ أخٌ لـهُ هـــنـــالـــكـــا
ســـقـــاهُ كـــأسًـــا مـــرّةَ الـــمـــزاجِ

(١) سلافة العصر ٥٨
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١/٢/ ٤٧٥

وكـــان لـــلـــحـــروبِ ذا اهـــتـــيـــاجِ[٢]

تاسعًا: الشعر التأريخي

من ألوان الشعر الذي حفل به العصر الوسيط الشعر التأريخي، فمن ذلك ما أرّخه زين العابدين بن عبدالقادر الطبري، حيث يقول: (مما اتفق لنا أنا ركبنا في صحبة الشيخ عبدالصمد بن محمد العمودي وزير مكة للإشراف على عمارة داره بمنى، ومعنا الشيخ محمود، فسقط عن حصانه... فأرّخت سقطته ارتجالاً، بقولي: طاح الشيخ محمود، ثمّ جعلت لهذا التاريخ توطئة نظمًا، فقلت:

لـلـه يــومُ أتــيــنــا فــيه خَــيْفَ مِـنًى
لـقـصـدِ دارٍ لـهـا بـالـسـعـدِ تـشـيـيـدُ
وبـــيـــنـــنـــا ربٌّ تــلـك الــدار واســطـــةٌ
بـهـا لـنـا ولـعـقـدِ الـمـجـدِ تـنـضـيـدُ
سرنـا عـلـى صَـهَـواتِ الخـيلِ تـمـرحُ في
مَـسِـيـرِهـا ولـطـيـرِ الـسـعـدِ تَـغـريـدُ
وكـان في الـركب مـحـمـودٌ عـلـى فـرسٍ
يــقــول: إنّي من الــفــرســانِ مــعــدودُ
فـخـرَّ عـنـد اسـتـبـاقِ الخـيلِ مُـنْـجـدِلاً
ومـــا ادعـى بـلـســـانِ الحـــال مـــردودُ
فــقــلـتُ مــرتجلاً في حـــال ســقــطــتهِ
تـــاريخَ ذلك طـاح الـشـيـخُ مـحـمـودُ[١]

ويؤرخ عبدالمحسن القلعي لوفاة الشريف زيد بن محسن في شعر يرثيه، فيقول:

يـــا أهلَ مـــكـــةَ إنَّ ســـيـــدَنـــا الـــذي
مـــلك الحـــجـــاز وكـــان فـــيـه الأرشـــدُ
رَبُّ الـسَّـمـاحـةِ والـشـجـاعـة والحـيـا
والحِـلْمِ وصْـفَـاهُ الـتُّـقَى والـسُّـؤددُ

(١) سلافة العصر ٥٠

لــــقي الإلـهَ فـــكـــان تـــاريـــخـي لـه
زيـدُ بن مُـحْـسِنَ في الجِـنـانِ مُـخَـلّـدُ[٢]

وأرخ عبدالقادر الطبري لتاريخ هدم البيت بالسيل الذي حدث عام ١٠٣٩هـ بقوله:

هـــدم الـــبـــيتَ أمـــرُ ربٍّ تـــغـــشّـــا
هُ بـــســـيلٍ لم يـــحـــوِ غـــرقَـــاهُ ضـــبْطُ
في نـــهـــار الخـــمـــيسِ عـشـرين شـــعـــبا
نَ قُـبَـيْلَ الـغُـروبِ منْ عــام (لَــغْطُ) [١]

وقال الإمام فضل بن عبدالله الطبري مؤرخًا لذلك:

سُــــــئـــــلــتُ عـن ســــــيـلٍ أتـى
والـــبـــيتُ عــــنهُ قـــد ســـقطْ
مــــــتـى أتـى ؟ قـــــلـتُ لـــــهم:
مـــجـــيـــئهُ كــان (غــــلط) [٢]

أي تاريخه بحساب الجمل: (١٠٠٠ + ٩ + ٣٠ = ١٠٣٩ = غ + ل + ط)

****

(١) الإشراف في تاريخ الأشراف ٣٤٨
(٢) الإشراف في تاريخ الأشراف ٣٤٨

القســم الثالث

الشعر في أحداث مكة المكرمة

(الكعبة: تسميتها، وبناؤها، وحرقها، وسيلها، ورميها بالمنجنيق)

■ تسمية الكعبة

ذكر الثعالبي في تسمية الكعبة (بيت الله) كما أنّ أهل مكة أهل الله، والحجاج زوار الله، فالكعبة بيت الله الذي جعله الله مثابة للناس، وحطة للخليل، وحلةً للذبيح، وقبلة لسيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكعبة لأمته التي هي خير الأمم، وقد كانت العرب في الجاهلية لا تبني بنيانًا مربّعًا تعظيمًا للكعبة، وقد كانت تحلف ببيت الله، كما قال زهير:

فأقسمتُ بالبيت الذي طافَ حولَهُ
رجالٌ بَنَوْهُ من قريشٍ وجُرْهُمِ

وقال النابغة:

فلا وربِّ الذي قد زرتُهُ حِجَجًا
وما هريقَ على الأنصاب من جَسَدِ[1]

قال ابن قتيبة: (وذكر قوم أن أُبي بن سالم الكلبي ورد مكة وقريش تبني البيت، وتشاجروا في إخراج النفقة، فسألهم أن يولّوه ركنًا من أركانه، فولّوه الرُّبع الذي فيه الركن اليماني، فبناه فسمي اليماني. وقال شاعرهم:

لنا أيمنُ البيت الذي تعبدونَهُ
وراثةَ ما بقّى أُبيُّ بن سالمِ[2]

وفي ذكر بناء قريش للكعبة، ورد (أنّ امرأة جمرت الكعبة بالبخور، فطارت شرارة من مجمرتها في ثياب الكعبة، فاحترق أكثر أخشابها، وجاء سيل عظيم، فصدع جدرانها،.. فأرادوا أن يشدوا بنيانها، ويرفعوا بابها... ثمّ إنّ قريشًا اقتسمت جوانب البيت... وجمعوا الحجارة، وكان رسول الله صلى الله عليه يفعل معهم، حتى إذا انتهى

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١٧

الهدم إلى الأساس، فأفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة، فضربوا عليها بالمعول، فخرج برق يكاد أن يخطف البصر، فانتهوا عند ذلك الأساس، ثم بنوا حتى بلغ البنيان موضع الركن الحجر، فاختصم فيه القبائل، وكل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه، وكادوا أن يقتتلوا على ذلك، فقال لهم أبو أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وكان شريفًا مطاعًا: اجعلوا الحكم بينكم في ما اختلفتم فيه أول من يدخل من باب الصفا. فقبلوا منه ذلك. فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه، قالوا: هذا محمد الأمين، وكان يسمى قبل أن يوحى إليه أمينًا لأمانته وصدقه، فقالوا جميعًا: رضينا بحكمه. ثمّ قصّوا عليه قصّتهم. فقال صلّى الله عليه وسلم: إليَّ ثوبًا. فأُتيَ به، فأخذ الركن، فوضعه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من هذا الثوب فحملوه جميعًا، وأتوا به ورفعوه إلى ما يحاذي موضعه، فتناوله رسول الله صلّى الله عليه وسلم من الثوب، ووضعه بيده الشريفة في محله، وفي ذلك يقول هبيرة بن وهب المخزومي:

تشاجرتِ الأحياءُ في فَصْلِ خطةٍ
جَرَتْ طيرهُمْ بالنحسِ من بعد أسعدِ
تلاقَوْا بها بالبغض بعد مودةٍ
وأوقد نارًا بينهم شرٌّ موقدِ
فلمّا رأينا الأمرَ قد جدَّ جدّهُ
ولم يبقَ شيءُ غيرَ سلِّ المهنّدِ
رضينا وقلنا العدلَ أوّل طالعٍ
يجيءُ من البطحاءِ من غير موعدِ
ففاجأنا هذا الأمينُ محمدٌ
فقلنا رضينا بالأمينِ محمدِ
بخير قريشٍ كلها أمسِ شيمةً
وفي اليوم معْ ما يُحْدثُ اللهُ في غدِ
فجاء بأمرٍ لم يرَ الناسُ مثلَهُ
أعمّ وأرضى في العواقبِ والبَدِ
أخذنا بأطراف الرداء وكلُّنَا
لهُ حصةٌ من رفْعِها قبضةُ اليدِ
فقال ارفعوا حتى إذا ما علتْ بهِ
أكفُّهُمُ وافى به خير مسندِ

وكلٌّ رضـيـنـا فـعـلَهُ وصـنـيـعَهُ
فـأعـظِمْ بهِ من رأيٍ هـادٍ ومـهـتـدِ
وتـلك يـدٌ مـنه عـلـيـنـا عـظـيـمـةٌ
يـروح بـهـا هـذا الـزمـانُ ويـغـتـدي

وكانت أول زيادة تضاف إلى الحرم بعد بناء قريش في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث تكاثر المسلمون كما يروي الأزرقي (وضاق المسجد بالناس، ولزم توسيعه اشترى دورًا حول المسجد هدمها وأدخلها في المسجد[١] وكانت التوسعة الثانية في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفعل ما فعله سلفه بشراء الدور، وضمها للمسجد.

ثمَّ تصدّعت الكعبة، وتهدّم بعض جدرانها، واحترق بعض أخشابها في حصار ابن الزبير، ولما انتهى الحصار، قرر ابن الزبير هدم الكعبة، وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم عليه السلام، لما سمعه من حديث عائشة «لولا أنّ قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، ولجعلت لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإنّ قريشًا استقصرتها حين بنت الكعبة، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه، فاراها نحوًا من سبعة أذرع» أخرجه الشيخان في صحيحيهما. فهدمه ابن الزبير، وأعاد بناءها، ولما فرغ طيبها بالمسك والعنبر، وكساها الديباج، وكان ذلك في رجب من سنة أربع وستين للهجرة.

وفي عهد عبدالملك بن مروان (كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان يذكر له أنّ عبدالله بن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها، وأحدث فيها بابًا آخر، فكتب إليه عبدالملك أن يعيدها على ما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهدم الحجاج من جانبها الشامي قدر ستة أذرع وشبرا، وبنى ذلك الجدار إلى أساس قريش) وندم عبدالملك على هذا الفعل عندما تأكد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: (وددت والله أني تركت ابن الزبير وما تحمّل من ذلك)[٢].

واستمر عمارة البيت في عهد الوليد بن عبدالملك، قال الأزرقي: (عمر الوليد المسجد الحرام، ونقض عمل عبدالملك، وعمل عملاً محكمًا، وهو أول من نقل الأساطين

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٦٩ – ٧٠
(٢) الأعلام بأعلام مكة ٥٧

الرخام، وسقفه بالساج المزخرف، وجعل على رؤوس الأساطين صفائح الذهب، وأزر المسجد بالرخام، وجعل للمسجد سرادقات)[1].

ويمدح أيمن بن خريم مروان بن الحكم حيث بنى قبة عند المقام، فيقول:

مــــروانُ إنَّ قـــنـــاتَهُ خَـــطِّـــيَّـــةٌ
غُــرِسَتْ أرومَــتُــهــا أعــزَّ الـــمــغْــرسِ
وبـــنـــيتَ عــنــد مــقــام ربِّك قُــبَّــةً
خــضــراءَ كُــلِّلَ تــاجُــهــا بــالــفِــسْــفِسِ
فــســمــاؤهــا ذهبٌ وأســفلُ أرضــهــا
وَرِقٌ تــلألأ في الــبَــهــيـمِ الحِــنْــدِسِ[2]

ذكر ابن قتيبة أن (أول من كساه الأنطاع والبرود اليمانية: أسعد أبو كرب الحميري، فقال:

وكــســونــا الــبــيتَ الــذي حــرَّم الــلــ
ـهُ مُلاءً مُــعَــضَّــدًا وبُــرُودا)[3]

ومن الأوائل ما ذكر أنَّ أوّل من أطعم بمكة هاشم، فقد روي أنه (بعد وفاة قصي اختلف بنو عبد مناف وبنو عبدالدار على القيام بشؤون مكة والبيت الحرام من: الحجابة والسقاية والرفادة واللواء، وكادوا يقتتلون، ثمَّ اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف، والحجابة والرفادة واللواء لبني عبدالدار، وتحالفوا على ذلك، فولي الرفادة والسقاية هاشم،... وهو أوّل من سنَّ الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء والصيف، وهو أوّل من أطعم الثريد بمكة، واسمه عمرو، وإنّما سُمِّيَ هاشم لهشمه الخبز وثرده لقومه، كما قال القائل:

عــمــرو الــذي هــشم الــثــريــدَ لــقــومه
ورجــالُ مــكــةَ مُــسْــنِــتــونَ عِــجَــافُ
سُــنَّتْ إلــيه الــرحــلــتــان كلاهــمــا
سَــفَــرُ الــشــتــاءِ ورحــلــةُ الأصــيــافِ[4]

---

(١) أخبار مكة ٢ / ٧٠

(٢) الموشح للمرزباني ٣٤٧

(٣) المعارف ٥٥٩

(٤) الإعلام بأعلام مكة ٣٢ وهكذا وردت رواية البيتين وفيها إقواء

وذكر الثعالبي في (إيلاف قريش) قال: (كانت قريش لا تتاجر إلاّ مع من ورد عليها مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ.

وفي الأشهر الحرم لا تبرح دارها، ولا تجاوز حرمها للتحمس في دينهم، والحب لحرمهم، والإلف لبيتهم، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم، فكان أوّل من خرج إلى الشام ووفد إلى الملوك، وأبعد في السفر، ومرّ بالأعداء، وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله هاشم بن عبد مناف، وكانت له رحلتان: رحلة الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن، ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة، ورحلة الصيف نحو الشام وبلاد الروم، وكان يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل، وسادات العشائر لخصلتين:إحداهما أنّ ذؤبان العرب والصعاليك الأعراب، وأصحاب الغارات، وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم.

والخصلة الأخرى أنّ أناسًا من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة، ولا للشهر الحرام قدرًا، كبني طيء وخثعم وقضاعة، وسائر العرب يحجون البيت، ويدينون بالحرمة له.

ومعنى الإيلاف: إنما هو شيءٌ كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح، ويحمل لهم متاعًا مع متاعه، ويسوق إليهم إبلاً مع إبله، ليكفيهم مؤونة الأسفار، ويكفي قريشًا مؤونة الأعداء...، وقد عمَّ مطرود الخزاعي بني عبد مناف بذكر الإيلاف، لأنّ جميعهم قد فعل ذلك، فقال:

يا أيها الرجل المحوِّلُ رَحْلَهُ
هلاّ حللتَ بآل عبد منافِ
الآخذين العهدَ في إيلافهمْ
والراحلين برحلة الإلَّاف)[1]

وفي اختصاص قريش بالإيلاف دون غيرهم من العرب، قال شاعر يرد على بني أسد ما يدّعونه من قرابة قريش:

زعمتُمْ أنَّ إخوتَكُمْ قريشٌ
لهمْ إلفٌ وليس لكم إلافُ
أولئكَ أُومنوا خوفًا وجوعًا
وقد جاعتْ بنو أسدٍ وخافوا[2]

---

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١١٥– ١١٦

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١١٧

ومن الأوائل ما يقال: بأنّ (سعد بن عمر السهمي أوّل من بنى بيتًا بمكة، وأنشد:

وأوّلُ من بـــوّا بمـــكـــةَ بـــيـــتَهُ

وســوَّرَ فـيـهـا سـاكـنًـا بـأثـافي[1].

وأوّل ما ذكر من الشعر في عمارة البيتَ، قول مضاض بن عمرو الجرهمي بعد أن تمّت له السيادة على مكة بقتل السميدع منافسه:

فـنـحن عـمـرنـا الـبـيت كُـنّـا وُلاتَهُ

نُـــدافعُ عـــنه مَنْ أتـــانـــا ونَـــدْفَعُ[2]

ويقال:إنّ أوّل من علّق قناديل الذهب بالحرم السلطان العثماني سليمان خان.

يقول صاحب كتاب الإعلام بأعلام مكة: (وكان آخر من عمره.. المهدي العباسي، وزيادة دار الندوة للمعتضد العباسي، وزيادة دار إبراهيم للمقتدر العباسي، ثمّ مالت الأروقة الثلاثة من الجانب الشرقي من المسجد الحرام سنة ٩٩٥هـ وفارق السطح المتصل برباط المرحوم السلطان قايتباي.. إلى أن مال هذا الجانب الشرقي ميلاً عظيمًا ظاهرًا محسوسًا، بحيث كان يخشى سقوطه، ثمّ عُلِّق وأسند بالأخشاب في أيام السلطان الأعظم.. سليم خان.. فبرز أمره الشريف ببناء جميع المسجد من جوانبه الأربعة على أحسن وضع، وأجمل صورة، وأمر أن يجعل مكان السطح قببًا محكمة راسخة الأساس.. وفي عهد السلطان مراد كمل إتمام عمارة المسجد الحرام، وفي ذلك يقول صاحب الكتاب مادحًا:

إنَّ سُـــلـــطـــانَـــنـــا مُـــرادًا لَـــظِلُّ الـ

ـــلهِ في الأرض بـاهــر الـســلــطــانِ

مــلكٌ هـــو في الحــقــيــقــة عــنــدي

مــلكٌ صــيغَ صــيــغــةَ الإنــســانِ

كــمَّلَ الــمــســجــدَ الحــرامَ بــنــاءً

فـاقَ في الـعـالـمـينَ كلَّ الـمـبـاني[3]

---

(١) الإعلام بأعلام مكة ١٠

(٢) الإعلام بأعلام مكة ٢٧

(٣) الإعلام بأعلام مكة ٣ – ٥

واكتمال بناء المسجد الحرام في هذا القول، مرتبط بزمانه، وإلا فإنَّ التوسعة في العهد السعودي وما أضيف إلى الحرم، وما وصل إليه عمرانه شيءٌ رائعٌ وبديع، وقد أورد محقق كتاب أخبار مكة ذكرًا لهذه التوسعة، وهناك بعض الكتب التي تحدثت عن هذه التوسعة(١).

وتسقط أركان الكعبة، في عام ١٠٣٩هـ حيث دهمها سيل جارف غرق فيه نحو ألف إنسان، ويكون لهذا السقوط صدى حزين في نفوس الناس، وتصدى يوسف بن مهتار المكي لهذا الحدث الذي ماجت له النفوس، واضطربت له الأفئدة، واصدعت له الأحشاء، واهتزّت له أركان الأرض، وبعد أن يبدي لهفته على بيت الله وما حدث له، يرجع السبب إلى ذنوب العباد، فيقول:

ماجت قواعدُ بيتِ اللهِ واضْطَربتْ
واهتزّتِ الأرضُ من أقطارها وربتْ
وأمستِ الكعبةُ الغرّاءُ واقعةً
فما أشكُّ بأنَّ الساعةَ اقتربتْ
فأيُّ خطبٍ به أحشاؤنا انْصَدعتْ
وأيُّ هولٍ به ألبابُنَا سُلِبَتْ
وأيُّ دهرٍ لقينا من نوائبهِ
ما لو على الشامخاتِ الشمِّ لانسربتْ
إنّا إلى الله من دنيا مُنغَّصَةٍ
أيامُها مستردَّاتٌ لما وهبتْ
أبدت عجائبَ لا تقوى العقولُ لها
وأيُّ نفسٍ من الأيام ما عجبتْ
هي التي لعبتْ جدَّتْ وفَتْ غدرتْ
قستْ ألانتْ أبتْ دانتْ نَأَتْ قرُبتْ

(١) انظر ما جاء في كتاب: الحرمان الشريفان والمشاعر المقدسة التوسعات والتطوير للدكتور عبدالله بن صالح الرقيبة، الصادر عن وزارة التعليم العالي ١٤٢٢هـ رقم (٢٨).

كم رامَ أهلُ الــنُّــهى من قــبل أعــصُــرِنــا
صــفــوًا لــعــيــشــهمُ من شــوبــهــا فــأبتْ
وكـم أرادوا بــــإدراكٍ ومــــعـــــرفــــةٍ
تــقــويمَ مُــنــآدهــا بــالــرأي فــاضــطــربتْ
فــمــا نُــرجّي وقــد ولّتْ بَــشــاشَــتُــهــا
وأوْجُهُ الأُنْسِ من لــذّاتــهــا شَــجَــبتْ

وبعد هذه المقدمة التي يبين الشاعر فيها ما أصاب الكعبة، وما ألمّ بالنفوس من ألم، يبدي عجبه من هذه الدنيا التي لا تصفو لأحد، ومن تناقضها فهي تارة جادة وأخرى هازلة، وبينما تُري وفاءها، تبدي غدرها، وهي تقسو وتلين، وتبعد وتقترب، إنها تلعب بنا. ثمّ يكرر تلهفه على ما حدث للكعبة، ويصف أركانها وكيف هوت، وأستارها وقد سحبت في الوحل، وآثارها التي عفت:

مــا بــعــدَ مــنــظــرِ بــيت الــلـه مُــنْــهَــدِمًــا
تــلــفى حــشــاشــةَ حــرٍّ في الــبَــقَــا رغــبتْ
فــأيّ عــينٍ عــلــى مــا كــان مــا انــسـكــبت
وأي روحٍ لمــا قــد صــار مــا وصــبتْ
لــهْــفي عــلى كــعــبــة الــلـه الــتي افــتــرقتْ
أحــجــارُهَــا بــعــد مــا في حــبــهــا اصــطــحبتْ
لــهْــفي عــلـى تــلــكُمُ الأركــانِ كــيف هــوتْ
وكــيف أوهتْ حــصــاةَ الــقــلبِ إذ قــلــبتْ
لــهــفْي عــلى تــلــكُمُ الأســتــارِ كــيف غــدتْ
أيــدي ســبــا وبــوحلِ الــسُّحْبِ قد سُحــبتْ
لــهْــفي عــلى تــلــكُمُ الآثــار كــيف عَــفَتْ
وكــيف شــادت ربــوعَ الــحــزنِ إذ خــربتْ
لــهــفي ولــستُ لَــعَــمْــري مُــنــشــدًا أبــدًا
سُــقْــيَــا مِــنًى ولــيــالي الــخَــيْفِ مــا شــربتْ

فكم بأكفافِها من مهجةٍ ذهبتْ

وكم جُنوبٍ على ساحاتها وجبتْ

وكم بذلك من ذكرى ومعتبرٍ

لمن تذكّرَ لكنّ النُّهى غربتْ

يا خالقَ الخَلْقِ عفوًا عن جرائمنا

فخوف أنفسِنَا مما قد ارتكَبَتْ[1]

- استيلاء خزاعة على مكة:

كان بدء أمر مكة كما جاء عند الأزرقي (أن عمر بن الخطاب قال لقريش: إنه كان ولاة هذا البيت قبلكم طسم، فاستخفوا بحقه، واستحلوا حرمته، فأهلكهم الله، ثم وليته بعدهم جرهم، فاستخفوا بحقه، واستحلوا حرمته، فأهلكهم الله، فلا تهاونوا به، وعظموا حرمته)[2].

وينقل الأزرقي عن ابن إسحاق أنه بعد وفاة إسماعيل عليه السلام تولى ابنه نابت الحكم، وبوفاته انتقلت الولاية لمضاض بن عمرو الجرهمي الذي حكم أعلى مكة، والسميدع من قطوراء حكم أسفل مكة، وأدى اختلافهما إلى قتال تم فيه قتل السميدع وغلبة مضاض الذي آلت إليه أمور ولاية مكة، وهذه أول الحروب كما يذكرون، وفيها يقول مضاض[3]:

ونحن قتلْنَا سيدَ الحيِّ عنوةً

فأصبح فيها وهو حَيْرانُ موجَعُ

وما كان يبغي أن يكون سواءنا

بها مَلِكًا حتى أتانا السميدعُ

فذاق وبالاً حين حاول مُلكَنَا

وعالجَ منا غُصَّةً تُتَجَرَّعُ

فنحن عَمَرْنا البيتَ كنا وُلاتَهُ

نُحاميَ عنهُ من أتانا ونَدْفَعُ

(١) السلافة ٢٢٥

(٢) المصدر السابق ١/ ٨٠

(٣) المصدر نفسه ١/ ٨٣

ومـا كـان يَـبْـغي أن يـلـي ذاك غـيـرُنـا
ولـم يك حيٌّ قـبـلَـنَـا ثمَّ يُـمْـنَعُ
وكـنّـا مـلـوكًـا في الـدهـورِ الـتي مـضتْ
ورثـنـا مـلـوكًـا لا تُـرامُ فَـتُـوضَعُ

ولما طال حكم جرهم للبيت، وامتنعوا وعزوا، استخفوا بحرمة الحرم، وأكلوا مال الكعبة، وكانت خزاعة قد خرجت من اليمن، واستأذنت جرهم في النزول معها، فأبت عليها جرهم ذلك، فاقتتلوا، وانتصرت خزاعة، فخرجت ولاية البيت إلى خزاعة، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت[1]:

فـلـمَّـا هـبـطْـنَـا بـطنَ مـرٍّ تـخـزّعتْ
خـزاعـةُ مـنـا في حـلـولِ كـراكـرِ
حَـمَـوْا كلَّ وادٍ من تـهـامـةَ واحْـتَـمُـوا
بـصُمِّ الـقـنـا والـمـرهـفـاتِ الـبـواتـرِ
فـكـان لـهـا الـمِـرْبـاعُ في كلّ غـارةٍ
تـشنُّ بـنـجـدٍ والـفـجـاجِ الـعـوابـرِ

■ حكم قصي

وتتواصل المنافسة بين خزاعة وبين بني إسماعيل على ولاية البيت، إلى أن ينجح مجمع قريش، قصي بن كلاب الذي حارب بني بكر في الأبطح حتى كثر فيهم القتل، وبعد ذلك تم الصلح الذي أعطى قصيّاً ولاية البيت، ولما تمت له السيطرة تم إخراج بني بكر وخزاعة من مكة في يوم نكيف[2]، واستولى على أمر مكة كلها، من: حجابة البيت والرفادة والسقاية، وقيادة مكة، وسمي مجمعًا و(قيل: سميت قريش قريشًا لتجمعهم على قصي، والتقرش هو الاجتماع، وفي ذلك يقول القائل:

أبـوهم قـصيٌّ كـان يُـدعى مـجـمـعًـا
بـهِ جـمعَ الـلـهُ الـقـبـائلَ من فـهـرِ

(١) المصدر السابق ١/ ٩٣- ٩٥
(٢) انظر السيرة لابن هشام ١/ ١١٤

هُمُ مـلـكـوا الـبـطـحـاءَ مـجـدًا وسـؤددًا
وهـمْ طَـرَدوا عـنـهـا غُـزاةَ بـنـي عـمـرِو[1]

وفيه يقول الدكتور حسين مؤنس: (فهذا الرجل قصي بن كلاب هو الذي وضع أساس قوة قريش ومكانتها، فهو الذي أقرها في مكة، ونقلها من البداوة إلى الحضارة والاستقرار، ووضع لها من عنده نظامًا شوريّاً فيه إنصاف للقبائل جميعًا، وهو كذلك صاحبُ الفضل في تنظيم أمور مكة، وتقسيمها رباعًا بين بيوتِ أبنائه وحلفائه)[2].

وقال ابن سلام: (أصبح الناس يومًا بمكة وعلى دار الندوة مكتوب:

أَلْـهَى قُـصَـيّـاً عن الـمـجـد الأسـاطـيـرُ
ورشـوةٌ مـثل مـا تُـرشى الـسـفـاسـيـرُ
وأكـلُـهـا الـلـحمَ بـحـتًـا لا خـلـيطَ لهُ
وقـولـهـا: رحـلت عـيـرٌ مـضتْ عـيـرُ)[3]

■ **عام الفيل**

تعد حملة أبرهة الحبشي على مكة حدثًا من أعظم الأحداث التي شهدتها مكة قبل الإسلام، فالقائد الحبشي النصراني أبرهة، يريد تحويل العرب عن كعبتهم، فيصمم على هدمها، وليضع لهم البديل، بنى كنيسة في صنعاء سمّاها القليس، وخرج على رأس جيش عرمرم قاصدًا مكة، يقدم جيشه فيل ضخم، ترهيبًا وتخويفًا لكل من يحاول الوقوف في وجهه، واستطاع رغم بعض المناوشات في الطريق أن يتغلب على جميع من وقف في وجهه، واستمرَّ في وجهته حتى وصل المغمَّس على بعد ثلثي فرسخ من مكة، وبعث بعض جنده للاستيلاء على أموال قريش ومتاعها.

وورد في كتب السير قصة عبدالمطلب مع أبرهة ومطالبته برد إبله، وأن عبدالمطلب عندما رجع من عند أبرهة ورأى عزمه على هدم الكعبة نادى أهل مكة محذرًا:

(١) الإعلام بما في مكة من الأعلام ٢٨ – ٢٩
(٢) تاريخ قريش ٧٥
(٣) طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٣٥ – ٢٣٦

يـــا أهلَ مـــكـــةَ قـــد وافـــاكمُ مَـــلِكٌ
مَعَ الـفُـيـولِ عـلـى أنـيـابـهـا الـزردُ
هـذا الـنـجـاشيُّ قـد سـارتْ كـتـائـبُهُ
معَ الـلـيـوثِ عـلـيـهـا الـبَضُّ تـتَّـقِـدُ
يـــريـــدُ كـــعـــبَـــتَـــكُمْ والـــلـهُ مـــانـــعُهُ
كـــمـــنعِ تُـــبَّعَ لمّـــا جـــاءهُ حـــرَدُ[1]

ولما وجد أهل مكة قد غادروها، ذهب إلى الكعبة، وأمسك بحلقة بابها، وأخذ يدعو الله، ويقول:

يـــا ربِّ لا أرجـــو لـــهم سِـــواكـــا
يـــا ربِّ فـامـنـعْ مـنـهمُ حِـمـاكـا
إنَّ عـــدوَّ الـــبـــيتِ مَنْ عَـــاداكـــا
امـــنـــعـــهمُ أن يُـــخْـــرِبُـــوا قُـــراكـــا

وقال أيضا:

يـــــا ربِّ إن الـــــمــــــرءَ يَـــــمْـ
ــــنَعُ رَحْــــلَهُ فـــــامـــــنـعْ حلالَكْ
وانـــصـــرْ عـــلـى آلِ الـــصـــلـــيـ
ـبِ وعـــابـــديـهِ الـــيـــومَ آلكْ
لا يَـــغْـــلِـــبَنَّ صَـــلِـــيـــبُـــهُمْ
ومِـــحَـــالُـــهُمْ عَـــدْوًا مِـــحَـــالَكْ
فـــلـــئن فَـــعَـــلتَ فـــربمـــا
أولـى فـــأمـــرٌ مـــا بـــدا لكْ
ولـــئن فـــعـــلتَ فـــإنَّهُ
أمـــرٌ تـــتـمُّ بـه فـــعـــالكْ

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٠ وانظر مروج الذهب للمسعودي ٢ / ١٢٨

جَــــــرُّوا جـــــمــــــوعَ بـلادهـمْ
والـــفـــيلَ كي يَـــسْــبُــوا عـــيـــالكْ
عـــمـــدوا حِـــمَـــاك بـــكـــيـــدهمْ
جـــــهلاً ومــــا رَقَـــبُـــــوا جلالَكْ
فـــلـــــئن تـــــركـــــتـــــهمُ وكـــــعـ
ـــبـــتـــنـــا فـــوا حـــزني هـــنـــالكْ[1]

وقال عبد المطلب أيضًا:

لاهُمَّ فـــاخـــزِ الأسْـــوَدَ بنَ مـــقـــصـــودْ
الآخـــذَ الـــهـــجْـــمـــةَ ذات الـــتـــقـــلـــيـــدْ
بـــينَ حِـــرَاءَ وثَـــبِـــيـــرٍ فـــالـــبِـــيـــدْ
أخْـــفَـــرْتَهُ ربِّ وأنتَ الـــمـــحـــمـــودْ
قـــد أجـــمـــعـــوا ألا يـــكـــون لك عـــيـــدْ
ويـــهـدمـوا الـبـيت الحـرام الـمـعـمـودْ
والـــمَـــرْوَتَـــيْنِ والـــمـشـــاعـــرِ الـــســـودْ

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو وعمرو بن عامر بن عمران بن مخزوم، ومطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، ومسعود بن عمرو الثقفي. ومن معهم من قريش إلى شعف الجبال، فتحرزوا فيها ينظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. وقال عبدالمطلب:

قـــــلت والأشــــرمُ تُــــردى خـــــيـــــلُهُ
إنّ ذا الاشـــــرم غـــــرٌّ بـــــالحـــــرمْ
كـــــاده تُـــــبَّـــــعُ في منْ جـــــنَّـــــدتْ
حِـــــمْـــــيَـــــرُ والحيُّ من آل قــــــدم
فـــــانـــــثـــــنى عـــــنه وفي أوداجِهِ
جـــارحٌ أمـــسكَ عـــنه بـــالـــكـــظم

(١) السيرة لابن هشام ١/ ١٩٠، وأخبار مكة للأزرقي ١/١٤٥، وإتحاف الور ى ١/٣١

نـــــحن أهلُ الـــــلهِ في بــــلـــــدته

لم يـــزلْ ذاكَ عـــلى عــــهـــد ابْـــرَهَمْ

نــعــبــدُ الــلهَ وفــيــنـــا شــيــمـــةٌ

صــلـــةُ الــقــربى وإيـــفــاءُ الــذّمم

إن لــــلــــبـــيت لـــرَبّـــاً مـــانــــعًـــا

من يُـــرِدْهُ بــــإمــــامٍ يَــــصْــــطَــــلم

وقــال الـمغـيــرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم يذكر حادثة الفيل، ويصف حبس الفيل بالـمغمس:

أنتَ حــبــستَ الــفــيلَ بــالـــمــغــمَّسْ

حَـــبَـــسْـــتَهُ كـــأنّهُ مُـــكـــردسْ

من بـــعـــد مـــا همَّ بـــأمـــر مُـــخـــلسْ

بمـــحـــبسٍ تُـــزْهقُ فـــيهِ الأنـــفسْ

وقت ثـــيـــاب ربـــنـــا لم تُـــدْنَسْ

يـــا واهبَ الحيّ الجـــمـــيع الأحـــمسْ

ومـــا هُمُ من طـــارق ومـــنـــفسْ

وجـــاره مـــثل الجـــواري الـــكـــنَّسْ

أنت لـــنـــا في كلِّ أمـــرٍ مُـــضـــرسْ

وفي هِـــنَـــاتٍ أخـــذت بـــالأنْـــفُسْ

ويذكر لنا ابن أذينة الثقفي قصة الفيل، وكيف أتى جيش أبرهة بآلافه العديدة التي تسد عين الشمس، ويصمُّ صراخهم الآذان، فهم كالشياطين، وعددهم كالتراب، فيقول:

لــعَــمْــرُكَ مـــا لـــلــفــتى منْ مَــفَــرْ

معَ الـــمــوتِ يـــلـــحـــقه والـــكِـــبَـــرْ

لــعــمــرك مـــا لـــلــفــتى عُــصــرةٌ

لــــعــــمــــرك مــــا إنْ له مِنْ وَزَرْ

أَبَـعْـدَ قـبـائلَ منْ حِـمْـيَـرٍ
أتـوا ذاتَ صُـبْحٍ بـذات الـعِـبَـرْ
بـألْفِ أُلـوفٍ وحـرَّابـةٍ
كـمـثل الـسـمـاء قُـبَـيل الـمـطـر
يُـصِمُّ صـراخُـهمُ الـمُـقْـرَبـا
تِ يـنـفـون من قـاتـلـوا بـالـدَّفَـر
سـعـاليَ مـثل عـديـد الـتـرابِ
تَـيـبَّس مـنـهـا رِطـابُ الـشَّـجـر[1]

وقال نفيل يذكر قصة حادثة الفيل وما رآه من هلاك أبرهة وجيشه:

ألا حُـيـيتِ عـنّـا يـا رُدَيْـنَـا
نَـعِـمْـنـاكمْ مع الإصـبـاحِ عَـيْـنَـا
رُدَيْـنـةُ لـو رأيتِ ولـن تَـريْهِ
لـدى جَـنْبِ الـمُـغَـمَّسِ مـا رأيـنـا
إذًا لـعـذرْتِـنِي ورضـيتِ أمـري
ولـن تـأسَيْ عـلـى مـا فـاتَ بَـيْـنـا
وكلُّ الـقـومِ يـسـألُ عن نُـفـيلٍ
كـأنَّ عـليَّ لـلـحُـبْـشـانِ دَيْـنـا[2]

وتذكر سبيعة بنت الأحب هلاك جيش الفيل في وصيتها لابنها:

والـفـيل أُهْـلك جَـيْـشُهُ
يُـرمـون فـيـهـا بـالـصـخـورْ[3]

وعبدالله بن الزبعرى يتحدث عن حرمة مكة، ويضرب المثل بحرمتها ما صنع الله بجيش أبرهة، فيقول:

---

(١) إتحاف الورى ٤٤
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥
(٣) سيرة ابن هشام ١ ٢٦/

سـائلْ أمـيـرَ الجـيش عـنـهـا مـا رأى

ولـسـوفَ يُـنْـبي الجـاهـلـينَ عَـلـيـمُـها

سـتُّـونَ ألـفًـا لم يَـؤُوبـوا أرضَـهمْ

بل لم يـعشْ بـعـد الإيـابِ سقـيـمُـها[1]

وذكر أبو هلال العسكري أنّ (أول ما عظم أمر قريش فسميت آل الله وقرابته حين هزم الله جيش أبرهة الأشرم، وقال أمية بن أبي الصلت الثقفي في شأن الفيل:

إنّ آيـاتِ ربّـنَـا بـاقـيـاتٌ

مـا يُـمـاري بـهنَّ إلاّ كـفـورُ

حَـبَسَ الـفـيلَ بـالـمُـغـمّس حـتى

ظلَّ يَـحْـبـو كـأنّهُ مَـعْـقـورُ

وقال يصف جيش أبرهة وكثرته، وكيف ردّهم الله بجيوش الطيور الحاصبة:

وعـنـدكمُ مـنهُ بلاءٌ مـصـدّقٌ

غـداةَ أبي يَـكْـسـومَ مُـهـدي الـكـتـائبِ

كـتـائـبهُ بـالـسـهلِ تـمـشي ورَجْـلُهُ

عـلى الـقُـذُفـات في رؤوس الـمـراقبِ

فـلـمّـا أجـازوا بَـطْنَ نَـعْـمـانَ رَدَّهمْ

جـيـوشُ الإلـه بـين سـافٍ وحـاصبِ[2]

وجيوش الإله التي تسفي وتحصب جيش أبرهة هي تلك (الطير الأبابيل أشباه اليعاسيب ترميهم بحجارة من سجيل، وهو طين خلط بحجارة، خرجت من البحر مع كل طير ثلاثة أحجار، فأهلكهم الله عز وجل) [1].

---

(١) أخبار مكة ١ / ١١٢ إتحاف الورى ١ / ٣٧

(٢) الأوائل لأبي هلال العسكري١/ ٥٧-٦٢

(٣) مروج الذهب ١ / ٥٢

وبذلك هلك أبرهة وجنده، وفي ذلك يقول الدكتور محمد حسين هيكل عن نتيجة هذه الحملة: (زاد هذا الحادث الفذ العجيب في مكانة مكة الدينية، وزاد تبعًا لذلك في مكانتها التجارية، وزاد أهلها انصرافًا عن التفكير في شيء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة)(١).

وإذا كانت نتيجة هذه الحملة قد أعلت من مكانة مكة في ما ذكر، فإن النشاط الشعري هو الآخر قد تفاعل مع هذه النتيجة، وفي ذلك يقول فؤاد علي رضا: (كان إخفاق حملة الفيل محورًا لنشاط أدبي كبير، فقد اتخذه كثير من الشعراء موضوعًا لقصائد عصماء، نذكر منهم: عبدالله ابن الزبعرى، وأبا قيس بن الأسلت، وطالب بن أبي طالب، وأبا الصلت بن ربيعة الثقفي، والفرزدق، وعبدالله بن قيس الرقيات، وغيرهم)(٢).

ويشير جواد علي إلى أثر هذه الحملة في دخول بعض الألفاظ الحبشية في الشعر العربي، فيقول: (أشار علماء اللغة المسلمون والمستشرقون إلى عدد من الألفاظ العربية ذكروا أنها من أصل حبشي، وهي من الألفاظ التي كانت مستعملة ومعروفة قبل الإسلام، وقد ورد بعضها في الشعر الجاهلي)(٣) ويقول كلثوم بن عُميس عندما أسره أبرهة وكبله بالحديد، يصف كثرة جيشه بالماء الذي ملأ الوادي:

ألا ليتَ أنَّ اللهَ أسمعَ دعوةً
وأرسلَ بينَ الأخشبين مناديَا
أتتْكمْ جُموعُ الأشرمِ الفيلُ فيهمُ
وسودُ رجالٍ يركبونَ السَعَاليا
ورَجْلٌ جِسامٌ لا يكُتُّ عديدُهُمْ
يهزُّونَ واللأَّتِ الحرابَ الصَّواديا
أتَوْكمْ أتَوْكُمْ تبشعُ الأرضُ منهمُ
كما سالَ شؤبوبٌ فأبشعَ واديا(٤)

(١) حياة محمد ٦٤
(٢) أم القرى مكة المكرمة ٢٢٩
(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ٦ / ١٩٣
(٤) سيرة ابن هشام ١/ ١٧٠

وفخر ذو الرمة بقتل أبرهة الأشرم، فيقول:

وأبــرهــةَ اصــطــادتْ صــدورُ رمــاحــنــا
جــهــارًا وعُــثــنــونُ الــعــجــاجــة أكــدرُ
تــنــحّى لـه عــمــرُو فــشكَّ ضــلـــوعَهُ
بــنــافــذةٍ نجلاء والخـــيلُ تَــضْــبِــرُ[1]

وفي شعر العصور المتوسطة من القرن الخامس وحتى الثاني العاشر يمر ذكر هذه الحادثة ضمن قصائد المديح النبوي، ومن ذلك ما أورده أبو الفضل عبدالمحسن بن محمود التنوخي الحلبي من شعراء القرن السابع في مدحيته اللامية التي يصف فيها حادثة الفيل قائلاً:

مـــاذا أقـــولُ وإنْ أســـهـــبتُ في ملأٍ
قــد جــاءَ في مــدحـــهمُ وحيٌ وتــنـــزيلُ
لــولاهمُ هُــدمَ الــبــيتُ الــعــتــيقُ وقــد
وافــاهُ قــومٌ عُــصــاةٌ فــيــهمُ الــفــيلُ
عــادوا وقــد عــادَ في الــتــضــلــيلِ كيــدُهُمُ
وأُرســلــتْ فــوقـــهم طــيـــرٌ أبــابــيلُ
تــرمي بــأحــجــارِ ســجّــيلٍ تــغــادرهم
إذا رمــتــهمْ كــعــصفٍ وهْــو مــأكــولُ[2]

وفي الشعر المعاصر يبقى أبرهة ماثلاً للعيون، ويبقى هلاكه وهلاك جنده عبرة وعظة، ويبقى الرمز والإيحاء بأن لكل عصر أبرهة من الظالمين المعتدين، كما في هذه القصيدة التي تحمل في طياتها الكثير من المعاني الإيحائية، التي تعبر عن أن نهاية الظالمين ليست ببعيد، وأن نصر الله قريب من عباده المستضعفين، فالشاعر مصطفى أبو الرز من الشعراء المعاصرين، يسيِّر جيش أبرهة في رؤية تناصية إسقاطية، ينقل لنا أحداث عام الفيل، ويتحدث عن أبرهة وجيشه وفيله، وما لاقاه بحجارة الطير الأبابيل،

(١) ديوان ذو الرمة ٢/ ٦٤٤

(٢) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٣ / ٣٨

وقراءتك للقصيدة توحي بأن الشاعر لا يروم سوى تأريخ هذا الحدث، فتفاصيله كما يذكرها معروفة لصغارنا الذين يقرأون (سورة الفيل) ويعرفون تفسيرها، لكنَّ المتأمِّلَ في القصيدة يلمح من خلال هذه البساطة عمقًا وربطًا يؤدي إلى تشكيل رؤية استنباطية تقول: مهما عتا المجرم في إجرامه، فإنَّ له يوم الفيل، واقرأ معي لقطات القصيدة التي لا تبعد كثيرًا عن صور الحدث كما حدث، ولكن هذه البساطة تغري بالتأمل:

إلى أينَ تزحفُ يا أبرهه؟
فما الأمرُ ما شئتَ أنْ تصنعهْ
إلى أين ؟ أين ؟ تضجُّ السَّماءُ
ويُغلقُ أبرهةُ مَسْمعه
ويزحفُ يكسوهُ ثوبُ الغرورِ
وكلُّ الشياطين جاءت معه
وتفعلُ في رأسهِ فِعْلَها
وتُسكرهُ كأسُهُ المُتْرَعَه
وفي قدرة الله كان الجوابُ
وأنّى لمن شطَّ أن يسمَعَه
فما أمرُ أفئدةِ المؤمنينَ
بأيدي اللئيمِ لكي تتبَعَه
ولكن كما شاءَ ربُّ الأنامِ
ففي الكونِ أركانُهُ الأربعه
إلى غيرِ ذي الزرع تَهْوي القلوبُ
ويمتلكُ القلبَ من أبْدَعَه
ويمتلئُ الجوُّ من فورهِ
بطيرٍ أطلَّتْ لكي تَرْدَعَه
أبابيلَ يرميهِ سِجِّيلُها
بضربٍ أقضَّ لهُ مَضْجَعَه

ويـــضــطَـــربُ الــفـــيلُ من هـــولهِ

ويَــلْــقى من الــطــيــر مـــا أوجَـــعَهْ

كــــعــــصفٍ تــــبــــخَّــــرُ أحلامُهُ

ومن يـــا تُـــرى الــمـــرَّ قـــد جَـــرَّعَه؟

فـــمــــا ظنَّ لــــلــــبــــيتِ من مَـــالكٍ

ســيـــصـــرعُهُ قـــبلَ أن يـــصـــرعَه[1]

وما أظن الشاعر يروي لنا هذه الحكاية إلا وفي ذهنه أبرهة العصر، والطيور الأبابيل، طيور الانتفاضة.

وهذا الاكتشاف ليس بحاجة إلى كبير بحث، فقد صدرت دواوين وقصائد في شعر الانتفاضة تمزج في الصورة وتماهي ما بين طيور الأبابيل وأطفال الحجارة.

وهذا ياسين قطب الفيل أيضًا في خطابه لبيت الله يمزج بين تلك الحجارة القديمة وحجارة الانتفاضة، فيقول:

يـــــا بـــــيتَ الــــلـــهِ ومـــــعـــــذرةً

إنّـي عـــــــربـيٌّ الأمـــــــــنـــــــيّـهْ

أبــــرهــــــةٌ يــــــلــــعـنُ أبـــرهــــةً

لَــــعَـــنـــات الحـــقـــدِ الأزلـــيّهْ

ومـــــاَذنُكِ الــــبــــيضُ ارتــــفـــعتْ

تــــتــــحـــدّى مُــــهَــــجًـــا حَــــجَـــريّهْ

والــــمـــوكبُ يمـــضـي مـــلـــتـــمـــسًـــا

كلَّ الجَـــنَــــبــــاتِ الــــقــــدســــيّهْ[2]

ونجد بعض الشعراء يذكرون هذه الحادثة، كلون من ألوان التذكير والوعظ، فينقلونها لنا بأسلوب سردي يقترب من النثر الخبري، كما في قول سراج مفتي:

(١) مناولة باليد من ديوان له مخطوط

(٢) مجلة المنهل عدد ٤٨٥ مجلد ٥٢ جمادى الآخرة ١٤١١هـ / ديسمبر ٩٠ ويناير ١٩٩١م

تلكُمُ البلدةُ الحبيبةُ في القلـ
ـبِ ومَنْ مِثْلُ مكةٍ نَهْواها
كَرّمتْها عنايةُ الله بالبيـ
ـتِ به زاد مجْدُها وعُلاها
وحَمَاها من كلّ صاحبِ مكرٍ
ولئيمٍ يريد مسَّ حِمَاها
تلك ذكرى السنين هيهات تُنسى
قصةُ الفيلِ خُلّدَتْ ذِكْراها
بَيَّتُوا الكَيْدَ يا لها مُخْزِياتٍ
دبّروها فأُحْرِقُوا بِلَظَاها
نزلوا مكةً وساقوا المواشي
قَصْدُهُمْ فتنةٌ تثيرُ أذاها
فأتاهمْ جدُّ النبيِّ ليَحْظَى
بنياقٍ من مالهِ إشتراها
أنا ربٌّ لها وللبيت ربٌّ
سوف يحميه من ظَلُومٍ تَبَاهى
دمّرتهمْ طيرُ الأبابيل رَجْمًا
بحجارٍ في الفتك ما أمَضاها[1]

■ حرب الفجار

الفجار الثاني أو الآخر، ذكر ابن عبد ربه الأندلسي أنه (خمسة أيام في أربع سنين: أولها يوم نخلة، ولم يكن لواحد منها على صاحبه، ثم يوم شمظة لهوازن على كنانة، وهو أعظم أيامهم، ثمّ يوم العبلاء، ثمّ يوم شَرْب وكان لكنانة على هوازن، ثمّ يوم الحريرة، وكان لهوازن على كنانة، وتظاهر الناس بعد ذلك إلى السلم، على أن يذروا الفضل ويتعاهدوا ويتواثقوا) [2].

---

(١) شعر كنانة من الجاهلية إلى العصر الأموي ٤٤٨ .
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ٥ / ٢٥١ – ٢٥٣

وذكر أبو عبيدة أنه كان بعكاظ أربعة أيام: يوم شمظة، ويوم العبلاء، ويوم شرب، ويوم الحريرة وهي كلها من عكاظ فشمظة من عكاظ هو الموضع الذي نزلت فيه قريش وحلفاؤها من بني كنانة بعد يوم نخلة، وهو أول يوم اقتتلوا به من أيام الفجار بحول على ما تواعدت عليه من هوازن وحلفائها من ثقيف وغيرهم، فكان يوم شمظة لهوازن على كنانة وقريش، ولم يقتل من قريش أحد وقال خداش بن زهير:

فـأبـلـغْ إن مـررتَ به هـشـامًـا
وعـبـدَ الـلـه أبـلـغْ والـولـيـدا
بـأنّـا يـوم شـمـظـةَ قـد أقَـمْـنَـا
عـمـودَ الـديـن إنّ لـهُ عَـمُـودا

ثم التقى الأحياء المذكورون على رأس الحول من يوم شمظة بالعبلاء، إلى جنب عكاظ، فكان لهوازن أيضًا على قريش وكنانة، قال خداش بن زهير:

ألم يَـبْـلُـغْـكُمُ أنّـا جَـدَعْـنـا
لـدى الـعَـبْلاءِ خِـنْـدِفَ بـالـقِـيـادِ
ضـربـنـاهُمْ بـبـطنِ عـكـاظَ حـتى
تـولَّـوْا ظـالـعـينَ من الـنّـجَـادِ

فهو يوم العبلاء. ثم التقوا على رأس الحول وهو اليوم الرابع من يوم نخلة بشرب، وشرب من عكاظ، ولم يكن بينهم يوم أعظم منه، فحافظت قريش وكنانة، وقد كان تقدم لهوازن عليهم يومان، وقيد سفيان وحرب ابنا أمية وأبو سفيان ابن حرب أنفسهم، وقالوا لا يبرح منا رجل مكانه حتى يموت أو يظهر، فسموا العنابسة وجعل بلعاء بن قيس يقاتل ويرتجز:

إن عـكـاظًـا مـاؤنـا فَـخَـلّـوهْ
وذا الـمـجـازِ بَـعْـدُ لن تحـلّـوهْ

فانهزمت هوازن وقيس كلها إلا بني نصر، فإنها صبرت مع ثقيف، وذلك أن عكاظًا لهم فيها نخل وأموال، فلم يغنوا شيئًا، ثم انهزموا، وقتلت هوازن يومئذ قتلاً ذريعًا، قال أمية بن الأسكر الكناني:

ألا سـائلْ هـوازنَ يـوم لاقـوا
فـوارسَ من كـنـانـةَ مُـعـلـمـيـنـا
لـدى شـربٍ وقـد جـاشـوا وجـشـنـا
فـأوعبَ في الـنـفـيـرِ بـنـو أبـيـنـا

ثم التقوا على رأس الحول بالحريرة، وهي حرة إلى جنب عكاظ، مما يلي مهب جنوبها، فكان لهوازن على قريش وكنانة وهو يوم الحريرة.

شهد خداش بن زهير من بني عامر بن صعصعة حرب الفجار، وكان من أكثر الشعراء حديثًا في شعره عن أيام هذه الحرب، وكان يوم نخلة هو أول أيام الأفجرة، وفيه يقول خداش بن زهير:

يا شَدّةً ما شَدَدْنا غيرَ كاذبةٍ
على سخينةَ لولا البيتُ والحرمُ

لمَّا رأوا خيلَنَا تُزجى أوائلُها
آسادُ غيلٍ حمى أشبالَها الأَجَمُ

واستُقبلوا بضرابٍ لا كِفَاء له
يُبدي من العُزَّل الأكفالَ ما كَتَمُوا

ولَّوْا شِلالاً وعُظْمُ الخيلِ لاحقةٌ
كما تَخُبُّ إلى أوطانها النَّعَمُ

ولَّتْ بهم كلُّ مِحضارٍ مُلَمْلَمَةٍ
كأنّها لقوَةٌ يَحْتَثُّها ضَرَمُ

إذ يَتَّقينا هشامٌ بالوليد ولو
أنّا ثَقِفنا هشامًا شالتِ الخَدَمُ

قد قرّتِ العينُ إذ يدعون خيلهُمُ
لكيْ تكرَّ وفي آذانها صَمَمُ

بين الأراكِ وبين المرجِ تبطَحُهُمْ
زرقُ الأسنّةِ في أطرافها السُّهُمُ

فإنْ سمعتمْ بجيشٍ سالكٍ سَرِفًا
أو بطنَ مرٍّ فأخفوا الجَرْسَ واكتتموا[1]

---

(١) المستدرك في شعر بني عامر ٢/١٧٩، وسخينة: قريش. وكانت العرب تسميها سخينة لأكلها السخن. زجّى الشيء وأزجاه: ساقه ودفعه، وآساد: جمع أسد. والغيل: الأجمة وموضع الأسد. لا كفاء له: لا نظير. والأكفال: جمع كفل، والكفل من الرجال الذي يكون في مؤخر الحرب إنّما همته في الفرار. والشلال: القوم المتفرقون، وذهب القوم شلالا: أي انشلّوا مطرودين والخبب:السرعة. وفرس محضار:إذا كان شديد الحضر وهو العدو. والململة: المعتدلة الخلق. وقيل الغليظة الصلبة.واللقوة: العقاب الخفيفة السريعة الاختطاف. وهشام والوليد: ابنا المغيرة المخزومي.وشالت: اضطربت. والخدم السيقان. وسرف: موضع من مكة على عشرة أميال. وبطن مر: واد

وفي اليوم الثاني من الفجار الثاني وهو يوم شمظة كانت الغلبة في أول النهار لكنانة، فلما صار آخره صبرت هوازن ومن معها من بني عامر، فاستحر القتل في قريش، وخداش هنا يبين عن ذلك، وكيف كان القتال والعراك متكافئًا في المعركة، إلاّ أنَّ الغلبة في النهاية كما يقول وكما ورد لمن معه، ولذلك فإنّ ابن سلام الذي أورد أبياتًا من هذه القصيدة في طبقات الشعراء، يعدّها من المنصفات، وفيها يقول:

فأبلغ إنْ عرضتَ بنا هشامًا
وعبدَالله أبلغْ والوليدا
أولئك إنْ يكنْ في القوم خيرٌ
فإنَّ لديهمُ حَسَبًا وَجُودا
همُ خيرُ المَعَاشرِ من قريشٍ
وأوراها إذا قُدِحَتْ زُنُودا
بأنّا يومَ شَمْظَةَ قد أقَمْنا
عمودَ المجدِ إنَّ لهُ عمودا
جلبنا الخيلَ ساهمةً إليهمْ
عوابسَ يَدَّرِعْنَ النَّقعَ قُودا
وبِتْنا نعقدُ السّيمى وباتوا
وقالوا صَبِّحُوا الأَنسَ الحريدا
وقد حَتَموا القضاءَ ليجْعَلونا
معَ الإصباح جاريةً وئيدا
فجاءوا عارضًا بَرِدًا وجئنا
كما أضْرَمْتَ في الغاب الوقودا
فقالوا يالَ عمروٍ لا تفرّوا
فقلنا لا فرارَ ولا صُدُودا
فعارَكْنا الكُماةَ وعاركونا
عراكَ النُّمْرِ واجهتِ الأسُودا

عَـــلَـــوْنـــاهُمْ بـــكلِّ أفلَّ عَـــضْبٍ
تـــخـــالُ جَـــمـــاءَ وقْـــعـــتـهِ خُـــدودا
فـــلـم أرَ مـــثـــلَــــهمْ هُـــزمـــوا وفُـــلّـــوا
ولا كَـــذيـــادِنـــا غـــبـــقًـــا مَـــذُودا
عـــددتمْ عـــطْـــفَـــتَـــينِ ولم تـــعـــدّوا
وقـــائعَ قـــد تَـــرَكْـــنَـــكُمُ حَـــصـــيـــدا
تـــركـــنـــا الـــبـــيـــدَ والـــمَـــعْـــزاءَ مـــنـــهمْ
تـــخـــالُ خلالـــهـــا مـــعـــزى صـــريـــدا
وعـــبـــدالـــلـهِ قـــد قـــتـــلـــوا فـــصـــاروا
همُ الأنـــكـــاسُ يَـــرْعَـــوْنَ الـــنَّـــقـــيـــدا
تـــركـــنـــا عـــامِـــريـــهم مـــثل عـــادٍ
ومُـــرَّةَ أُهْـــلِـــكـــوا إلاّ الـــشَّـــريـــدا
أنـــا الـحـــامي الـــذِّمـــارَ ولـــيثُ غـــابٍ
أشُبُّ الـحـــربَ أُشْـــعِـــلُـــهـــا وَقُـــودا[1]

وفي اليوم الثالث وهو يوم العبلاء الذي انتصرت فيه بنو عامر وبقية فروع هوازن، وانهزمت كنانة، ويوم العبلاء هو اليوم الثاني من أيام الفجار الثاني، وكان اللقاء على قرن الحول بالعبلاء، وهو موضع قريب من عكاظ، وفيه انهزمت كنانة، يقول خداش:

ألـمْ يـــبْـــلـــغكَ مـــا لاقت قـــريشٌ
وحيٌّ بـــنـي كـــنـــانـــةَ إذْ أُثـــيـــروا
دهـــمـــنـــاهمْ بـــأرعنَ مُـــكْـــفَـــهِـــرٍّ
فـــظلَّ لـــنـــا بـــعـــقـــوتـــهمْ زئـــيـــرُ
نُـــقَـــوِّمُ مـــارنَ الـخـــطِّيِّ فـــيـــهمْ
يـــجيءُ عـــلـى أسـنـتـنـا الـجـزيـرُ[2]

(١) شعر خداش بن زهير ٥٥٥-٥٥٦

(٢) شعر خداش بن زهير ٥٦٤- ٥٦٥ وأرعن: جيش عظيم جرار. والعقوة: المكان المنفسح أمام المحلة ومارن الخطي: الرماح اللدنة. والجزير: فعيل بمعنى مفعول من الجزر

وقال أيضًا في هذا اليوم:

ألم يبلغك بالعبلاء أنّا
ضربنا خُنْدفًا حتى اسْتَقادوا
نُبَنِّي بالمنازل عزَّ قيسٍ
وَودّوا لو تسيخُ بنا البلادُ[1]

ويتكرر هذا المعنى، ويذكر مكان حدوث الواقعة في عكاظ، فيقول:

ألمْ يَبْلُغْكُمُ أنّا جَدعْنا
لدى العبلاء خُنْدفَ بالقيادِ
ضَربْنَاهُمْ ببطنِ عكاظَ حتّى
تولّوا ظالعين من النِّجادِ[2]

وفي يوم الحريرة وهو اليوم الذي كان لهوازن على كنانة، وفيه قُتل أبو سفيان بن أمية أخو حرب بن أمية، وقُتل من كنانة ثمانية نفر، وفي ذلك يقول خداش بن زهير:

لقد بلَوْكمْ فأبلَوْكمْ بلاءَهُمُ
يومَ الحريرةِ ضربًا غيرَ تكذيبِ
إنْ تُوعِدوني فإنّي لابنُ عمِّكُمُ
وقدْ أصابوكمُ منهم بشُؤبوبِ
وإنَّ ورقاءَ قد أودى أبا كنفٍ
وابنَيْ إياسٍ وعمْرًا وابنَ أيّوبِ
وإنَّ عثمانَ قد أرْدى ثمانيةً
منكمْ وأنتم على خُبْرٍ وتجريبِ
يُخالس الخيلَ طعنًا وهْي مُحْضرةٌ
كأنما ساعِداهُ ساعِدَا ذيبِ[3]

---

(١) شعر خداش بن زهير ٥٥٢

(٢) المستدرك من شعر بني عامر ١٦٥

(٣) شعر خداش بن زهير ٥٤٨ والحريرة: تصغير حَرّة موضع بين الأبواء ومكان قرب نخلة.

وفي هذا اليوم يقول ربيعة بن عثمان يصف قتل ابن محمية الديلي لزهير بن ربيعة أبي خداش في يوم الحريرة من أيام الفجار:

فسائلْ جعفرًا وبني أبيها
بني البرزي بطفخةَ والملاحِ

عشيَّةَ لم يكنْ للرمحِ حظٌّ
وكان الحظُّ فيهِ للصِّفاحِ

غداةَ أتتهُمُ حُمرُ المنايا
يَسُقنَ الموتَ بالأجلِ المُتاحِ

تركنا ثاويًا يزقو صداهُ
زهيرًا بالعوالي والصِّفاحِ

أُتيحَ لهُ ابنُ محميةَ بنَ عبدٍ
فأعجلهُ التَّسوُّمُ بالبطاحِ[1]

وهذا رياح بن الأعلم القشيري ينتقد هذه الحرب، وهو لا يشعر بالندم عن تغيبه عنها، بل لو تكررت، فإنه لن يندم لو تغيب أيضًا، بل هو يقرر أنه سيتغيب حتمًا عنها لو تكرر حدوثها، فيقول:

تغيّبتُ عن يومي عكاظَ كليهما
وإنْ يكُ يومٌ ثالثٌ أتجنّبُ

وإن يكُ يومٌ رابعٌ لا أعُدْ لهُ
وإنْ يكُ يومٌ خامسٌ أتنكّبُ[2]

■ الأحلاف

تعاهدت قريش في الجاهلية على عدة أحلاف بين قبائل مكة، ومع جيرانها أحيانًا،

---

(١) شعر كنانة من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ٢٥٠، البرزي: لقب بني بكر. طفخة: جبل لبني كلاب.

(٢) المستدرك في شعر بني عامر ١١٨/٢.

ومن هذه الأحلاف:

■ حلف الفضول

هذا الحلف من أفضل أعمال قريش في الجاهلية، فقد تحالفوا على رد كل مظلمة وقد حضره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأيده، وفيه قال: «قد شهدتُ مع عمومتي في دار ابن جدعان من حلف الفضول ما لو دُعيتُ إليه اليوم لأجبت، وما أُحبُّ أنّي نقضته ولي حمرُ النِّعم [1]».

قال أبو هلال العسكري: ومن أوائل أفعالهم حلف الفضول وروي (أن رجلاً من بني زبيد من مذحج قدم مكة بسلعة، فباعها من العاص بن وائل وكان شريفًا، فظلمه ثمنها، وأبت الأحلاف: عبدالدار ومخزوم وجمح أن يعينوه عليه، فأوفى الزبيدي على أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش حول الكعبة، فصاح بأعلى صوته):

يا آلَ فهرٍ لمظلوم بضاعتُهُ
ببطن مكةَ نائي الدار والنَّفرِ
ومُحْرِمٌ شَعِثٌ لم يَقْضِ عُمْرَتَهُ
يا للرجال وبين الحِجْرِ والحَجَرِ
هل مُخفرٌ من بني سهمٍ بخُفرتِهِ
فعازلٌ أم ضلالٌ مالُ معتمرِ
إنَّ الحرامَ لمن تمَّتْ حرامتُهُ
ولا حرامَ لثوبِ الفاجرِ الغُدُرِ[2]

فقال الزبير بن عبدالمطلب: ما لهذا مترك، فاجتمعت: زهرة وتيم وأسد في دار عبدالله بن جدعان وصنع لهم طعامًا، فتحالفوا ليكونُنَّ يدًا على الظالم للمظلوم حتى يردوا حقه إليه، وعلى التأسي في المعاش.

---

(١) الأوائل لأبي هلال العسكري ١ / ٩٦

(٢) الأوائل ١ / ٩٤ – ٩٥

فقالت قريش: قد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثمَّ أتوا العاص بن وائل، فانتزعوا سلعة الزبيدي من يده، فدفعوها إليه.

وفي ذاك يذكر الزبير بن عبدالمطلب بن هاشم حلف الفضول قائلاً:

حلفتُ لنعقدنْ حلفًا عليهمْ
وإنْ كنّا جميعًا أهْلَ دارِ
نُسمِّيهِ الفضولَ إذا عَقَدْنا
يعزُّ به الغريبُ لدى الجوارِ
ويعلمُ مَنْ حوالي البيت أنّا
أُباةُ الضَّيْمِ نمنعُ كلَّ عارِ
إذا رامَ العُداةُ لنا حَرَامًا
أقمنا بالسُّيوفِ والازْوِرارِ[1]

وقال أيضًا:

إنَّ الفضولَ تحالفوا وتعاقدوا
ألاّ يقيمَ ببطن مكةَ ظالمُ
أمرٌ عليه تعاهدوا وتواثقوا
فالجارُ والمُعْتَرُّ منهمْ سالمُ[2]

وورد في سبب آخر (أنّ رجلاً من ثمالة باع متاعًا من أُبيٍّ بن خلف فَلَواهُ وذهب بحقه، فاستجار برجل من بني جُمح، فلم يقم بجواره، فقال:

يا لقصيٍّ كيف هذا في الحرمْ
وحرمة البيت وأخلاق الكرمْ
أُظْلَمُ لا يُمْنعُ مني مَنْ ظلمْ

وبلغ الخبر عباس بن مرداس، فقال:

---

(١) إتحاف الورى ١ / ١٢١

(٢) إتحاف الورى ١/ ١٢١

إنْ كـــان جـــارُكَ لم تـــنـــفـــعْكَ ذِمَّـــتُهُ

وقـد شـربتَ بـكـأسِ الـذّلِّ أنـفـاسَـا

فـأتِ الـبـيـوتَ وكنْ من أهـلـهـا صَدَدا

لا تـلـقَ نـاديَـهمْ فُـحْـشًـا ولا بـاسَـا

ولم تـكُنْ بـفـنـاءِ الـبـيتِ مُـعْـتَـصِمًـا

تـلـقى ابنَ حـربٍ وتـلـقَ الـمـرءَ عَـبّـاسا

سـاقي الـحـجـيج وهـذا يـاسـرٌ فـلـجٌ

والـمـجـدُ يـورثُ أخـمـاسًـا وأسـداسا

فقام العباس وأبو سفيان حتى ردّا عليه متاعه.

ويُقال: إنَّ سبب حلف الفضول أن قريشًا كانت تتظالم في الحرم، فقام عبدالله بن جدعان، والزبير بن عبدالمطلب فدعوا إلى التحالف على التناصر، والأخذ للمظلوم من الظالم، فأجابوهما وتحالفوا في دار ابن جدعان)[١].

وقال الزبير بن عبدالمطلب:

حـلـفتُ لـنـعْـقـدَنْ حـلـفًـا عـلـيـهمْ

وإنْ كـنّـا جـمـيـعًـا أهلَ دارِ

نُـسـمِّـيه الـفـضـولَ إذا عـقـدنـا

يَـعـزُّ به الـغـريبُ لـدى الجـوار

ويـعـلمُ مَنْ حَـوالي الـبـيتِ أنّـا

أُبـاةُ الـضَّـيمِ نمـنـعُ كلَّ عـار

إذا رامَ الـعـداةُ لـنـا حـرامًـا

أقـمـنـا بـالـسُّـيـوفِ والازورار[٢]

وفي قصة تتعلق بحلف الفضول يورد أبو هلال العسكري أنه (ورد رجل من ختعم

(١) إتحاف الورى١٢٢

(٢) الروض الأنف ١/ ١٥٦ والسيرة النبوية لابن كثير ١/ ٢٥٩

مكة، ومعه بنت يقال لها القَتول، من أحسن الناس وجهًا، فعلقها نُبيهُ بن الحجاج، وغلب عليها أباها، فأتى أبوها حلف الفضول، فحالوا بينها وبينه، قال نُبيهُ:

لولا الفضولُ وحِلْفُها
والخوفُ من أعدائهَا
لدنوتُ من أبياتها
ولَطُفْتُ حولَ خِبَائها
وشربتُ فضلةَ ريقهَا
ولنمْتُ في أحْشَائِها[1]

وقال:

راح صحبي ولم أُحيِّ القَتولا
لم أودِّعْهمُ وداعًا جميلا
إذْ أجدَّ الفضولُ أن يمنعوها
قد أراني ولا أخاف الفضولا[2]

ويمدحهم حذيفة العدوي بجمع حلف الأحابيش، فيقول:

وهم جمعوا حلفَ الأحابيش كلِّها
وهم نكلوا عنّا غواة بني بكرِ[3]

وفي الحرب التي جرت بين خزاعة وكنانة قبل فتح مكة يقول الأخزر بن لعط الديلي ذاكرًا الأحابيش:

الا هلْ أتى قُصْوَى الأحابيش أنّنا
رددنا بني كعبٍ بأفْوَقَ ناصلِ
حبسناهمُ في دارةِ العبدِ رافعٍ
وعندَ بُديلٍ مَحبسًا غيرَ طائلِ

(١) الأوائل ١/ ٩٥

(٢) المصدر نفسه ١/ ٩٦

(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١٧٤

(٤) شعر كنانة من الجاهلية إلى آخر العصر الأموي ٣٧٦

نُــذَبِّــحُــهُمْ ذبحَ الــتّــيــوسِ كــأنَّــنــا
أُســودٌ تَــبــارَى فــيــهمُ بــالــقــواصلِ[٤]

قال الحارث بن حلزة اليشكري ذاكرًا حلف ذي المجاز في معلقته:

واذكــروا حــلفَ ذي الــمــجــاز ومــا قُــدْ
دِمَ فــــيه الــــعـــــهــــودُ والــــكــــفلاءُ[١]

ويمدحهم الحطيئة بتوثيق أحلافهم، وأنهم يوفون بهذه الأحلاف التي يعقدونها عند البيت، كما في قوله:

لــــلــه درّهمُ قـــــومًــــا ذوي حَـــــسَبٍ
يــومًــا إذا جُــلْــبــةٌ حــلّتْ مــراســيــهــا
أَهْلُ الحِــــفــــاظِ إذا مـــــا أَزْمَـــــةٌ أَزَمَتْ
بــالــنّــاس حــاضِــرِهِمْ مــنــهــا وبــاديــهــا
والــمــوثــقــون لجــارِ الــبــيت إن عــقــدوا
ومـــنــــهمُ ســـابقُ الجــلّــى وداعــيـــهـــا[٢]

■ صحيفة قريش

قام مجموعة نفر من القرشيين هم: هشام بن عمرو، ومطعم بن عدي بن نوفل، وزمعة ابن الأسود بن المطلب، وأبو البختري بن هشام بن الحارث، فمزقوا الصحيفة، وتبرّؤوا منها، وفي ذلك يقول أبو طالب:

جــزى الــلهُ رهــطًــا من لــؤيٍّ تــتــابــعــوا
عـــلـى ملأ يُــــهــــدى لحــــزمٍ ويُــــرشَــــدُ
قــعــودًا لــدى جــنب الحَــطــيم كــأنّــهمْ
مَــــقــــاولــــةٌ بلْ همْ أعــــزُّ وأمـــــجــــدُ
همُ رجــعــوا ســهلَ بنَ بــيــضــاء راضــيًــا

(١) أسواق العرب ٣٥٠
(٢) ديوان الحطيئة ٢٨٢

فسُرَّ أبو بكرٍ بها ومحمدُ

ألم يأتكُمْ أنَّ الصَّحيفةَ مُزِّقتْ
وإنْ كانَ ما لمْ يرْضَهُ اللهُ يَفْسُدُ

أعانَ عليها كلُّ صقرٍ كأنّهُ
شهابٌ بكفّيْ قابسٍ يتوقّدُ

جريءٌ على حلِّ الأمورِ كأنّهُ
إذا ما مشى في رفرفِ الدرعِ أجْوَدُ[1]

■ الهجرة إلى الحبشة

شارك الشعر في تصوير عذابات المسلمين في مكة، وكيف تحولت حياة من آمن إلى حياة خوف واضطهاد، وهذا عبدالله بن الحارث السهمي بعد أن استقر في الحبشة يدعو إخوانه من المسلمين ليلحقوا به، يقول:

يا راكبًا بلِّغَنْ عني مغلغلةً
من كان يرجو بلاغَ الله والدينِ

كلّ امرئٍ من عبادِ الله مضطهدٍ
ببطن مكةَ مقهورٍ ومفتونِ

إنّا وجدنا بلادَ اللهِ واسعةً
تُنجي من الذلِّ والمخزاةِ والهونِ

فلا تقيموا على ذلِّ الحياة وخزْ
يٍ في الممات وعيبٍ غيرِ مأمونِ[2]

(١) نسب قريش ٤٣١
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٠ وهديل الحمام ٢/ ٦٣٨

ويذكر نفي قريش إياهم من بلادهم:

نَفَتْهم عبادُ الجنّ من حرٍّ أرضهمْ
فأضْحَوا على أمْرٍ شديد البلابلِ

■ فتح مكة

لقد كان فتح مكة هو فتح الفتوح، والفتح الأعظم الذي أطلق عليه في القرآن الكريم (الفتح) فأصبحت علمية الفتح عليه وحده دون سواه، فقال تعالى: «إذا جاء نصر الله والفتح [(١)]».

وكانت بداية الفتح أن أعانت قريش بالسلاح وفي نفر منها بني الديلي بن بكر على خزاعة، فجاؤوهم ليلاً فقتلوا منهم عشرين رجلاً، وأحست قريش بالندم لأن في هذا العمل نقضًا لصلح الحديبية، ولما حدث لخزاعة ما حدث، خرج عمرو بن سالم الخزاعي ومعه رجال من خزاعة حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:

يا ربِّ إنّي ناشدٌ محمدا
حلفَ أبينا وأبيهِ الأتْلَدا
قد كنتمُ وُلْدًا وكنّا والِدَا
ثُمَّتَ أسْلَمْنا ولم نَنْزِعْ يَدا
إنَّ قريشًا أخلفوكَ الموعدا
ونقضوا ميثاقَكَ المؤكّدا
وجعلوا لي في كَداءَ رُصَّدا
وزعموا أنْ لستُ أدعو أحدا
وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
همْ بيَّتونا بالوَتِير هُجَّدا
وقتَّلونا رُكَّعًا وسُجَّدا[(٢)]

ويبشر حسان بن ثابت بهذا الفتح، في قوله مهددًا ومتوعدًا كفار قريش، ويصور لنا الفتح عيانًا، فها هي خيول المسلمين تعبر مكة من ثنية كداء في أعالي مكة، ولا تجد من الرجال من يصدها، فتقف النساء بخمرهن يحاولن صدّ الخيول المغيرة، وفي ذلك من

(١) سورة النصر آية ١ (٢) إتحاف الورى ١/ ٤٨٦ – ٤٨٧

الاستهزاء والتهوين من أمر المشركين، والطعن في رجولتهم حين يتركون نساءهم في مواجهة الخيول بخمرهن:

عَدِمنا خَيلَنَا إنْ لم تَرَوْها
تثيرُ النقعَ موعِدُها كَداءُ
تظلُّ جيادُنا مُتَمَطِّراتٍ
تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النّساءُ
لنا في كلِّ يوم من مَعدٍّ
سبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ(١)

ويتفق عبدالله بن رواحة مع حسان في هذه البشرى، فيقول:

عَدِمْتُ بُنيَّتي إنْ لم تَرَوْها
تُثيرُ النَّقْعَ من كَنَفَيْ كداءِ(٢)

وينقل لنا الشعراء كيف تم تطهير الكعبة من الوثنيات، وتدمير الأصنام، ففي ما ترويه كتب السيرة في فتح مكة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما مرّ بصنم أشار إليه بقضيب في يده، وهو يتلو قول الله تبارك وتعالى: «قل جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا (٣)»، «وما يبدئ الباطل وما يعيد (٤)» فيقع الصنم على وجهه حتى مرّ عليها كلها، وفي ذلك يقول فضالة بن عمير بن الملوِّح الليثي:

لو ما رأيتَ محمدًا وجنودَهُ
بالفتح يوم تُكسّرُ الأصنامُ
لرأيتَ نورَ الله أصبحَ بيّنًا
والشركَ يَغْشَى وَجْهَهُ الإظلامُ(٥)

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ٨

(٢) ديوان عبدالله بن رواحة ١٥٥

(٣) سورة الإسراء آية ٨١

(٤) سورة سبأ آية ٤٩

(٥) شعر كنانة من الجاهلية إلى آخر العصر الأموي ٤٩١

وهذا ضرار بن الخطاب يناشد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، ويستنجد به على سعد بن عبادة الذي يرى قصم ظهر قريش في هذا الفتح كما يقول:

يا نبيَّ الهدى إليكَ لَجَاحَيْ
يُ قريشٍ وأنتَ خيرُ لَجَاءِ
حين ضاقتْ عليهمُ سَعَةُ الأر
ضِ وعاداهمُ إلهُ السَّماءِ
فالتقتْ حَلْقَتا البطانِ على القو
م ونُودوا بالصَّيْلَمِ الصَّلعاءِ
إنَّ سَعْدًا يريدُ قاصِمةَ الظهـ
ـرِ بأهلِ الحَجُونِ والبطْحَاء
خزرجيٌّ لو يستطيعُ من الغيـ
ـظِ رَمَانا بالنَّسْرِ والعوّاء
واغِرُ الصَّدر لا يهمُّ بشيءٍ
غير سفك الدما وسَبيِ النساء
قد تلظّى على البطاح وجاءتْ
عنهُ هندٌ بالسّوءةِ السَّواء
إذْ يُنادي بذُلِّ حيٍّ قريشٍ
وابنُ حربٍ بدا من الشهداء
فلئنْ أفحمَ اللقاء ونادى
يا حُماةَ اللِّواء أهلَ اللِّواء
ثُمَّ ثابتْ إليه من بُهُمِ الخز
رَجِ والأوس أنْجُمُ الهيجاء
لتكونَنَّ بالبطاح قريشٌ
فقعةَ القاع في أكفِّ الإمَاء
فأنههِ نْهُ فإنَّهُ أسَدُ الأسْدِ

(١) العقد الثمين ٥ / ٥٠

ـــدِ لـــذي الـــغـــاب والغٌ في الـــدمـــاء

إنَّهُ مُـــطـــرقٌ يُـــديـــرُ لـــنـــا الأمـ

ـــرَ سـكـوتًـا كـالـحـيّـةِ الـرّقْـطَـاء(١)

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادة، فنـزع اللواء من يده، فجعله بيد قيس ابنه.

ويتأهب حماس بن قيس لقتال المسلمين القادمين لفتح مكة، فيقول:

إنْ يُـقـبـلـوا الـيـوم فـمـا لي عـلّهْ

هـــــــذا سلاحٌ كـــــــاملٌ وألَّهْ

وذو غـــرارين ســـريعُ الـــسَّـــلَّهْ(١)

فانهزم حتى دخل على امرأته، وقال لها: أغلقي عليَّ بابي. فقالت له: أين ما كنت تقول؟ فأنشد:

وأنتِ لـــو رأيـــتـــنـــا بـــالخـــنـــدمهْ

إذْ فـــرَّ صـــفـــوانٌ وفـــرَّ عـــكـــرمهْ

ولحـقـتـنـا بـالـسـيـوف الـمـسـلـمه

يـقـطـعنَ كلَّ سـاعـدٍ وجـمـجـمهْ

ضـــربًـــا فلا تـــســـمعُ إلاّ غَـمْـغـمه

لـــهم نَـهـيتٌ حـولـنـا وهـمـهـمهْ

لم تـنـطـقي في الـلّـوم أدنى كـلـمهْ(٢)

ويستمر الحديث عن أعظم فتح وأجله، وبخاصة في شعر المديح النبوي، وبالذات في العصر الوسيط، الذي جعله الشعراء حلقة من ضمن حلقات المدح السيَري، فهم يعرضون في أغلب مديحهم جوانب من سيرة النبي الأعظم عليه السلام، ويبدو فتح مكة من طاقات النور المبهرة في مسيرته عليه السلام، وحتى لا يتكرر الكلام والنماذج التي مرت في الحديث عن مدحه عليه أفضل الصلاة والسلام، فسأقتصر على نموذج واحد،

---

(١) شعر كنانة من الجاهلية إلى العصر الأموي ٤٨٤

(٢) إتحاف الورى ١/ ٥٠٠

وأشير إلى مواضع النماذج المتعددة التي ذكرت هذا الحدث الهام، ومن جميل وصف هذا الحدث ما أورده الإمام أبو محمد عبدالله بن زكريا الشقراطيسي المغربي المتوفى في نهاية القرن الخامس الهجري، يقول:

ويومَ مكةَ إذْ أشرفتَ في أُمَمٍ
تضيقُ عنها فِجاجُ الوعثِ والجبلِ

خوافقٌ ضاقَ ذرعُ الخافقَيْنِ بها
في قاتمٍ من عجاجِ الخيلِ والإبلِ

وَجَحْفَلٍ قذفِ الأرجاءِ ذي لجبٍ
عَرَمرمٍ كرهاءِ الليلِ مُنسحلِ

وأنتَ صلّى عليكَ الإلهُ تقْدُمُهمْ
في بهوِ إشراقِ نورٍ منكَ مكتملِ

خشعتَ تحتَ بهاءِ العزِّ حينَ سمتْ
بك المهابةُ فِعْلَ الخاضعِ الوَجلِ

وقد تباشرَ أملاكُ السماءِ بما
ملكتَ إذ نلتَ منهُ غايةَ الأملِ

والأرضُ ترجفُ من زهوٍ ومن فرحٍ
والجوُّ يُزهرُ إشراقًا من الجذلِ

والخيلُ تنثال زهوًا في أعنّتها
والعيسُ تنثالُ زهوًا من ثُنى الجُدُلِ

لولا الذي خطَّتِ الأقلامُ من قَدَرٍ
وسابقٌ من قضاءٍ غيرِ ذي حِوَلِ

أهلَّ ثهلانُ بالتهليلِ من طربٍ
وذابَ يذبلُ تهليلاً من الذُّبُلِ

الملكُ للهِ هذا عزُّ من عُقِدَتْ
لهُ النبوَّةُ فوقَ العرشِ في الأزلِ

شعبتَ صَدعَ قريشٍ بعدما قذفتْ

بـهم شَعـوبُ شِعـابِ الـسَّهلِ والـقُلَلِ
قــالــوا مــحــمــدُ قـد زارتْ كـتـائـبهُ
كـالأُسْدِ تـزأرُ في أنـيـابـهـا الـعُـصُلِ
فـــويلُ مـــكـــةَ من آثـــارِ وطـــأتهِ
وويلُ أمِّ قـــريشٍ مِن جـــوى هُـــبَلِ
فـجُدْتَ عـفـوًا بـفـضلِ الـعـفوِ منكَ ولمْ
تُـلْـمِمْ لـهمْ بـألـيمِ الـلـومِ والـعـذَلِ
زانَ الخـــشـــوعَ وقـــارٌ مـــنـهُ في خَـــفَــرٍ
أرقَّ من خـــفـــرِ الـــعـــذراءِ في الـــكِـــللِ
وطُـفتَ بـالـبـيتِ مـسـرورًا وطـافَ به
من كـانَ عـنهُ قُـبَـيْلَ الـفـتحِ في شُـغُلِ
حـجـزْتَ بـالأمنِ أقـطـارَ الـحـجـازِ مـعًـا
ومِـلْتَ بـالخَـيْفِ عن خـوفٍ وعن مـلَلِ[1]

وشارك الشعر الحديث في الحديث عن فتح مكة، فكان هذا الفتح الأعظم من ركائز الحديث عن القصيدة النبوية أو المكية، ولذلك نجد كثيرًا من الشعراء الذين تحدثوا عن ولادة الرسول عليه السلام، أو الهجرة فإنهم قد جعلوا فتح مكة منفذًا من منافذ القصيدة، وأساسًا من أسس بنائها.

وهذا أحمد الجدع شاعر معاصر، يصوِّر لنا فتح مكة بأنّه وحي إلهي، وفي ذهنه (سورة النصر) وكيف لبّى صحابته نداء الفتح، فكان النصر الأسمى، يقول:

ورفَّتْ عـلـى قـلـب الحـبـيـبِ رسـالـةٌ
روائعُ آيــاتٍ بـــهـــا ربُّـــنـــا أوحى
أضـاءَ سـمـاءَ الـدينِ أنـبـاءُ نـصـرهِ
وأعـداءُ دينِ الـلـهِ في سـاحـنـا صَـرْعَى
ونـــادى أســـودُ الـــلـهِ لـــبـيـكِ مـكـةُ

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٣ / ١٥٧ –١٥٨ والفجاج: الطرق. والوعث: اللين السهل. والجحفل: الجيش العظيم. واللجب: الصوت. والقذف: الفلاة البعيدة. والرهاء: شبيه الدخان والغبرة. والمنسحل: الجاري. والحول: التحول. وثهلان ويذبل: جبلان. والذبل: الرماح. وانظر فيما ورد من شعر في المدائح النبوية ويخص فتح مكة ١ /٩٢، ٢١٦، ٢٨٠، ٣٧٤ / ٣ / ١٦٧

فـهـبَّتْ زحـوفٌ نـحـوَ كـعـبـتـهـا تَـتْـرَى
وأعــطى رســولُ الـلـه أمــنًــا لأهــلِــهَــا
وطــارَ بـلالٌ فــوق كــعــبَــتِــهــا يَــرْقَى
ونـــــادى بـلالٌ بــــالأذان مُـــــكَــــبِّـــــرًا
وسـارَ صدى الـتكبـيـرِ من صوتـهِ يَـنْدَى
جـيــوشُ نـبـيِّ الـلـهِ تجـنـي ثـمــارهــا
ومـكـةُ رَبْـعُ الـفـتـحِ والـوَثْـبَـةِ الأولى[1]

■ الفتن والحوادث

كانت الحرب التي وقعت بين عبدالله بن الزبير والجيش الأموي بقيادة الحجاج، وتم فيها ضرب الكعبة بالمنجنيق، من الحوادث المؤلمة التي ظهر أثرها في الشعر ظهورًا واضحًا، وعبَّر الشعر فيها عن شدة أثر هذه الفتنة في نفوس من عاشوها، وارتبطت بهذه الفتنة ألفاظ ومعاني وصور، مثلتها تمامًا.

من ذلك أن الجيش الأموي لمّا حاصر ابن الزبير عاذ بالكعبة، وأصبح هذا اللقب يطلق على ابن الزبير، ونجده في قول زوجته أم هاشم زُجلة بنت منظور بن زبّان الفزارية تهجو الحجاج، وتصفه بالجهل، كونه يطلبها للزواج بعد مقتل زوجها، فتقول:

أبــعــدَ عــائــذِ بــيت الــلـهِ تَــخْــطـبُــني
جـــــهلاً وغبُّ الجـــــهلِ مـــــذمـــــومُ[2]

وقال عمرو بن سعيد متمنيًا نجاة ابن الزبير:

فـإنْ يـنـجُ مـنـهـا عـائـذُ الـبـيتِ سـالـمًـا
فـمـا نـالـنـا مـنـكمْ وإنْ شـقَّـنـا جـلـلْ[3]

(١) قصيدة باليد من ديوان مخطوط
(٢) غاية المرام ١ / ١٦١
(٣) المصدر نفسه ١/ ١٦١
(٤) المصدر نفسه ١/ ١٦٢

ويفتخر جرير بإجارة عائذ البيت، فيقول:

وعـــائـــذ بـــيت ربِّك قـــد أجَـــرْنـــا
وأبـــلـــيـــنـــا فـــمـــا نُـــسِيَ الـــبلاءُ[٤]

وتستدعي هذه الفتنة ما حصل عام الفيل، وما كان فيه من هلاك أبرهة وجنده، كقول الفرزدق يهجو الحجاج بن يوسف الثقفي الذي رمى الكعبة بالـمنجنيق، ويدعو عليه بأن يصيبه ما أصاب أصحابَ الفيل، يقول:

فـلـمـا عَـتَـا الـحـجـاجُ حـينَ طـغى بهِ
غـــنىً قـــالَ إنّي مـــرْتقٍ في الـــسَّلالـمِ
فـكـان كـمـا قـال ابنُ نـوحٍ سـأرتـقي
إلى جـبلٍ من خـشـيـةِ الـمـاءِ عـاصمِ
رمى الـلـهُ في جـثـمـانهِ مـثلَ مـا رمى
عن الـقـبـلـةِ الـبـيـضـاءِ ذاتِ الـمـحـارمِ
جـنـودًا تـسـوقُ الـفـيلَ حـتى أعـادهـا
هـبـاءً وكـانـوا مُـطْـرَخِـمِّي الـطَّراخِمِ[١]

ويقابل هذه الرؤية رؤية أخرى مضادة، ترى في ما حدث هو تطهير للبيت الحرام من الفاسقين الـملحدين، فهجاء الحجاج من قبل الفرزدق، يقابله مدح يزيد من قبل أبي صخر الهذلي الذي يقول فيه:

وفـدٍّ أمـيـرَ الـمـؤمـنـينَ الـذي رَمَى
بِـجَـأواءَ جُـمـهـورٍ تـمـورُ إكـامُـهـا
من ارضِ قُـرى الـزيـتـونِ مـكـةَ بـعـدمـا
غُـلـبـنـا عـلـيـهـا واسْـتُـحِلَّ حـرامُـهـا
وألـحـدَ فـيـهـا الـفـاسـقـون وأفـسـدوا
فـخـافتْ فَـواشـيـهـا وطـارَ حـمـامُـهـا
فـطـهَّـرَ مـنـهـم بـطنَ مـكـةَ مـاجـدٌ
أبـيٌّ شَـبـاةِ الـضَّـيْمِ حـينَ يُـسـامُـهـا[٢]

---

(١) ديوان الفرزدق ٨٥٣

(٢) شرح شعر الهذليين ٢/ ٩٥٥

ومن الفتن والحوادث ما ورد في شعر عائشة العثمانية من حريق ألم بمكة فأثَّر فيها، ويبدو أنَّ هذا الحريق جاء نتيجة الحروب التي وقعت فيها، وتصف لنا حال الناس، وما آلوا إليه من موت وأسر وهروب، تقول من قصيدة وصفها ابن المعتز بالمستحسنة:

أرقتُ لـبـرقٍ بـدا ضـوءُهُ
بمـكـةَ يـبـدو ويـخـفى مِـرارا
فـبتُّ أُمَـلْـمَلُ في مَـضْـجَـعي
وأبـكي جـهـارًا وأبـكي سِـرارا
لأمّ الـقـرى خُـرِّبَتْ بـالحـريق
ومـات بـهـا الـنـاسُ سَـيْـفًـا ونـارا
إلى الـلـه أشـكـو مـقـامَ الـعِـدَى
بمـكـة قـد حـاصـروهـا حـصـارا
وأسـرى تـقـطَّعُ أيـديـهمُ
فـمـاتـوا صـفـوفًـا ومـاتـوا حـذارا
فـمن صـابـرٍ نـفـسهُ في الـبلاءِ
ومن خـائفٍ فـرَّ مـنـهـا وطـارا
ومن حـاملٍ نـفـسهُ في الـسَّـفـينِ
يـجـوبُ الـدُّجى ويـخـوضُ الـبـحـارا
فـيـا قـريـةً كـنتِ مـأوى الـضـعـيفِ
إذا لـم يـجـد في سـواهـا قـرارا
ومـأوى الـغـريبِ ومـأوى الـقـريبِ
وآمـنـةً لَـيْـلَـهـا والـنّـهـارا
سـأبـكي قـريـشًـا لِـمَـا نـالـهـا
وبـدَّلـهـا الخـوفُ دارًا فـدارا
وأضـحـوا عـبـابـيـدَ قـد شُـرِّدوا
وحَـلُّـوا الجـبـالَ وحَـلُّـوا الـقـفـارا

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٢٤

بـــجـــيـــرانِ بـــيـــتكَ حلَّ الـــنَّـــكـــالُ

وقـــــد عـــــزَّ من كـــان لــــلــه جـــارا[1]

وفي دخول الخوارج لمكة بقيادة أبي حمزة الشاري، هرب عبدالواحد بن سليمان، وخلّى مكة وسار إلى المدينة، فدخلها أبو حمزة بغير قتال، فقال أحد الشعراء في عبدالواحد يهجوه:

زارَ الحـجـيجَ عـصـابـةٌ قـد خَـالَـفُـوا

دينَ الإله فـــفـــرَّ عـــبـــدُ الـــواحـــدِ

تـــركَ الحلائلَ والإمـــارةَ هـــاربًـــا

ومـضى يُـخَـبِّطُ كـالـبـعـيـرِ الـشّـاردِ[1]

ويحذِّر الوزير أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني مما يحدث من فتن بمكة، فيقول:

أيـــا أســـفًـــا لــلــديــن إذ ظلَّ نُـــهْـــبَـــةً

بـأعْـيُـنِـنـا والـمـسـلـمـون شُـهـودُ

أفي حَـرمِ الـرحـمن يُـلـحـدُ جَـهْـرَةً

ويُـــجْـــعَلُ أشـــراكَ الإلـهِ يـــهـــودُ

ويُـــثْـــلَبُ بـيتُ الـلـه بـين بـيـوتـكمْ

وقـــادرُهُ عن ردِّ ذاكَ قـــعـــيـــدُ

ويـــوضعُ لـــلـــدّجـــال بـــيتٌ بمـــكَّـــةٍ

ويـــخـــفى عـــلـــيكم مـــنـــزعٌ وقـــصـــودُ

أُعـــيـــذكُمُ أنْ تُـــدهـــنـــوا فَـيَـمَـسَّـكُمْ

عـقـابٌ كـمـا ذاقَ الـعـذابَ ثـمـودُ[2]

ومن هذه الفتن ما حدث في عام ٩٩٥ هـ في زمن الشريف محمد بن بركات أبو نمي الثاني، فقد حصلت فتنة في يوم عيد النحر بين أمير الحج المصري المسمى محمود

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٩٥ والكامل لابن الأثير ٥/ ١٥١، والعقد الثمين ٧/ ١٥٣، وإتحاف الورى ٢/ ١٦١

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٢/١/ ٩٢-٩٣

وبين الشريف المذكور، ويبدو أن محمودًا هذا كان طامعًا في إمارة مكة، فحصلت مقتلة، مما أدى ترك الحجاج لبعض المناسك، لكنه لم يحقق أهدافه، فقال الخطيب عبدالباسط بن أيوب يذكر هذه الوقعة، ويرفعها شكوى إلى السلطان سليمان خان، يقول منها:

يا إمامًا بالعدل في الناس سارا
وهُمَامًا قد دمّر الكفّارا
هذه قصةٌ لبابِكَ جاءتْ
من أُناسٍ ممّا دهاهُمْ حَيَارى
نَظَمتْها قريحةٌ شاهدتْ في
عِتْرةِ المصطفى أمورًا كِبَارا
هُوجمتْ دورهُم بخيلٍ ورَجْلٍ
واستباحوا عِرضًا ومالاً ودارًا
ورمُوا بالنّبال في حرم اللـ
ـهِ فَضَحّوا صغارَهُمْ والكِبارا
آل بيت الرسولِ حلّ حِماهُمْ
واستبيحتْ لهمْ دماءٌ جهارا
ما استمعنا ولا رأينا كهذا
لا رعى الله من بهذا أثارا
قد أتانا محمودُ في إمرة الحَجْ
جِ وقد صار بالأذى أمّارا
حكّمَ السَّيْفَ في أعزِّ نفوسٍ
وسقاها كأس الرَّدى وأدارا
قَتَلَ الناسَ أظهر السَّفْكَ ظلمًا
جال بالسيف يَمْنَةً ويسارا
ترك الهَدْيَ والضحايا وضحّى
بدماء الأشراف فيها وسارا
حَرَمٌ آمنٌ ويُقتلُ فيه

عِـتْـرَةُ الـمـصـطـفى جـهـارًا نـهـارا

إنَّ هــذا أمــرٌ فــظــيعٌ شــنــيعٌ

مُـنْـكـرُ الـشَّـانِ يُـدْهِشُ الأبـصـارا

قـد تـركـنـا لأجـلـهِ واجـبـاتٍ

ورَفَـضْـنـا الـمـبـيتَ والإعـتِـمـارا[1]

ومما ورد من شعر في حوادث مكة وصف الشعراء للسيول التي كثرت في القرن الحادي عشر الهجري، وألحقت أضرارًا جسيمة في بنية الحرم الشريف، ومن أهمها «سيل سنة ١٠٢٣هـ، وسيل سنة١٠٣٣هـ وقد سالت منه أودية مكة، وامتلأ المسجد الحرام، وعلا الماء حتى حاذى الحجر الأسود [2]»، وقد وصف أحمد بن بكر بن سالم سيلاً عام ١٠٧٣هـ فقال:

قَـهْـقَـهَ الـرَّعْـدُ عـنـدمـا ابـتـسمَ الـبـر

قُ فـأبـكى الـغـمـامُ قـطـرَ الـمـيـاهِ

وأذابـا قـلـوبَـنَـا الخـوفُ والـرعـ

ـبُ فـويلٌ لـغـافلِ الـقـلبِ سـاهِ

وأتـانـا طـوفـانُ نـوحٍ وبـالـمـو

تِ قـطـعـنـا لـولا جـنـابُ الإلهِ[3]

■ فتنة القرامطة

في عام سبعة عشر وثلاثمائة وفي يوم الإثنين السابع من ذي الحجة هاجم أبو طاهر القرمطي في ما يقارب الألف من أتباعه المسجد الحرام، وتروي كتب التاريخ أنهم: (دخلوا المسجد الحرام وأبو طاهر سكران راكب فرسًا له، وبيده سيف مسلول، فصفر لفرسه، فبال عند البيت، وأسرف هو وأصحابه في قتل الحجاج، وأسرهم ونهبهم، مع هتكه لحرمة البيت، وكان الناس يطوفون حول البيت والسيوف تقرضهم، وكان علي بن

(١) الإشراف في تاريخ الأشراف ٣٠٠

(٢) الشعر الحجازي في القرن الحادي عشرالهجري ٢٧٢

(٣) المرجع نفسه ٢٧٢

بابويه يطوف بالبيت والسيوف تأخذه، فما قطع طوافه، وهو ينشد:

تــرى الــمُـحـبــينَ صَـرْعَى في ديـارهِمُ
كَـفِـتْـيـةِ الـكـهفِ لا يـدرونَ كم لـبـثـوا

وصعد أبو طاهر بنفسه على باب الكعبة، واستقبل الناس بوجهه، وهو يقول:

أنـــا بـــالـــلـهِ وبـــالـــلـهِ أنـــا
يَـــخــلُقُ الخَــلْقَ وأفــنــيــهم أنــا)[1]

وكان هذا الحدث أعظم فتنة تعرض لها الحرم الشريف، حيث قام هذا القرمطي بعد قتل الآلاف من عباد الله، بأخذ أموال الكعبة وهتك أستارها، ونهب دور مكة، وقلع الحجر الأسود، وفعل كل القبائح والـمنكرات، واستباح الحرمات، وأتى الكبائر في بيت الله وحرمه، ثم لم يكفه ذلك، بل قال شعرًا يدل على عظيم زندقته كما يقول ابن النجم، يقول في هذا الشعر:

فـلــو كـان هــذا الـبـيتُ لـلـهِ ربِّـنـا
لـصبَّ عـلـيـنـا الـنـارَ من فـوقـنـا صَـبّـا
لأنّـا حَـجَـجْـنـا حـجـةً جـاهـلـيـةً
مُـحَـلَّـلَـةً لم تُـبْقِ شَـرْقًـا ولا غَـرْبـا
وأنّـا تـركـنـا بـين زَمْـزَمَ والـصَّـفـا
جـنـائـزَ لا تـبـغي سِوى ربِّـهـا ربّـا[2]

****

(١) العقد الثمين ٦/ ١٤٣، وإتحاف الورى ٣٧٥

(٢) إتحاف الورى٢/ ٣٧٨

القســم الرابع

الخصائص والسمات الفنية

للشعر في مكة سمات وخصائص خاصة، ارتبطت بمكة ارتباطًا موثقًا، عبَّر عنه الحال والزمان والمكان والحدث، وذلك ما استدعته مكة بكل تميزها وخصائصها، وظهرت هذه السمات والخصائص في: التشبيه والتمثيل بالقدرة والقوة ويمتد ذلك ليشمل كل ركن من أركان مكة، وفي كل مشعر من مشاعرها، وصفة من صفاتها، وفي المعاني تظهر معاني الدوام والثبات، والقياس بمكة، وتعبر المجانسة فضاءً جديدًا لا يقف عند حد الجناس البلاغي المعروف، وإنما تتجانس الأفعال والأقوال بالمشاعر والمشاهد، وتأتي الأمثال المختصة بمكة لتوشح الشعر بوشاحها، أما الأسلوب فيظهر رونقه من خلال القسم والدعاء والتضمين والاقتباس، ويطل التصوير فيبدي لنا عن صور ملونة رائعة، يتحول فيها المعنوي إلى المحسوس، والجماد إلى الإنساني، وتنطلق هذه الصور معبرة عن لوحات جمالية.

التشبيه والتمثيل لونان من ألوان السمات الفنية سيطرا على الرؤية الفنية للشعر في ما تمثله مكة من قداسة ومشاعر وصفات ومكانة، وفي ما تمثله أماكنها وطبيعتها وبيئتها، وسواءٌ أكان الشعر يتحدث عن موضوع لصيق بمكة، أو كان موضوعًا بعيدًا عن ذلك كالمدح، أو الفخر، أو الوصف، فإن التشبيه بما تمثله مكة كان يستدعيه سياق النص، وتماثل الحال، ممّا خلّف لنا ثروة تشبيهية تمثيلية، لم تتوقف عند عصر واحد، بل استمرّ مريرها في سائر العصور.

■ التشبيه والتمثيل بالقوة والقدرة

يشبه ذو الرمة شدة هلال بن أحوز التميمي، وقوته على أعدائه بأنه لو صدم بها ثبير لأمالَهُ عن مكانه:

في طَـحْـمَـةٍ من تـمـيمٍ لـو تـصكُّ بـهـا
ركـنـيْ ثـبـيـرٍ لأمـسى مـائلَ الـسّـنـدِ[١]

ويصور أبو المواهب البكري المجد والعلو بطأطأة رضوى و ثبير:

هل الـمـجـدُ إلا عَـزْمَـةٌ قُـرَشـيَّـةٌ
تـطـأطئُ رضـوى دونـهـا وثـبـيـرُ[٢]

ويقول أبو الفتح البستي في تبيان قوة جيش السلطان، وأن جبل أبي قبيس الراسخ الطود الذي لو اجتمعت الأمم على قلعه ما استطاعت، فإن هذا الجيش في قوته وقدرته قادر على ذلك، مبالغة في التخويف والترهيب:

ألم تـرَ مـا ارتـآهُ أبـو عـليٍّ
وكـنـتُ أراهُ ذا لـبٍّ وكـيْسِ
عَـصَى الـسـلـطـانَ فَـابـتَـدرتْ إلـيه
جـيـوشٌ يـقـلـعـونَ أبـا قـبـيسِ[٣]

ومن المشابهة بالحرم والشهر الحرام، قول بحير بن عبدالله القشيري، مشبهًا ممدوحه بالحرم في الأمن والأمان في الشهر الحرام:

وكـنـتُ إذا ألاقـيـهِ كـأنّي
إلى حَـرَمٍ وفي الـشَّـهـرِ الحـرامِ[٤]

وهذا شاعر هو فخر بن سيف يشبه كرم الممدوح الأمير عيسى بن فليتة بالكعبة،

---

(١) ديوان (ذو الرمة) ١/ ١٨٥ والطحمة: الدفعة والشدة، والدفعة من الناس. وثبير الجبل المعروف بمكة. والسّند: الجمع أسناد وهو المكان المرتفع.
(٢) ريحانة الألباء ٢/ ٢٣٩
(٣) ثمار القلوب ١٤٦
(٤) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ١٠٥

ويتعجب من وجود كعبتين في الحرم، فيقول:

أضحتْ مكارمُ عيسى كعبةً ولقد

تعجَّبَ الناسُ من ثنتين بالحَرَمِ

فهذه تُحْبِطُ الأوزارَ ما برحتْ

وهذه تشملُ الأحرارَ بالنِّعَمِ(١)

وقال شهاب الدين الفاسي يمدح علي بن الحسن بن عجلان الحسني بألفاظ يستخدمها من خلال ألفاظ الحج مشابهًا بينها وبين صفات الممدوح:

إنْ بانَ وجهُ الصَّفا من راكدِ الكدرِ

وانشقَّ فجرُ الضّيا عن ظُلمةِ الفِكرِ

لأنثرنَّ على أبي عليا أبي حسنٍ

تالٍ من الحمد أو نظمًا من الدُّررِ

وأوقف القصدَ في ساحات مَشْعَرِهِ

كيما أُفيضَ بنُسك النُّجحِ والظَّفرِ(٢)

وقوله مشبهًا الوفود التي تأتيه كتلك التي تطوف بالبيت:

كم طافَ حولك من مولًى ومن مَلكٍ

وحول بيتكَ من حاجٍّ ومُعْتَمِرِ(٣)

ويقايس عرقلة الكلبي بين صيد النساء وصيد الظباء، وكل الصيد بالبلد الحرام حرام، كما يقول:

في كلِّ يومٍ رحلةٌ ومقامُ

---

(١) غاية المرام ١ / ٥٣٠

(٢) العقد الثمين ٦ / ٢١٥

(٣) العقد الثمين ٦ / ٢١٥

وودَاعُ من أحْبَبْتُهُ وسلامُ

قذفتْ بنا أيدي النّوى جوزَ الفلا
وكأنّها قوسٌ ونحنُ سهامُ

لا تبعثنَّ مع الحَمامِ رسالةً
في القلب منها لوعةٌ وغرامُ

فالكُتْبُ عند العاشقينَ كأنّها
ممّا يهيّجُ والحَمامُ حِمامُ

من لي بصيدِ ظباءِ مكةَ موهِنًا
والصَّيْدُ في البلدِ الحرامِ حَرامُ(١)

ويقول أبو محمد المكناسي في المشابهة بين أمرين في الاختصاص، فإذا كانت المرية داره، وفازت مرسية بحظ من الممدوح، فلا غرو في ذلك، فهذه مكة تستقل بنشأة النبي عليه السلام فيها، ويختص بيت المقدس بالمعراج:

لا غروَ أن تُضحي المريَّةُ دارَهُ
وتفوزُ مرسيةُ بحظٍّ أنفسِ

فبمكَّةٍ نشأ النبيُّ محمدٌ
واختُصَّ بالمعراجِ بيتُ المَقْدسِ(٢)

وهذه خرشنة وهي بلد من بلاد الروم تشبه بعض مواضع مكة، فالبحتري يجعل منها مشابهة لحراء في تلاوة القرآن وإقامة الصلاة، من خلال مدحه لأبي سعيد الثغري، يقول:

أحسنَ اللهُ في ثوابكَ عن ثَغْـ

---

(١) ديوان عرقلة الكلبي ٩٣

(٢) زاد المسافر ٧٧

ـــرٍ مـــضـــاعٍ أحـــســـنتَ فـــيه الـــبلاءَ

حـــين أبـــدتْ إلـــيك خَـــرشـــنـــةُ الـــعُـــلـ

ـــيـــا من الـــثـــلـــجِ هـــامـــةً بـــيـــضـــاءَ

بِـــتَّـــهَـــا والـــقـــرانُ يَـــصْـــدعُ فـــيـــهـــا الـ

ـــهَـضْـبَ حـــتـى كـــادتْ تـــكـــونُ حِـــراءَ[1]

وابن الرومي يشبه بيت أبي العباس بن ثوابة بالبيت العتيق، فيقول مادحًا:

جُـــــعـــــلـــــتْ بـــــيـــــوتـــــهُـمُ مع الـ

ـــبـــيتِ الـــعـــتـــيقِ لـــنـــا مـــثـــابهْ[2]

ويشبِّه رمي الناس الزمان، برمي الجمار في المحصب، فيقول:

بـــلـى قـــد رمـــاهُ الـــنـــاسُ من كلِّ جـــانبٍ

بـــتـــأنـــيـــبـــهـمْ إيّـــاهُ رَمْيَ الـــمُـــحَـــصَّبِ[3]

ويقول السري الرفاء مشبهًا دار ممدوحه أبي عبدالله بن عمرو الكاتب بالكعبة وطواف الزائرين كطوافهم بزمزم والحطيم، يقول:

ودارٌ شُـــيّـــدتْ بـــعـــظـــيمِ قـــدرٍ

يُـــهـــينُ كـــرائمَ الـــنَّـــشبِ الـــعـــظـــيمِ

يـــطـــوفُ الـــمـــادحـــونَ بِـــعَـــقْـــوَتـــيْـــهـــا

طـــوافـــهُمُ بـــزمـــزمَ والـــحـــطـــيمِ[4]

ويقول مادحًا:

ومـــكـــارمًـــا تـــســـعـى إلـــيـــهنَّ الـــمـــنـى

(١) ديوان البحتري ١/ ١٦

(٢) ديوان ابن الرومي ١٦٣

(٣) ديوان ابن الرومي ٢٩٨

(٤) ديوان السري الرفاء ٢ / ٦٦٢

(٥) المصدر نفسه ٢ / ٢١٣

سعيَ الحجيجِ إلى الصّفا والمشعرِ[٥]

ويشبِّه يد الممدوح في تقبيلها بالحطيم وزمزم:

إذا ما سَقَتْ يُمناهُ رِيًّا وقُبِّلَتْ
توهَّمْتُ يُمناهُ الحطيمَ وزَمْزَما[١]

وقال ابن الأقفاصي من قصيدة في رثاء الوزير علي بن الحسن بن صدقة في تشبيه تقبيل تربة المرثي كلثم البيت ذي الأستار:

نزورك في ثَوْبَيْ خُشوعٍ وذلَّةٍ
كأنّكَ تُرجى في الضَّريح وتُرهَبُ
ونلثمُ تُرْبًا من رفيعٍ مُحَجّبٍ
كما يُلثمُ البيتُ الرفيعُ المُحَجَّبُ[٢]

ويمدح ابن الحداد ابن صمادح بأن العافين والمحتاجين يحجون ذراه كما تلتقي الجموع في المشاعر:

ولولا أبو يحيى ابنُ معنٍ محمدٌ
لما كانت الأيامُ عندي ذَخائِرَا
فلا تنكروا مني بديعًا فَمَجْدُهُ
نوادرُ قد أوحتْ إليَّ النَّوادرا
يَحُجُّ ذَرَاهُ الدَّهْرَ عافٍ وخائفٌ
جموعًا كما وافى الحَجيجُ المَشاعرا
فَزُرْ مكةً مهما اقترفتَ مأثمًا
وزُرْ أُفْقَهُ مهما شَكَوْتَ مَفاقِرا[٣]

(١) ديوان السري الرفاء ٢ / ٦٨٣
(٢) معجم الأدباء ٤/ ١٦٨٨
(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٢/١/ ٧١٨

وما يقارب ذلك قول الرمادي في التشبيه والتمثيل بازدحام الناس حول غرة الممدوح كازدحام الحجيج في عرفات:

بأبي غُرَّةٌ تَرَى الشَّخْصَ فيها
في صفاءٍ أصْفَى من المرآةِ
تُبصرُ الناس حولَهَا في ازدحامٍ
كازدحامِ الحجيج في عرفاتِ[1]

وهذا مادح آخر يرى في وجه الممدوح حجة مبرورة، كما في قول الوزير أبو عامر محمد بن عبدالله بن سلمة:

حجَّ الحجيجُ مِنًى ففازوا بالمُنى
وتفرّقت عن خَيْفِهِ الأشْهادُ
ولنا بوجهكَ حجةٌ مبرورةٌ
في كلِّ يومٍ تُقْتَضَى وتُعادُ[2]

وللأمير سليمان الموحدي في مدح الأمير يعقوب المنصور حيث يشبه الوفود التي جاءت للأمير من الشام والغُز والديلم كتلك التي تفد للحج، يقول:

يا كعبةَ الجودِ التي حجّتْ لها
عربُ الشآم وغُزُّها والدَّيْلَمُ
طوبَى لمن أمسى يطوفُ بها غدًا
ويُحِلُّ بالبيت الحرام ويُحْرِمُ

(١) معجم الأدباء ٦/ ٢٨٥٠
(٢) مطمح الأنفس ٢٠٥
(٣) النبوغ المغربي في الأدب العربي ٨١٤

ومن العجائبِ أن يفوزَ بنظرةٍ
من بالشَّام ومن بمكةَ يُحْرَمُ[٣]

وابن حمديس يشبه ساحة الممدوح وما يؤمها من جموع الوافدين كساحة منى حيث تزدحم بالحجيج، يقول:

وكأنَّ الحجَّ لساحتهِ
في يومِ نداهُ يومُ مِنى[١]

ويقول ابن المقرب في مدح الخليفة الناصر لدين الله مشبهًا الملوك الذين يقدمون عليه كالذين يطوفون بالركن اليماني:

تطوفُ الملوكُ الصِّيدُ حولَ قبائهِ
كما طافَ بالركن اليمانيِّ مُحْرِمُ[٢]

وهذا شاعر يشبه السلو عن الأحباب بالسلو عن البيت الحرام، كما في قول الأسواني أحمد بن علي في رده على أخيه المهذب عن قصيدته التي أولها:

يا ربعُ أين ترى الأحبة يَمَّمُوا

فيقول:

رحلوا فلا خَلَتِ المنازلُ منهُمُ
ونَأَوْا فلا سَلتِ الجَوانحُ عنهمُ

إلى أن يقول:

هيهاتَ لا أسلوكُمُ أبدًا وهلْ

(١) ديوان ابن حمديس ٥١١
(٢) ديوان ابن المقرب ٢ / ٧٦٥
(٣) معجم الأدباء ١/ ٤٠٤

يسلو عن البيت الحرامِ المُحْرِمُ[3]؟

وللحسن كعبة، كما يقول ابن نباتة متغزلاً:

يا كعبةَ الحسنِ الممنَّعِ لا يكنْ
بيني وبينكِ للجفاءِ حجازُ
حاشا لها من قامةٍ ألفيَّةٍ
يثني لقاها كاشحٌ همّازُ[1]

ومثله قول ابن الفارض:

أيا كعبةَ الحُسْنِ التي لجمالها
قلوبُ أولي الألبابِ لبَّتْ وحجَّتِ[2]

وفي تشبيه الغربة عن الوطن بهجرة المصطفى عليه السلام عن مكة، ما ورد من قول أحد الشعراء:

وكم نَبَتِ الأوطانُ يومًا بأهلها
فأورثَهمْ عزَّ الحياةِ التَّغرُّبُ
وهذا رسولُ الله فارقَ مكةً
على جفوةٍ لم ترْضَها فيه يثربُ[3]

وفي التمثيل والمشابهة أورد الثعالبي قال: (ومن بارع التمثُّل به قول بعض المحدثين في الحسن بن مخلد، وقد خُلعَ عليه:

أبا محمدٍ المسعودَ طالعُهُ
فُتَّ البريةَ طُرّاً أيّما فَوْتِ
زَهَتْ بكَ الخُلعةُ الميمونُ طائرُها
كزهوِ خُلْعَةِ بيت الله بالبيْتِ[4]

---

(١) ديوان ابن نباتة ٢٦٢

(٢) ديوان ابن الفارض ٢٣٩

(٣) ريحانة الألباء ٢/ ٦

(٤) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١٨

والجمع بين مكة والقدس هو لون من ألوان المشابهة، فكما تفرح القدس، تقرُّ عيون مكة كما في مدح ابن الساعاتي لصلاح الدين عندما فتح طبرية، حيث يقول:

جَلَتْ عَزماتُكَ الفتحَ المُبينا
فقدْ قرّتْ عيونُ المؤمنينا

إلى أن يقول:

تهزُّ معاطفَ القدسِ ابتهاجًا
وتُرضي عنك مكّةَ والحجونا[1]

ويقول العماد الأصبهاني في مدح صلاح الدين عندما فتح القدس مبينًا الموافقة بين بيت المقدس ومكة، ومشبهًا فتحها بفتحها، وإزالة الصلبان كإزالة الأصنام:

أبشرْ بفتحٍ أميرَ المؤمنين أتى
وصيتُهُ في جميع الأرض جوّابُ
بفتحهِ القدسَ للإسلام قد فُتِحَتْ
في قمعِ طاغيةِ الإشراكِ أبوابُ
ففي مُوافقةِ البيتِ المقدسِ للـ
ـبيتِ الحرامِ لنا تيهٌ وإعجابُ
والصَّخرُ والحَجَرُ المَلْثومُ جانبُهُ
كلاهما لاعتمار الخَلْقِ محرابُ
نَفَى من القدسِ صُلبانًا كما نُفِيَتْ
من بيتِ مكةَ أزلامٌ وأنْصابُ[2]

وفي رثاء نور الدين يجمع العماد في الحزن بين بيت المقدس والبيت الحرام، فيقول:

وكعادة البيت المقدس يحزُن الـ
ـبيتُ الحرامُ عليه بل عرفاتُهُ[3]

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢ / ٤٠٦

(٢) الروضتين لأبي شامة المقدسي ٢ / ١٠٢ – ١٠٣

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٢١٥

والإحسان لبيت المقدس هو إحسان للبيت العتيق، كما في مدح ابن الساعاتي لصلاح الدين في فتح بيت المقدس، إذ يقول:

أوتيتَ عزمًا في الحروب مسدّدًا
لا زَيْغُهُ يُخشى ولا هفواتُهُ

أحسنتَ بالبيت العتيق ويثربٍ
ولكَ الفَعالُ كثيرةٌ حسناتُهُ

هذي سيوفُكَ مُحْرِماتٌ دونهُ
لبكائهنَّ تبسّمتْ حُجُراتُهُ(1)

ومن المقايسة المعكوسة قول الشاعر أحمد بن محمد الجوهري:

ولو أنَّ أرضَ الهند في الحسن جنةٌ
وسكانها حورٌ وأملِكُها وحْدِي

لما قِسْتُها يومًا ببطحاءِ مكةٍ
ولا اخترتُ عن سُعْدَى بديلاً هوى هِنْدِ(2)

■ المعاني

تظهر لنا عدة معان تتكرر كثيرًا في الشعر المكي، مثل: معاني الدوام والثبات والبقاء، والقياس بمكة، والتشبيه بها.

■ الدوام والثبات

كقول ميمون بن عامر القشيري بأنه محافظ على ذكر محبوبته، ولن ينساها ما دام الناس يحجون:

فيا خيرَ لا أنساكِ ما لاحَ بارقٌ
وما نَسَمَتْ ريحُ صبًا وجَنوبُ

---

(1) المصدر نفسه ٢ / ١٠٦

(2) هديل الحمام ١ / ٢٤١

(3) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ٣٧٦

ومــا حجَّ بــيتَ الــله فــتــيــانُ شُــقَّــةٍ
بـــهمْ شَــعَثٌ ممّــا لَــقَــوْا وشُــحُــوبُ[٣]

وهذا قيس يغلظ الأيمان في البقاء على حب لبنى، وأن حبه لها دائم ثابت لا يزول إلاّ إذا زال ثبير من مكانه، ولن ينسى حبها ما دام الحَجُون جارًا للمحصّب:

فلا والــــذي مَــسَّـــحتُ أركــانَ بــيــتهِ
أطــوفُ به في مَنْ يــطــوفُ ويَـــحْــصِبُ
نــســيــتُكِ مــا أرسى ثــبــيــرٌ مــكــانَهُ
ومـا دام جـارًا لـلـحَـجُـون الـمُـحَـصَّبُ[١]

وفي نفي الود وتشبيه هذا النفي في بقائه ودوامه كثبات ثبير في مكانه، قول ميمون بن عامر:

يُـعــاتِـبُـني في الــودِّ لا وُدَّ بــيــنَــنَــا
طــوالَ الــلــيــالي مــا أقــامَ ثَــبِــيــرُ[٢]

و قول شهاب الدين الجعفري في الصلاة الدائمة على محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم:

وصلّ يــــا ربّ عـــــلى مـــــحــــمــــدِ
والآلِ والــــــصَّـــــحْبِ دوامَ الأبَـــــــدِ
مـا طـافَ بـالـبـيت الـعـتـيق طـائفُ
ومـــــا لجـــا إلى حِـــمَـــاك خـــائفُ [٣]

ويتكرر عند الشعراء معنى الدوام والثبات بطواف الحجاج بالبيت الحرام، كما في

(١) قيس ولبنى شعر ودراسة وجمع وتحقيق د. حسين نصار
(٢) شعراء بني قشير ٢/ ١٥٨
(٣) هديل الحمام ١/ ٢٠١
(٤) ديوان كثير ٣٣٣

قول كثير عزة في مدح عمر بن عبدالعزيز:

فَعِشْتَ به ما حَجَّ للّهِ راكبٌ
مُغِذٌّ مُطيفٌ بالمقام وزمزمِ[٤]

ويمدح إسحق الموصلي الخليفة الواثق، داعيًا له بدوام الملك ما دام ثبير، يقول:

يا بني العباسِ أنتم شفاءٌ
وضِياءٌ للقلوب ونورُ
أنتمُ أهلُ الخلافةِ فينا
ولكم منبرُها والسَّريرُ
لا يزالُ المُلْكُ فيكم مدى الدّهـ
ـرِ مقيمًا ما أقامَ ثَبيرُ[١]

وفي مثله يقول ابن حيّوس مادحًا:

والعيدُ يقصُرُ عن سلامتك التي
هي في النفوس أجلُّ منهُ وأعظمُ
فاسعدْ بها وبه ودمتَ مُسلَّمًا
ما طاف بالبيت المُحرَّم مُحْرِمُ[٢]

ويمدح ابن عنين الملك العادل سيف الدين بن أيوب، ويصف رباطة جأشه وثباته كثبات جبل حراء، يقول:

كم حادثٍ خفَّتْ حلومُ ذوي النُّهى
خوفًا وجأشكَ فيهِ أربطُ من حِرا[٣]

ويكرر هذا المعنى في مدح الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك، فيقول:

ثَبْتُ الجَنَانِ لهُ حِلمٌ يُوقِّرُهُ
إنْ خامرَ الطيشُ رُكْنيْ يَذْبلٍ وحِرا[٤]

---

(١) ديوان إسحاق الموصلي ١٢٧
(٢) ديوان ابن حيّوس ٢ / ٥٥٦
(٣) ديوان ابن عنين ٧
(٤) ديوان ابن عنين ٥٦

وهل يتزعزع هذا الثبات والرسو، هذا ما يصوره السري الرفّاء فالخطوب لشدتها زعزعت ثبيرًا وقلقلته كما يقول:

غَـــريتُ بـــذمِّ الحـــادثـــاتِ لأنّـــني
أرى فِـعْـلَـهـا في الـمَـكْـرُمَـاتِ مُـذمَّـمـا
أزلنَ جـــبـــالَ الأزدِ عن مُـــسْـــتَـــقَـــرِّهـــا
وَفَـــرَّقْـــنَـــهـــا في الأرضِ فـــذًّا وَتَـــوْأمـــا
فـقـد زَعْـزَعَـتْ مـنـهـا ثَـبـيـرًا وقَـلْـقَـلَتْ
شُـــمـــامًـــا وزلّتْ يَـــذْبُلاً ويَـــرَمْـــرَمـــا[١]

ويشد هذا المعنى ابن مقرب العيوني، فيستخدمه في شعره كثيرًا، إذ نجد التشبيه للممدوح في قوته وعزمه وثباته برسو ثبير وشدته وصلابته، يقول:

تـــلـــقّـــاهُ بِـــعَـــزْمٍ لَـــوْ ثَـــبـــيـــرٌ
وثَـــهْلانٌ بـهِ رُدِيَـــا لَـــمَـــادَا[٢]

ويكرر هذا المعنى في قوله:

مَـــلْكٌ تَـــحَـــمَّلَ مـــالا يَـــسْـــتَـــطـــيـعُ لهُ
حَـمْلاً ثـبـيـرٌ وثَـــهْلانٌ فَـــيَـــحْـــتَـمِلُ[٣]

وفي الرسوخ والثبات يقول:

إذا مـــا الحِـــلْمُ عُـــدَّ فـــمـــا ثَـــبِـــيـــرٌ
ومـــا حَـــضَنٌ لـــديهِ ومـــا شُـــمَـــامُ[٤]

وفي البقاء والدوام، يقول:

فـعشْ لـلـمـعـالي وابقَ لـلـمـجـدِ مـا بـقي

---

(١) ديوان السري الرفاء ٢ / ٦٦٣
(٢) ديوان ابن المقرب ١ / ٣٤٦
(٣) المصدر نفسه ٢ / ٧٠٣
(٤) المصدر نفسه ٢ / ٩٨١
(٥) المصدر نفسه ١ / ٦٣٧
(٦) ديوان جعفر الخطي ٤٧٠

ثـبـيـرٌ عـلـى مـرِّ الـلـيـالي ويـذبلُ[5]

ويقول جعفر الخطي في بقائه وديمومة حبه كديمومة رسو ثبير:

فَـدومِي عــلـى هــذا الجــفـاءِ فــإنَّـني
عــلى الــودِّ مــا أرسى وقــرَّ ثــبــيــرُ[6]

■ القياس بمكة والتشبيه بها

وفي أهمية الوطن، وأنّ العزة لا تكون إلاّ فيه، قال أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي في ضرب من القياس مع مكة:

ومــا عِــزَّةُ الــضّــرغــامِ إلاّ عــريــنُهُ
ومن مــكــةٍ ســادتْ لــؤيُّ بنُ غــالبِ[1]

وفي تحبيب الانتقال عن المكان وتعليله، يقول ابن حيّوس في انتقال أمير الجيوش الدِّزبري ووصوله إلى دمشق:

ودمــشقُ فــهْي لهُ الــغـداةَ قــسـيـمـةٌ
إنَّ الــمــعــالي من جــوارِكَ تُــكْــسَبُ
لــولا انــتــقــالُ مــحــمــدٍ عن قــومِهِ
مـا شـاركتْ في الـفَـخْـرِ مـكـةَ يـثـربُ[2]

ويشبه هذا القول قول ابن مقرب العيوني، حيث يشبه ارتحاله عن موطنه بارتحال المصطفى عليه الصلاة والسلام عن مكة، يقول:

(١) نفح الطيب ٢/٢٦٧
(٢) ديوان ابن حيّوس ١ / ٨٦
(٣) ديوان ابن المقرب العيوني ١ / ٢٨٤

فـــإنْ أرتحلْ عن دارِ قـــومٍ لِـــنَـــبْـــوَةٍ
ويـصـبحُ ربـعي فـيـهمُ قـد تـأبَّـدا
فـقـدْ رَحَلَ الـمُـخْـتَـارُ عن خـيـرِ مَـنْـزلٍ
إلى يثربٍ تَسْعَى بهِ العيسُ مُصْعَدا[٣]

ويقترب منه قول جعفر الخطي في تغيير إقامته وارتحاله:
نـــبتْ بي أَرضـكمْ فـرحـلتُ عـنـهـا
فـخـيـرٌ من إقـامَـتِيَ الـرَّحـيلُ
فـــمـــكـــةُ وهْي أشـــرفُ كلِّ أرضٍ
تَـحَـمَّلَ ظـاعـنًـا عـنـهـا الـرسـولُ[١]

وفي التشبيه بمكة في الأمن كانت تُشبَّه الأماكن مدحًا لها كما يقول الخالديّان(*):
كـــأنَّ الـــدارَ مـــكـــةُ وهْيَ أمنٌ
لـتـلـك الـوحشِ من سَـفْكِ الـدمـاءِ[٢]

ويشبه علي السنجاري الشام بمكة في الأمن:
فـالـشـامُ أضْـحَى مِـثْلَ أمِّ الـقُـرى
أمـــنًـــا بـــكمْ والحلُّ لا يـــؤمنُ[٣]

وفي التضحية بالنفس، وتشبيه ذلك بأضاحي النحر في منى، قول محمد بن حيدر الحسيني الذي يرى أنه بين قوة تحميه، أو علم يغنيه، وإلاّ ذهب كأضاحي منى:
ولـو أنَّ نـفـسًـا بـينَ جـنـبيَّ أُعـطـيتْ
مُـنـاهـا ومن ذا في الـدُّنـا أُعطيَ الـمُنى؟
أتتْ في زمـانٍ كـانَ يـفْـزعُ مِـثـلُـهـا
إلى السيفِ إنْ لم يُسْعَفِ العلمُ بالغنى

(١) ديوان جعفر الخطي ٤٦٣ (٢) ديوان الخالديين ١٢
(٣) الإشراف في تاريخ الأشراف ٤١٧ (٤) الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ١ / ٢٨٦
(*) الخالديّان هما الأخوان (أبوبكر محمد وأبوسعيد عثمان) من الأدباء الذين عاشوا في بلاط سيف الدولة في حلب، وكانا يؤلفان الكتب معًا (القرن الهجري الرابع).

فـإمّـا قـضتْ من مـوقفِ الجـدِّ حـجَّـهـا
وإلاَّ حـكتْ بـعضَ الأضـاحيَ في مِـنى[٤]

وفي موازنة ومقارنة بين العبادة في الحرم، وبين المرابطة في سبيل الله يقيم عبدالله بن المبارك هذه الرسالة التي وجهها إلى صاحبه الفضيل بن عياض، فالأول مقيم في ثغور الإسلام مواجهًا للروم، والثاني مقيم في مكة متعبدًا فلأيهما المزية، يقول:

يـا عـابـدَ الـحـرمـيْنِ لـو أبْـصَـرْتَـنـا
لـعـلـمتَ أنَّكَ في الـعـبـادةِ تـلـعبُ
من كـان يـخـضبُ خـدَّهُ بـدمـوعِهِ
فَـنُـحـورنـا بـدمـائـنـا تَـتَـخَـضّبُ
أو كـان يُـتْـعِبُ خَـيْـلَهُ في بـاطلٍ
فَخُـيولـنـا يـومَ الـصـبـيـحـةِ تَـتْـعَبُ
ريحُ الـعـبـيـرِ لـكم ونـحنُ عـبـيـرُنـا
رَهَجُ الـسَّـنـابكِ والـغـبـارُ الأطْـيَبُ
ولـقـد أتـانـا عن مـقـالِ نـبـيِّـنـا
قـولٌ صـحـيحٌ صـادقٌ لا يـكـذبُ
لا يـسـتـوي وغـبـارُ خـيل الـله في
أنفِ امـرئٍ ودخـان نـار تَـلْـهبُ
هـذا كـتـابُ الـله يـنـطقُ بـيـنـنـا
لـيس الـشـهـيـدُ بمـيِّتٍ لا يـكـذبُ[١]

وفي التشبيه بالمكان يقول جعفر الخطي:

من لـي بـحـضْـرتِهِ الـتي مَنْ زارهـا
فـكـأنّـمـا قـد زار وادي الخـيفِ[٢]

ويشبه الأمير عبدالقادر الجزائري ممدوحه الشيخ أبو النظر الطرابلسي بالكعبة، فيقول:

---

(١) إتحاف الورى ٢/ ٢٢٨ (٢) ديوان جعفر الخطي ١٧٢
(٣) ديوان عبدالقادر الجزائري ١٣٠

ولا زالَ مــحْــجُــوجَ الأفــاضلِ كــعــبــةً
وممـــدوحـــةً أفــعـــالـهُ وطِــبَـــاعُهُ[٣]

■ **المجانسة**

ولا نقصد هنا الجناس البلاغي المعروف بأشكاله المختلفة، وإن كان يتضمنه حديثنا هنا، لكن المقصود هنا هو هذه المجانسة التي يجريها الشعراء بين المشاعر والمناسك وما يجانسها من ألفاظ الحب والشوق والحنين، فمن ذلك هذه المجانسة المتنوعة التي يجريها ابن زقاعة فيقول:

مُـــلَـــبِّـــيًـــا جـــئْــتُـــكم وسَـــعْـــيي
إلـــيـــكمُ كـــاشـــفًـــا غِـــطَـــائي
بـــكُـمْ أنـــا طـــائفٌ دوامًـــا
فـــمن صـــبـــاحي إلى مَـــسَـــائي
وقِـــبْـــلَـــتي نَـــصْـــبُـــهـــا إلـــيـــكمْ
بـــالحـــال من مـــبـــتـــدا صـــبـــائي
هـــذا حَـــطـــيمُ الـــغـــرامِ ركـــني
وانـــتمُ عـــامـــرُ بـــنـــائي
رَقـــيتُ فـــوقَ الـــصَّـــفـــا بـــرقيٍ
فَـــرَقَّ من شـــدّةِ الـــصَّـــفـــاءِ
وهبَّ لـي من مِـــنًى نـــســـيمٌ
مـــزّقـــني صِـــرْتُ كـــالـــهَـــبـــاءِ
بِـــخَـــيْـــفِـــكُمْ قـــد خـــفـــيتُ حـــتى
لا يـــنـــظـــروني من الخـــفـــاء
والـــهـــجـــرُ يـــرمي صـــمـــيمَ قـــلـــبي
جـــمـــارَ جَـــمْـــرٍ عـــلى الـــولاء
بـــبـــابـــكُمْ وقـــفـــتي وحَـــجي
لـــكم وقُـــربـــانُـــكُمْ دمـــائي

(١) ديوان ابن زقاعة المخطوط ورقة ٥

إن يَـنْـقَـضي في الـغَـرام نَـحْـبي
فَـعُـمْـرتي عُـمْـرَةُ الـقـضـاءِ[1]

وها هي جمار النار من قلبه تناسب الجمرات، والصفا تجانس صفاء الحب، والطواف والتضحية والحجر والخيف كلها تلتقي في رحاب التجانس والتماثل ما بين ألفاظها وألفاظ الحب وحركاته ومعانيه وتطلعاته وأشواقه، كما يقول ابن زقاعة:

لـمّا دعاهُ الـهوى لبّاهُ مُنْخَلِعًا
من بعد تمزيقهِ أطمارَ سلوتهِ
وسدَّدتْ ساعة الإحرام سادته
عليه كلَّ طريقٍ غيرَ شِرعتهِ
وأوْقَفوهُ على أبواب عزهمُ
عسى ينال الأماني يومَ وقفتهِ
والجَفْنُ بالنَّومِ ضَحَّى في عِراصِ مِنًى
وها بقايا الدِّما تجري بمُقلَتهِ
ولو رمى جَمْرةً من ناره احْتَرَقَتْ
تلك البطاحُ وما فيها لجمرتهِ
سَعَى لذات الصّفا لمّا صَفاهُ صَفا
وطاف بالحب سبعًا بعد عُمْرتهِ
والحِجْرُ لو أنّ قَلْبَ ركنهِ حَجَرٌ
أضحى حَطيمًا على جدرانِ كعبتهِ
لا خنتمُ يا أُهَيْلَ الخَيْفِ دَهْرَكُمُ
ولا رحلتمْ عن الوادي وأيْكَتِهِ
وزاركم كلّ وسْمَيْ عارضٍ هتنٍ
يسقي كثيبَ المصلّى صَوْبُ مُزْنَتهِ
حتى يغادرَهُ مُعْشَوْشِبًا عبِقًا

(١) ديوان ابن زقاعة المخطوط ورقة ٢١- ٢٢

كـــأنّ رضـــوانَ وافـــاه بـــروضـــتهِ[1]

وتمَلَّ معي هذا الإحرام بالشوق، وإهداء القلب كالهدي والأضحية، كما في هذه المجانسة من ابن جبير:

بـــــدتْ ليَ أعلامُ بـــــيت الـــــهـــدى
بمـــكـــةَ والـــنّـــورُ بـــاد عـــلـــيه
فـــأحـــرمتُ شـــوقًـــا لهُ بـــالـــهَـــوَى
وأهـــديتُ قـــلـــبي هـــديًـــا إلـــيه[1]

وهذا عبدالجليل بن وهبون المرسي يرمي جمار شعره على الرغم من بعد ما بينه وبين المحصب، كما في هذا المدح:

دنا العيدُ لو تدنو لنا كعبةُ المُنى
وركنُ الـــمـــعـــالي من ذؤابـــةِ يَـــعْـــرُبِ
فيا أسفًا للشِّعر تُرمَى جمارُهُ
ويا بُعدَ ما بيني وبين المُحَصَّبِ[2]

وفي مشابهة ومجانسة غزلية رائقة يقول أبو الحسن بن أضحى في قلائد العقيان، مشبهًا رمي الحبيب برمي الجمار، والمرمي هو القلب الذي يشبه المحصب، والتضحية ليست بالشاة والنعم ولكن بالمهجات، يقول:

أتتني أبا نصرٍ نتيجةُ خاطرٍ
سريعٍ كرجعِ الطَّرفِ في الخطراتِ
فَأُعْرِبَ عن وجدٍ كمينٍ طويْتُهُ
بأهْيَفَ طاوٍ فاترِ اللحظاتِ
غزالٍ أحمِّ المقلتينِ عرفتُهُ
بخَيْفِ منىً للحينِ أو عرفاتِ

(١) نفح الطيب ٢/٣٨٤
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٢/ ١/ ٤٧٥
(٣) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ٦٤٩

رمــاكَ فـأصْـمَى والـقـلـوبُ رمـيَّـةٌ

لـكلِّ كـحـيلِ الـطـرفِ ذي الـفَـتَـكـاتِ

وظنَّ بــأنَّ الـقـلـبَ مـنكَ مُـحَـصَّبٌ

فـلـبَّـاكَ مِنْ عـيـنـيـهِ بـالجَـمَـراتِ

تـقـرَّبَ بـالـنُّـسَّـاكِ في كلِّ مـنـسكٍ

وَضَحَّى غداةَ النَّحْرِ بالـمُـهجـاتِ[3]

وهذه محبوبة ابن قاضي ميلة ترد عليه بكيد ظاهر من خلال مجانسة لطيفة ما بين المشاعر المقدسة ومشاعرها نحوه، فيقول بلسانها:

لئن كنتَ ترجو في مِنَى الفوزَ بالـمُنى

فـبـالخَـيْفِ من إعـراضِـنـا تَـتَـخَـوَّفُ

وقـد أنـذرَ الإحـرامُ أنّ وصَـالَـنـا

حـرامٌ وأنّـا عن مـزارِكَ نَـصْـدِفُ

فـهـذا وقَـذْفي بـالحَـصَى لك مـنـذرٌ

بـأنَّ الـنّـوى بي عن ديـاركَ تـقـذفُ

فـبـادرْ نـفَـاري لـيـلـةَ الـنَّـفْـرِ إنّهُ

سـريـعٌ وقلْ من في الـعـيـافـةِ أعـرفُ[1]

ومن الجناس قول محمد الفارضي:

لـلـهِ حـينٌ سَـمَحَ الـدهـرُ بهِ

في دارةٍ تمَّ بـهـا ثَمَّ الـمُـنى

كـنتُ بـهـا لم أخشَ بـيْـنًـا آمـنًـا

أرفلُ بـين الأخـشـبـين فـمِـنَى[2]

فالمجانسة بين قوله في الشطر الأول: أخش بينًا، وقوله في الشطر الثاني: الأخشبين.

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٢/٤/ ٥٣٣

(٢) ريحانة الألباء ٢ / ١٧٣

وهذا شاعر يقابل بين أضحية العيد، وتضحية حبيبه بقلبه، وتقوم المشاكلة هنا ما بين عيد الناس وعيده، وحج الناس وحجه، ويبالغ في ذلك حتى يجعل طوافهم بالبيت كطوافه بمحبوبه، كما يقول:

ضحّى الحبيبُ بقلبي يومَ عيدهمُ
والنّاسُ ضحّوا بمثل الشّاء والنَّعَمِ
إنَّ الحبيبَ الذي يُرضيه سَفْكُ دمي
دمي حلالٌ له في الحلِّ والحرمِ
للناس حجٌّ ولي حجٌّ إلى سكني
تُهدي الأضاحي وأهدي مُهْجَتِي ودَمِي
يطوفُ بالبيت قومٌ لو بجارحةٍ
بالحبّ طافوا لألهاهمْ عن الحرمِ
يا لائمي لا تَلُمْني في هواهُ فلو
عاينتَ منهُ الذي عاينتُ لم تَلُمِ(1)

ومن جميل المجانسة ما يذكره شمس الدين النواجي صراحة في قصيدة مدحية للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فيقول:

فيا كعبةَ الأشواقِ هل لمُتَيَّمٍ
يفوزُ ولو في العمرِ يومًا بعمرةِ
ويا قِبْلةَ العُشاق ماذا عليكِ لو
سمحتِ لهُ في الحالِ منكِ بقُبْلةِ
صدَدْتِ فجانستِ اللقا منكِ بالقلى
وعاينتُ حقّاً مُنْيَتي في مَنيَّتي

---

(١) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ٣١٠

(٢) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ١ / ٤٣٢

وأبــديتِ في فنِّ الــطــبــاقِ بــدائــعًــا
فـقـيَّـدْتِ أشـجـاني وأطـلـقتِ عَـبْـرَتي
فـموتي حـيـاتي وانـقـطـاعي تـواصُـلِي
ومـحـوي ثـبـاتـي واجـتـمـاعي تَـشَـتُّـتي
بـعـيـشكِ جـودي بـالـتـواصل وارحـمي
غـــريبَ ديـــارٍ من بـلادٍ بـــعـــيـــدةِ[٢]

■ الأمثال الشعرية في مكة

ورد في كتب الأمثال العديد منها المختص بمكة، وخصائصها ومشاعرها ووصفها وما يحدث فيها، من ذلك:

– أخسر صفقة من أبي غُبْشَان

وأندم من أبي غبشان، وأحمق من أبي غبشان، وصفقة أبي غبشان، هذا التي يُضرب بها المثل في الخسران، ملخصها: أنّ أبا غبشان كان ممن ولي أمر الكعبة من بني خزاعة، وبيده مفاتيحها، وفي جلسة شرب مع قصي بن كلاب خدعه قصي بعد أن سكر، واشتراها منه بزق خمر، ودفع المفاتيح إلى ابنه عبدالدار الذي رفع عقيرته بالصراخ عندما أشرف على مكة، وقال: يا معاشر قريش، هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل قد ردّها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم.

وأفاق أبو غبشان من سكره نادمًا خاسرًا، فقيل في ذلك:

بــاعت خــزاعــةُ بــيتَ الــلـهِ إذ سَـكِـرتْ
بــزقّ خــمــرٍ فــمــا فــازتْ ولا ربــحتْ

وقال آخر:

أبـــو غُـــبْـــشَـــانَ أظـــلـمُ من قـــصيٍّ
وأظـــلـمُ من بـــنـي فِـــهْـــرٍ خُـــزاعـــةْ
فلا تَـــلُـــحُـــوا قُـــصَـــيّـــاً في شـــراهـــا
ولـــومـــوا شـــيـــخَـــكُم إذ كـــان بـــاعهْ

(١) ثمار القلوب ١٣٥– ١٣٦ (٢) ديوان ابن المقرب ٢ / ١١٤٦

وقال آخر:

إذا افتخرتْ خُزاعةُ في قديمٍ
وجدنا فَخْرها شُرْبَ الخُمورِ
وبيعًا كعبة الرحمن حُمْقًا
بزقٍّ بئس مفتخر الفخور[1]

وفي هذا يقول ابن مقرب العيوني:

وارضُوا رِضَاهُ فإنَّ سَاخِطَ أمْرِهِ
منكمْ لأخسرُ من أبي غُبْشانِ[2]

ولنا وقفة عند هذه الحادثة، وهذه الأمثال، فما ورد في كتب التاريخ والسير المعتبرة، أنّ مفاتيح الكعبة كانت مع قصي و (كان قصي رجلاً جليدًا حازمًا بارعًا، فخطب إلى حليل بن حبشية بن سلول الخزاعي ابنته حبي.. وحليل يومئذٍ يلي الكعبة، وأمر الكعبة.. فلما حضرت حليلاً الوفاة، نظر إلى قصي وإلى ما انتشر له من الولد من ابنته.. فدعا قصيّاً، فجعل له ولاية البيت، وأسلم إليه المفتاح)[1]، ولكن خزاعة بعد وفاة حليل أبت عليه ذلك، فقامت حرب بينه وبينهم قتل فيها الكثير من الطرفين، ثم تحاكموا إلى يعمر بن عوف، الذي حكم لقصي بحجابة الكعبة، وولاية أمرها دون خزاعة، وبذلك تكون قصة أبي غبشان محل تساؤل؟ فهل غصبته خزاعة المفتاح، ثم ردَّه بهذه الحيلة التي ترويها كتب الأدب في قصة أبي غبشان هذا؟ ثم قامت الحرب بعد ذلك، ثم حكم له برده، على كل حال تبقى هذه الحكاية مثار استفهام.

- أصحُّ من عِير أبي سيّارة

قال الثعالبي: هذا عير مشهور يُتمثّل به، فيقال: أصحُّ من عير أبي سيارة، للرجل الصحيح في بدنه، وأبو سيارة رجل من عدوان، واسمه عُمَيْلة بن خال بن أعزل، وكان له حمار أسود، أجاز الناس عليه من مزدلفة إلى منى أربعين سنة وكان يقف، فيقول شعرًا:

خلّوا الطريق عن أبي سيّاره

(١) أخبار مكة للأزرقي ١ / ١٠٥
(٢) المصدر نفسه ٣٦٩
(٣) ثمار القلوب ٥٦٠

وعن مـــوالـــيه بـــني فَـــزَارهْ
حــتى يُـجـيـزَ سـالـمًـا حـمـاره
مـسـتـقـبل الـقـبـلـة يـدعـو جـاره[2]

- أصفى من ماء زمزم

قال الثعالبي: (يُتمثَّل بشرفه على سائر الـمياه لشرف مكانه، ولما ورد في فضائله وفوائده وبركاته، قال أبو هفان يمدح رجلاً:

لـــو كـنتَ نـوءًا كـنتَ نـوءَ الــمِـرْزَمِ
أو كـــنت مـــاءً كـنتَ مـاءَ الـزمـزمِ)[3]

- آمن من حمام مكة

قال الثعالبي: (يضرب به الـمثل في الأمن والصيانة، كما يضرب بظباء مكة، قال الشاعر:

لـــعنَ الـــلهُ مَنْ يَـــسبُّ عـــلـــيّـــاً
وحـــســـيـــنًـــا من سُـــوقَـــةٍ وإمـــامِ
يـــأمنُ الـــظـــبيُ والحـــمـــامُ ولا يـــأ
مَنُ آلُ الـــرســـولِ عـــنـــد الـــمـــقـــام

وقال آخر:

لـــيـــالٍ تـــمـــنّى أن يـــكـــون حَـــمَـــامـــةً
بمـــكـــةَ يـــأويكَ الـــسِّـــتـــارُ الـــمُـــحَـــرَّمُ

ومن أمثل وأبلغ ما سمعت في التمثيل بحمام الحرم قول عبدان الأصبهاني، وقد أحسن على إساءته:

---

(١) ثمار القلوب ٤٦٤- ٤٦٥ وانظر في المثل آمن من حمام مكة في مجمع الأمثال للميداني ١ / ٨٧ وفرائد الخرائد للخويي ٧٩

(٢) شعر قبيلة أسد ٤٢١

رَغـــيـــفُكَ في الأمنِ يـــا ســـيِّـــدي

يَـــحُلُّ مـــحلَّ حَـــمَـــامِ الحَـــرمْ

فـــلـــلـــهِ دَرّكَ مـن ســـيِّـــدٍ

حـــرامِ الـــرغـــيفِ حلالِ الحُـــرَمْ[1]

ويستنهض عقبة الأسدي عبدالله بن الزبير للقتال، ويرى أن بقاءه في مكة كالطيور والحمام التي تأمن على نفسها فيه، لايليق بمن يطلب الخلافة، يقول:

مـا زلتَ مُـذْ حِـجَجٍ بمـكـةَ مُـحْـرِمًا

في حـيثُ يـأمنُ طـائـرٌ وحَـمَـامُ[2]

ويصف عبدالله بن الرقيات مكة في قوله:

بـــلـــدٌ يـــأمنُ الحـــمـــائمُ فـــيه

حـيث عـاذَ الخـلـيـفـةُ الـمـظـلـومُ[1]

وكان عبدالله يُسمّى العائذ ببيت الله لأنه تحصّن فيه من الحجاج، ولما حبس عبدالله بن الزبير محمد بن الحنفية لرفضه مبايعته بالخلافة قال:

تُـخـبِّـرُ من تـلـقـاهُ أنّك عـائـذٌ

بل العـائذُ الـمحبوسُ في سجنِ عارمِ[2]

وقال الفرزدق مشبهًا نفسه بحمام الحرم، من قصيدة يتضرّع فيها إلى زياد بن أبيه، يقول منها:

وعـــيـــدٌ أتـــاني من زيـــادٍ فـــلم أنمْ

ومـيلُ الّـلـوى دوني وهَـضْبُ الـتـهـايمِ

فـبتُّ كـأنّي مُـشـعَـرٌ خـيـبـريـةً

سَـرَتْ في عـظـامي أو سِـمـامُ الأراقمِ

---

(١) ديوانه ١٩٣

(٢) ديوانه ١٩٣

(٣) ديوان الفرزدق ٧٥٦

زيـــادَ بنَ صـــخـــر لـــو أظـــنُّكَ تـــاركي

وبـالـظنِّ قـد جـسّـمـتـني غـيـر ظـالـم

فـــإلاّ تـــداركـــني من الـــله نـــعـــمـــةٌ

ومن آلِ حـــرب ألـقَ طـــيـــرَ الأشـــائم

ألم يـــأتهِ أنّي تـــخـــلَّلُ نـــاقـــتي

بـــنـــعـــمـــانَ أطـراف الأراكِ الـنّـــواعم

مـــحـــبَّـــســـةً تـــرعى الأراكَ وربُّـــهـــا

بمـكـةَ يُـلـقى عـائـذًا بـالـمـحـارم

فـدعـني أكنْ مـا عـشتُ دهـري حـمـامـةً

من الـقـاطـنـات الـبـيت غـيـر الـروائم[٣]

فعيّره أبو العطاف جرير بن خرقاء البجلي، لما هجا الفرزدق بكر بن وائل:

لَـعَـمْـري لـئن كـان الـفـرزدقُ عـاتـبًا

وأحـــدثَ صُـــرْمًـــا لَـــلـــفَـــرزدقُ أَلْـــوَمُ

لـقـد وسّـطـتكَ الـدارَ بـكـرُ بنُ وائلٍ

وضـــمّـــتكَ للأحـــشـــاء إذ أنتَ مـــجـــرمُ

لـيـالي تـمـنّى أن تـكـون حـمـامـةً

بمـكـةَ يُـؤويكَ الـسِّـتـارُ الـمـحـرَّمُ

فـإنْ تَـنْـأَ عـنّـا لا تَـضـرْنـا وإنْ تُـقِمْ

تَـجِـدْنـا عـلى الـعـهـدِ الـذي كنتَ تـعلمُ[١]

(١) العفو والاعتذار ٢/٣٤٢-٣٤٣

(٢) العفو والاعتذار٢/٣٤٩

(٣) ديوان النابغة ١٥

ولمّا مات زياد، وخرج الفرزدق مطرودًا قال:

أبـلغْ زيـادًا إذا مـا جـئتَ مَـصْـرَعَهُ

أنَّ الـحـمـامـةَ قـد طـارتْ من الحَـرمِ

طـارتْ فـمـا زال تـنـمـيـهـا قـوادمُـهـا

حـتى اسْـتَـغـاثتْ إلى الأنـهـارِ والأَجَمِ(٢)

وأمن الحمام ينسحب على جميع الطيور، كما يقول النابغة الذبياني:

والـمؤمنِ الـعـائذاتِ الـطَّـيْـرَ يَـمسَـحُـها

رُكْـبـانُ مـكـةَ بـينَ الـغَـيْلِ والـسَّـنـدِ(٣)

والحمام يقطن مكة آمنًا في ألفة، لا يروعه مروع، كما يقول العجاج من هذه الأرجوزة:

فـالحـمـدُ لـلـهِ الـعـليِّ الأعْـظَمِ

ذي الجـبـروتِ والجلالِ الأفْـخَمِ

بـنى الـسّـمـاواتِ بـغـيـرِ سُـلَّم

وربِّ هـذا الـبـلـد الـمـحـرَّمِ

والـقـاطـنـاتِ الـبـيتَ غـيـرِ الـرُّيَّم

أوالـفًـا مـكـة من وُرْقِ الحَـمي(١)

ويظهر هذا المثل في الشعر الحديث، يقول الأمير عبدالقادر الجزائري يصف حاله بعد أن أطلقت فرنسا سراحه:

اسـكنْ فـؤادي وقـرَّ الآنَ في جـسـدي

فـقـد وصـلـتَ بـحـزبِ الـلـهِ أحـبـالا

---

(١) ديوانه ٢٩٤. القاطنات: الملازمات. الريم: غير المفارقات. ورق الحمى: يريد الحمام فرخم بحذف الميم الأخيرة.

(٢) ديوان الأمير عبدالقادر الجزائري ١٥٦

(٣) ثمار القلوب ٤٠٨

هـذا الـمـرامُ الـذي قـد كـنتَ تَـأمَـلُـهُ
فَـطِبْ مـآلاً بـلـقـيـاهُ وطبْ حـالا
وعشْ هـنـيـئًـا فـأنتَ الـيـومَ آمنُ من
حـمـامِ مـكـةَ إحـرامًـا وإحلالا[٢]

- آمن من ظباء مكة

قال الثعالبي: يُضرب بها المثل في الأمن، لأنها لا تهاج ولا تصاد في الحرم لمجاورتها الحرم، فهي ترتع، وتلعب آمنة، وقد ضرب بها المثل عبدالله بن حسن بن حسن، فأحسن في قوله يصف نسوة:

أُنْسُ حـرائـرُ مـا هَـمـمْنَ بـريـبـةٍ
كـظـبـاءِ مـكـةَ صَـيْـدُهُنَّ حَـرامُ [٣]

■ الأسلوب

تظهر في أساليب القصائد المكية ألوان واضحة فرضها الموضوع المكي، كالقسم، والدعاء، والتضمين، والاقتباس، وسأمثل لها سريعًا دون وقوف طويل:

■ القسم

من أساليب الشعر في مكة القسم، الذي يتنوع ويتعدد استخدامه، واستعماله من شاعر لآخر، ويتنوع أيضًا في المقسم به، فهناك القسم المقبول شرعًا، وهو القسم بالله تحت ألفاظ عدة، ولكنها كلها لا تخرج عما هو مباح في الحلف والقسم، فمنه القسم برب البيت، وبرب البيت العتيق، والقسم برب الراقصات، وبالذي حجت إليه قريش، وحج له الحجيج، ومنهم من تعدى طوره، فأقسم بما يحرم القسم به شرعًا، كالقسم بالبيت العتيق وزمزم، والحرم والمشاعر، وإذا كان القسم الذي لا ينضبط شرعًا مبررًا في الشعر الجاهلي، فإنّ كثيرًا من الشعراء بعد الإسلام في مختلف العصور قد أخطأوا في ما ورد عن بعضهم من حلف.

(١) شرح القصائد العشر صنعة الخطيب التبريزي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ص ١٧٣ . السّحيل: ثوب لا يُبْرم غزْلُه.

(٢) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ٩٦ – ١٠٠ والمقادم: مقاديم الرأس. والقمل: يريد الشعر. الطفل: الليل

فزهير بن أبي سلمى يقسم بالبيت الذي طاف حوله رجال من قريش وجرهم، يقول:

فأقسمتُ بالبيت الذي طافَ حولَهُ
رجالٌ بنوهُ من قريشٍ وجُرْهمِ
يميناً لَنِعْمَ السّيدانِ وُجِدْتُما
على كلِّ حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ[1]

ويقسم زهير بالمنازل من منى مادحًا هرم بن سنان والحارث بن عوف، فيقول:

فأقسمتُ جَهدًا بالمنازلِ من مِنىً
وما سُحِقتْ فيه المَقادمُ والقملُ
لأرتحلنْ بالفجرِ ثمَّ لأدأبنْ
إلى الليلِ إلاَّ أنْ يُعرِّجني طِفلُ
إلى معشرٍ لم يورثِ اللؤمَ جدُّهُمْ
أصاغرَهمْ وكلُّ فحلٍ لهُ نَجْلُ[2]

وهذا عدي بن زيد العبادي الجاهلي يقسم برب مكة جامعًا وخالطًا، فيقول:

سعى الأعداءُ لا يألون شرًّا
عليَّ وربِّ مكّةَ والصَّليبِ[1]

وهذا كاهل العامري صاحب سلمى يحلف ويقسم برب مكة والمصلّى والحجاج، فيقول:

حلفتُ بربِّ مكةَ والمُصلّى
وشُعْثٍ يَحْلِقونَ بها اللِّمَامَا[2]

وهذا شاعر جاهلي من يثرب هو درهم بن زيد الأوسي يحلف بمن يحج الناس إليه فيقول:

إنّي لَعَمْرُ الذي يحجُّ لهُ النّا
سُ ومَنْ دونَ بيتهِ سَرِفُ
يمينُ برٍّ باللهِ مجتهدٍ

---

(١) شعر عدي بن زيد العبادي ٣٣ . (٢) المستدرك في شعر بني عامر ٣٥٤

(٣) الأغاني ٢٢/٣

(٤) ديوان الحطيئة ٩٧ لعمر: يمين يُحلف به. والرقص: ضرب من سير الإبل. والراقصات: الإبل تهرول في سيرها. الفج: الطريق.

(٥) شعر خداش بن زهير ٥٧٩

(٦) شعر عبدالله بن الزبعرى وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١ / ٢٤٠

يـــحـــلفُ إنْ كـــانَ يـــنـــفعُ الحَـــلِفُ

لا يُـــرفعُ الـــعـــبـــدُ فـــوق ســـنَّـــتهِ

مـــا دامَ مِـــنّـــا بـــبـــطـــنه شَـــرَفُ[3]

والحطيئة يقسم بالإبل الراقصات السائرات إلى منى:

لـــعَـــمْـــرُ الـــراقـــصـــاتِ بـــكلِّ فجٍّ

من الـركْـبـانِ مـوعـدُهـا مِـنَـاهـا[4]

والقسم ببيت الله يسري في الشعر القديم وبخاصة الشعر الجاهلي، فهذا خداش بن زهير، يقسم قائلاً:

كـذبـتمْ وبـيتِ الـلـهِ حـتى تُـعـالِـجـوا

قـوادمَ حـربٍ لا تـلـينُ ولا تَـمـري[5]

وعبدالله بن الزِبَعْرى يؤكد على أنه في قسمه بار، ولا يحلف على إثم:

وإنْ أحلفْ وبيت الله لا أحلف على إثم[6]

وقال ذو الجوشن الأعور مقسمًا:

كـذبـتمْ وبـيتِ الـلـه لا تـبـلـغـونـني

ولم يكُ قـومي قـومَ سـوءٍ فـأجـزعـا[1]

والتعوذ بالبيت ذي الأركان قديم في الشعر، وهو لون من ألوان القسم، والتعبير عن المكانة القدسية لمكة في النفوس، فهذا عبدالمطلب في ما يُروى عنه أنه لما دخل بحفيده محمد بن عبدالله عند ولادته إلى الكعبة، قال:

الحـــمـــدُ لـــلـــهِ الـــذي أعـــطـــاني

هـــذا الـــغلامَ الـــطَّـــيِّبَ الأردانِ

قـد سـاد في الـمـهـدِ عـلى الـغـلـمـانِ

أعـــيـــذُه بـــالـــبـــيتِ ذي الأركـــانِ

---

(١) المستدرك في شعر بني عامر ٢٢

(٢) الطبقات لابن سعد ١/٧٠

(٣) هديل الحمام ١/١٠٥

مـن كلّ ذي حـــــقـــــدٍ وذي شـــــنـــــانِ
حـــتى أراه سَــيِّـــدَ الـــفـــتـــيـــانِ[2]

ويقول أبو طالب في لاميته:

أعــوذ بـــربِّ الـــنـــاس من كلِّ طـــاعنٍ
عـــلـــيـــنـــا بـــســوءٍ أو مُـــلِحٍّ بـــبـــاطلِ
وبـــالـــبـــيت حقِّ الـــبـــيتِ من بـــطنِ مـــكـــةٍ
وبـــالـــلـــه إنَّ الـــلـــهَ لـــيس بـــغـــافل[3]

ويحذر قريش من المساس بالنبي عليه الصلاة والسلام، ويؤكد من خلال القسم أن عليهم أن يتيقنوا أنه لن يفعل ما يحلمون به، فلا هو تارك مكة، ولن يسلمهم محمدًا، يقول:

كَـــذبـــتُمْ وبـــيـــتِ الـــلـه نَـــتْـــركُ مـــكّـــةً
ونـــــظْـــــعَنُ إلاّ أمْـــــرُكمْ فـي بَلابـلِ
كـــذبـــتم وبـــيـــتِ الـــلـه نُـــبْـــزَى مـــحـــمـــدًا
ولـــمّـــا نُـــطـــاعنْ دونَه ونـــنـــاضل
ونُـــســـلـــمُهُ حـــتـــى نُـــصَـــرَّع حـــولَهُ
ونَـــذْهَلَ عن أبـــنـــائِـــنـــا والحَلائل
ويَـــنْـــهض قـــومٌ في الـــحـــديـــد إلـــيـــكُمُ
نـــهـــوضَ الـــرَّوايـــا تحت ذات الـــصَّلاصل
وحـــتـــى تـــرى ذا الـــضِّـــغْنِ يـــركبُ رَدْعَهُ
من الـــطّـــعن فِـــعْلَ الأنْـــكَبِ الـــمُـــتـــحـــامل
وإنّـــا لـــعـــمـــرُ الـــلـه إنْ جـــدَّ مـــا أرى
لَـــتَـــلْـــتَـــبـــسَنْ أســـيـــافُـــنـــا بـــالأمـــاثل

وفي المدح يقسم المقسمون بمن حجَّ له الحجيج، كما يظهر في مدح الأحوص

---
(١) شعر الأحوص الأنصاري ١٧١
(٢) ديوان الفرزدق ١١٧

لعمر بن عبدالعزيز:

ولَـعـمْـرُ من حجَّ الـحـجـيجُ لـبـيـته
تـهـوي بـهم قُـلُصُ الـمـطيِّ الـذُّمَّلُ
إنَّ امـرءًا قـد نـالَ مـنك قـرابـةً
يـبغي مـنـافعَ غـيـرِهـا لـمُـضـلَّلُ[1]

وفي قول الفرزدق:

حـلـفتُ بـربِّ مـكـةَ والـمـطـايـا
وأعـنـاقِ الـهـديِّ مُـقـلّـداتِ[2]

ويقسم حميد بن ثور الهلالي برب الراقصات، أي الإبل الذاهبات إلى الحج في تأكيد حبه، وثباته وأنه لا يرضى سواه عوضًا ولو كان ملء الأرض، أو ما يعدله، فيقول:

حـلـفتُ بـربِّ الـراقـصـات عَـشـيَّـةً
زفـيـفًـا وربِّ الـواقـفـينَ عـلـى الحَـبْلِ
لَـوَ انَّ ليَ الـدنـيـا ومـا عُـدِلَتْ بهِ
وجُـمْلٌ لـغـيـري مـا أردتُ سـوى جُـمْلِ[1]

ويتكرر الحلف برب الراقصات عند الكثير من الشعراء في مختلف العصور، فهذا ابن عنين يقسم هو الآخر بهنَّ قائلاً:

حـلـفتُ بـربِّ الـراقـصـاتِ إلى مِـنىً
ومَنْ فَـرضَ الـسَّبعَ الجِـمَارَ ومَنْ رَمَى[2]

ومن طريف القسم أن يقسم المقسم بأنه كاذب، كما في هذا القسم لنصيب الشاعر، يقول:

لـقـدْ هـتـفتْ في جُـنْحِ لـيلٍ حـمـامـةٌ

---

(١) ديوانه ١٢٣

(٢) ديوان ابن عنين ٨٢

(٣) شرح ديوان الحماسة ٣ / ١٢٨٩ وورد مثل هذا القول منسوباً للمجنون في ديوانه ١٨٦

(٤) ديوان ابن المقرب ١ / ٢٩١

(٥) المصدر نفسه ١ / ٢٠٥

عــــلـى فـــنٍ وهْـــنًـــا وإنّي لــــنـــــائمُ

كـذبتُ وبـيتِ الـلـهِ لـو كـنتُ عـاشـقًـا

لمـا سَـبَـقَـتْـنِي بـالـبـكـاءِ الحَـمَـائمُ[3]

وهذه بلد الممدوح أفضل من بلد المادح، كما يقسم ابن المقرب في قوله:

وبـلـدةٍ أنتَ يـا خـيـرَ الـمـلـوكِ بـهـا

أحـظى لـديَّ ـ وبـيتِ الـلـه ـ من بـلـدي[4]

ونراه يقسم بما لا يجوز القسم به كقوله:

فــأمّــا وأعلام الـــمُــحَــصَّبِ من مِــنًى

ومــواقف الـرّكــبــان من عـرفــاتــهــا[5]

وفي العتاب يقسم سعيد بن سليمان المساحقي للعباس بن محمد حين غضب عليه برب منى، والمندفعين إلى مزدلفة، فيقول:

أمـــا وربِّ مـــنًى والــــعــــامــــداتِ لهُ

والـدافـعـينَ بـجـمعٍ يُـوضِـعـونَ مَـعـا

لــو كــان غَـيـرُك يـطـوي حَـبْلَ خـلّـتهِ

دوني ويـلـبسُ ثـوبَ الـهـجـرِ مـا اتبـعَـا

فَــارْعَ الــذِّمــامَ ولا تــقــطـعْ وســائــلَه

وارجعْ فـإنَّ أخـا الإحـسـان من رَجَـعـا[1]

ويقول جعفر الخطي:

أَمَـــا والـــراقـــصـــاتِ كـــأنَّ وَحْـــشًـــا

تــــنــــدُّ بمــا حَـــمَـــلْنَ منَ الـــرجـــالِ[2]

---

(١) غاية المرام ١ / ٣٦٠

(٢) ديوان جعفر الخطي ٢٥٦

(٣) المصدر نفسه ١٧٥

(٤) قصائد جاهلية نادرة ٦٩

ويقسم بغير الله في قوله:

هـذا وأُقْـسمُ بـالـمُـحَـصَّبِ من مـنًى
ووقـــوفِ وفْـــدِ الحَجِّ من عَـــرَفَـــاتِ
وبمـا أُطـيحَ هـنـاكَ من شَـعَـرِ امـرئٍ
وبمـــا أُريقَ هـــنـــاكَ من دَمِ شـــاةِ[٣]

وشعراء الغزل يجعلون من القسم شاهدًا على صدق حبهم وما يقولون، فالشاعر عبيد بن عبدالعزى السلامي يأخذ من حبيبته قسمًا، فها هي تحلف برب الحجيج كما يقول:

وقـد حَـلـفتْ والـسّـتْـرُ بـيـني وبـيـنَـهـا
بـربِّ حـجـيـجٍ قـد أهَـلُّـوا وعـرَّفـوا[٤]

والأحوص يقسم على إلمامه بها، وصدوره عنها بالداء الدوي نفسه، يقول:

كَـــفِّـــنـــاني إنْ متُّ في درعِ أروى
وامْـتَـحـا لي من بـئـرِ عـروةَ مـائي
إنّـــنـي والـــذي تحجُّ قـــريشٌ
بـــيـــتَهُ ســـالـــكـين نَـــقْبَ كـــداءِ
لَـــمُـــلمٌّ بـــهـــا وإنْ أُبْتُ مـــنـــهـــا
صـــادرًا كـــالـــذي وردتُ بـــداءِ[١]

ويحلف لها قيس بن الملوح بالذي حجَّ الـملبّون بيته بأنّ يحبها على الرغم من بخلها وضنِّها، فيقول:

أحُـبّـاً عـلـى حبٍّ وأنتِ بـخـيـلـةٌ
وقـد زعـمـوا أنْ لا يُـحبَّ بـخـيلُ
بـلى والـذي حجَّ الـمـلـبُّـون بـيـتَهُ

---

(١) شعر الأحوص الأنصاري ٧١

(٢) ديوان مجنون ليلى ١٧٤

(٣) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ٢٥٣-٢٥٤

(٤) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ٣٢٥

ويشفي الجوى بالنَّيْلِ وهْو قليلُ[٢]

وعمر بن أبي ربيعة يحلف برب المواسم بأنه لم يخن عهدها ووداها:

قلتُ بالخَيْفِ مرةً
لجَوارٍ نَواعِمِ
قلنَ باللَّهِ للَّتي
سمعتْ قولَ ظَالمِ
اقْبَلي العذرَ من فتًى
صادقٍ غيرَ آثمِ
لم يَخُنْكِ الودادَ لا
لا وربِّ المَواسمِ[٣]

بل يقسم بأنها تساوي عنده جنة الخلد:

واللهِ والبيتِ العتيقِ لقدْ
ساويتِ عندي جَنَّةَ الخُلْدِ[٤]

ويتأفّف قيس بن ذريح لكثرة الحلف التي لا يفي بحقها، فيقول:

الحمدُ لله قد أمسَتْ مجاورةً
أهلَ العقيقِ وأمسينا على سَرِفِ
حيٌّ يمانون والبطحاءُ منزلُنا
هذا لَعَمْرُكِ شملٌ غيرُ مُؤتلفِ
قد كنتُ آليتُ جهدًا لا أفارقُهَا
أفٍّ لكَثْرَةِ ذاك القيلِ والحلفِ[١]

وينفي ابن الدمينة الخيانة والغدر عن نفسه، كما تتهمه محبوبته، ويقسم على ذلك قائلاً:

حلفتْ أميمةُ أنَّ وِدّيَ كاذبٌ

(١) شعر قيس بن ذريح ٢٣

(٢) ديوان ابن الدمينة ٥٥

(٣) ديوان ابن الدمينة وشرح ديوان الحماسة ٣ / ١٣٧٦ومثير العزم الساكن ١٣٢

مَـــــــذِقٌ وأنّـيَ خـــــــائـنُ غـــــــدّارُ
كــذبتْ أمـــيـــمـــةُ والـــذي حـــجّتْ لَهُ
شـــعثُ الـــرؤوسِ بمـــكـــةَ الأبـــرارُ[٢]

ويكرر الحلف بأنه ما أضمر حبّاً لسواها:

أَمَـــا والـــرَّاقِـــصَـــاتِ بـــذات عِـــرْقٍ
ومن صـــلّى بِـــــنَـــــعْـــــمــــانِ الأراكِ
لـــقـــد أضـــمـــرتُ حـــبَّك في فـــؤادي
ومـــا أضـــمـــرتُ حـــبًّـــا من سِـــواكِ[٣]

وهل تُحبُّ البخيلة، يقسم قيس بن الملوح، فيقول:

أحُـــبًّـــا عـــلـى حبٍّ وأنتِ بـــخـــيـــلـــةٌ
وقـــد زَعَـــمُـــوا أنْ لا يُـــحَبَّ بـــخـــيلُ
بـــلى والـــذي حجَّ الـــمـــلـــبُّـــونَ بـــيـــتَهُ
ويـشـفي الـهـوى بـالـنَّـيلِ وهـو قـلـيلُ
وإنَّ بِـــنَـــا لـــو تَـــعْـــلَـــمِـــينَ لـــغُـــلَّـــةً
إلـــيك كـــمـــا بـــالحَـــائـــمـــاتِ غـــلـــيلُ[١]

ويتحدث الدكتور يحيى الجبوري عن تدين المتوكل الليثي، فيقول: «وتدين المتوكل أمر ظاهر في سلوكه وفي شعره.. وقد ظهر أثر الإسلام في كثير من شعره، في معانيه وصوره، ويرد فيه ذكر الحج ومناسكه، ومكة ومواضعها، والبيت الحرام، وتظهر في شعره شخصية المحرم بالحج، وفي أيام الحل والإحرام، وإذا أقسم فهو يقسم بالله وبيته الحرام[٢]».

ففي القسم يقول المتوكل متغزلاً:

---

(١) شرح ديوان الحماسة ٣ / ١٢٩٦
(٢) شعر المتوكل الليثي ٣٥ – ٣٦
(٣) المصدر نفسه ٢٣٩
(٤) شعر نصيب بن رباح ٩٥
(٥) جمهرة أشعار العرب ٣ / ٩٢٥

لا والـــذي يَـــهـــوي عـــلـى بـــيـــتـه
مِـنْ كـلِّ فـجٍّ مُـــــحْــــــرِمٌ نـــــائـلُ

مـــا لـيَ مـن عـــلـمٍ بـــهـــا بـــاطـنٍ
وقـــد بـــراني حُـــبُّـــهَـــا الـــداخلُ[٣]

ويقسم نصيب فيقول:

حـلـفتُ بـربِّ الـمُـوضِـعـينَ لـربِّـهم
وحُـرْمَـةِ مـا بـينَ الـمـقـامِ إلى الحِـجْـرِ[٤]

وحتى الشاعر النصراني الأخطل التغلبي يحلف برب الراقصات، فيقول:

إنّي حـلـفتُ بـربِّ الـراقـصـاتِ ومـا
أضـحى بمـكـةَ من حُـجْبٍ وأسْـتـارِ

وبـالـهـدايـا إذا احـمَـرّتْ مَـذَارِعُـهَـا
في يـوم ذبحٍ وتـشـريقٍ وتِـنْـحـارِ

ومـا بـزمـزمَ من شُـمْطٍ مُـحَـلِّـقَـةٍ
ومـا بـيـثـربَ من عُـونٍ وأبـكـارِ[٥]

ويقسم أحد شعراء قرطبة برب مكة:

حـلـفْتُ بـربِّ مـكـةَ والجـمـالِ
لـقـد وُزِنَتْ كُـروبي بـالجـبـالِ[١]

ويقسم ابن حيّوس برب من صلّى وضحّى:

حـلـفتُ بـربِّ من صـلّى وضَـحّى
ومـا ضَـمِنَ الـمُـحَـصَّبُ والحَـجُـونُ[٢]

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١/١/٢٣٤

(٢) ديوان ابن حيّوس ٢ / ٦٦٠

(٣) شرح ديوانه ٣٧١

(٤) غاية المرام وهديل الحمام ٣/ ٩٠٢ والسوح جمع ساحة. وكعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادى ضرب به المثل في الجود، فهو من أجود العرب.

ويجعل ابن الفارض من حياة أهل مكة قسمًا له، كما في قوله:

وحــيــاتــكم يــا أهل مــكــة وهْي لي
قَــسَمٌ لــقــد كَــلِــفَتْ به أحــشــائي[٣]

ويمدح علي بن محمد الحندودي الشريف أبا نمي محمد بن أبي سعد أمير مكة، فيقول مقسمًا بثلاثة:

وفي الحــرم الــشَّــريف خِــضَمٌ جــودٍ
كــأنَّ الــبــحــرَ أنْــحَــلهُ الــتِــطَــامَهْ
أمــا والحــجــر والحــجــرات مــنّي
وبــيــتِ الــله ثــالــثــة قــسَــامَه
لــئنْ أنــزلْ بــسُــوحِ أبي نُــمَيٍّ
لــقــد أنــزلْ عــلى كــعب بن مــامَه[٤]

وفي العتاب نجد القسم، فهذا محمد بن جعفر الصقلي يقول مقسمًا:

أمــا والــلــهِ والــبــيــتِ الحــرامِ
وتــربــةِ جــعــفــرِ الــقــرمِ الــهــمــامِ
لــقــد أَوْرَثْــتِــنــي داءً دخــيــلاً
أشــدُّ عــليَّ من وقعِ الحُــسَــامِ[١]

ويقسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي بأخياف منى ومن حلَّ بالمزدلفة، وبالحجاج الذين يقصدون بطحاء مكة:

حــلــفتُ بــأخــيــافِ الــمــخــيَّمِ من مِنًى
ومن حلَّ جــمــعًــا والــرعــانَ الــمــتــالــيــا
وبــالــركب يَــأتَــمُّــونَ بــطــحــاءَ مــكَّــةٍ
عــلى أرْكُبٍ تحــكي الحــنيَّ حــوافــيــا[٢]

---

(١) المحمدون من الشعراء ٢٥٠

(٢) معجم الأدباء ٢/ ٧٩٥

(٣) ديوان الفرزدق ٦١٠ وشرح ديوان الفرزدق للصاوي ٢/٨٥١

وفي الهجاء أيضًا يتم القسم، فها هو الفرزدق يقول في هجاء جرير مقسمًا برب الراقصات إلى منى:

حَلَفْتُ بربِّ الراقصاتِ إلى مِنًى
بقين نهارًا داميات المناسمِ
عليهنَّ شُعْثٌ ما اتقَّوا من وديقةٍ
إذا ما الْتَظَتْ شَهْباؤها بالعمائمِ
لَتَحْتَلِبَنْ قيسُ بنُ عيلانَ لقحةً
صَرَى ثَرَّةٍ أخلافُها غيرَ رائمِ(٣)

■ الدعاء

ومن الأساليب التي تكثر في هذا الشعر أسلوب الدعاء، ولا شك أن المواقف في مكة سواء في الحرم أو في المشاعر كلها تستدعي هذا الأسلوب، فمن ذلك قول ضباعة تدعو رب الكعبة بأن يحفظ لها ولدها:

اللهمَّ ربَّ الكعبةِ المُحَرَّمَهْ
انصرْ على كلِّ عدوٍّ سَلَمهْ
له يدان في الأمور المُبْهَمَهْ
كفٌّ بها يعطي وكفٌّ منعمهْ(١)

وذو الرمة ينصب وجهه نحو مكة، ويدعو الله، أن يمنَّ عليه بلقاء مي:

وكنتُ أرى من وَجْهِ مَيَّةَ لَمْحَةً
فأبرقُ مَغْشِيّاً عليَّ مكانيا
وأنْصُبُ وجهي نَحْوَ مكةَ بالضُّحَى
إذا ذاك عن فرط الليالي بدا ليا(٢)

---

(١) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ١٢٣
(٢) ديوان ذو الرمة ٢ / ١٣٠٨
(٣) شرح ديوان ابن الفارض ٣٧٢
(٤) شرح ديوان البرعي ١٣٣
(٥) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ١٢٧

والدعاء للأصحاب بتلك البقاع، وتذكر قضاء الليالي الخالية معه، كما في هذا الدعاء لابن الفارض:

ورعى الإلهُ بها أُصَيحَابي الأُلَى
سامرتهمْ بمجامعِ الأهواءِ
ورعى ليالي الخيفِ ما كانت سوى
حُلْمٍ مضَى معْ يقظةِ الإغفاء(٣)

والدعاء بالسقيا على الطريقة التقليدية في الشعر العربي ماثل للعيان، إذ نجد الشاعر في مختلف العصور يدعو الغيث لسقي تلك الربوع، كما في هذه الدعوة للبرعي الذي يدعو الغمام للانصباب على زمزم والحطيم:

هَطَل الغَمَامُ على الحَطيمِ وزمزمٍ
وعلى بقاعٍ بالنّقَا ووهادِ(٤)

وابن الجوزي يدعو الله أن يسقي تلك الديار:

يا سقى اللهُ الحِمَى أنتمْ بهِ
ورعى تلك الرُّبا والدِّمَنا(٥)

والإمام الصرصري يدعو بالسقيا للمصلى، وأعلام الصفا، ومنى، وسفح نعمان، والثنيات، وتستمر السقيا ممتدة إلى طيبة، يقول:

سَقَى المُصَلَّى وأعلامَ الصَّفا ومِنًى
وسقيَ نَعْمَانَ صوبُ الفضلِ والنِّعَمِ
وسحًّ فوقَ ثَنِيَّاتِ الوداعِ وما
بأرضِ طيبةَ من وهدٍ ومن أَكَمِ
غَمَامُ روحٍ من الرحمن مُنْبَجِسٌ
بالنورِ يُربي على مُثْعَنْجِرِ الدِّيَمِ

---

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٤ / ٣٢
(٢) شرح ديوان ابن الفارض ١/ ٣٦٠ – ٣٦٣
(٣) شرح ديوان ابن الفارض ٢٦٥

فـأصــبـحتْ بـريــاضِ الأنسِ نــاضـرةً
يُشفى بنـفـحـةِ ريّاهـا جَـوَى الـسَّقَمِ[1]

ويدعو ابن الفارض أمطار الربيع لتسقي الصفا وأجياد:

سَقَى بـالـصَّفـا الـربـعيُّ ربعًا به الـصَّفـا
وجــاد بــأجـيــادٍ ثَــرى مــنه ثــروتي
مـــخـــيّم لـــذّاتي وســـوق مـــآربي
وقِــبْــلـــة آمـــالي ومَـــوطن عِـــزّتي[2]

ويخصص المشاعر والمحصب:

وسقى الـمشاعِرَ والـمُحصّب من مِنًى
سَــحّـــاً وجـــاد مـــواقفَ الأنْـــضَـــاءِ

ثم يعمم دعوته لتهطل بكل تلك الربوع:

حَـيًّـا الحَـيَـا تـلك الـمـنـازلَ والـرُّبى
وســـقى الـــوليُّ مـــواطنَ الآلاءِ[3]

ومن الدعاء ما ترفعه هذه الأم داعية لابنها الذي حجَّ عنها، كما ورد عن أسامة بن منقذ، قال: كان عمي نصر قد أخرج حجة عن والدته، فرآها في النوم كأنها تنشده، فانتبه والأبيات على حفظه، وهي:

جُـــزيتَ من ولـــدٍ بـــرٍّ بـــصـــالحـــةٍ
فـقــد كـســبتَ ثــوابًــا آخــرَ الــزمنِ
وقـد حَـجَـجْتَ إلى الـبـيت الحـرام وقـد
أتـيــتَهُ زائـرًا يـا خـيـرَ مُـحْـتَـضنِ
فلا تَــنَــلْكَ يــدُ الأيــامِ مــا طَــلــعتْ

(١) معجم الأدباء ٢/٥٩٢
(٢) ديوان ابن حيّوس ٢ / ٥٥٦
(٣) ديوان ابن حيّوس ١ / ٢٣٢

شـمسٌ ومـا صَـدَحَتْ وَرْقَـاءُ في فـنن[1]

وتمتلئ المدائح بالدعاء للممدوح، ويهمنا هنا الدعاء المرتبط بمكة، كما في هذا الدعاء الذي لكثرة ترداده كاد يفهمه الحطيم وزمزم، كما في مدح ابن حيّوس لأمير الجيوش المظفر مصطفى الملك:

فلكثرةِ الدعواتِ في أرجائهَا
قد كادَ يَفْهَمُهَا الحطيمُ وزمزمُ
كلُّ الوَرَى داعٍ وَجُلُّ دعائها
ألاّ يزيلَ اللهُ ظلَّك عنهمُ[2]

ويكرر دعاء الخلائق لمدوحه من حجاج بيت الله في مدحه للوزير الحسن بن عبدالرحمن اليازوري، فيقول:

دعتْ لكَ بالبقاء وقد أُجيبتْ
خلائقُ أمَّتِ البيتَ الحراما[3]

وجميع المحرمين يدعون له:

بهجةُ أعيادِنا بقاؤُكَ مَحْـ
ـروسًا فَبُقِّيتَ ما بقيَ الأبدُ
بذا دعا المُحْرِمونَ مذ نزلوا
مكةَ في كلِّ مشهدٍ شَهِدُوا[1]

ومن الدعاء في المدح قول موفق الدين مكي خطيب خوارزم يمدح أبا العلاء الهمذاني، ويدعو له وهو بين الحجون والصفا، فيقول:

بقيتَ بقاءَ الدّهر في الناس خالدًا
أيا خيرَ من في الأرض خالاً ووالدا
لتروي أحاديثَ النبيِّ محمدٍ

(١) المصدر نفسه ١ / ٢٣٢
(٢) معجم الأدباء ٢/ ٨٣٨
(٣) شعراء بني قشير ٢/ ٢٥٩

وتحُـيي مـسـانـيـدًا وتـزوي مـعـانِـدَا

فـهـذا دعـائي بـالـحَـجُـون وبـالـصَّـفـا

وهـذا مـرامي حـيثُ مـا كـنتُ سـاجِـدا(٢)

وهذا يزيد بن حبيب القشيري يرفع دعوته إلى الله هاتفًا:

ولمـا رأيتُ الـهـاتـفـين ورفَّـعتْ

إلى الـله بـين الأخـشـبـين الـسَّـوالفُ

دعـوتُ بـأنْ يـا ذا الـمـعـارج والـعلا

أرى كلَّ ذي بثّ بكَ الـيـومَ هـاتفُ

أثـبـني بـإحـسـانٍ جـمـالاً فـإنّـني

لكَ الـيـوم عـانٍ في الـعـبـادة كـالفُ(٣)

وها هم حجاج بيت الله الحرام يلجون بالدعاء للممدوح، كما يقول ابن حمديس مادحًا:

يـدعـو لكَ الـحـجـاجُ عـنـدَ عـجـيـجـهمْ

وصـيـاحـهمْ بـالـبـيتِ في تـرحـيبِ

من كلِّ أشـعـثَ مُـحْـرمٍ بـلغَ الـمُـنى

بمِـنىً وأدركَ غـايـةَ الـمـطـلـوبِ

يـبـكي بمـكـةَ والحَـجُـون مـردّدًا

وبـيـثـربٍ يـدعـو بلا تـثـريبِ

فـبـقـيتَ في الـعـلـيـا لـتـدمـيـر الـعدى

وغـنى الـفـقـيـرِ وفـرجـةِ الـمـكْـروبِ(١)

ويكرر ابن حمديس دعاء الناس للممدوح مشبهًا إياه بدعاء الحجيج، يقول:

في كلِّ بـيتٍ نـعـمـةٌ ومـسـرَّةٌ

شـربـوا سُلافـتَـهـا بلا كِـيـزَانِ

---

(١) ديوان ابن حمديس ٦٣

(٢) المصدر نفسه ٥٠٠

(٣) ديوان عبيدالله الرقيات ٨٧

ودعـــاؤهمْ لكَ في الـــسَّــمـــاءِ مُـــحَـــلِّقٌ
حـــتـى لـــضـــاقَ بـــعَـــرضـهِ الأفْـــقَـــانِ
كـحـجـيـجِ مـكـةَ في ارتـفـاعِ عـجـيـجـهمْ
وطـــوافـــهمْ بـــالـــبـــيتِ ذي الأركـــانِ[2]

■ الاقتباس والتضمين

يمتاح الشعر في مكة بعد ظهور الإسلام من النبع القرآني الفياض، ولذلك فإنَّ آيات الكتاب الكريم كانت ماثلة أمام عيونهم، بل تملأ عليهم سمعهم وأبصارهم، وعواطفهم وخيالاتهم، وفي كثير من الشعر كانت الصياغة الشعرية لمعاني وألفاظ الآيات القرآنية هي الأسلوب الأمثل والمعبر عن الحالة أو الموقف، وكأن الشعراء يقولون: لا يستطيع الشعر أن يفعل أكثر من ذلك، فالآيات القرآنية التي عبرت عن الموضوعات التي نطرقها، لا يستطيع أن يدانيها قول، ومن هنا كان النقل والتضمين والاقتباس هو سبيلهم للتعبير، وقد غرف الشعراء من التعابير القرآنية الكثير، ولسنا بصدد الحصر، ومن الشواهد التي تدل على ذلك قول عبيدالله بن قيس الرقيات:

لـــيس لـــلـهِ حـــرمـــةٌ مـــثل بـــيتٍ
نـــحنُ حُـــجَّـــابهُ عـــلـــيهِ الـــملاءُ
خـــصَّه الـــلـهُ بـــالـــكـرامـــةِ فـــالـــبـــا
دونَ والـــعـــاكـــفـــونَ فـــيهِ ســـواءُ[3]

وهو وجهة الناس أحياء وموتى كما في قول الفرزدق:

هـــو الـــبـــيت الـــذي من كلِّ وجهٍ
إلـــيهِ وجـــوه أصـــحـــاب الـــقـــبـــورِ [1]

(١) ديوان الفرزدق ١ / ٣٥٠
(٢) هديل الحمام ٣ / ٨٤٧-٨٤٨
(٣) سورة الحج ٢٦
(٤) سورة الحج آية ٢٧
(٥) سورة العلق آية ١
(٦) سورة قريش ٤

وعلى مدى العصور نجد هذه الاقتباسات كما نجد في العصر الحديث نهل بعض الشعراء كقول علي بن حسن أبو العلا:

بــوّأ الــلـهُ لإبــراهــيمَ فــيــهــا
مــوضعَ الــبــيت فَـلَــبَّى وبَــنَــاهَــا
عــنــدهــا أذّن في الـــنـــاس فــقــالــوا
ربَـــنَـــا لـــبـــيكَ ربِّي من دعـــاهـــا
أشْـــرَقَ الـــتـــاريخ لمّـــا أُنْـــزلتْ
(إقـــرأْ) وازدان بـــالـــلـــفظ حلاهـــا
أهــلُــهــا قــد أمّن الـلـه حِـمَـاهم
في جوارِ الـبـيتِ والـمولى حَـمـاهـا[٢]

وأنت بلا شك عندما تقرأ هذا الشعر فإنَّك ستستحضر الآيات الكريمة التالية: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت [٣]﴾ وقوله تعالى ﴿وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كلِّ فجّ عميق[٤]﴾ وقوله تعالى: ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق[٥]﴾ وقوله تعالى: ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف[٦]﴾.

فالآيات تنزلت في هذا المكان، وهذا نورها قد غطى كل الأنوار كما يقول حسين عرب:

حـــــــرمٌ آمـنٌ وبـــــــيتٌ حـــــــرامٌ
وبـــنـــاءٌ مـــطـــهـــرُ الأركـــانِ
والـتَّـسـابـيحُ والـتَّـراويحُ نَـشْـوَى
وجَـــنَى الجَـــنَّـــتَـــيْنِ مـــنـــهنَّ دانِ
وَصَلَ الأرضَ بـــالـــسَّـــمـــاء حـــديثٌ
عـــبـــقـــريُّ الـــظلالِ والألـــوانِ

(١) مكتي قبلتي ٤٧ – ٤٨

(٢) المرجع نفسه ٩١ – ٩٤

آيــــةٌ بـــعـــد آيــــةٍ بـــعـــد أخـــرى

يَـــتَـــوارَى من نـــورهـــا الـــنَّـــيِّـــرانِ

سُـــوَرٌ كـــالـــنـــجـــوم بل هـي أســـمى

بـالـــمـــعـــاني وبـالـــهـدى والـــبـــيـــانِ[1]

والنهل من القرآن الكريم يتضح في غالب القصائد، فصفات مكة ومعاني تكريمها، وتصوير مكانتها يرجع إلى ما أتت به الآيات القرآنية، فقول طاهر زمخشري:

لحِـــمَى الـــبـــيتِ عـــنـــد أكـــرم وادٍ

غـــيـــر ذي الـــزرع وهْـــو روضٌ نـــضـــيـــرُ

لـــلـــقـــداســـاتِ في ذُرا مَـــهْـــبطِ الـــقُـــرْ

قـــان لـــلـــخـــيـــر وهْـــو فـــيضٌ وفـــيـــرُ

خَـــيْـــرُ وادٍ به الـــقـــداســـةُ تَـــخْـــتَـــا

لُ وفي الـــعَـــدْوتـــينِ نـــوْرٌ ونـــور

وهْـو مَـهْـوَى الـنُّـفـوس يَـهْـفُـو إلـيهِ

كلُّ قـــلبٍ بـــرحْـــبِهِ يَـــسْـــتَـــجـــيـــرُ[2]

هـو في هذا السياق القرآني الذي سار عليه أغلب الشعراء، وإيراد أدلة أخرى يؤدي إلى النتيجة ذاتها.

وللحديث الشريف مكانة واضحة في التناص والتضمين والاقتباس، كما نجد في قول علي السنجاري مضمنًا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها)[1] عندما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بحضور زعامات قريش لمعركة بدر:

فـــــهــــذهِ مـــــكـــــةُ ألـــــقت لَـــــكُم

أفلاذَهَـــــا واجْـــــتَـــــمَعَ الأذهنُ[2]

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٥٧٠ وانظر معركة بدر في كتب السير

(٢) الإشراف على تاريخ الأشراف ٤١٧

(٣) إتحاف الورى ٢ / ٢٥٢

والشاعر عيسى السعلبوس يضمن الحديث الشريف في فضل الصلاة في الحرم المكي فيقول:

ومَسجدُنا بيِّنٌ فَضْلُهُ
على غيرِهِ ليسَ في ذا مِرَا
صلاةُ المُصلِّي تُعدُّ لهُ
مئينَ ألوفًا صلاة الوفا
كذاكَ أتى في حديثِ النبيِّ
وما قالَ حقٌّ بهِ يُقتَدَى(٣)

ويضمن الأميري قول عمر بن الخطاب المشهور في الحجر الأسود عندما قبله: (إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك)، فيقول الأميري:

الحجرُ الأسودُ قبّلتُهُ
بشفتيْ قلبي وكُلِّي وَلَهْ
لا لاعتقادي أنّهُ نافعٌ
بل لهيامي بالذي قَبَّلَهْ
محمدٌ أطهرُ أنفاسِهِ
كانت على صفحتِهِ مُرْسَلَهْ
قَبَّلهُ والنّورُ من ثَغْرِهِ
يُشرقُ آيات هدىً مُرسلهْ
قبَّلتُ ما قبَّلَهُ ثغرهُ الـْ
ـنَاطقُ بالوحي ابتغاءَ الصِّلهْ(١)

ويقول طاهر زمخشري:

لحمى البيت عند أكرم وادٍ

---

(١) ديوان مع الله ١١٦

(٢) مكتي قبلتي٩١

(٣) المرجع نفسه ١٦٤

غـيــر ذي الـزرع وهْـو روضٌ نـضـيـرُ[٢]

وقول محمد علي مغربي:

فـمــا كــان هــذا الــبــيتُ إلا مــثــابــةً
يـــحـجُّ إلــيـــهـــا كلُّ ســاعٍ وطــائفِ[٣]

والشواهد لا تكاد تخلو منها قصيدة من القصائد التي تحدثت عن مكة، والإكثار منها زيادة لا تضيف جديدًا، ولذلك فالعودة للشعر تنبئك عن استخدام التضمين والاقتباس بشكل وافر، لأن الموضوع ممهد في كتاب الله الكريم، وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم.

■ التصوير

صوّر الشعراء البيت الحرام وأركانه في المدح والرثاء بصور إنسانية، فجردوا منه شخصًا يتشوق، ويتحرك، ويبكي ويضحك، وتنطق الأركان، وانظر إلى هذه الصور المشخصة في مدح شهاب الدين الفاسي للحسن بن عجلان:

سـافـرتَ عـنّـا فـكـان الـفـضلُ لـلـسَّـفَـرِ
وقـد رجـعـتَ فـكـان الـفـضلُ لـلـحَـضَـرِ
وحـــرّكَ الـــبـــيتُ أشـــواقًـــا إلـــيكَ به
لـــولا قُـــدومُكَ همَّ الـــبـــيتُ بـــالـــسَّـــفَـــر
وكـاد يـبـكـيك الـمـسـعى ومـوقـفهِ
فـيـجـمـعـان لـفـضل الـعـين والأثـر
وأوحشَ الحِـجْـرَ دوراتُ الـوقـوفِ بهِ
وفـاقـدُ الأنسِ يـحـكـي فـاقـدَ الـعـمـر
وأنـطقَ الـلهُ ركـنـيه: بـقـيتَ لـنـا

(*) اختلال في حركة الروي (هكذا في الأصل)

(١) العقد الثمين ٦ / ٢١٥

(٢) غاية المرام ٢/٦٢٦

كـلـثـمكَ الـرُّكن أو تَـقْـبـيـلكَ الـحـجـرَ[*]

عــلـى الـــمــقــام يمــيــنًــا لا مــقــام لهُ

حـتى تُـرى فـيه في الآصـال والـبُـكَـر[1]

وانظر إلى هذه الصورة المقابلة في الرثاء، فإذا كان البيت في شوق إلى الممدوح، وأركانه تهتزّ فرحًا وطربًا للقائه، فإنه في الرثاء يتدثّر الحزن، وتتقرّح جفونه من البكاء:

وغــدا الــصّــفــا مــتــكــدّرًا وجــفــونُهُ

مُــذْ غــابَ لم تُــكــحلْ بمــيلِ مــنــامِ

وعــيــونُ زمــزمَ أُتــرحت ودمــوعــهــا

أســـفًـــا عـــلـــيكَ عــلى الــدوام دوامي

ومـــقـــامُ إبـــراهـــيمَ أمـــسى لابـــسًـــا

ثـــوبَ الـــحـــدادِ أسىً وثـــوبَ ســـقَـــامِ

ولـــركنِ بـــيتِ الـــله وحـــشـــةُ ذاكـــرٍ

أدبًـــا لِـــقُـــبْـــلـــةِ ثَـــغْـــركِ الــبَـــسّـــامِ

وَلِـطَــوْفِكَ الـبـيت الـحـرام مـكـفّـنًـا

ذكـــرى بـــطـــوفك حـــالـــة الإحـــرامِ[2]

ويشخّص أبو الخير بن عبدالقوي من مكة امرأة تبكي على عزل واليها، فيقول:

عـيـونُ مـكـةَ تـبـكي عـزلَ حـاكِـمِـهَـا

أبي الـسـعـاداتِ جـالي ظُـلْـمـةَ الـرِّيَبِ[1]

ونراها مرة أخرى مشخصة في شكل زوجة تبكي فقد زوجها، كما في رثاء شهاب الدين بن خبطة لأبي القاسم بن عجلان وأخيه علي، فيقول:

وأمُّ الـــقُـــرى لـــولا بـــقـــاءُ أبي الـــقِـــرى

---

(١) إتحاف الورى ٣/٦٣٨

(٢) غاية المرام ٢/ ٢٠٥

القســم الخامس

القسم الخامس

من شعراء العشق المكي

من خلال العبور الزمني، فقد وجدنا العديد من الشعراء الذين تعلقت قلوبهم بمكة، وهفت نفوسهم إلى مشاعرها، وقد تخيرت عددًا من الشعراء، وجدت فيهم حرارة العاطفة، وشدة التلهف، وقد أبانوا في أشعارهم عن تعلقهم بها، وهم: (الشريف الرضي، والزمخشري، وابن جبير، ويحيى الصرصري، والبرعي، وابن معصوم).

الشريف الرضي:

أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين الطاهر الملقب بذي المناقب، يصل نسبه إلى موسى الكاظم، ولذلك لُقِّبَ بالشريف الموسوي، وُلد في بغداد سنة ٣٥٩هـ – الموافق ٩٦٩م وفيها تعلم، وتعمق في علوم القرآن واللغة وعلم الكلام، قال الشعر صبيّاً لم يجاوز العشر سنين بقليل كما يقول عنه الثعالبي في اليتيمة، وأثنى على شعره فقال: (يعد اليوم أبدع أهل الزمان، وهو أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر، على كثرة شعرائهم المفلقين كالحماني وابن طباطبا والناصر، ولو قلت أنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق).

إنه صاحب القول المشهور:

وتلفّتتْ عيني فمذْ خفيتْ
عنِّي الديارُ تلفّتَ القلبُ

وهو الذي يرى نفسه في الفخر مساويًا للخليفة العباسي لا فرق بينهما سوى رسوم الخلافة كما يقول:

عطفًا أميرَ المؤمنينَ فإنّنا
في دَوْحَةِ العَلْياءِ لا نَتَفَرَّقُ

مـا بـيـنـنـا يـومَ الـفَـخَـارِ تـفـاوتٌ
أبـدًا كلانـا في الـمـعـالي مُـعْـرِقُ
إلاّ الخلافـةَ مَـيَّـزَتْكَ فـإنّـني
أنـا عـاطلٌ مـنـهـا وأنتَ مُـطـوَّقُ

وتتعدّد آهات الشريف الرضي في الحنين والاشتياق إلى أهل المصلّى والخيف، وهو ينشد قلبه الذي ضاع منه بين المزدلفة ومنىً:

أيُّـهـا الـرائحُ الـمـغـذُّ تحـمّلْ
حـاجـةً لـلـمـعـذَّب الـمـشـتـاقِ
أَقْـرِ عـنّي الـسلامَ أهلَ الـمُـصـلّى
وبلاغُ الـسّلام بـعـدَ الـتَّلاقي
وإذا مـا مَـرَرْتَ بـالخَـيْفِ فـاشـهـدْ
أنَّ قـلـبي إلـيـه بـالأشـواقِ
وإذا مـا سُـئـلـتَ عـنّي فـقلْ: نـضـ
ـوُ هـوىً مـاأظـنُّهُ الـيـومَ بـاقِ
ضـاعَ قـلـبي فـانـشُـدْهُ لي بـين جَـمْعٍ
ومـنىً عـنـدَ بـعض تـلـكَ الحِـداق
وابكِ عـنّي فـطـالـمـا كـنتُ من قـبـ
ـلُ أُعـيـرُ الـدمـوعَ لـلـعـشّـاق[1]

وهو يبعث التحية الخالصة لتلك الأماكن الغالية على قلبه، إنها تحية الحب الخالص والذكرى اللوعة لكل مكان نزل فيه وهو حاج، ويجري حوارًا مع صاحبه يصدع القلب حين تشكو القلوب حرَّ شوقها لبعضها البعض، وما أن يحاول صاحبه أن يثنيه عن بكائه لفراق الديار، ويذكره بالنفر والتجهيز للعودة والسفر حتى يبل دمعه فضل ردائه، كما في هذه التحية الرقيقة العذبة:

حيِّ بـين الـنَّـقـا وبـين الـمُـصـلَّى
وَقَـفـاتِ الـركـائبِ الأنـضـاءِ

(١) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٧٩

وَرَواحَ الحَـــجـــيجِ لـــيـــلـــةَ جَـــمْعٍ
وبـــجـــمعٍ مَـــجـــامعُ الأهْـــواءِ
وتـــذكّـــرْ عـــنّي مُـــنـــاخ مـــطـــيِّي
بـــأعـــالي مِـــنىً ومَـــرْسَى خِـــبَـــائي
وتـــعـــمَّـــدْ ذكـــري إذا كـــنتَ بـــالخَـــيْـ
ـفِ، لـــظـــبيٍ من بـــعض تـــلك الـــظِّـــبـــاءِ
قل لـه: هل تُـــراكَ تـــذكـــرُ مـــا كـــا
نَ بـــبـــابِ الـــقُـــبَـــيْـــبَـــةِ الحـــمـــراءِ
قـــال لي صـــاحـــبي غَـــداةَ الْـــتَـــقَـــيْـــنـــا
نَـــتَـــشـــاكَى حَـــرَّ الـــقـــلـــوبِ الـــظِّـــمَـــاءِ
كـــنتَ خَـــبَّـــرْتَـــني بـــأنّكَ في الـــوجـ
ـــد عـــقـــيـــدي، وأنَّ داءَكَ دائـي
مـــا تَـــرَى الـــنَّـــفْـــرَ والـــتَّـــحَـــمُّلَ لـــلـــبـيـ
ـنِ، فـــمـــاذا انـــتـــظـــارُنـــا لـــلـــبُـــكـــاءِ
لم يَـــقُـــلْـــهـــا حـــتى انْـــثَـــنَـــيْتُ لمـــا بي
أتـــلـــقّى دمـــعـــي بـــفَـــضْلِ ردائي[1]

وهذا الذي ترونه حرًا طليقًا، هو في حقيقة الأمر أسيرٌ عانٍ، أسره المكان حتى ما عاد يقوى على التفكير بمغادرته، فلْتقلُّوا اللوم والعذل أيها الأصحاب، ولا تعجبوا من حالته التي ترونه عليها، فهو يسمع ما لا تسمعون، ويرى ما لا ترون، وإن كانت الأذنان عاجزتين عن السمع، فقلبه يقظ ، وجنانه سامع لهمسات الحنين التي تتواصل بينه وبين هذه الأرض المقدسة:

تـــعـــجَّبَ صَـــحْـــبي من بُـــكَـــائي وأنْـــكَـــروا
جـــوابيَ مـــا لمْ تـــســـمعِ الأذنـــانِ

(١) المصدر نفسه ١ / ٣٥

فــقــلــت نــعم لم تـــســمع الأذن دعــوةً
بـــلـى إنّ قـــلـــبي ســـامعٌ وجَـــنَـــاني
ويــا أيــهـا الـركب الـيـمـانـون خـبّـروا
طـلـيـقًـا بـأعـلى الخـيف أنّيَ عـاني
ويـــا صــاحـــبيْ رَحْـــلِي أقلاّ فــإنّـــني
رأيتُ بـــقـــلـــبي غـــيـــرَ مـــا تَـــريـــانِ
ولـم يـــبقَ من أيـــام جَـــمْعٍ إلى مـــنىً
إلى مـوقف الـتَّـجـمـيـرِ غـيـرُ أمـاني
تــعـــلّلَ دائي بـــالـــعـــراق طـــمـــاعـــةً
وكـيـف شِـفـائي والـطـبـيبُ يمـاني[1]

ويصدع قلبه البعد، ويتساءل عن الربع، وهل بقي كعهده ؟ ويعتذر لعاذلته التي تلومه على انشغاله بتذكر تلك المواطن، فيناشدها أن تكف عن عذله، فالأمر خارج عن إرادته، وكيف يسلو وليس له قدرة على ذلك، كما في قوله:

قِـفـا صـاحِـبَيَّ الـيـومَ أسـألُ سـاعـةً
ولا تُـرجـعـا سـمـعي بـغـيـر بـيـانِ
هَلِ الـرَّبْعُ بَـعْـدَ الـظـاعـنـينَ كـعـهـدِهِ
وهل راجعٌ فـــيه عـــليَّ زمـــاني ؟
وهـل مسَّ ذاك الـشّـيحَ عِـرْنـينُ نـاشِقٍ
وهل ذاق مـاءً بـالـلّـوى شـفـتـان؟
لـقـد غـدرَ الأظـعـانُ يـومَ سُـوَيْـقَـةٍ
ويَـدْمى لـذكـر الـغـادرين بـنـاني
لكَ الـلـهُ هل بَـعْـدَ الـصُّـدود تَـعَـطُّفٌ
وهل بـعـد رَيْـعـانِ الـبِـعَـادِ تـداني؟
وعـــاذلـــةٍ قُـــرْطٌ لأذْنيَ عَـــذْلُـــهـــا
تـــلـــومُ ومـــا لي بـــالـــسُّـــلُـــوِّ يـــدانِ

(١) ديوان الشريف الرضي ٢ /٥٢٢

أَعَــاذِلَــتي لــو أنَّ قــلــبَكِ كــان لي

سـلـوتُ، ولـكنْ غـيـرُ قـلـبكِ عـانِ

ألا لـيتَ لي من مـاء يَـبْـرينَ شـربـةً

ألَـذُّ لـقـلـبي من غَـريضِ لِـبـانِ

أداوي بـهـا قـلـبًا عـلى النَّأْيِ لم تَـدَعْ

بهِ فَـتَـكـاتُ الـشَّوْقِ غـيـرَ حـنـانِ[١]

ويمتدُّ حبل الشوق، ويشتدُّ عندما يرى الركب الراحلين إلى مكة، وهو مقيم بأرض العراق، هو بالعراق ودواءه هناك، إنه لديغ في هذا الموطن البعيد، يبتغي رقية ذاك الموطن الحبيب، يقول:

أقـولُ لِـركْبٍ رائـحـينَ لـعـلّـكمْ

تَحِلّونَ من بعدي العَقيقَ اليَمانيَا

خذوا نظرةً مني فلاقوا بها الحمى

ونَجْدًا وكثبانَ اللِّوى والمطاليَا

ومُرُّوا على أبياتِ حيٍّ برامةٍ

فقولوا لديغٌ يَبْتَغي اليومَ راقِيا

عَدِمْتُ دوائي بالعراقِ فربّما

وجدتمْ بنجدٍ لي طبيبًا مُدَاويا

وقولوا لجيرانٍ على الخَيْفِ من مِنًى

تُراكُمْ مَنِ اسْتَبْدَلتُمُ بِجِواريا

وَمَنْ وَرِدَ الماءَ الذي كنتُ واردًا

به وَرَعَى الرَّوْضَ الذي كنتُ راعيا

فَوا لَهْفَتي كم لي على الخَيْفِ شهقةٌ

تذوبُ عليها قطعةٌ من فُؤاديا

(١) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٥٢٢ – ٥٢٣

تـرحّـلـتُ عـنـكمْ لي أمـاميَ نـظـرةٌ
وعـشـرٌ وعـشـرٌ نـحـوكمْ لي ورائـيـا[1]

ويتحسّر على تلك الأيام الخالية التي جمعته بأحبابه في جمع ومنى، وفيها يتحول الحنين والشوق إلى الغزل، ولعله غزل إيحائي رمزي، كما في هذه الأبيات:

مَنْ معيدٌ ليَ أيّا
مي بجزع السَّمُراتِ
وليالِيّ بجمعٍ
ومنىً والجَمَراتِ
يا وقوفًا ما وقفنَ
في ظلال السَّلَماتِ
نَتَشاكى ما عَنانا
بكلام العَبَراتِ
آهِ من جيدٍ إلى الـدا
رِ طويل اللَّفَتاتِ
وغرامٍ غيرِ ماضٍ
بلقاءٍ غيرِ آتِ
فسقى بطنَ منًى والـ
خَيْفَ صَوْبُ الغادياتِ
أين راقٍ لغرامي
وطبيبٌ لِشَكاتي[2]

وكما قلت فالشريف الرضي يخلط الشوق بالغزل، ولعل سائلاً يسأل أهي طريقة ابن أبي ربيعة ؟ حيث التغزل بالحاجات، والحديث عن جمال راميات الحصى، أقول: هناك فرق بين غزل عمر بن أبي ربيعة، وغزل الشريف الرضي، فالشريف يتوسل بالغزل ليعبر عن شوق عارم لتلك الأماكن، بينما عمر ليس في حاجة إلى ذلك إذ هو من المقيمين بتلك الديار، ثم إنّ إحساس الشريف الرضي بالبعد في العراق، وهذه الأرض هي أرض النبوة وأرض أجداده، يجعله يشتد في إثرها مستغلاً الغزل ليعبر عن هذه الحميمية التي تجمعه بهذه الأماكن، فهذه الظباء الرائحات الغاديات اللواتي يرمين بعيونهن النجل قبل الرمي بالحصيات، ويعقرن القلوب قبل عقرهن الأضحيات، ما هنَّ إلا تلك الأشواق والعواطف الحارة، يتمثلها هذا العاشق المحب لهؤلاء الفتيات، كما في هذه الأبيات:

(١) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٥٧٠ – ٥٧١

وَظِــــبــــاءً حَــــالــــيــــاتٍ
كـــــظــــبــــاءٍ عــــاطلاتِ
رائـــــحـــــاتٍ في جلابـــــيـ
ـب الـــدُّجَى مُـــخْـــتَـــمِـــراتِ
رامـــيــاتٍ بـــالـــعــيـــون الـــنْـ
ـــنُـــجْلِ قَـــبْلَ الحَـــصَـــيــاتِ
أَلِـــعَـــقْـــرِ الـــقـــلبِ راحـــوا
أم لـــعـــقـــرِ الـــبُـــدُنـــاتِ
كـــــــيـف أودعـتُ فـــــــؤادي
أعْـــيُـــنًـــا غـــيـــرَ ثِـــقـــاتِ
أيـــهـــا الـــقـــانصُ مـــا أحـ
ـــسَـــنْتَ صَـــيْـــدَ الـــظَّـــبَـــيــاتِ
فـــاتكَ الـــسِّـــرْبُ ومـــا زُوْ
وِدْتَ غَـــيْـــرَ الحَـــسَـــراتِ
نـــظـــرٌ يَـــشْـــغَلُ مـــنّـــا
كلَّ عـــيـنٍ بِـــقَـــذاةِ
كم نـــأى بـــالـــنّـــفــر عـــنّـــا
من غـــزالٍ من مَـــهَـــاةِ
آه مِنْ جـــيـــدٍ إلى الـــدّا
ر كـــثـــيـــرِ الـــلَّـــفَـــتَـــاتِ
وغـــرامٍ غـــيـــرِ مـــاضٍ
بـــلـــقـــاءٍ غـــيـــرِ آتِ
فَـــسَـــقَى بَـــطْنَ مِـــنىً والـ
ـــخَـــيْفَ صَـــوبُ الـــغـــاديـــاتِ
وزمـــانًـــا نـــائمَ الـــعُـــذْ
ذَال مـــأمـــونَ الـــوُشَـــاةِ
في لـــيـــالٍ كـــالـــلآلي
بـــالـــغـــواني مُـــقْـــمِـــراتِ[1]

---
(١) ديوان الشريف الرضي ١ / ٢١٧ – ٢١٨

ويكرر نشدان قلبه الضائع بأسلوب غزلي لطيف، يعبر فيه عن تعلقه بظبيات ذاك المكان، ويطلب من أصحابه البحث عنه، فإن وجدوا فتىً قد أهلكته العيون النجل فهو هو:

يـا رفـيـقيَّ قِـفَـا نَـضْـويـكُـمـا
بـينَ أعلام الـنـقَـا والـمُـنْـحَـنَى
وانْـشُـدا قـلـبي فـقـد ضـيّـعْـتُهُ
بـاخـتـيـاري بـين جَـمْعٍ ومِـنَى
عـارِضَـا الـسِّـرْبَ فـإنْ كـان فـتًى
بـالـعـيـونِ الـنُّـجلِ يَـقْـضي فَـأنـا
إنَّ من شَـاط عـلى ألحـاظِـهـا
ضِـعْفُ من شـاطَ عـلى طـول الـقَـنَـا
تجـرحُ الأعـينُ فـيـنـا والـطُّـلى
قـاتلَ الـلهُ الـطُّـلى والأعْـيُـنَـا
مـا رأت عـيـنيَ مـذْ فـارقـتـكمْ
يـا نُـزولَ الحـيِّ شـيـئًـا حَـسَـنـا[1]

وهو يصف وفد راميات الجمار اللواتي يورق الحصى من مسّهن له، بعد أن تركن قلبه معقورًا:

أعـادَ لي عـيـدَ الـضّـنى
جـيـرانُـنـا عـلى مِـنَى
يـقـول مَنْ عـايـنَ هـا
تـيكَ الـطُّـلى والأعْـيُـنَـا
هـذا غـزالٌ قـد عَـطَـا
وذاك ظَـبْـيٌ قـدْ رَنَـا
مُـجْـتَـمـراتٌ رُحْـنَ عن
رَمْـيِ الجِـمـارِ مَـوْهِـنَـا
تَـرَوُّحَ الـسِّـربِ عن الـ
ـورْدِ إذا الـلـيـلُ دنـا

(١) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٤٨٧ – ٤٨٨

كم كَبِدٍ مَعْقُورَةٍ
للعاقرينَ البُدُنا

بأعيُنٍ تَركْنَها
على القلوبِ أعيُنا

يُورقُ منهنَّ الحَصَى
حتى يكادَ يُجْتَنَى

لِيُهْنَ مَنْ لم يفتتنْ
إنّا لقينا الفِتَنا[1]

والمتتبع لديوان الشريف الرضي، يجد العديد من القصائد التي تبدأ بالشوق والحنين، ويقف على كثير من المقطعات المترعة بالنزوع إلى المكان، لقد كان إناء الشريف الرضي مفعمًا ومترعًا بعاطفة الحنين إلى مسقط رؤوس الآباء والأجداد، وظل هذا الشوق ينازعه على الرغم من مداواته أحيانًا بالسفر إليها حجّاً وعمرة.

الزمخشري:

هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد، وكنيته أبو القاسم، ولقِّب بجارالله، لمجاورته بيت الله، ونسب إلى بلده زَمخشر في خوارزم، ولد سنة ٤٦٧هـ – في وقت كان النشاط العلمي والأدبي في ازدهار، ذكر من ترجم له كابن خلكان أنه رحل في طلب العلم إلى بخارى، ثم عمل في التدريس، متنقلاً في كثير من بلاد فارس، لكنه رغب في السفر إلى مكة، والمجاورة هناك، وفي ظلال البيت العتيق، تطول مدة بقاء الزمخشري معلمًا ومؤلفا للتصانيف المختلفة، كما يقول في ذكر تأليف كتابه الكشاف في التفسير:

وتمَّ ليَ الكشّافُ ثمَّ ببلدةٍ
بها هبطَ التنزيلُ للحقِّ كاشِفَا

على بابِ أجيادٍ بنى ليَ منزلاً
كرُكنِ شَمامٍ بالصّفا متواصِلا

(١) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٤٨٠ – ٤٨١

وأنـــــفقَ فـي إتـــــمــــــامـهِ من تـلاوةٍ
ثـقـيـلاتِ وزنٍ في الـبلادِ خـفـائـفـا[1]

ومع حبه لبلاده إلا أنه يرحل عنها، والدافع إلى هذا الرحيل بداية هو شعوره بعدم التقدير، كما ورد ذلك في قوله:

أحَبُّ بلادِ الـــلـهِ شـــرقًـــا ومـــغـــربًـــا
إلـيَّ الـــتي فـــيـــهـــا غُـــذيتُ ولـــيـــدا
ولـــكن تـــواسي بـــالـكـرامــةِ غـيـرهــا
وهـــذي أرى فـيـــهـــا الـــهـوانَ عـــنـــيـدا
ومـــا مـــنـــزل الإذلالِ لـــلـــحـــرِّ مـــنـــزلاً
وإنْ كـــانَ عـــيشُ الحـــرِّ فـــيـهِ رغـــيـــدا
ســـأرحلُ عـــنـــهـــا ثمَّ لـــستُ بـــراجعٍ
وأضـــربُ مـــرمىً في الـبلادِ بـــعـــيـــدا[2]

ويتحول إلى مكة، وفيها يقضي سنوات طويلة من عمره، ويلقى عيشًا طيبًا في حمى شريف مكة ابن وهاس، الذي يقول فيه:

بمـــكـــةَ آخـــيتُ الـــشـــريفَ وفـــتـــيـــةً
حـــوالـــيـهِ من آلِ الـــنـــبيِّ غَـــطَـــارِفَـــا
يُـــتـــابعُ إنْ نـــوظـــرتُ رَدءًا لـــشـــاغبٍ
ويـــنـــهضُ إنْ ذوكـــرتُ دَرءًا مُـــكـــاتـِـفَـــا
مـــتى أقـــبلَ الـعلاّمـــةُ انـــتـفـضـوا لـهُ
وحـــيّـــوهُ حـــيّـــا الــلـهُ تـــلـكَ الـــمـعـــارِفَـــا
وكـــانَ ابنُ وهّـــاسٍ لجـــنـــبيَ فـــارشًـــا
كـــمـــا تـــفـــعلُ الأمُّ الحَـــفِـــيَّـــةُ لاحـــفـــا[3]

(١) الأدب العربي في إقليم خوارزم ٢٤٤

(٢) الأدب العربي في إقليم خوارزم ٢٢٨

(٣) المرجع نفسه ٢٣٣ الردء: المعين. والدرء: الدفع. والحفية: التي تبالغ في الإكرام

وبعد طول إقامة في مكة يهزه الشوق والحنين إلى مسقط رأسه، فيبعث هذه الأبيات من مكة إلى الوزير منتجع الملك في بلاده، يقول فيها:

إلـــيكَ يـــهـــزُّني الحبُّ الـــمـــطـــاعُ
ويـــشــــكـــرني لـــرؤيـــتكِ الـــنِّـــزاعُ
فـــهل لكَ يـــا شـــقـــيقَ الـــنـــفسِ عـــلمٌ
بمـــــا أنــــبـــــأت عــــنـــه واطّلاعُ
ولـــو أني قـــدرتُ لـــطـــرتُ شـــوقًـــا
بـــحـــرفٍ خـــطـــوهـــا خـــطـــوٌ زمـــاعُ
وكـــنت بـــحـــيث يـــوصـــلـــني إلـــيـــكمْ
غـــــــــــــدوّي أو رواحـــي لا أُراعُ
وفـي عـــــــدواءِ داركَ عن ديــــــاري
أُراقبُ زورةً لا تُـــــسْـــــتـــــطـــــاعُ[1]

وتسمح الأيام، ويعود لبلده، ولكنه ما أن يصل إليها، حتى ينازعه الشوق لمكة، ويندم ندامة الكسعي، ويبكي بكاء الحنين الواله، ويصور بعده عن مكة تصويرًا فيه من شدة الندم ما فيه من شدة التحسر والألم، يقول:

بـــكـــاءُ عـــلـى أيّـــامِ مـــكـــةَ إنَّ بي
إلـيـهـا حـنـينَ الـنّـيبِ فـاقـدةَ الـبـكـرِ
تـــذكّـــرتُ أيّـــامي بـــهـــا فـــكـــأنّـــني
قـد اخْـتَـلَـفَتْ زرقُ الأسـنّـةِ في صـدري
أبـيتُ عـلـى الـصَّـخْـرِ الـمبـاركِ بـاكـيًا
كـمـا أنَّتِ الخـنـسـاءُ تـبـكي عـلـى صـخـرِ
وحـينَ تـخـطـيـنـا الـمـنـاقبَ وارْتَـمَتْ
بنـا الـعيسُ تـهـوي في مـسـالـكـهـا الـقـفـرِ
وشطَّ بـأصـحـابي عن الأبـطحِ الـسُّـرَى
ولطَّ الجـبـالُ الـمُـشْـمَـخِـرّاتُ بـالـسّـتـرِ

(١) المرجع السابق ٢٢٨

وقـــلتُ: ألا اينَ الحَــطِـيمُ وزمــزمٌ
وما ليَ محجوزًا عن الركنِ والحِجْرِ
صفرتُ وراءَ الغورِ صفرةَ مفلسٍ
رأى يدَهُ صِفرًا من البيضِ والصُّفْرِ
وقلتُ لقلبي قد ملكتكَ مرّةً
فما أنتَ إلاّ طائرٌ طارَ في وكرِ[1]

ويعود يهزه الشوق إلى مكة، ويرى أنه باع بالخسران، وأن صفقة العودة إلى بلاده كانت صفقة خاسرة، فيرسل أعذب الألحان، ويزفر أحرَّ الآهات، قائلاً:

أأبتاعُ بالفوزِ الشَّقاوةَ خاسرًا
وأستبدلُ الدنيا الدَّنِيَّةَ بالأُخْرَى
إذا خطرتْ بالبالِ ذكرى إناختي
على حرمِ الله اسْتَفَزَّتْنِيَ الذِّكْرى
أكابدُ ليلاً كالليالي وحسرةً
ودمعًا غزيرَ المُسْتَقَى غائرَ المَجْرى
وأدعو إلى السّلوانِ قلبًا جوابُهُ
لداعيهِ مِهْراقٌ من المُقْلَةِ العَبْرَى
وما عُذْرُ مَطْروحٍ بمكةَ رَحْلُهُ
وربِّكَ لا عذرًا، وربِّكَ لا عُذْرا[2]

وتعود المياه إلى مجاريها، ويعود الجار مجاورًا، فتصفو له المشارب، تمامًا كما يعود الليث لعرينه، والسيف لقرابه، كما يقول:

أنا الجارُ جارُ اللهِ مكةُ مركزي
ومَضْرِبُ أوتادي، ومَعْقِدُ أطنابي
وما كانَ إلاّ زورةٌ نهضتي إلى
بلادٍ بها أوطانُ رَهْطي وأحبابي

(١) المرجع نفسه ٢٢٩
(٢) المرجع السابق ٢٣٠

فـلــمَّــا قَــضَتْ نــفــسي ولــلـهِ درّهــا
لــبــانــةَ دارٍ زنــدُهَــا غــيــرُ خــيّــابِ
كــررتُ إلى بــطــحــاءِ مــكــةَ راجــعًــا
كـأنّي أبـو الـشّـبـلـينِ كـرَّ إلى الـغـابِ(١)

ولكن حنين المشتاق يعاوده، فينهض إلى بلده مرة أخرى، وفيها وافاهُ أجله، فقال أحد تلامذته يرثيه:

فـأرضُ مـكَّـةَ تـذري الـدمعَ مُـقـلـتُـهـا
حـزنًـا لـفـرقـةِ جـارِ الـلـهِ مـحـمـودِ(١)

هكذا كانت نهاية جار الله بعيدًا عن البيت الذي أصفاه خالص الحب، وأبان في شعره عن عاطفة صادقة، وارتباط أكيد ببيت الله الحرام.

ابن جبير:

محمد بن أحمد بن جبير الكناني، كان أجداده من الداخلين إلى الأندلس مع الطوالع الأولى للفتح الإسلامي، أديب وشاعر ورحالة، شهر بأدب الرحلة أكثر مما شُهر بالشعر على الرغم من وجود ثلاثة دواوين من الشعر له: أحدهما متوسط الحجم لم يذكر اسمه، والثاني بعنوان (نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح) في رثاء زوجته، وهذا يدل على عظم المحبة والوفاء، والثالث بعنوان (نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان) ولم يعثر على هذه الدواوين، لكن ما ورد له من شعر في المصادر الأندلسية يدل على شاعرية رقيقة ومتمكنة. ويعده عبدالقدوس الأنصاري من الموهوبين الأفذاذ الذين منحوا موهبة السمو في الشعر والنثر معًا، ويثني على شعره فيقول: (ما اطلعنا عليه في كتابي الإحاطة ونفح الطيب من شعره يدلنا على مدى تدفق شاعريته وفحولته، فهو في الأدب مزدوج الإنتاج: نثره بديع في مستوى عال لفظًا ومعنى، وشعره في منزلة رفيعة من الشعر العربي الرصين أهدافًا ومبنى) (٣).

(١) المرجع نفسه ٢٣٠ (٢) المرجع نفسه ٢٣٠
(٣) مع ابن جبير في رحلته لعبدالقدوس الأنصاري ٥١

كان همه الارتحال بدءًا إلى البيت الحرام، لقضاء الحج وزيارة الأماكن المقدسة، وفي ذلك يقول أبو عبدالله المراكشي عنه: (ولم يزل دأبه تمني الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول):

هنيئًا لمن حجَّ بيتَ الهُدَى
وحطَّ عن النَّفْسِ أوزارها
وإنَّ السَّعادةَ مضمونةٌ
لمن حلَّ طيبةَ أو زارها

وفي مثله يقول:

إذا بلغ المرءُ أرضَ الحجازِ
فقد نالَ أفضلَ ما أمَّلَهْ
وإن زار قبرَ نبي الهُدَى
فقد أكملَ الله ما أمَّلهْ

وله في هذا المعنى كلام كثير نظمًا ونثرًا.. ومنه مقالة سماها (رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار والمناسك)(١).

ولما تم فتح بيت المقدس على يد السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ، كان ذلك من أقوى الأسباب ليقوم برحلته الثانية كما يقول أبو عبدالله المراكشي، فتحرك لها من غرناطة أيضًا يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين، قال: وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام، وزيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وزيارة المساجد الثلاثة، وفي رحلاته هذه ألف كتابه المشهور المسمى برحلة ابن جبير، وهذا العلم الرحالة له من الأشعار ما يعدُّ فيها شاعرًا.

وتتغلب على شعره تلك النزعة العاطفية القوية، ظهر أثرها في هذا الشوق العظيم الذي أبداه في حنينه إلى مكة.

---

(١) الذيل والتكملة ٥ / ١ / ٦٠٤

إنّ هذا الشاعر البعيد الدار يحنُّ إلى مكة حنين الواله، وشوق المستهام، ويعلن أنّ سبب ارتحاله هو الوصول إلى البيت الحرام، وكأنّ هذه الأمنية كانت السبب في جعله من أشهر الرحالة في تاريخنا الجغرافي، يقول عندما تحرّك للرحلة الحجازية:

أقولُ وقد دعا للخيرِ داعٍ ... حَنَنْتُ لهُ حنينَ المُسْتَهامِ

حرامٌ أنْ يلذَّ ليَ اغتماضٌ ... ولم أرحلْ إلى البيتِ الحرامِ

ولا طافت بيَ الآمالُ إنْ لم ... أَطُفْ ما بينَ زمزمَ والمقامِ

ولا طابتْ حياةٌ لي إذا لم ... أزرْ في طيبةٍ خيرَ الأنامِ

وأهديهِ السَّلامَ وأقْتَضيهِ ... رضىً يُدني إلى دار السَّلامِ[1]

فبعد أن يحرِّم النوم على عينيه، ويدعو على نفسه بأن لا تطوف به الآمال، ولا تطيب له الحياة إذا لم يزر تلك الأماكن، فإنّه ينادي وفد الله من شدة الشوق الذي برّح به، حتى سالت دموعه على البعد وهو هناك بأرض المغرب، فيقول ولهيب الشوق يلفح حروفه وقلبه:

يا وفودَ اللهِ فزتمْ بالمُنى ... فهنيئاً لكمُ أهلَ مِنَى

قد عرفنا عرفاتٍ بعدكمْ ... فلهذا برّحَ الشَّوْقُ بنا

نحن بالمغرب نُجْري ذكركمْ ... وغروب الدمعِ تجري بيننا[2]

---

(١) نفح الطيب ٢/٣٨٤

(١) المغرب في حلى المغرب ٢/٣٨٥

ويشاء الله له أن يبحر مسافرًا، وتتم له أمنيته، فلما بدت له مناظر الحرم وأعلامه، هتف من صميم مشاعره:

بـــــدتْ لـيَ أعلامُ بـــــيتِ الـــــهُــــدَى
بمـــكـــــةَ والــــنـــورُ بــــادٍ عـــلــــيهْ
فـــأحـــرمتُ شـــوقًـــا لهُ بـــالــــهَـــوَى
وأهـــديتُ قـــلـــبيَ هـــديًـــا إلـــيهْ[1]

ولما وصل ابن جبير إلى مكة أحسَّ بعودة الروح والشباب إلى جسده، فأنشد قصيدته التي أولها:

بـــلــغتَ الـــمُــنى وحـــلــلتَ الحـــرمْ
فـــعـــاد شـــبـــابُكَ بـــعـــدَ الـــهـــرمْ
فـــــأهلاً بمــــكَـــــة أهلاً بـــــهـــــا
وشـــكـــرًا لمن شُـــكْـــرُهُ يُـــلْـــتَـــزَمْ[2]

ولا تبرح مخيلته تلك الأماكن المقدسة، فهو يستعيدها كلما أثاره مثير، فها هو يهنئ الحجيج العائدين من رحلة الحج، فيقول:

هـــنـــيـــئًـــا لمن حجَّ بـــيتَ الـــهـــدى
وحطَّ عن الـــــنــــــفس أوزارهــــــا[3]

وتتكرر هذه التهنئة منه لحجاج بيت الله، وكأني به يسعى بهذه التهنئة ليشعر ببرد غليل شوقه لتلك الأماكن التي ملكت عليه كل مشاعره، وهذا التمني الذي يغلب على القصيدة يدل على برح الشوق، وما تعداد كل المشاعر إلا لكونه يستحضرها تلذذًا، ويعيدها إلى ذاكرته استشفاءً، ونلاحظ في هذه التهنئة: الشكوى من البعد عن مكة، ودعوة الخيال واستحضاره، ولمعان البرق الذي يذكر بما مضى من تلك الذكريات، يقول:

---

(١) نفح الطيب ٢/٤٩٣
(٢) نفح الطيب ٢/٤٩٣
(٣) الذيل والتكملة ٢/ ٥٩٩ – ٦٠٠

يــا وفــودَ الــلهِ فُــزتم بــالـــمــنَى

فـــهـــنـــيـــئًـــا لـــكمُ أهلَ مِـــنى

قــد عــرفــنــا عــرفــاتٍ مــعــكمْ

فـــلــهــذا بــرَّحَ الــشَّــوْقُ بــنـــا

نــحن بــالــمــغــرب نُــجْــري ذكــركمْ

فــغــروبُ الــدمع تجــري هَــتَــنــا

أنــتمُ الأحــبــابُ نــشــكــو بُــعــدكمْ

هل شــكــوتم بُــعْــدَنــا من بَــعْــدِنــا

عــلَّــنَــا نــلــقَى خــيــالاً مــنــكمُ

بــلــذيــذَ الــذكــرِ وهْــنًــا عَــلَّــنــا

لــو حَــنَــا الــدهــرُ عــلــيــنــا لَــقَــضَى

بــاجــتــمــاعٍ مــنــكمُ في الــمُــنْــحَــنَى

لاح بـــرقٌ مـــوهـــنًـــا من أرضـــكمْ

فــلــعــمــري مــا هَــنــا الــعــيشُ هُــنــا

صــدعَ الــلــيلَ وَمِــيــضًــا وسَــنًــا

فَــأَبَــيْــنــا أن نــذوقَ الــوَسَــنــا

كم جَــنى الــشَّــوْقُ عــلــيــنــا من أسًى

عــادَ في مــرضــاتِــكمْ حُــلْــوَ الجَــنَــا

ولـــكمْ بـــالخَـــيْفِ من قـــلبٍ شَجٍ

لم يــزلْ خــوفَ الــنَّــوى يــشــكــو الــضَّنى

مــا ارْتَــضَى جــانِــحَــةَ الــصَّــدْرِ لَهُ

ســكــنًــا مــنــذُ به قــد ســكــنــا

فــيــنــاديه عــلى شَــحْطِ الــنَّــوَى

من لــنــا يــومًــا بــقــلبٍ مَــلَّــنــا

سِــرْ بــنــا يــا حــاديَ الــعــيسِ عــسى

أنْ نُلاقي يــومَ جَــمْعٍ جَــمْــعَــنــا

مــا عَــنَّى داعي الــنَّــوى لـــمّــا دعــا
غـــيـــرَ صبٍّ شَــفَّهُ بَـــرْحُ الـــعَـــنــا
شِمْ لـــنـــا الـــبَـــرْقَ إذا لاحَ وقُلْ
جَـمَعَ الــلهُ بِــجَــمْعٍ شَـمْــلَــنــا

وتبقى مكة تملك على شاعرنا عقله ولبه، حتى في المدح نجده يذكرها، فيقول في مدح السلطان صلاح الدين الأيوبي:

أطـــلّتْ عـــلـى أفْـــقِكَ الـــزاهـــرِ
ســـعـــودٌ من الـــفَـــلَكِ الـــدائـــرِ
فـــكم لك بـــالـــشَّـــرقِ من حـــامـــدٍ
وكمْ لكَ بـــالـــغـــربِ من شـــاكـــرِ
وكمْ بـــالـــدعـــاء لـــكم كلّ عـــامٍ
بمـــكـــةَ من مُـــعْـــلِنٍ جـــاهـــرِ

ومع ذلك فالشوق يدفعه إلى بقاع ثلاث، فإذا كانت مكة الهوى، فإن المدينة المنورة، وزيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام يطير لها القلب، ويبقى الركن الثالث وهو القدس الشريف، وفي ذلك يقول:

طـــالَ شـــوقي إلى بـــقـــاعٍ ثلاثٍ
لا تُـــشـــدُّ الـــرحـــالُ إلاّ إلـــيـــهـــا
إنَّ لـــلـــنـــفسِ في ســـمـــاءِ الأمـــاني
طـــائـــرًا لا يـــحـــومُ إلاّ عـــلـــيـــهـــا
قُصَّ مـــنهُ الجـــنـــاحُ فـــهْـــو مـــهـــيضٌ
كلَّ يـــومٍ يـــرجـــو الـــوقـــوعَ لـــديـــهـــا

ومع شدة هذا الشوق الذي يبديه ابن جبير إلى هذه الأماكن المقدسة، فإن عاطفته التي تنزع به إلى بلده تبقى واضحة قوية، وهو ما سميناهُ بالشوق العكسي، وهو إبداء الشوق إلى الوطن بعد انتهاء زيارته للأماكن المقدسة، وابن جبير يظهر هذه العاطفة الرقيقة على الرغم من شدة شوقه للسفر، وفي أهله يقول عند الوداع:

أقــولُ وقــد حــانَ الــوداعُ وأُسْــلِــمتْ
قــلــــوبٌ إلى حُــــكمِ الأسى ومـــدامعُ
أيـــا ربِّ أهـــلي في يـــديكَ وديـــعـــةٌ
ومــا عــدمتْ صَــوْنًــا لــديكَ الــودائعُ

ويتذكر أوطانه فيصدر هذه الأنَّةَ الحزينة، فالغربة مهما كانت أسبابها ودواعيها تبقى شديدة على النفس، وها هو يحل ويعقد بانتظار الفرج، يقول:

غـــــريـبٌ تـــــــذكّـــــرَ أوطـــــانهُ
فـــهـــيَّجَ بـــالـــذكـــرِ أشـــجـــانهُ
يـــــحُلُّ عُـــرى صـــبـــرهِ بـــالأسى
ويـــعـــقـــدُ بـــالـــنـــجمِ أجـــفـــانَهُ

ويبقى الشوق إلى الوطن يعتصر فؤاده، ويلهب عاطفته، وتبقى عيونه معلقة هناك في الأندلس:

لي نــحــو أرضِ الـمُـنى من شـرقِ أندلسِ
شــوقٌ يــؤلِّفُ بــينَ الــمــاءِ والْــقَــبسِ

ولكن هل تتحقق له أمنيته، فيعود إلى وطنه ؟ لقد أمضى ابن جبير السنين الأخيرة من شيخوخته متنقلاً ما بين مكة وبيت المقدس والقاهرة عاملاً في التدريس، حتى وُسِّد تراب الإسكندرية سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م.

يحيى الصرصري:

الإمام يحيى الصرصري من أكثر الشعراء شعرًا في المديح النبوي، وديوانه الضخم يكاد في معظمه يسير في هذا الموضوع، وأكثر مدائحه النبوية يبدؤها بالتشوق للحجاز بعامة ومكة والمدينة بخاصة، ويهمنا هنا ما ورد من شعره في مكة، من ذلك قوله يرسل تحيةً لمرابع مكة، وخلال ذلك يعود بذاكرته إلى تلك الأيام الخوالي التي قضاها في منازلها، يقول:

خـــذْ لـــلـــحـــجـــازِ إذا مـــررتَ بـــركـــبـهِ
مـــنِّي تحـــيَّـــةَ مُـــخـــلـصٍ في حـــبِّهِ
واسْــألَهُ هلْ حـــيّـــا مَـــرابـــعَهُ الحَـــيَـــا
وكَـسَـا الـرَّبـيعُ شِـعـابَهُ من عُـشْـبِهِ
واسـتـمْلِ من خـبَرِ الـصَّبـا لأخي الـهَوَى
مـــا صحَّ من إســـنـــادهِ عن هُـــضْـــبِهِ
فـلـنـشـرِ أنـفـاسِ الـنَّـسـيمِ عـبـارةٌ
في رمـزهـا مـعـنىً يَـلَـذُّ لـقـلـبِهِ
يُـغـريهِ مَـسْـرَاهـا بـأيّـامِ الحِـمَى
إذْ كـانَ مـنـشـأُ عَـرْفِـهـا من تُـرْبِهِ
ولَـعَـمْـرِهـا لـولا تَـذَكُّـرُ عَـهْـدِهِ
فـيـهـا لمـا بـعثَ الـنَّـسـيمُ بِـلُـبِّهِ
هل لي إلى لـيلاتِ مـجـتـمعِ الـمُـنى
بمِـنىً رجـوعٌ أسـتـلـذُّ بِـقُـرْبِهِ
وَيَـضُـمُّـني وبـني الـوِدادِ بـجَـوِّهِ
سِـرْبـالُ وَصْلٍ لا أُراعُ بِـسَـلْـبِهِ[1]

وهو يخاطب ربع منى، ويحييه، ويدعو له بالسقيا، وبأن ينشر سحيق المسك فوق ثراه، وأن تحفه الزهور والخضرة، فهو يستحق أن يُدعى له طالما أنه لا يبخل على الشاعر بلياليه الرائعة الجميلة، ومواسمه المترعة بالحب، يقول:

ربعَ الـمُـنى بمِـنىً نَـعِـمْتَ صـبـاحـا
وتـبـلَّـجتْ فـيكِ الـوجـوهُ صِـبـاحـا
وَسَـقَـتْكَ أخْلافُ الـغَـمـامِ عَـشِـيَّـةً
دَرّاً يُـرَوِّي مِنْ حِـمـاكَ بِـطـاحـا
وَعَلا سَحـيقُ الـمِـسْكِ نَشْـرَكَ كـلَّـمـا
نَـشَـرَ الـربـيعُ عـلى ثـراكَ جَـنـاحـا

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٣٣٤ – ٣٣٥

ولبستَ من زهرِ الرياضِ ملابسًا
وعقدتَ فوقَ الجيدِ منكَ وِشاحا
فلطالما سامرتُ في جُنْحِ الدُّجَى
أقمارَ حُسْنِكَ لا أخافُ جُناحا
وخلستُ من ريّاكَ روحَ حُشاشتي
وشربتُ فيكَ من المحبَّةِ راحا
للّهِ أيّامٌ مضتْ محمودةً
طابتْ بجوِّكَ غُدوةً ورَواحا
آنستُ فيها نورَ عطفِ أحبَّتي
ونشقتُ عِطرَ رضاهُمُ الفيّاحا
يا موسمَ الأحبابِ يا عيدَ المُنى
وهلالَ سعدٍ بالبشارة لاحا
هلْ لي إليكَ معَ الأحبةِ وقفةٌ
وَجْهَ النهارِ تُجدِّدُ الأفراحا[1]

ومما يعجبك، ويروقك في حنين الصرصري البعد الفني، والتأنق الوصفي، فشعره في الشوق والحنين شعرٌ مليءٌ بالأوصاف الطبيعية، مما يشيع الجمال، ويبعث المتعة، وقد وجدت هذا الشاعر بأسلوبه الطبيعي يبتعد عن النظمية التي غطَّت على جمال العاطفة عند بعض شعراء المدائح النبوية، إذ كان بعضهم يعرض لكامل المدحة سواء في التشوق، أو في الحديث عن السيرة من خلال الحدث كحدث، لا كفن، فطغى الجانب اللفظي والتاريخي على الجانب الفني، أما عند الصرصري فالحال يكاد يكون مختلفًا تمامًا في الكثير من قصائده، وما أوردناهُ له وسنورده يدخل في هذا الباب، وهذه بداية قصيدة يتحدث لنا فيها عن حنينه وشوقه، وشدة تطلعه، فيذكر لنا نسيم السحر، والغدران والأزهار، من خلال ألحان عذبة، وإيقاعات سريعة، وتملَّ معي هذا القول الرقيق الأنيق:

جَرَتْ نسيمُ السَّحَرِ
على مُتونِ الغُدُرِ

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ١ / ٤٧٠

فَجَعَّدتْها وَثَنَتْ

أعطافَ بُسْطِ الزَّهَرِ

وضمَّختْ ملابسَ الـ

ـروضِ بنشرٍ عَطِرِ

أظنُّها مرَّتْ على

سُمَّارِ ذاتِ السَّمرِ

فَطَارَحتْهُم وأتتْ

مِنْ نحوهمْ بالخَبَرِ

تُسندُهُ عنْ أرَجِ الشْـ

ـشِيحِ وريَّا العَرْعرِ

فرنَّحتْهُ طربًا

برمزها المُعبِّرِ

أذَعْتِ يا ريحَ الصَّبا

سِرَّ هوىً مُسْتَترِ

فردِّي ما شئتِ مِنْ

حديثهمْ وكرِّري

فذكرُ سكّانِ الحِمى

تَعِلَّةُ المُسْتَهْتِرِ

آهٍ لعيشٍ مرَّ لي

بينَ اللِّوى والأجفرِ

أو زمنٍ كانَ بنَعْـ

ـمَانَ ربيعَ العمرِ

يا ليتَ شعري هلْ تعو

دُ لياليَ بالمَشْعَرِ

وهل تزولُ حسرةُ الـ

ـفؤادِ في مُحَسَّرِ

وهـل لأيــــــــــامِ مِــــــــــنًى
مِنْ بـــــائعٍ فـــــأشـــــتـــــري
ولــــو بــــأيّـــامِ الحـــيـــا
ةِ لمحـــةً بـــالـــبـــصـــرِ
فـــمـــا عـــلى من ســامـــهـــا
بـــــروحـهِ مِـنْ غَـــــررِ
وهـل إلى ذاتِ الـــسُّـــتـــو
رِ، أوبـــــةٌ فـي عُــــمُــــري
فـــأجـــتـــلي جَـــنى الــعُلا
بـــلـــثمِ ذاكَ الحَـــجَـــرِ
يــا لكِ مِنْ لــيـلاتِ قُـــرْ
بٍ، طــالَ فـــيـــهـــا سَـــمَـــري
لــو ســمحَ الــدَّهـــرُ بـــهـــا
قـــضـــيتُ فـــيـــهـــا وَطَـــرِي[1]

لقد أطلتُ في إيراد هذا النص لسببين: أولهما أنني لم أقدر على اجتزائه لارتباط ألفاظه ومعانيه بعضها ببعض، مما يجعل حذف أبيات مخلاً بالأمرين معًا: اللفظ والمعنى، والآخر لأنني أريد أن أقنع القارئ بما قلته آنفًا عن طريقة الصرصري ذات النكهة الطبيعية الخالصة، المميزة برقتها وعذوبتها، وجمال إيقاعها وخفته.

ويألم أشد الألم إذا فاته الحج، ويغبط من فازوا به، ويرسل على البعد أزكى سلامه للكعبة المشرفة، ويتمنى العودة إلى حماها، يقول:

تَــخَــلَّــفْــنــا عنِ الــبــلــدِ الحــرامِ
ومـــا فـــيـهِ من الــنِّــعمِ الجـــســـامِ
وفـــازَ بـــفـــضـــلـهِ إخـــوانُ صـــدقٍ
لــنــا نــهــضــوا مع الــوفـدِ الــكـرامِ

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٢ / ٩٣ – ٩٤

ثم يصل إلى مناشدة ذات الستور:

فـيـا ذاتَ الـسـتـورِ عـلـيـكِ مـنّي
وإنْ بَـعُـدَ الـمَـدَى أزكى سلامِ
وحـيّـا الـلـهُ أقـمـارًا تَـجَـلَّتْ
بـجـوِّكِ أخـجـلتْ بـدرَ الـتَّـمـامِ
لـقـد قـرَّتْ عـيـونٌ نـاظـراتٌ
إلى مـعـنى جـمـالِكِ بـاحْـتِـشـامِ
فـهل لي عـودةٌ بـرُبَـاكِ أقـضي
بـهـا وَطَـري ويُـدْرِكُـني حِـمَـامِي[1]

والغزل التجريدي يشغله، وتشغله ذات الستور التي يتمنى لقاءها، كما في قوله:

بـالـلـهِ يـا مَنْ عَـرْفُهُ أهـدى لـنـا
طَـرَفًـا إلى نـيْلِ الـعُلا طـمَّـاحـا
بـلِّغْ إلى ذاتِ الـسُّـتـورِ رسـالـةً
عـمَّنْ إذا ذُكِـرَتْ صَـبَـا وارتـاحـا
يـا ربَّـةَ الحَـرَمِ الـمُـمـنَّعِ كم دَمٍ
لِـبَـني الأمـاني دونَ وَصْـلِكِ طـاحـا
كـيفَ الـسَّـبـيلُ إلى لـقـائكِ والـفلا
قـدْ حُفَّ دونكِ ذُبَّلاً وصِـفَـاحـا[2]

وهو يدفع دمه ولو هدرًا في سبيل لقائها، مع علمه بأن المقتول في هواها لا يجد من يقتص له، يقول:

هل من سـبـيلٍ إلى ذاتِ الـسُّـتـورِ ولـو
أنَّ الـقـنـا والـظُّـبـا من دونـهـا رَصَـدُ
فـفي هَـوَاهـا قـلـيلٌ أنْ يُـطَلَّ دمي
وكم لـهـا من قـتـيلٍ مـا لهُ قَـوَدُ[3]

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٤ / ٣٨ - ٤٠

(٢) المصدر نفسه ١ / ٤٧١

(٣) المصدر نفسه ٢ / ١٧

والشواهد على تعلق الشاعر الصرصري بالبيت الحرام كثيرة، ولا تخرج عما أوردناه، ومن أراد التثبت فديوانه الضخم أكبر دليل، وما أورده النبهاني في المدائح النبوية كفيل بأن يقر هذا الرأي عن هذا الشاعر المتشوق لرحاب بيت الله.

عبدالرحيم البرعي:

الشاعر المرزوق الذي رزق شهرة بقصائده التي ظلت تطوف حول المشاعر الدينية، هو عبدالرحيم بن أحمد بن عبدالرحيم البرعي، نسبة إلى جبل بُرع في اليمن، هذا الشاعر الذي يقول فيه المؤرخ الوشلي في كتابه (الثناء الحسن): (وضع اللهُ المحبة لشعره عند عامة الناس، فأقبلوا عليه، وأولعوا بحفظه واستماعه، وإنشاده[1])، ويعبّر البرعي عن شدة شوقه إلى مكة ومشاعرها، فنار الشوق التي تستعر في حشاه تلهب شوقه، وتؤجج توقه، فلا يقدر على الكتمان، وها هو يطويه شوقه وينشره كما يقول:

رحلتُ عنهم غداة البين من بُرَعِ
وفي الحشا لَهَبُ النيران مُسْتَعِرا
وسِرْتُ والشَّوْقُ يَطْويني ويَنْشُرُني
موَصِّلاً حرَّ تَهْجيرٍ بِبَرْدِ سُرَى[2]

ومن شعره الذي يلهج بحب هذه الأماكن المباركة طلبه على طريقة القدماء من صاحبه ليقف بربا المحصب ومنى، ويأمره بإعادة أحاديث تلك الأماكن، هذه الاستعادة التي يلذُّ له استرجاعها وسماعها، تمامًا كما قال ابن الرومي من قبل:

يُعادُ حَديثُها فيزيدُ حُسْنًا
وقد يُسْتَقْبَحُ الشيءُ المُعادُ

ويقول البرعي:

فَقِفِ المَطِيَّ ولو كَلَمْحَةِ ناظرٍ
برُبا المُحَصَّبِ أو مِنىً يا حادي
وَأَعِدْ حَديثَكَ عن أباطِحِ مكةٍ
وعنِ الفريقِ أرائحٌ أم غادي

---

(١) مقدمة شرح ديوانه ١٦

(٢) شرح ديوان البرعي ١٠٩

وَمَسَرَّةٍ لِلنَّاظرين بدتْ لنا
ما بين سوقِ سُويقةٍ وجيادِ
قنصتْ عقولَ أولي النُّهى بحبائلِ الصْـ
ـصَبَواتِ لا بحبائلِ الصَّياد
ومحاسنٍ طلعت طلائعهنَّ عن
حُللِ الكمال لحاضرٍ ولبادي
عكفتْ بساحَتِها الرِّفاقُ وإنّما
عكفوا على كبدٍ من الأكباد[1]

وهو يوري عن حبه تمامًا كما ورّى من قبله الصرصري، فيقول:

إنّي أُورِّي لغيري حينَ يسألُني
بذكرِ زينبَ عن ليلى فأُوهمُهُ[2]

وتقر عيونه برؤية أم القرى:

وفي أُمِّ القُرَى قَرَّتْ عُيونٌ
عَشِيَّةَ لاحَ زمزمُ والحطيمُ[3]

ويشاغله الطيف على البعد، فيقول:

طَيْفُ الخيالِ من النيّابتينِ سَرَى
إلى الحجازِ فَوَافَى مَضْجَعي سَحَرَا
سَرَى على بُعْدِ دارَيْنا يَنمُّ به
روحُ النَّسيمِ فَيُهدي مندلاً عَطِرَا
فكم وكم جازَ من سهلٍ ومن جبلٍ
ومِن وُعورٍ إلى أمِّ القُرَى وقُرَى

(١) شرح ديوان البرعي ١٣٢-١٣٣
(٢) المصدر نفسه ٩٦
(٣) المصدر نفسه ١٠٥

أفـــديـهِ من زائــــرٍ مـــا زارنـي أبـــدًا
وذاكـــرٍ مـــا نـــسي ودّي ولا ذكـــرا[1]

وِيظل الشوق يطويه وينشره حتى يبلغ غايته وهدفه:

حـتـى انـتـهـيتُ إلـى الـمـيـقـاتِ في زُمَرٍ
من وفـدِ مـكـةَ يـا طـوبى لـهـا زُمَـرا
ثمَّ اغْـتَـسَـلْـنـا وأَحْـرَمْـنـا وسـار بـنـا
حـادي الـمَـطِيِّ يـخـوضُ الـهَوْلَ والخَـطَرا
ولـم أزلْ رافـعًـا صـوتي بِـتَـلْـبـيَـتي
معَ الـمُـلـبّـينَ مِـمَّنْ حجَّ واعْـتَـمَـرا[2]

وهو لا يفتر عن ذكر تلك الديار والدعاء لها بالسقيا، وعن مرورها في خاطره طيفًا وحلمًا، ويبعث لها على البعد بالتحيات، ويوصي إخوانه الراحلين إليها، ويسفح الدموع شوقًا إليها، ويقبل عتباتها إذا ما سنحت له الأيام بزيارتها، هذا ديدن شعر البرعي في العديد من قصائده المدحية النبوية، فهو العاشق لمكة، المحب لبيت الله.

ابن معصوم:

هـو علي بن نظام الدين أحمد بن محمد بن معصوم، ولقبه صدر الدين، ترفعه مصادر النسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولد الشاعر في المدينة المنورة سنة ١٠٥٢هـ – من جمادى الأول، بعد سفر والده إلى الهند بدعوة من ملكها نظام حيدر أباد لمساعدته في إدارة شؤون الهند، انتقل شاعرنا وهو طفل رضيع مع أمه إلى مكة، التي توفيت وتركت الرضيع في كنف خالته، وبقي معظم طفولته في مكة، وبها تعلم تعليمه الابتدائي، وبعد سن الرابعة عشرة غادر إلى الهند للالتحاق بأبيه، وعاش فيها ما يقارب النصف قرن، وتقلب خلالها في المناصب إلى أن صار رئيسًا لديوان سلطنة إحدى ولايات الهند.

(١) المصدر نفسه ١٠٧
(٢) المصدر نفسه ١٠٩

وبعد أن أحسَّ بتقدم في السن، وفي تغير السلطان عليه، استأذن في العودة إلى الوطن، وكان على البعد يرسل قصائد الشوق والحنين.

وتبدو لذعات الشوق في قلبه وعلى لسانه مبكرة، فها هو ذا يغادر وهو بعد في ريعان الشباب وأوله، فيخاطب مكة ويقول عند وداعها:

أمعادُ هل يُفضي إليكِ معادُ
يومًا برغمِ معاندٍ ومُعَادي
فأفوزَ منكِ بكلِّ ما أمَّلْتُهُ
ذُخْرًا لآخرتي ويومِ مَعَادي[1]

وها هو موسم الحج قد اقترب فيتجدد الشوق، وتهيج به الذكرى، ويروح يرسل السلام لتلك الأماكن، ويدعو حادي الركب لينوب عنه في تقبيل ثراها الذي يفوق المسك رائحة والدر قيمة، فيقول:

يا حادي الظعنِ إنْ جُزتَ المَواقيتا
فحيِّ مَنْ بِمِنىً والخَيْفِ حُيِّيتا
وَسَلْ بِجَمْعٍ أَجَمْعُ الشَّمْلِ مُلتئمٌ
أمْ غالهُ الدَّهرُ تفريقًا وتَشْتِيتا
والْثِمْ ثَرى ذلك الوادي وحُطَّ بهِ
عنِ الرِّحالِ تنلْ يا صاحِ ما شيتا
عَهْدي به وَثَراهُ فائحٌ عَبِقٌ
كالمِسْكِ فتَّتهُ الداريُّ تفْتيتا
والدرُّ ما زالَ من حَصْبائهِ خَجِلاً
كأنَّ حصباءَهُ كانت يواقيتَا[2]

ثمّ يعرج على وصف الحجاج وهم يطوون البيد والفيافي، لا يلوون على شيء سوى هدف واحد يسعون إليه ألا هو الإجابة لداعي الله:

---
(١) رحلة ابن معصوم ٤٠
(٢) نفحة الريحانة ٤ / ١٨٩

يــؤمُّهُ الـــوفـــدُ من عُـــرْبٍ ومن عَـــجَمٍ
ويَـسْـبُـرونَ لهُ الـبـيـدَ الـسَّـبـاريـتـا
يَـطْوُونَ عُـرْضَ الـفَـيـافي طـولَ لـيـلِـهِمُ
لا يــهـتــدونَ بــغـيــرِ الـنَّـجْمِ خِـرّيـتـا
لا يَـــطْـــعَمُ الــــمـــاءَ إلاّ بلَّ غُـــلَّـــتِهُ
ولا يــذوقُ سـوى سـدٍّ الـطَّـوَى بـيـتـا
يَـفْـري جُـيـوبَ الـفَلا في كلِّ هـاجـرةٍ
يُـمـاثلُ الـضبُّ في رمْـضَـائـهـا الـحـوتـا
تَـرَى الـحَـصَى جَـمَـراتٍ من تَـلَـهُّـبِـهـا
كـأنمـا أُوقِـدَتْ في الـقَـفْـرِ كِـبْـريـتـا
أجـــابَ دعـــوةَ داعٍ لا مَـــرَدَّ لــــهـــا
قَضَى عـلى الـنـاس حجَّ الـبـيتِ تَـوقِـيـتَـا
يــرجــو الـنَّـجـاةَ بــيــومٍ قــد أهــابَ بهِ
في مــوقفٍ يَـدَعُ الــمـنـطـيقَ سِكِّـيـتَـا

ويستمر في وصفه على كلّ حالاته، ولعلَّ ابن معصوم وهو يشرح حالة الحاج، ويصفه في حركته ابتداءً من خروجه للحج ومرورًا بكل أعمال الحاج في الحج، وانتهاءً بوداع البيت، ليؤكد على أمرين: الأول: دلالة هذا الوصف بكل دقائقه على هذا الشوق، فكأن خيال الشاعر ينتقل به في ثنايا هذه الرحلة المقدسة كلون من ألوان المعايشة للحدث، والتلذذ باسترجاعه.

والثاني: هو تميز ابن معصوم من غيره ممن وصف رحلة الحاج في حجه، أنه لم يقف فقط عند ذكر ما يقوم به الحاج في أداء مناسكه، كما فعل غيره ممن وصفوا ذلك، بل هو يجانس ويقابل مقابلات لطيفة، وتشع التورية والمجانسة في كل لفظة من ألفاظ المناسك، والمتتبع لهذا الأمر يجده واضحًا، كما يبدو في متابعة هذا الوصف:

فسَارَ والعَزْمُ يطويهِ ويَنْشُرُهُ
ينازلُ البينَ تصبيحًا وتبْييتا
حتى أناخَ على أم القُرى سَحَرًا
وقد نَضَا الصُّبْحُ للظلماءِ إصْلِيتا
فقام يقرعُ بابَ العَفْوِ مُبْتَهِلاً
لم يَخْشَ غيرَ عتابِ الله تَبْكِيتا
وطاف بالبيت سبعًا وانثنَى عَجِلاً
إلى الصّفا حاذرًا للوقتِ تَفْويتا
وراح مُلْتَمِسًا نيلَ المُنَى بِمِنىً
ولم يخفْ غيرَ حلِّ الخيفِ تَعْنيتا
وقامَ في عرفاتٍ عارفًا ودعا
ربّاً عَوارِفُهُ عَمَّتْهُ تربيتا
وعادَ منها مُفِيضًا وهْو مزدلفٌ
يرجو من الله تمكينًا وتَثْبيتا
وبات للجَمَراتِ الرُّقْشِ مُلْتَقِطًا
كأنّهُ لاقطٌ دُرّاً وياقوتا
وحينَ أصبحَ يومَ النَّحْرِ قام ضُحًى
يوفي مناسِكَهُ رَمْيًا وتسبيتا
وقرَّبَ الهَدْيَ تهديهِ شرائعُهُ
إلى الهُدى ذاكرًا للهِ تسميتا
وملأتْهُ ليالي الخَيْفَ بَهْجَتَها
فحجَّ للدِّين والدنيا مواقيتا
ثمَّ اغْتَدَى قاضيًا من حَجِّهِ تَفَثًا
يرجو لِتَزْكِيَةِ الأعمالِ تزكيتا

وودَّعَ البيتَ يرجو العَوْدَ ثانيةً
وليتَهُ عنهُ طولَ الدَّهرِ ما ليتا[1]

وشوق ابن معصوم عام للحجاز، لايتوقف عند مكان بعينه، كما في هذا القول:

ذاكَ الحجازُ وهذه كُثْبَانُهُ
فاحفظْ فؤادكَ إنْ رَنَتْ غِزلانُهُ
واسفحْ دموعكَ إنْ مررتَ بسفحهِ
شَغَفًا بهِ إنَّ الدموعَ جُمانُهُ
وَسَلِ المنازلَ عن هوىً قضَّيْتَهُ
هلْ عائدٌ ذاكَ الهَوَى وزمانُهُ[2]

ويدعو بالسقيا لأيامه السالفة بالحجاز، ويتلهف على ما مضى منها، وفي مقابلة طريفة يبين عن ذاك الماضي الذي ارتحل، وأحلَّ مكانه الوجد والتذّكر:

سَقَى اللهُ أيّامَنا بالحجازِ
ولا جازها الغَيْدَقُ الهاطلُ
فما كانَ أَرْغَدَ عيشي بها
إذِ المنزلُ القفرُ بي آهلُ
لقد طال وَجْدِي وذكري لها
وليسَ لعصرٍ مَضَى طائلُ
فيا لهفَ نفسي لهُ ماضيًا
تَرحَّلَ والوجدُ بي نازلُ
ترى من غرامي بهِ دائمٌ
وحاليَ من فقدهِ حائلُ

---

(١) نفحة الريحانة ٤ / ١٨٩–١٩٢ الداري: نسبة إلى دارين وهو العطار. السباريت: القفار. الخرّيت: الدليل. البيت: القوت. إصليت: سيف صقيل. تبكيت: تسكيت. تعنيت: إضرار ومشقة. تربيت: تربية. تسبيت: ذبح الهدي. تسميت: أي التسمية وهي ذكر الله على الذبح. التفث: ما يصيب المحرم بالحج من ترك الأدهان والغسل والحلق. التزكيت: الملء. ليت: صُرف.

(٢) أنوار الربيع ١ / ٣٧٥

دَرَى أنَّ وَجْـــــدي بـهِ لا يـــــزولُ

وصَـــبْـــرِيَ من بـــعـــدهِ خـــاذلُ[1]

وتحس هذا الشوق الحارق الذي يعانيه ابن معصوم، وذكر الحجاز وإن تكرر في أشعاره، فإنَّ التوجه الحقيقي في هذا الشوق والحنين إنما يُصوَّب نحو مكة في أغلبه، واقرأ معي هذه العواطف العارمة في قوله:

آهٍ لأيّـــامِ الــحـــجـــازِ وســـاكـــني

أرضِ الـحــجــازِ ورَوْضِـهِ الــمـِـعْــطَـارِ

لـم أوفهِ حـــقّـــاً أحـــالَ بـهِ عـــلى

قـلـبي الـكـئـيبِ ومَـدْمَـعي الـمِـدْرارِ

قَــسَــمًـا بمــكــةَ والحــطــيمِ وزمــزمٍ

والـــبـــيتِ ذي الأركـــانِ والأســـتـــارِ

مـــا عنَّ لي ذِكْـــرُ الـحـــجـــازِ وأهـــلهِ

إلاّ عَــدِمْتُ تَـــجَـــلُّـــدي وقَـــراري[2]

ومن أين له أن يتجلّد ويصبر ؟ وكيف يقرُّ له قرار ولم يكحل عينيه برؤية مكة ؟ تلك التي هي عنده أغلى من روحه، ويكرر كلمة الفراق وكأنه يهذي بها، كما في قوله:

فــارقتُ مــكــةَ والأقــدارُ تُــقْــحِـمُــني

ولـي فـــؤادٌ بـــهـــا ثـــاوٍ مَــدَى الـــزَّمَنِ

فـارقـتُـهـا لا رضىً مـني وقـد شَـهِـدَتْ

بـــذاكَ أمـلاكُ ذاكَ الحِـــجْـــرِ والـــرُّكُنِ

فـــارقـــتُـــهـــا وبـــودِّي إذْ فَـــرَقْتُ بـــهـــا

لـو كـان قـد فـارقتْ روحـي بـهـا بَـدَني[3]

---

(١) ديوان ابن معصوم ٢٣٢

(٢) المصدر نفسه ١٨٧

(٣) رحلة ابن معصوم ٣٨

ويبدو أنَّ طول البعد ورَّثهُ شدَّةَ الوجد، وما هذا الهيمان والتعلق واللهفة، وهذا الشعر الذي يزفر هذه الأنّات المعذبة إلا دليل على صدق هذا الحنين، وعندما نقرأ قصائده في مكة، نتخيل أنّنا أمام مجنون ليلى، أو جميل بثينة، وتملَّ معي هذه الأبيات التي يتوجع فيها من بعده، ويشكو بثه وعظيم حزنه، ثم هذه الزفرات والأمنيات لذكريات خلت، وتعداد الأماكن التي شهدت مراتع صباه، كل ذلك يبين عن شعور مستفز، وعاطفة متدفقة:

خَليلَيَّ هل عهدي بمكةَ راجعُ
فقدْ قُليتْ بالهندِ منِّي المَضاجعُ
وهل شربةٌ من ماء زمزمَ ترتوي
به كبدٌ قد أظْمَأَتْها الوقائعُ
وهل عامرٌ رَبْعُ الهَوَى بسويقةٍ
فعهدي بذاكَ الربعِ للشَّمْلِ جامعُ
وهل من صفا من سالف العيش بالصَّفا
يعودُ لنا يومًا فتصفو المشارعُ
سقى اللهُ ما بينَ الحَجُونِ إلى الصَّفا
مرابعَ فيها للظباءِ مراتعُ
وجادَ بأجيادٍ منازلَ جيرةٍ
بهنَّ حَمَامُ الأبطحينِ سواجعُ
وحيّا الحيا بالمأزمينِ مَعاهدًا
فما عهدُها عندي مدى الدهرِ ضائعُ[1]

ألا تذكرنا هذه النفثات، بنفثات قيس بن الملوح في ليلى ؟حيث يقول:

كأنيَّ من ليلى الغَداةَ كقابضٍ
على الماءِ خانَتْهُ فُروجُ الأصابعِ[2]

(١) ديوان ابن معصوم ٢٢١
(٢) ديوان مجنون ليلى ٤٧

ويقسم بحياة أهل مكة على صدق مشاعره، وأن هذا ما كان حديثًا يفترى، يقول:

وحــيــاتــكمْ يــاســاكــني أمّ الــقُــرَى

مــا كــانَ حــبُّــكُمُ حــديــثًــا يُــفْــتَــرَى

أهـــوى ديـــارَكُمُ الـــتي مَنْ حَـــلَّـــهَـــا

حَلَّ الجِـــنَـــانَ بـــهـــا وَعَلَّ الـــكَـــوْثَـــرا

قـــالَ الـــعَـــذولُ وقـــد أطـــالَ مَلامَـــتي

فـــيـهِ ألا تُـــصـــغي ؟ فـــقـــلتُ ألا تـــرى

لا والـــذي فـــتنَ الـــعـــقـــولَ بـــحُـــسْـــنهِ

مــا ارتــابَ قــلــبي من هَــوَاهُ ولا امْــتَــرى

فــارقــتُهُ كــرهًــا وواصــلتُ الــنَّــوَى

قَسْرًا وأضحى الصبرُ مُنْفَصِمَ العُرَى

لمْ أدرِ أيّ الـــغُـــصَّـــتَـــيْنِ أســـيـــغُـــهـــا

إنْ عنَّ لي ذكـــرُ الـــفـــراقِ أوِ اعْـــتَـــرَى

أفـــراقُ إلـــفي أم فـــراقُ مـــواطـــني

وكلاهـــمـــا لَـــهَبٌ بـــقـــلـــبي قـــد وَرَى

لـــلـــهِ أيّـــامٌ بمـــكـــةَ والـــصـــبـــا

تُـــهـــدي إلى فَـــوْدَيَّ مِـــسْـــكًـــا أذفَـــرا

أشـــري بـــكلِّ الـــعـــمـــرِ مـــنـــهـــا ســـاعـــةً

لـــو أنَّـــهـــا ممّـــا تُـــبـــاعُ وتُـــشْـــتَـــرَى[1]

---

(١) ديوان ابن معصوم ١٢٦

والمتابع لشعر ابن معصوم يجد عاشقًا أضناهُ العشق، ومحبًا بلغ به الحب حدَّ الوله والتدله، فما كان منه تحت إلحاح الشوق أن زمَّ جماله، وشدَّ رحال العودة إلى المنابع الصافية، على الرغم من المكانة الرفيعة، والحياة الرغيدة التي كان يحياها في الهند، عاد إلى الوطن الذي لم يفارق عينيه لحظة واحدة.

عاد وفي جعبته شوق السنين الطوال، فهل يرتوي ؟ لقد نهل من ماء زمزم، وكحّل عينه برؤية الكعبة، فحجَّ وزار، وماذا بعدُ ؟ الغربة الطويلة كانت حاجزًا وستارًا، ويبدو أنه أحسَّ بالغربة في وطنه، فساح في البلاد مرة أخرى، إلى أن وافاه القدر المحتوم في شيراز عام ١١٢٠هـ.

✡✡✡✡✡

الخاتمة

أما بعد، فالحديث عن مكة كما قال الشاعر:

يُعادُ حديثُها فيزيد حسنًا
وقد يُستقبحُ الشيءُ المعادُ

وحديث مكة حديث ذو شجون، أشجى أفئدتنا ومسامعنا منذ تلك الآهة التي صدعت قلب مضاض الجرهمي:

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصّفا
أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامرُ

وحديث السامر عن مكة يبدأ من نشأتها وبداياتها الأولى، متصل الحلقات، عابرًا الزمان من عصر إلى عصر، ليحطَّ ركابه في أرض زماننا وعصرنا هذا محملاً بكل ألوان الطيف.

وما بالك بحديث يستغرق شؤون مكة وشجونها ! وما أدراك ما مكة ؟! هذه المدينة العظيمة التي تقص علينا حكاية البشرية من لدن آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن حديث هذه المدينة سيكون من العمق والشمول، والتنوع والتفرد في شكل لا يناظره حديث، ولا تشبهه حكاية، ولا تشاكله قصة.

ولذلك فإن الراوي سيعجز لا محالة، ومن هنا فسأختصر الحديث اختصارًا، وسأوجز لك النتائج إيجازًا، فأقول:

إن النتيجة الأولى لهذا البحث أنه يعد في نظري أول كتاب يُستخلص عن مكة في الشعر العربي في جميع عصوره، على الرغم من سعة وتعدد وتنوع المكتبة المكية.

كما أنه استطاع أن يجمع الوحدات المجزأة إلى دائرة واحدة، فالأغراض والموضوعات والحوادث سيقت في مجرى واحد على تعدد العصور، ومن هنا اجتمعت الرؤى الشعرية، كما اجتمعت التجارب الشعرية على صعيد واحد، هو صعيد عكاظ هذا البحث، فكان التآلف والوحدة والتتابع والاستمرارية، فالتقت كما يقول العرب: حلقتا البطان.

كما يتميز هذا البحث من غيره في أن القضايا التي تحدث في عصر من العصور قد تشغل الشعراء في آنها وزمانها، ثم تقف عند ذلك، بينما قضايا مكة ظل لها تواصلها واستمرارها، ولنضرب مثلاً بحادثة الفيل، أو بالشوق والحنين، أو تصوير حدث كالحج مثلاً أو غير ذلك، فإن التواصل بين كل العصور يعطي متعة التمتع بالتنقل في الفكرة الواحدة من شاعر إلى آخر، ومن عصر إلى عصر.

– ولخصوصية مكة، فقد وجدنا من السمات والخصائص في هذا الشعر ما يجعل ارتباطه بمكة حميمياً. فالصور والألفاظ كان لها من الارتباط بالمكان ما يجعل لها تعانقًا وتآلفًا عضوياً لا تكاد تجده في غيرها. والنسبة إلى الكعبة، والإضافة إليها وإلى سائر المشاعر يؤكد على تلك الخصوصية.

– وأخيرًا فلذة الحديث عن مكة ليس لمنتهاها حد، ولكن كما قال الجاحظ: (للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل الهذَر) ونحن نفر من الملال، ونعوذ بالله من الهذر الذي لا طائل وراءه.

وأختم بالسؤال الملح المتكرر على الله عز وجل في أن يكون هذا العمل قربة خالصة لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

****

المصادر والمراجع

- ابن دقيق العيد حياته وديوانه، تأليف علي صافي حسين، دار المعارف بمصر.
- إتحاف الورى بأخبار أم القرى للنجم عمر بن فهد، تحقيق فهيم محمد شلتوت، نشر جامعة أم القرى.
- إثارة الترغيب والتشويق إلى تاريخ المساجد الثلاثة والبيت العتيق، تأليف الإمام محمد بن إسحاق الخوارزمي، دراسة وتحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لشمس الدين أبي عبدالله المقدسي، ليدن ١٩٠٦م.
- أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية جمع وتحقيق الدكتور مسعد العطوي، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار - تأليف أبي الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي، تحقيق رشدي الصالح ملحس، مطابع دار الثقافة - مكة المكرمة الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م
- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام لسعيد الأفغاني، دار الفكر بدمشق، الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م.
- الأدب العربي في إقليم خوارزم، تأليف هند حسين طه، منشورات وزارة الإعلام، العراق ١٩٧٦م
- الإشراف على تاريخ الأشراف، تأليف عاتق بن غيث البلادي، دار النفائس - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق عبدالستار فراج، دار الثقافة، بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.
- الأوائل لأبي هلال العسكري، تحقيق الدكتور وليد قصاب ومحمد المصري، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض.
- البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ، تحقيق الدكتور محمد مرسي الخولي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ١٩٨١/م.
- التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول، تأليف الدكتور مجاهد مصطفى بهجت، نشر وزارة الأوقاف ببغداد، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢/م.
- الحج في الأدب العربي لعبدالعزيز الرفاعي، المكتبة الصغيرة، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- الحصين بن الحمام المري سيرته وشعره، جمع وتحقيق الدكتور شريف علاونة، دار المناهج - عمان ٢٠٠٢م.

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني - تحقيق الدكتور إحسان عباس - دار الثقافة، بيروت ١٣٩٨هـ١٩٧٨/م.

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لأبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالملك المراكشي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

- الروض الأنف للسهيلي، دار المعرفة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

- الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٥م.

- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبدالحفيظ شلبي.

- الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري، للدكتور عائض الردادي، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

- الشعر الحديث في الحجاز تأليف عبدالرحيم أبو بكر، المطبعة السلفية، القاهرة.

- أم القرى مكة المكرمة لفؤاد علي رضا، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٢م.

- أنوار الربيع في أنواع البديع، تأليف السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان - العراق ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

- بدائع البدائه لابن ظافر الأزدي، بولاق ١٢٧٨هـ

- تاريخ الأمم والملوك للطبري، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت ١٩٤٨م.

- تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٠م.

- تاريخ العرب للدكتور فيليب حتي، ترجمة محمد مبروك نافع، القاهرة ١٩٥٣م.

- تاريخ قريش للدكتور حسين مؤنس، دار المناهل ودار العصر الحديث، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

- تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تأليف الإمام أبي البقاء محمد بن أحمد بن الضياء المكي، تحقيق علاء إبراهيم الأزهري، وأيمن نصر الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

- تكملة خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء العراق، لعماد الدين الأصفهاني، تحقيق محمد بهجة الأثري، مطبوعات المجمع العلمي العراقي.

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.
- جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، تحقيق الدكتور محمد علي الهاشمي، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- جمهرة الأمثال للعسكري، الهند ١٣٠٧هـ.
- خادم الحرمين الشريفين في الشعر السعودي المعاصر، تأليف الدكتور ظافر الشهري وآخرين، مطابع الحسيني ١٤٢٣هـ.
- دراسات في تاريخ العرب: عصر ما قبل الإسلام للدكتور السيد عبدالعزيز سالم، دار المعارف بمصر ١٩٦٧م.
- دمية القصر وعصرة أهل العصر لأبي الحسن الباخرزي، تحقيق الدكتور سامي مكي العاني، دار العروبة للنشر، الكويت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- ديوان إبراهيم بن هرمة، تحقيق محمد جبار المعيبد، مطبعة الآداب بالنجف الأشرف ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ .
- ديوان ابن الرومي، تحقيق الدكتور حسين نصار، مطبعة دار الكتب ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
- ديوان ابن حمديس الصقلي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر - دار بيروت ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م.
- ديوان ابن زقاعة الغزي، مخطوط في مكتبة المؤلف.
- ديوان ابن عنين، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر.
- ديوان ابن مقبل، تحقيق الدكتور عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث، دمشق، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.
- ديوان ابن نباتة، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.
- ديوان أبي دهبل الجمحي، تحقيق عبدالعظيم عبدالمحسن - مطبعة القضاء بالنجف، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- ديوان أبي طالب، جمعه وشرحه الدكتور محمد التونجي، سلسة (شعراؤنا)، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

– ديوان أبي نواس، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

– ديوان أزهار برية، للدكتور إحسان عباس، دار الشروق – عمان ١٩٩٩م.

– ديوان إسحاق الموصلي، جمعه وحققه ماجد أحمد العزي، مطبعة الإيمان بغداد، الطبعة الأولى ١٩٧٠م.

– ديوان أشواق وإشراق، لعمر بهاء الدين الأميري، دار القرآن الكريم – ١٣٩٣هـ ١٩٧٣/م.

– ديوان الأعشى الكبير، شرح وتحقيق الدكتور محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة السابعة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

– ديوان الأمير عبدالقادر الجزائري، جمع الدكتور ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت.

– ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر.

– ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، تحقيق الدكتور نعمان محمد طه، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧/م.

– ديوان الخالديين، جمع وتحقيق الدكتور سامي الدهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

– ديوان السري الرفاء، تحقيق ودراسة الدكتور حبيب حسين الحسيني، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨١م.

– ديوان الشامي، لأحمد بن محمد الشامي .

– ديوان الشريف الرضي.

– ديوان الشريف المرتضى، تحقيق رشيد الصفار المحامي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٨م.

– ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور عبدالحفيظ السطلي، المطبعة التعاونية بدمشق.

– ديوان جعفر الخطي: دراسة وتحقيق الدكتورة أنيسة أحمد خليل المنصور والدكتور عبدالجليل منصور العريض، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت ٢٠٠٢م.

– ديوان حاتم الطائي، دراسة وتحقيق الدكتور عادل سليمان جمال، مطبعة المدني – القاهرة.

– ديوان حسان بن ثابت، دار صادر – بيروت.

– ديوان حميد بن ثور الهلالي، جمع وتحقيق الدكتور محمد شفيق البيطار، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، السلسلة التراثية (٢٣)، الطبعة الأولى، الكويت ٢٠٠٢م.

– ديوان ذي الرمة شرح الإمام أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي، حققه الدكتور عبدالقدوس أبو صالح، دمشق، مطبعة طربين ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م.

- ديوان صالح الشرنوبي، تحقيق الدكتور عبدالحي دياب، دار الكاتب العربي بالقاهرة.
- ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات، تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم، دار صادر - بيروت ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.
- ديوان عرقلة الكلبي، تحقيق أحمد الجندي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.
- ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة.
- ديوان مع الله، للأميري، مطبعة الأصيل بحلب ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.
- ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا، لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، تحقيق الدكتور عبدالفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.
- زاد المسافر لأبي بحر صفوان التجيبي، إعداد عبدالقادر محداد، نشر دار الرائد العربي - بيروت ١٩٧٥م.
- سلافة العصر، لابن معصوم.
- شرح اختيارات المفضل، صنعة الخطيب التبريزي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- شرح القصائد العشر، صنعة الخطيب التبريزي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق االجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ.
- شرح ديوان ابن الفارض، جمع رشيد بن غالب اللبناني، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- شرح ديوان ابن المقرب العيوني، تحقيق الدكتور أحمد موسى الخطيب، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت ٢٠٠٢م.
- شرح ديوان البرعي - مكتبة المعارف، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- شرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي، نشره أحمد أمين وعبدالسلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة - الطبعة الثالثة.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى.
- شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الأندلس .
- شرح ديوان كعب بن زهير لأبي سعيد السكري، مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الأولى١٣٦٩هـ.

- شرح أشعار الهذليين للسكري، حققه عبدالستار أحمد فراج، مكتبة خياط – بيروت.
- شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي، جمع عبدالعزيز الزير ومحمد الأطرم، الرياض ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- شعر المتوكل الليثي، جمع الدكتور يحيى الجبوري، مكتبة الأندلس – بغداد.
- شعر النعمان بن بشير الأنصاري، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، مطبعة المعارف، بغداد – الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٨/م.
- شعر خداش بن زهير، تحقيق الدكتور رضوان النجار، مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الثالث عشر.
- شعر دعبل الخزاعي، صنعة الدكتور عبدالكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣/م.
- شعر طيء وأخبارها في الجاهلية والإسلام، جمع وتحقيق ودراسة الدكتورة وفاء فهمي السنديوني، دار العلوم للطباعة والنشر بالرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- شعر عدي بن زيد، تحقيق وجمع محمد جبار المعيبد، دار الجمهورية للنشر– بغداد ١٩٦٥م.
- شعر عروة بن أذينة، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، مكتبة الأندلس، بغداد.
- شعر قبيلة أسد وأخبارها في الجاهلية والإسلام، جمع وتحقيق الدكتورة وفاء فهمي السنديوني، نشر جامعة الملك سعود بالرياض ١٤٢١هـ.
- شعر قيس بن ذريح، جمع وتحقيق الدكتور حسين نصار – مكتبة مصر.
- شعر كنانة من الجاهلية إلى آخر العصر الأموي، دراسة وجمع فهد بن صالح الجربوع، رسالة ماجستير عام ١٤١٦هـ بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
- شعر مروان بن أبي حفصة، جمعه وحققه الدكتور حسين عطوان، دار المعارف، الطبعة الثالثة.
- شعر نصيب بن رباح، جمع وتقديم الدكتور داود سلوم، مكتبة الأندلس – بغداد ١٩٦٧م.
- شعراء بني قشير في الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي، تحقيق وجمع الدكتور عبدالعزيز الفيصل، طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي – القاهرة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- شعراء عبدالقيس في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور عبدالحميد المعيني، نشر مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت ٢٠٠٢م.

- صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية استانبول، تركيا.
- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العلمية.
- طبقات الشعراء لابن المعتز، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني.
- العفو والاعتذار، لأبي الحسن محمد بن عمر الرقام، حققه الدكتور عبدالقدوس أبو صالح، طبع إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤١٠هـ / ١٩٨١م
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، لتقي الدين الفاسي، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت.
- العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي تصحيح أحمد أمين وآخرين، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٧٥هـ.
- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تأليف عزالدين عبدالعزيز بن عمر الهاشمي القرشي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- فتوح البلدان، للبلاذري أحمد بن يحيى، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦م.
- فرائد الخرائد في الأمثال لأبي يعقوب يوسف بن طاهر الخويي، تحقيق الدكتور عبدالرزاق حسين، طبع دار النفائس، عمان - الأردن.
- قصائد جاهلية نادرة، جمع الدكتور يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، للفتح بن خاقان، تحقيق الدكتور يوسف خريوش، مكتبة المنار، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .
- كتاب نسب قريش، لأبي عبدالله الزبيري، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٥٣م.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن لابن الجوزي، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، دار الراية، الرياض ١٤١٥هـ.
- مجلة المنهل تصدر في جدة في المملكة العربية السعودية.
- مجمع الأمثال للميداني، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، دار السعادة.

- المجموعة الشعرية الكاملة لمحمد بن أحمد العقيلي، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢/م.
- المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، جمعها الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- المحمدون من الشعراء وأشعارهم لجمال الدين القفطي، تحقيق رياض عبدالحميد مراد، مطبعة الحجاز بدمشق ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
- مروج الذهب للمسعودي، دار الأندلس، بيروت.
- المستدرك في شعر بني عامر من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور عبدالرحمن محمد الوصيفي، إصدار نادي المدينة المنورة الأدبي.
- المستظرف في كل فن مستطرف للإبشيهي، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- مسند أحمد بن حنبل، المكتب التجاري – بيروت ١٩٦٩م.
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، للفتح بن خاقان، تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار ومؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- مع ابن جبير في رحلته، تأليف عبدالقدوس الأنصاري، المطبعة العربية الحديثة، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت..
- معجم الأماكن الواردة في المعلقات العشر، تأليف سعد بن عبدالله الجنيدل، طبع إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١١هـ ١٩٩٠/م.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار بيروت للطباعة والنشر.
- معجم ما استعجم لأبي عبيدالله البكري، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٤٥م.
- مكة في عصر ما قبل الإسلام، للسيد أحمد أبو الفضل عوض الله، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم – تأليف الدكتور أحمد إبراهيم الشريف – دار الفكر العربي – القاهرة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- مكتي قبلتي، منشورات دار الرفاعي، السلسلة الشعرية (٧) الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.
- المعارف لابن قتيبة، تحقيق الدكتور ثروت عكاشة، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

- المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.
- المقتطف من أزاهر الطرف، لابن سعيد الأندلسي، تقديم ودراسة الدكتور سيد حنفي حسنين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م
- المقدمة لابن خلدون، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٩م.
- الملك عبدالعزيز في عيون شعراء الشام، تأليف خالد بن محمد الخنين، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى، جمع إسماعيل حسين أبو زعنونة، دارة الملك عبدالعزيز ١٤٩١هـ.
- الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر، تأليف عبدالقدوس الأنصاري، دار العمير للثقافة والنشر، جدة الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- المنتخب والمختار في النوادر والأشعار لجمال الدين ابن منظور، تحقيق الدكتور عبدالرزاق حسين - دار عمار، عمان - الأردن ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
- من المديح النبوي في العصر المملوكي - تأليف غازي شبيب - المكتبة العصرية صيدا ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- الموشح لأبي عبدالله المرزباني، تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر ١٩٦٥م.
- موقع عكاظ لعبدالوهاب عزام، دار المعارف بمصر ١٩٥٠م.
- النبوغ المغربي في الأدب العربي، تأليف عبدالله كنون.
- نشر الرياحين في تاريخ البلد الأمين، تأليف عاتق بن غيث البلادي.
- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب لابن سعيد الأندلسي، تحقيق الدكتور نصرت عبدالرحمن، مكتبة الأقصى - عمان - الأردن ١٩٨٢م.
- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر - بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- نفحة الريحانة للمحبي.
- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، طبع دار المعرفة، بيروت.
- هديل الحمام في تاريخ البلد الحرام - تأليف عاتق بن غيث البلادي، دار مكة للنشر والتوزيع ١٤١٦هـ.

****

فهرس الأعلام

(أ)

إبراهيم (عليه السلام) ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٦٨، ٧٣، ١١٤، ١١٥، ١٢٤، ١٥٠، ١٥١، ٢١٩، ٣٠٩

إبراهيم الخياري ١٨٤

إبراهيم المالكي ١١٢

إبراهيم أمين فودة ٤٦

إبراهيم بن إسحاق الحربي ٢٠٨

إبراهيم بن يوسف المهتار المكي ٢٠٩

إبراهيم خليل العلاف ٤٦

إبراهيم نتو ٤٦، ١٤٣

أبرهة ٨٤، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٥٧

ابن أذينة الثقفي ٢٣٠

ابن الأثير ٢٥٩

ابن الأعرابي ٧١

ابن الأنباري ١٣٢

ابن الجوزي ١٨٣، ١٨٥

ابن الحداد ٢٧٠

ابن الحكاك المكي ٤٣

ابن الدمينة ٣٠٠

ابن الرومي ٢٦٩

ابن الزبير ٢١١، ٢١٩

ابن الساعاتي ٢٧٤

ابن الصاحب ١٥٩

ابن الفارض ٤٦، ١٤٢، ١٤٨، ١٤٩، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٩٦، ١٩٧، ٢٧٣، ٣٠٢، ٣٠٤
ابن المعتز ٩٨، ٢٥٧
ابن المقرب العيوني ١٣٠، ٢٠٢، ٢٧٢، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٧، ٢٩٧
ابن النجم ٢٦٢
ابن أم مكتوم ١٥٧
ابن إياس ٢٤٢
ابن أيوب ٢٤٢
ابن جابر الأندلسي ٤٥
ابن جبير محمد بن أحمد بن جبير الكناني ١١، ١٧٥، ١٩١، ٢٨٣، ٣١٧، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٥
ابن جدعان ٢٠٤، ٢٤٤
ابن جماعة ١٥٩
ابن حبان ٢١
ابن حجة الحموي ٤٥
ابن حرب ٢٥١
ابن حزم ٢٠٥
ابن حمديس ٢٧٢، ٣٠٧، ٣٠٨
ابن حيوس ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ٢٧٧، ٢٧٩، ٣٠٢، ٣٠٦
ابن خلدون ٤٥
ابن خلكان ٣٢٥
ابن دريد ١١٦، ١١٧، ١٣١
ابن دقيق العيد ٢٢، ٤٥، ١٩٢، ١٩٤
ابن زقاعة ٢٨٢، ٢٨٣
ابن إسحاق ٢٢٥
ابن سعد ٢٩٥

ابن سعيد الأندلسي ١٦١، ١٦٢

ابن سلام الجمحي ٤٢، ١٣٤، ٢٢٧، ٢٤٠، ٢٩٤

ابن سيد الناس اليعمري ٤٥

ابن صمادح ٢٧٠

ابن طباطبا ٣١٧

ابن ظهيرة القرشي ٢٥

ابن عباس ٣١، ١٥٠

ابن عبد ربه الأندلسي ٢٣٧

ابن عربي ٤٦

ابن عساكر ١٧٥

ابن عمر ١٨

ابن عنين ٢٠٧، ٢٧٧، ٢٩٧

ابن غازي المكناسي ٢٠٩

ابن فارس ١٣

ابن فرتنى ٢٠٦

ابن قتيبة ٢٠٤، ٢١٧، ٢٢٠

ابن كثير ٢٤٦

ابن المعتز ١٨٩

ابن معصوم (علي بن نظام الدين أحمد بن محمد بن معصوم) الملقب بـ (صدر الدين)

١١، ١٨٤، ١٨٩، ٣١٧، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥١

ابن مقبل ٢٠٠

ابن مناذر ٩٨، ١٠١

ابن نباتة ٤٥، ٢٧٢، ٢٧٣

ابن نوح ٢٥٧

ابن هاشم ١٥
ابن هرمة ١٣٢
ابن هشام ٢٠، ٧١، ١١٣، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٤٧، ٢٤٩، ٣١١
ابن وهاس ٣٢٦
أبو الحسن بن أضحى ٢٨٤
أبو النظر الطرابلسي ٢٨١
أبو إسحاق الحربي ١٤٠
أبو الأسود الدؤلي ٩٠
أبو الإقبال اليعقوبي ١١٩
أبو البختري بن هشام بن الحارث ٨٦، ٢٤٨
أبو البقاء محمد بن أحمد بن الضياء المكي الحنفي ٢٤
أبو الحسن التهامي ٤٣
أبو الحسن علي بن الحسن (ابن الريحاني) ٤٣
أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي ٢٧٩
أبو الخير بن عبدالقوي ٣١٤
أبو السعادات ٣١٤
أبو الصلت بن ربيعة الثقفي ٢٣٣
أبو الطيب محمد بن شهاب الدين المكي الفاسي ٢٤
أبو العباس بن ثوابة ٢٦٩
أبو العطاف جرير بن خرقاء البجلي ٢٩٠
أبو العميثل ١٤٢
أبو الفتوح (أمير مكة) ٤٣
أبو الفضل عبدالمحسن بن محمود التنوخي الحلبي ٢٣٤
أبو الفضل محمد بن العقاد ١٨٤

أبو القاسم بن عجلان ٣١٤
أبو المعالي الكلابي ٩٨
أبو الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي ٢٤
أبو أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ٢١٨
أبو بكر الصديق ٣١، ٣٣، ٨٧، ١٤٥، ٢٤٨
أبو بكر محمد بن عتيق البكري السوارقي ٤٣
أبو تمام ٩٨، ٩٩، ١٠٠
أبو حاتم ١٣٢
أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني ٢٥٩
أبو حنيفة (الإمام أبو حنيفة) ٢١
أبو دهبل الجمحي ٩١، ١٢٩، ١٣٠
أبو ذؤيب الهذلي ١٣٠، ١٣٥، ١٣٨، ١٤٠
أبو زهير ٢٠٤
أبو زيد أحمد أحمد بن سهل البلخي ٢٦
أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري ٩٨، ٢٦٨
أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ٤٢، ٨٣، ٢٠٤، ٢٤٦
أبو سفيان بن أمية ٢٤٢
أبو سفيان بن حرب ٢٣٨
أبو سيارة عميلة بن خال بن أعزل ٢٨٨
أبو شامة عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي ٢٠٩، ٢٧٤
أبو صخر الهذلي ٢٠١، ٢٥٧
أبو طالب ٤٢، ٧٢، ١١٤، ١١٥، ١٢٣، ١٢٤، ١٦٦، ٢٠٧، ٢٤٨، ٢٩٥
أبو طالب عبدالجبار الأندلسي ٢١١
أبو طاهر القرمطي ٢٦١، ٢٦٢

أبو عامر محمد بن عبدالله بن سلمة ٢٧١
أبو عبدالله الحميدي ١٧٤
أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الأسدي ٤٣
أبو عبيدة ٢٣٨
أبو عزة الجمحي ٤٢
أبو علي اليوسي ١٥٨
أبو غبشان ٢٨٧
أبو قيس بن الأسلت ٢٣٣
أبو محمد المكناسي ٢٦٨
أبو محمد اليزيدي ١٨٩
أبو محمد بن عبدالله بن عثمان النحوي ١٧٤
أبو محمد عبدالله بن زكريا الشقراطيسي ٢٥٣
أبو مطر ١٧
أبو نصر ٢٨٤
أبو نمي محمد بن أبي سعد ..... ١٠٤، ٣٠٢
أبو نواس ..... ٩٤، ٩٥
أبو هريرة ..... ١٨، ٢٠
أبو هفان ٢٨٨
أبو هلال العسكري ..... ٧٢، ٢٣٢، ٢٤٤، ٢٤٦
أبو يحيى محمد بن معن ٢٧٠
أبي بن خلف ٢٤٥
أبي بن سالم الكلبي ٢١٧
إحسان عباس (الدكتور) ..... ٤٧، ١٢٣
أحمد (الإمام أحمد) ٢١

أحمد إبراهيم الشريف ١٥
أحمد أبو بكر ٤٧
أحمد الجدع ٤٧، ٢٥٥
أحمد الجوهري ١٨٤، ١٩٨، ٢٧٥
أحمد الغزاوي ٤٦، ١٠٥، ١١٠، ١١١، ١٢٠، ١٢٦
أحمد المصطفى ٣١
أحمد بن الحسين العليف ٤٣
أحمد بن العلاء الحلبي ٢٠٢
أحمد بن زيني دحلان ٢٥
أحمد بن عمرو ٢٠٨
أحمد بن عيسى الخولاني ٢٠٩
أحمد بن محمد الشامي ٤٧، ٦٤
أحمد بن محمد مصلي ١٤٦
أحمد بن مسعود ١٨٤
أحمد بن موسى المكي ٤٥
أحمد عبدالسلام غالي ٤٧، ٥٠، ٥٥، ٥٦
أحمد عبدالغفور عطار ٤٦
أحمد قنديل ٤٣، ٤٧، ٥٠، ٥٢، ٥٤، ٥٦، ٦١، ٨١
أحمد موصلي ٤٧، ٤٨، ٥٤
إدريس الحسني ٩٤
إدريس عليه السلام ١٦
أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر ٧٣
آدم عليه السلام ١٦، ٣١ ، ٢١٧
أسامة بن منقذ ٣٠٦

إسحاق الموصلي ٢٧٧
أسعد أبو كرب الحميري ٢٢٠
أسماء بنت أبي بكر الصديق ٢٠٠
إسماعيل (عليه السلام) ١٦، ١٧، ٦٨، ٦٩، ١٤٣، ٢٢٥
إسماعيل أحمد حافظ ١٥
أشجع السلمي ٩٧، ٩٨، ١٣١، ١٦٥
الأبطحي ٧١
الأحوص ٢٠٥، ٢٩٦، ٢٩٨
الأحوص الأنصاري ٩٠، ٢٠٦، ٢٩٦، ٢٩٩
الأخزر بن لعط الديلي ٢٤٧
الأخطل التغلبي ٣٠، ٦٨
الأزرقي ١٥، ٧٠، ٧١، ٩٥، ١٤١، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ٢٠٠، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٨٨
الأزهري ٧١
الأسدي ١٣٠
الأسواني أحمد بن علي ٢٧٢
الأصمعي ١٣١
الأعشى ٦٩
الأعشى الكبير ١٢٣
الأمجد بهران شاه ٢٧٧
الأميري ٣١١
الباخرزي ٤٣، ٤٥
البحتري ٢٦٩
البخاري ١٨
البرعي (عبدالرحيم بن أحمد بن عبدالرحيم البرعي) ١١، ٨٥، ٨٧، ٣١٧، ٣٤١، ٣٤٢

البشير المجذوب ٢٦
البكري ٧١
البهاء زهير ١٦٣، ١٦٤
البوصيري ٤٥
الثعالبي ٦٨، ٢١٧، ٢٧٣، ٢٨٨، ٢٩٢، ٣١٧
الجاحظ ٦٩، ٣٥٣
الحارث المخزومي ١٤١، ١٥٩
الحارث بن أمية ١٩٨
الحارث بن حلزة اليشكري ٢٤٨
الحارث بن عبدالمطلب ٨٣
الحارث بن عمرو بن مضاض ١٥٥، ١٥٧
الحارث بن عوف ٢٩٣
الحارث بن مضاض الجرهمي ٧١
الحافظ بن حجر العسقلاني ٤٥، ٨٥
الحاكم ٢٧
الحجاج بن يوسف الثقفي ١٧، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٩، ٢٥٦، ٢٥٧
الحريش بن هلال القريعي ٧٥
الحزين الكناني ٢٠٧
الحسن بن عبدالرحمن اليازوري ٣٠٦
الحسن بن عبدالكريم الصنعاني ٢٠٩
الحسن بن عجلان ٣١٢
الحسن بن علي القطان (أبو علي المروزي) ١٨٢
الحسن بن محمد الصغاني النحوي ١٦٥
الحسن بن مخلد ٢٧٣

الحسن بن يسار ٢٦
الحسين بن علي ٢٨٩
الحطيئة بن شماس ..... ٨٩، ٢٤٨، ٢٩٤
الحماني ٣١٧
الحميري ١٣
الخطيب التبريزي ..... ١٠٠، ٢٩٣
الخليفة الرشيد ٩٨
الخليل عليه السلام ٣٣٠
الخنساء ٣٢٧
الخوارزمي ١٦
الخويي ٢٨٩
الديلي بن بكر ٢٥٠
الدِّزبري ٢٧٩
الرسول (ﷺ) ..... ٢٠، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٥، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ١٥٠، ٢٠١، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٤٤، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٨٠، ٢٨٦، ٢٨٩، ٣١١
الرمادي ٢٧٠
الزبير بن بكار ٢٤
الزبير بن عبدالمطلب ..... ٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦
الزمخشري (محمود بن عمر بن محمد بن أحمد) أبو القاسم (الملقب بـ «جار الله») ..... ١١، ١٣١، ١٣٦، ١٦٩، ٣١٧، ٣٢٥
السري الرفاء ..... ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٧، ٢٧٨
السلطان قايتباي ٢٢٢
السلطان مراد ٢٢٢
السميدع ..... ٢٢٢، ٢٢٥

السيوطي ٤١، ٤٢
الشافعي (الإمام الشافعي) ٢١، ٩٢
الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين الطاهر (ذو المناقب)، (الشريف الموسوي)
١١، ٩٤، ١٣٣، ١٦١، ١٧٧، ١٨٩، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥
الشريف المرتضى ٧٥، ٧٦، ١٣١، ١٦٢
الشريف بركات ٩٥
الشريف مسعود ٢٠٣
الشيخ إبراهيم ٧٤، ٧٨
الشيخ محمود ٢١٢
الصاوي ٧٨، ٣٠٣
الصرصري ١١، ٨٧، ٣٠٥
العاص بن وائل ٢٤٤
العباس ١٨، ٩٥، ٢٤٦
العباس بن عبيدالله بن جعفر ٩٤
العباس بن محمد ٢٩٧
العباس بن مرداس ٧٥
العجاج ٢٩١
العرجي ٤٢
العزيز صاحب اليمن (الملك) ٢٠٧
العفيف التلمساني ٤٥
العماد الأصفهاني ٤٣، ١٠١، ٢٧٤
الغزاوي ٤٣
الفائز بن الظافر ١٠٣

الفاروق ١١٠
الفاكهي ٢٧
الفتح بن خاقان ٢٨٤
الفراء ٧٥
الفرزدق ٦٨، ٧٧، ٧٨، ٩١، ٩٢، ١٤١، ٢٣٣، ٢٥٧، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٩
الفضل بن يحيى بن جعفر ٩٠، ٩١، ١٠١
الفضيل بن عياض ٢٨٠
الفلالي ٤٣
الفيروز ابادي ٢٥، ١٦٥
القاسم بن علي بن هتيمل ١٠٤
القرشي ٧٠
القسطلاني المكي ٢٠٢
القطب المكي ١٤٣
القفطي ١٦٢
القلمس الكناني ٧٢
الكسروي ١٥٢
المبرد ٧٠
المتوكل الليثي ١١٣، ١١٤، ١٣٥، ٣٠١
المجاشعي القيرواني ٤٣
المحب الطبري ٢٤
المرزباني ١٥٨، ٢٢٠
المرزوقي ١٣٦
المصطفى (ﷺ) ٩، ٨٧، ١٨٧، ٢٧٣، ٢٧٩، ٣٣٠، ٣٣٤
المطعم بن عدي ٨٦

المظفر (ملك اليمن) ١٠٤
المعتصم ٩٩
المعتضد العباسي ٢٢٢
المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ٢٣٠
المقتدر العباسي ٢٢٢
الملك العادل سيف الدين بن أيوب ٢٧٧
المنصور بن أبي عامر (الملك) ١٩٢
المهدي العباسي ٢٢٢
المهذب بن الزبير ١٩٦
الميداني ٢٨٩
المير محمد بن إسماعيل الصنعاني ٢٠٩
النابغة الذبياني ١٣٧، ١٣٨، ٢٩١
الناصر ٣١٧
الناصر لدين الله ٢٧٢
النبهاني ٣٤١
النبي (ﷺ) ١٨، ٢١، ٢٥، ٢٧، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٨٣، ٩٣، ١٠٩، ١٢٣، ١٣١، ١٣٣، ٢١٠، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٩٥
النبيت ٧٠
النجم بن عمر ٢٧
النسائي ١٣٣
النعمان بن بشير ٧٩
النميري ١٤١
الوليد ٢٣٨، ٢٤٠
الوليد بن المغيرة ٢٠٤

الوليد بن عبدالملك ٢١٩

اليكسوم (ملك الحبشة) ٢٢١

أم الغوث بن أخزم ٩٥

أم أيمن بنت علي ١٨٥

أمية بن أبي الصلت الثقفي .... ١٢٩، ١٩٩، ٢٣٢

أمية بن خلف الخزاعي ١٣٩

أمية بن عائذ العمري ١٥٩

إنصاف علي البخاري .... ١١٣، ١١٤

إياس ٧٥

أيمن بن خريم ٢٢٠

(ب)

بحير بن عبدالله القشيري ٢٦٦

بدرالدين الزركشي ٢٠٩

بدرالدين العليف ٩٣

برهان الدين القيراطي ١٩٣

بروكلمان .... ١٣، ١٥

بطليموس الاسكندري ١٥

بكر بن وائل ٢٩٠

بلال بن رباح .... ١٤٠، ١٦٨، ٢٥٦

(ت)

تبّع ٢٠

تقي الدين عبدالملك بن أحمد الأرمنتي المصري الشافعي ٢٠٩

(ج)

جبريل عليه السلام ٢٢

جرير ..... ٦٨، ١٣٤، ٢٥٦، ٣٣٠
جرير بن عطية الخطفي ٧٧
جعفر ٢٤٣
جعفر الخطي ..... ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٩٨
جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي ٣٠٣
جعفر عوض ١٠٩
جمال الدين أحمد بن علي الحسني ٢٠٧
جمال الدين بن نباتة ٨٧
جميل بثينة ٣٤٩
جواد علي ..... ١٣، ١٧

(ح)

حاتم الطائي ١٣٧
حامد دمنهوري ٤٦
حبي بنت قصي ٢٨٨
حبيب معلا ١٢١
حذيفة العدوي ٢٤٧
حرب بن أمية ..... ١٧، ٢٣٨، ٢٤٢
حسان بن ثابت ..... ٨٣، ١٣٢، ١٣٩، ٢٠٤، ٢٢٦، ٢٥٠، ٢٥١
حسن الظاهري ٥٩
حسن بن أبي نمي بن بركات ٩٤
حسن بن عجلان ٩٣
حسن بن فهد الهويمل ١٠٨
حسن جمال الدين ٢٥
حسن عبدالله القرشي ..... ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ١٢٧

حسن عرب ٤٧
حسين بستانة ١١٩
حسين سرحان ..... ٤٣، ٤٦
حسين عرب ..... ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٥٧، ٥٩، ٦١، ١٢٥، ١٢٦، ١٤٥، ١٤٦، ٣١٠
حسين فطاني ..... ٤٦، ١٨٦
حسين مؤنس ٢٢٧
حسين نصار ٢٧٦
حليل حبشية بن سلول الخزاعي ٢٨٨
حماس بن قيس البكري ..... ١٢٨، ٢٥٣
حمد الجاسر ١٣٤
حمزة الشاري ٢٥٩
حمزة بن أحمد الشريف ١١٢
حمزة بن عبدالله بن الزبير ٩١
حمزة شحاتة ..... ٤٣، ٤٦
حميد بن ثور الهلالي ٢٩٦
حميضة بن أبي نُمي ٩٤

(خ)

خالد الحليبي ٦٢
خالد بن يزيد الشيباني ..... ٩٩، ١٠٠
خداش بن زهير ..... ٢٠٤، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٩٤
خليل الله ٧٥
خليل مطران ١٠٧
خيرالدين الزركلي ١٠٩

(د)

داود بن عيسى بن موسى الهاشمي ..... ٢٧، ٢٨

درهم بن زيد الأوسي ٢٩٤
دريد بن الصمة ١٣٦
دعبل الخزاعي ٩٢، ٢٠١
دهمش بن وهاس الحسني ٤٣

(ذ)

ذو الجوشن الأعور ٢٩٥
ذو الرمة ٧٣، ٧٨، ١٨٩، ٢٣٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٣٠٤

(ر)

ربيعة بن عثمان ٢٤٣
رجاء الجوهري ٤٧
رزين بن معاوية ٢٦
رشيد أيوب ١٠٧
رقية بنت عبدالمطلب ٤٢
رميثة ١٠٣
رياح بن الأعلم القشيري ٢٤٣

(ز)

زجلة بنت منظور بن زبان الفزارية (أم هاشم) ٢٠٥، ٢٥٦
زرعة بن عمرو بن خويلد ١٣٧
زكي عابدين غريب ٩، ٢٥
زمعة بن الأسود بن المطلب ٢٤٨
زهير ٨٦، ٢١٧
زهير بن أبي سلمى ٢٩٣
زهير بن ربيعة أبي خداش ٢٤٣
زياد بن صخر ٢٩٠

زياد بن أبيه ٢٩٠
زيد بن محسن ٢١٢
زين العابدين بن عبدالقادر الطبري ..... ٩٥، ٢١٢

(س)

سابق بن محمود ١٠٠
سالم بن أبي سليمان ٤٣
سبيعة بنت الأحب ٢٣١
سديف بن ميمون ..... ٤٣، ١٥٧
سراج بن عمر مفتي ١٤٦
سراج مفتي ..... ١٤٦،١٤٩، ٢٣٦
سعد بن زيد مناة ١٣٨
سعد بن سهم ٧٣
سعد بن عبادة ..... ٢٥١، ٢٥٣
سعد بن عمر السهمي ٢٢٢
سعود بن عبدالعزيز (الملك) ١١٠
سعيد الأفغاني ..... ١٣٥، ١٣٦
سعيد بن سليمان المساحفي ٢٩٧
سفيان بن أمية ٢٣٨
سليم خان (السلطان الأعظم) ٢٢٢
سليمان (عليه السلام) ٨٦
سليمان الموحدي ٢٧١
سليمان بن عبدالملك ..... ٢٠٥، ٢٠٦
سليمان خان ..... ٢٢٢، ٢٥٩
سوّار بن أوفى القشيري ٧٢

(ش)

شرف الدين البوصيري ..... ٨٦، ٨٧

شمس الدين النواجي ..... ٤٥، ٢٨٦

شهاب الدين الفاسي ..... ٢٦٧، ٣١٢

شهاب الدين المرشدي ٩٣

شهاب الدين بن خبطة ٣١٤

شهاب الدين محمود ٤٥

شوقي ضيف ..... ٢٦، ٨٣

شيث ١٧

(ص)

صالح الشرنوبي ١٤٥

صخر (أخو الخنساء) ٣٢٧

صدقة بن الحجاج ..... ١٠١، ٢٠٧

صفي الدين الحلي ٤٥

صفية بنت عبدالمطلب ٤٢

صفية بنت مسافر ٤٢

صلاح الدين الأيوبي ..... ٢٧٣، ٢٧٤، ٣٣٠، ٣٣٤

صلاح الدين الصفدي ٢٥

(ض)

ضباعة بنت عامر ..... ١١٦، ١٩٩

ضرار بن الخطاب ..... ٤٢، ٢٥١

(ط)

طالب بن أبي طالب ٢٣٣

طاهر زمخشري ..... ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥١، ٥٩، ٣١٠، ٣١١

طريف بن تميم العنبري ١٣٨

طلحة ٣١

(ع)

عائشة العثمانية ..... ٢١٩، ٢٥٧

عائض الردادي ١٨٤

عاتق بن غيث البلادي ..... ٢٦، ٢٧

عامر بن الطفيل ٤٢

عامر بن الظرب العدواني ١٣٨

عباس بن مرداس ٢٤٥

عبدالباسط بن أيوب ٢٥٩

عبدالجليل بن وهبون المرسي ٢٨٤

عبدالرحمن ابراهيم الدباس ٩

عبدالرحمن الجشمي ٤٢

عبدالرحمن المكودي ٨٨

عبدالرحمن بن فيصل المعمر ٢٥

عبدالرحيم البرعي ..... ٤٥، ٧١، ١١٧، ١١٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ٣٠٤

عبدالرزاق حسين (الدكتور) ..... ١٢، ٤٧

عبدالصمد بن عبدالوهاب الشافعي (أبو اليمن) ١٦٤

عبدالصمد بن عبدالوهاب بن هبة الدمشقي (ابن عساكر) ٤٥

عبدالصمد بن محمد العمودي ٢١٢

عبدالعزيز آل سعود (الملك) ..... ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٩، ١٢٠

عبدالعزيز الرفاعي ..... ٢٥، ١١٩

عبدالعزيز الزمزمي ٨٥

عبدالعزيز السنيدي ..... ٩، ٢٣

عبدالعزيز الفشتالي ١٩٥
عبدالعزيز بن شعبان ١٠٨
عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد ٢٠١
عبدالعزيز بن مروان ١٥٩
عبدالعزيز سعود البابطين ٩، ١٢
عبدالغني النابلسي ٢٦، ٤٥
عبدالقادر الجزائري ٤٥، ٢٨١
عبدالقادر الجيلاني ٤٦
عبدالقادر الطبري ٩٤، ٢١٣
عبدالقادر الفياض حرفوش ٢٦
عبدالقدوس الأنصاري ٣٢٩
عبدالله ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠
عبدالله الأزرق ٩١
عبدالله الحامد ٢٦
عبدالله المراكشي ٣٣٠
عبدالله باشراحيل ١٤٧
عبدالله بلخير ٤٦
عبدالله بن إدريس ١٤١، ١٧٨
عبدالله بن الحارث السهمي ٢٤٩
عبدالله بن الرقيات ٢٩٠
عبدالله بن الزبعرى ٤٢، ٨٣، ٨٨، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٩٤
عبدالله بن الزبير ١٧، ٢١، ٢٦، ٩٠، ٩١، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٥٦، ٢٨٩، ٢٩٠
عبدالله بن المبارك ٢٨٠
عبدالله بن ثور ١٩٨

عبدالله بن جحش ٢٠٥

عبدالله بن جدعان ١٢٩، ٢٤٤، ٢٤٦

عبدالله بن حذافة السهمي ٤٢

عبدالله بن حسن بن حسن ٢٩٢

عبدالله بن رواحة ٨٣، ٢٥١

عبدالله بن صالح الرقيبة ٢٢٣

عبدالله بن عمرو ٢٦٩

عبدالله بن قيس الرقيات ٤٢، ٧٩، ٩٠، ١٣٣، ٢٣٣، ٢٩٠

عبدالله بن محمد الفاكهي ٢٤

عبدالله بن محمد الناشئ ٢١٠

عبدالله بن محمد غازي الهندي ٢٠٩

عبدالله بن وداعة ٧٣

عبدالله عبدالجبار ٢٦

عبدالله محمد أبو داهش ٢٥

عبدالمحسن الصحاف ٨٠

عبدالمحسن القلعي ٢١٢

عبدالمطلب ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٩٥

عبدالملك بن أحمد الأرمنتي المصري ٢٠٩

عبدالملك بن حسين العصامي المكي ٢٠٩

عبدالملك بن مروان ٢١٩

عبدالواحد بن سليمان ٢٥٩

عبدالوهاب آشي ٤٦

عبدالوهاب بن أبي نصر بن عربشاه ٢٠٩

عبدان الأصبهاني ٢٨٩

عبيد الله بن قيس الرقيات ٩٠، ٣٠٨
عبيد بن عبدالعزى السلامي ٢٩٨
عبيدالله بن الحر ٢٠٦
عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ١٥٧
عثمان بن عفان ٣١، ٢٠٠، ٢١٩، ٢٤٢
عجلان بن رميثة ١٠٤
عدوي (الشاعر) ٧٣
عدي بن زيد العبادي ٢٩٤
عرقلة الكلبي ٢٦٨
عروة بن أذينة ١٣١
عطيفة بن أبي نمي ١٠٢
عفيف الدين علي بن عبدالله بن جعفر ١٠٣
عقبة الأسدي ٢٨٩
علقمة بن عبدة التميمي ٤١
علقمة بن علاثة ٤٢
علي بن عابدين ٤٦
علي الروذباري ١٨٥
علي السنجاري ٢٨٠
علي الصانع ٢٠٩
علي بن أبي طالب ٩٠، ٢٨٩، ٣٤٣
علي بن أحمد السوسي الدوقاري ٢٥
علي بن أحمد بن معصوم ٤٣، ١٨٥
علي بن أفلح ١٤١
علي بن الحسن الرعيني ١٦٦

علي بن الحسن بن صدقة ٢٧٠

علي بن الحسن بن عجلان الحسني ٢٦٧

علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ٩١

علي بن القاسم المنلا ١٨٤

علي بن باويه ٢٦١

علي بن حسن أبو العلا ١٤٤، ١٤٧، ٣٠٩

علي بن حسن البرزنجي ٢١٠

علي بن حسن العجيلي التهامي ٢٥

علي بن حسن بن عجلان ١٠٢، ٣١٤

علي بن عبدالقادر الطبري ٢١١

علي بن عجلان ٣١٤

علي بن عيسى (ابن وهاس) ٤٣

علي بن محمد التنوخي ١٢٨

علي بن محمد الحندودي ٣٠٢

علي بن محمد الطبري ٤٣

علي بن محمد العليف ٤٣

علي بن محمد المدائني ٢٤

علي بن محمد بن حسن الأنصاري الإشبيلي ١٧٠

علي زين العابدين ٤٧، ٥٥، ١٨٧

عمار بن بركات ٤٣، ١٨٤

عمارة بن أبي الحسن اليمني ١٠٢

عمر أبو ريشة ١١٩

عمر بن أبي ربيعة ٤٢، ٨٠، ١٢٨، ١٤٢، ١٧٣، ٢٩٩، ٣٢٢

عمر بن الخطاب ٢١٩، ٢٢٥، ٣١١

عمر بن شبة ٢٤
عمر بن عبدالعزيز ٩٠، ٢٧٦، ٢٩٦
عمر بن علي بن مرشد الحموي (سلطان العشاق) ٤٥
عمر بن فهد ٢٥
عمر بن فيصل آل زيد ٢٠٣
عمر بهاء الدين الأميري ٦٣
عمرو ٨٩، ٢٢٠، ٢٣٤، ٢٤٢
عمرو بن الحارث الغبشاني ٧١
عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي ١٥٤، ١٥٥
عمرو بن حبان الضرير ٢٠٨
عمرو بن سالم الخزاعي ٢٥٠
عمرو بن سعيد ٢٥٦
عمرو بن كلثوم ١٣٩
عمرو بن عامر بن عمران بن مخزوم ٢٢٩
عمرو بن عمرو بن الزبير بن العوام ٢٠٧
عمرو بن لحي ١٥٦
عمير بن عبدالله بن المنذر بن عبدان ١٢٤
عمير بن قيس بن جذل الطعان ٧٢
عوف بن الأحوص ١٣١
عياض (القاضي) ٢٧
عيسى بن عبدالعزيز السعلبوس ٢٨، ٣١١
عيسى بن فليتة ٢٦٦، ٢٦٧

(غ)

غرس الدين الخليلي ٩٥

(ف)

فؤاد الخطيب ١٠٦
فؤاد حمدي ١٤٩
فؤاد شاكر ٤٦، ١٠٥، ١١٩
فؤاد علي رضا ١٥٠، ٢٣٣
فخر بن سيف ١٩١
فخرالدين قباوة (الدكتور) ٢٩٣
فضالة بن شريك ٢٠٦
فضالة بن عمير بن الملوح الليثي ٢٥١
فضل بن عبدالله الطبري ٢١٣
فهد الجربوع ٧٢
فهد بن عبدالعزيز (الملك) ١١٢
فيصل أحمد حافظ ١٥
فيصل بن عبدالعزيز (الملك) ١٠٧، ١١١، ١١٢، ١٢٦
فيصل محمد عراقي ١٥
فيض الدين حسين أبو الفيض ٢٠٩

(ق)

قانصوه الغوري ٩٥
قتيلة بنت النضر ٤٢
قصي بن كلاب ١٧، ٦٩، ٧٢، ١٣٤، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٨٧، ٢٨٨
قطب الدين أبو الخير محمد بن عبدالقوي المكي ١٠٢
قطب الدين القسطلاني ٤٥
قيدر ٧٠
قيس بن الملوح ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٤٩

قيس بن ذريح ..... ٤٢، ٢٧٦، ٣٠٠
قيس بن عيزارة ٢٠١
قيس بن عيلان ٣٠٣

(ك)

كافور النبوي ٤٣
كاهل العامري ٢٩٤
كثير بن المطلب بن أبي وداعة ١٩٩
كثير عزة ٢٧٦
كعب بن زهير ..... ٨٣، ٩٠
كعب بن مالك ..... ٦٧، ٨٣
كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادي ٣٠٢
كلثوم بن عُميس ٢٣٣

(ل)

لؤي بن غالب ٢٧٩
لبنى ٢٧٦
ليلى ٣٤٩

(م)

مبارك بن عطيفة ١٠٤
مجد الدين الفيروزابادي ٢٠٩
مجد الدين الوتري ٤٥
مجنون ليلى ٣٤٩
محمد (ﷺ) ..... ٢٢، ٢٠٥، ٢٤٨، ٢٧٦، ٢٩٥
محمد إبراهيم جدع ..... ٤٧، ٤٩
محمد أحمد السياغي الصنعاني ١١٠

محمد أحمد العقيلي ..... ٤٧، ١٠٩، ١١١
محمد الفارضي ٢٨٥
محمد أمين الجندي العباسي ٢٥
محمد بن إبراهيم الأسدي ..... ١٤٠، ١٦٢
محمد بن إبراهيم بن جماعة ٢٠٩
محمد بن أبي بكر محمد اللباد اللخمي ٢٦
محمد بن أحمد الأوساني اليمني ٧٩
محمد بن إسحاق الخوارزمي ١٩
محمد بن إسحاق الفاكهي ٢٤
محمد بن الحنفية ٢٩٠
محمد بن بركات أبو نمي (الشريف) ..... ١٦٤، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٥٩
محمد بن جعفر الصقلي ..... ١٣٠، ٣٠٢
محمد بن حيدر الحسيني ٢٨٠
محمد بن سليمان بن الفقيه ٢١٠
محمد بن عبدالله النميري ٤٢
محمد بن عبدالله صالح الأبهري ٢٧
محمد بن عبدالملك بن صالح الهاشمي ٦٩
محمد بن علان الصديقي ١٨٥
محمد بن علي بن يحيى الأندلسي (أبو عبدالله) ١٧٧
محمد بن عمر الواقدي ٢٤
محمد بن يعقوب الفيروزابادي ٤٥
محمد توفيق اليعربي ٢٠٩
محمد حسن عواد ..... ٤٣، ٤٧، ٤٨، ٥٦
محمد حسين فقي ..... ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٨١

محمد حسين هيكل ٢٣٣
محمد خفاجي ٢٦
محمد رائف المعري ٤٧
محمد صالح كمال ٨٠
محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي ٢٠٩
محمد علي مغربي ..... ٤٣، ٣١٢
محمد عمر توفيق ٤٦
محمد فؤاد عبدالباقي ٦٩
محمد كبريت ١٨٤
محمد هاشم رشيد ٨٢
محمد يحيى بن معصوم ١٩٨
محمود (أمير الحج المصري) ..... ٢٥٩، ٢٦٠
محمود التنوخي الحلبي ٢٣٤
محمود عارف حنين ..... ٤٣، ٤٧، ٥٠
محيي الدين الفيروزابادي ٤٥
مروان بن أبي حفصة ..... ٩٠، ٩١
مروان بن الحكم ٢٢٠
مروان بن سراقة ٤٢
مسافر بن أبي عمرو بن أمية ٤٢
مسعود بن الشريف إدريس ٩٣
مسعود بن عمرو الثقفي ٢٢٩
مسلم (الإمام) ..... ١٨، ٢٠، ٦٩، ١٥٣
مصطفى أبو الرز ٢٣٤
مصطفى الملك (أمير الجيوش) ٣٠٦

مصعب (ابن الزبير) ٢٠٦
مضاض بن عمرو الجرهمي ٢٢٢، ٢٢٥، ٣٥٢
مضر ٧٧
مطعم بن عدي بن نوفل ٢٢٩، ٢٤٨
معاوية بن أبي سفيان ٧٩
معن بن أوس المزني ٩٠
مفرج السيد ٤٧، ١٢٥
مقبل عبدالعزيز العيسى ٤٧
منتجع الملك (الوزير) ٣٢٧
مهيار الديلمي ١٤٢
موسى الكاظم ٣١٧
موسى عليه السلام ٨٧
موفق الدين علي بن محمد الحنديدي ٩٤
موفق الدين مكي ٣٠٧
ميسون بنت بحدل الكلبية ١٥٠
ميمون بن عامر القشيري ١١٦، ٢٧٥، ٢٧٦

(ن)

نابت بن إسماعيل ٢٢٥
نبي الهدى (ﷺ) ٢٨، ٣١
نبيه بن الحجاج ٢٤٦
نجم الدين الطبري ٢٠٣
نجم الدين الطرسوسي ٢١٠
نديم الرافعي ٤٧
نصر (عم أسامه بن منقذ) ٣٠٦

نصرالدين بن محمد النهاوندي البغدادي ٤٥
نصيب بن رباح ٣٠١
نمير بن كهيل ١٨٨
نهار بن توسعة اليشكري ٦٧
نهيك القشيري ٧٢
نوح عليه السلام ٢٦١
نورالدين (الزنكي) ٢٧٤
نورالدين الحجازي ٢٠٣
نورالدين بن الجزار الشافعي ١٤٣

(هـ)

هادي خفاجة ١١٩
هارون الرشيد ٩٧
هاشم ٦٩، ١٠٢، ١٨١، ٢٢٠
هبيرة بن وهب المخزومي ٤٢، ٢١٨
هرم بن سنان ٢٩٣
هشام ٨٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠
هشام المخزومي ١٩٨، ١٩٩
هشام بن عبد مناف ٢٢١
هشام بن عمرو ٢٤٨
هلال بن أحوز التميمي ٢٦٥
هند ١٣٦، ١٤٢
هند بنت أثاثة ٤٢
هند بنت عتبة ٤٢

(و)

ولد آدم (النبي ﷺ) ٨١

وهيب طنوس ١٦٦

(ي)

ياسين قطب الفيل .... ٤٧، ٢٣٦

ياقوت الحموي .... ١٥، ١٣٤، ١٣٦

يحيى البرمكي ١٠١

يحيى الجبوري ٣٠١

يحيى الصرصري .... ٧٤،٣١٧، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٢

يحيى النشو .... ٤٥، ١٠٢، ١٠٤، ١٩٣

يحيى بن مسكين بن أيوب بن محارب ٢٧

يزيد ٢٥٧

يزيد بن حبيب القشيري ٣٠٧

يزيد بن ضبة ٤٢

يعقوب المنصور ٢٧١

يعمر بن عوف ٢٨٨

يوسف بن إسماعيل النبهاني .... ٨٦، ٨٨، ٢٠٩

يوسف بن عبدالظاهر ١١٣

يوسف بن مهتار المكي ٢٢٣

****

فهرس الأماكن

(أ)

- أبطح مكة ٤٣، ٧١، ١٠١، ١٢٨، ٢٢٦، ٣٢٧، ٣٤١
- أبوقبيس ١٢٨، ١٥٤، ٢٤٤، ٢٦٦
- أجياد ٣٢، ٥٤، ٧٠، ١٤٤، ١٥٤، ٢٠١، ٣٠٥، ٣٤٢، ٣٤٩
- أحد ٣٣
- أرض بابل ١٦٢
- الأباطح ٣٢، ١٨٠
- الأبواء ٢٤٢
- الأخشبان ٥٩
- الاسكندرية ٣٣٥
- الأقحوانة ١٢٨، ١٥٩
- ألال ١١٧
- الأندلس ١٩١، ١٩٢، ٢٣٧، ٣٢٩، ٣٣٥
- الباسّة ١٥
- البحرين ١٣٨
- البطاح ١٢٦، ١٢٩
- البطحاء (بطحاء مكة) ٤٣، ٧٠، ٧٩، ٩١، ٩٢، ١٦٠، ١٧٩، ١٩٥، ٢١٨، ٢٢٧، ٢٥٢، ٣٠٣، ٣٢٩
- البلد ١٣، ١٤، ١٨، ٢١٠
- البلد الأمين ١٣، ١٤، ١٩، ٢٤، ٢١٠
- البلد الحرام ١٩٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٦٧، ٣٣٩
- البيت الحرام ١٨، ٢٤، ٧٢، ٧٦، ٨٥، ٨٨، ١١١، ١١٤، ١٢١، ١٢٣، ١٦٧، ١٧٣، ١٧٥، ١٨٠، ١٨٢، ٢٠٢، ٢٢٠، ٢٢٩، ٢٥٧، ٢٧٤، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٦، ٣١٢، ٣١٣، ٣٣٠، ٣٣١
- البيت العتيق ١٥، ١٠٢، ١٠٥، ١٢١، ١٦٠، ١٦٧، ١٦٨، ٢٠٨، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٩٣، ٢٩٩، ٣٢٥
- البيت المحرم ١٧، ٢١، ٣٤، ٧٥، ١٥٠، ١٦٩، ٢٧٧، ٢٩٢
- التنعيم ١٢٦

- الثنيات (ثنيات الوداع) .... ٢٠١، ٣٠٥
- الثنيّة .... ١٧٣، ١٧٩
- الجزيرة .... ١٣٨، ٢٥٩، ٢٨٤، ٣٠٢
- الجمرات ٢٠١
- الحاطمة .... ١٥، ٢١٠
- الحبشة .... ٢٢١، ٢٤٩
- الحَثْماء .... ١٧٣، ١٨٠
- الحجاز .... ١٧، ٢٦، ٢٧، ٤٥، ٧٥، ١٠٦، ١٣٢، ١٤١، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١١، ٢٨٠، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٩، ٣٤٢، ٣٤٧، ٣٤٨
- الحجْر .... ٢١، ٢٢، ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٩٧، ١١٢، ١١٨، ١٣٠، ١٣٤، ١٧٩، ١٨٥، ٢٠١، ٢٤٤، ٢٨٣، ٣٠١، ٣٢٨، ٣١٣، ٣٢٨، ٣٤٨
- الحجر الأسود .... ٢٢، ٢٧، ١٠٤، ١١٥، ١٢٤، ١٣١، ٢٤٤، ٣١١
- الحجون .... ٧، ٢٥، ٣٢، ٦٩، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٥، ١٤٤، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٥، ١٧٥، ١٩٥، ٢٠٩، ٢٥٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٣٠٢، ٣٠٧، ٣٤٩، ٣٥٢
- الحرم .... ١٦، ١٥، ١٠٧، ١٨١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٩٣
- الحريرة .... ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٣
- الحطيم .... ٤، ٧، ٣٦، ٨١، ٩٢، ١٠٢، ١١٧، ١٢٥، ١٣٠، ١٣١، ١٧٢، ١٧٩، ٢٤٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٢، ٢٨٣، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٢٨، ٣٤٢، ٣٤٨
- الخندمة .... ١٢٨، ٢٥٣
- الخيف .... ٣٥، ٥٩، ٩٢، ١٢٦، ١٣٢، ١٤٤، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٦، ١٧١، ١٧٣، ١٧٦، ١٨٣، ١٩٨، ١٧٧، ١٨٢، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠١، ٢١٢، ٢٥٥، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٣٣٥، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٩٩، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٣، ٣٤٤، ٣٤٦
- الرأس ١٥
- الركن .... ٢١، ٣٢، ٣٤، ١٠٤، ١٢١، ١٨٥، ٢٠١، ٢٧٢، ٣١٣، ٣٢٨
- الروضة ١٢٨
- الريان (جبل) ١٣٤
- السرر .... ١٣٠، ١٣٥
- الشام .... ١٠٧، ١١٩، ١٩٢، ٢٢١

- الشبيكة ١٤٤، ١٧٣، ١٧٩
- الشحر ١٣٨
- الششة ١٢٨، ١٤٤
- الشعاب ١٤٤
- الصفا ٢١، ٣١، ٣٢، ٦٩، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٨، ١٠٣، ١٠٤، ١١٤، ١١٥، ١٢٣، ١٢٤، ١٤٤، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٤، ١٧٥، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٢، ١٩٥، ٢١٨، ٢٦٢، ٢٦٩، ٢٨٢، ٢٨٣، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥٢
- الصوى ١١٧
- الطائف ١٣٦
- الطوي ١٣٦
- الظهران ١٤٠، ٢٣٩
- العبلاء ٢٤١
- العراق ٩٩، ١٠٤، ١١٩، ١٣٨، ١٦١، ١٨٩، ١٩١، ٢١١، ٣٢١، ٣٢٢
- العرش ١٥
- العريش ٢١٠
- العقاب ١١٧
- القادس ١٥
- القادسية ٢١٠
- القاهرة ٢٣، ٢٦، ٣٣٥
- القبيس ٣٣
- القدس ٦٣، ٦٤، ٢٠٩، ٢٧٣، ٢٧٤، ٣٣٤
- القرية ١٣، ١٤
- القليس ٢٢٧
- الكعبة ١٧، ٢٣، ٥٨، ٦٣، ٦٩، ٧٣، ٧٤، ٧٨، ٨١، ٨٩، ٩٥، ١٠٣، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٣٠، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٣٤، ١٤٩، ١٥٦، ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٧، ١٨٢، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٤٤، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٩٥، ٣٠٣، ٣٥١، ٣٥٣
- المأزمان ١١٢، ١١٧، ١٤٠، ١٥٦، ١٨٣، ١٩٧، ٢٠٥، ٣٤٩
- المتكى ٣٢

- المجتبى ٣٢
- المحصب ٣٢، ٩٢، ١٢٣، ١٣٠، ١٤٠، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٩، ٢٠٠، ٢٦٩، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٤١
- المدينة الشريفة ٢٤
- المدينة المنورة ٢١، ٢٣، ٢٧، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٣٤، ٣٤٣
- المروة ٣٢، ٥٩، ٦٠، ٩٣، ٩٨، ١١٤، ١٢٣، ١٤٣، ١٤٤، ١٧٤، ١٩٥
- المروتان ٩٩، ١١٥، ١٢٤، ١٤٤، ١٧٩، ٢٢٩
- المزدلفة ٧٣، ١٠٩، ١٤٤، ١٢٣، ١٤٤، ١٦٣، ٢٨٨، ٢٩٧، ٣٠٣، ٣١٨
- المسجد الأقصى ٨٥
- المسجد الحرام ٣، ١٧، ١٨، ٢٣، ٧٤، ١٣٤، ٢٠٩، ٢٢٢
- المشاعر ٣٢، ١٠٤، ٢٩٣
- المشعب ١٣٠
- المشعر الحرام ١١٤، ١١٥، ١٢٣، ٢٠٥، ٢٦٩
- المشعر القدسي ١٢٢
- المشعران ٣٥، ٩٤، ١٦٦
- المصلّى ٣٠٥، ٣١٨
- المعرّف ٣٠، ٣٥
- المعلاة ٥٤
- المغرب ١٧٤، ٣٣١، ٣٣٣
- المغمّس ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣١
- المقام ٢١، ٢٢، ٢٣، ٣٢، ٣٤، ٨١، ١١٢، ١٢٥، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٢٠، ٢٧٦، ٣٠١، ٣٣١، ٣١٣
- المقدسة ١٥
- المملكة العربية السعودية ٢٦، ١١٩
- المنارات ١٢٥
- المنحنى ١٨٤، ٣٢٤
- الميقات ١١٨
- النسّاسة ١٥
- النّقا ٥٤، ١٦١، ١٨٤، ٣٢٤
- النيابتان ١٩٣

– النيل ..... ٥٩، ١٩٢
– الهند ..... ١٩٨، ٣٤٣، ٣٤٩
– الوجه ..... ١، ١٤٣
– إلياء ٧٧
– اليمامة ..... ٧٥، ١٣٢، ١٣٨، ١٤١، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٦، ١٧٥
– اليمن ..... ٧٩، ١٩٣، ٢٢١، ٢٠٧، ٢٢٦، ٣٤١
– أم القرى ..... ٤، ٥، ١٤، ٢٤، ٢٥، ٢٩، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٧، ٦٤، ٨١، ٨٨، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١١٧، ١١٩، ١٢٢، ١٤٦، ١٤٩، ١٥١، ١٦٩، ١٧٦، ١٩٠، ١٩٤، ٢٠٣، ٢١٠، ٢٣٣، ٢٥٨، ٢٨٠، ٣١٤، ٣٤٢، ٣٤٦، ٣٥٠
– أم رحم ١٥
– أم رحمن ٢١٠
– أم كوثَى ٢١٠
– أوروبا ..... ٥٧، ٥٨، ٥٩

(ب)

– باب السلام ٢٠٢
– بئر ابن هشام ١٢٨
– بئر ميمون ١٢٨
– باريس ٥٨
– باسة ٢١٠
– بحر قزوين ٧٧
– بخارى ٣٢٥
– بدر ..... ١٩٩، ٣١١
– بطحاء وادي سلم ١٧٨
– بطن مرّ ٢٣٩
– بغداد ..... ٢٣، ١٠١، ١٥٧، ٣١٧
– بكّة ..... ٣، ١٤، ١٥
– بلاد الروم ..... ٩٨، ٢٢١، ٢٦٨
– بلاد فارس ٣٢٥
– بلد المصطفى ٢٧

- بيت الله ...... ١٤، ١٦، ١٠٩، ١٨١، ٢٣٦، ٢٥٩، ٣٠٦، ٣٤١، ٣٤٣
- بيت الله الحرام ...... ٢٢، ٦٣، ٦٨، ٧٥، ٧٧، ٨٩، ٢١٧
- بيت المقدس ...... ٢١، ٧٧، ٢٦٨، ٢٧٤، ٣٣٠، ٣٣٥

(ت)

- تاج ٢١٠
- تهامة ...... ١٤١، ٢٠٦
- تونس ٢٦

(ث)

- ثبير ...... ١٩، ٣٢، ٧٣، ١١٥، ١٢٤، ١٢٦، ١٣٣، ١٤٤، ٢٢٩، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨
- ثهلان ...... ١٩٥، ٢٥٤، ٢٧٨
- ثور (غار ، جبل) ...... ٣٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٤٤

(ج)

- جبل الحبشي ١٩٩
- جبل النور ...... ٥٠، ١٢٦، ١٢٧، ١٣١
- جبل برع ٣٤١
- جدة ٣٤
- جرول ١٤٤
- جزيرة العرب ١٧
- جُمَّع ...... ٣٢٢، ٣٢٤

(ح)

- حائط عوف ١٣٠
- حراء (غار ، جبل) ...... ٣٢، ١٠١، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ٢٢٩، ٢٧٧
- حلب ٢٨٠
- حنين ٧٥

(خ)

- خراسان ٩٠
- خرشنة ...... ٢٦٨، ٢٦٩
- خوارزم ...... ٣٠٣، ٣٢٥، ٣٢٦

(د)

- دار السلام ٢٠٢
- دار الندوة .... ١٣٤، ٢٢٧
- دار خديجة ٢٢
- دمشق .... ٢٣، ١٧٦، ٢٧٩

(ذ)

- ذات عِرْق .... ١٢٦، ١٤٢، ٢٠٦، ٣٠٠
- ذو المجاز .... ٤١، ٧٥، ١١٣، ١٣٥، ١٤٤، ٢٠٤، ٢٢١، ٢٤٨
- ذو المجنة ٤١

(ر)

- رأس ٢١٠
- رامة ٣٢١
- رحم ٢١٠

(ز)

- زمزم .... ٤، ٧، ٢٢، ٢٣، ٢٧، ٣٢، ٣٤، ٥٤، ٦٩، ٧٦، ٨١، ٩٤، ١٠٢، ١١٣، ١١٧، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٣١، ١٤٤، ١٤٨، ١٥١، ١٥٧، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٨١، ١٨٢، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٦٢، ٢٦٩، ٢٧٦، ٢٨٨، ٢٩٣، ٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣١٣، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٤٢، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥١
- زمخشر ٣٢٥

(س)

- سبوحة ٢١٠
- سرح المربع .... ١٧٣، ١٧٩
- سرف .... ٢٠١، ٢٣٩، ٢٩٤
- سلع ١٨٤
- سوريا ١١٩
- سويسرا ٦٤
- سويقة .... ٥٤، ٣٢٠، ٣٤٢، ٣٤٩

(ش)

- شامة (جبل) ١٤١
- شبه جزيرة العرب ١٣١

- شعب المنقّى ١٨٣
- شعب عامر ١٨٢، ١٨٣
- شمظة ٢٣٨، ٢٤٠
- شمام ١٩٥، ٢٧٨
- شيراز ٣٥١

(ص)

- صارات ١٣٦
- صلاح ١٥، ٢١٠

(ط)

- طبرية ٢٧٣
- طفخة (جبل) ٢٤٣
- طفيل (جبل) ١٤١
- طويلع ١٦٤
- طيبة ٣٠٥

(ع)

- عرفات ٩٢، ١٠٩، ١١٤، ١١٧، ١٢٢، ١٢٣، ١٤٠، ١٤٤، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٤، ٢٨٤، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٤٦
- عُرنة ١٤١
- عسفان ٢٠٠
- عكاظ ٤١، ١٢٦، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ٢٢١، ٢٣٨، ٢٣٩،٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٣٥٣
- عُمان ١٣٨

(غ)

- غرناطة ٢٣، ٣٣٠

(ف)

- فخ ١٤٠
- فرنسا ٥٧، ٥٩
- فلسطين ٦٣، ٦٤
- فيينا ٥٨

(ق)

- قادس ٢١٠
- قبر النبي (ص) ٣٣٤

- قرطبة ٣٠٢
- قعيقعان ١٢٨

(ك)

- كبكب ..... ١٢٦، ١٣٥
- كداء ..... ٣٢، ٨٨، ٩٠، ١٤٤، ١٤٥، ١٧٣، ١٧٧، ١٧٨، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٩٩
- كُدَي ..... ٣٢، ٩٠، ١٤٤، ١٤٥، ١٧٧، ١٧٨
- كوْثى ..... ١٥، ٢١٠

(ل)

- لبنان ..... ٥٨، ٥٩

(م)

- مجنّة ١٤٠
- مسجد بيت المقدس ١٨
- مصر ..... ١١٩، ١٥٩، ١٨٥، ١٩٢
- معاد ١٥
- معطشة ٢١٠
- مقدسة ٢١٠
- مكة ..... ٣، ٤، ٩، ١٠، ١١، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩١، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢

- منى .... ٧٣، ٧٦، ٩٢، ٩٤، ١٠١، ١١٤، ١١٧، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٤١، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٤، ١٩٣، ١٩٦، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١٢، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٩٤، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٣، ٣٢٤، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٦

(ن)

- ناشة ٢١٠
- نجد .... ٢٠٦، ٢٢٦
- نخلة .... ١٣٦، ٢٤٢
- نَعْمان (جبل) .... ١٢٦، ١٣٠، ١٣٤، ١٤١، ١٤٢، ١٥٨، ١٦٢، ١٩٧، ٢٣٢، ٢٩٠، ٣٠٠، ٣٠٥

(هـ)

- هجلاها ١٤٤

(و)

- وادي الأراك ١٦٨
- وادي العقيق ١٦٧
- وادي عبقر ٣
- واد غير ذي زرع .... ١٧، ١٥٠، ٣١٠، ٣١٢
- وادي فاطمة ٢٣٩

(ي)

- يثرب .... ٣٣، ٢٠٠، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٩، ٢٩٤، ٣٠١، ٣٠٨
- يذبل .... ٢٥٤، ٢٧٧، ٢٧٨

****

المحتوى

- تصدير، أ. عبدالعزيز سعود البابطين ٣
- أم القرى، د. عبدالرزاق حسين ٥
- مقدمة ٩
- توطئة ١٣
  - ■ المشهور من أسماء مكة المكرمة ١٣
  - ■ مكانة مكة المكرمة ١٥
  - ■ التأليف في مكة المكرمة ٢٣

القسم الأول: مكة في عصور الشعر العربي

- **أولاً: مكة في الشعر العربي القديم (ويتضمن العصور التالية: الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي)** ٤١
- **ثانياً: مكة في الشعر العربي في العصر الوسيط (ويتضمن عصر الدول المتتابعة والعصر العثماني)** ٤٤
- **ثالثاً: مكة في الشعر العربي الحديث والمعاصر** ٤٦

القسم الثاني: من أغراض الشعر في مكة وموضوعاته

- **أولاً: الفخر القديم** ٦٧
  - ■ الفخر الحديث ٨١
- **ثانياً: المديح** ٨٢
  - ■ المديح النبوي ٨٣
  - ■ المديح العام ٨٨
- **ثالثاً: الوصف (وصف الأماكن والبقاع المكية)** ١١٣
  - ■ وصف الحج والمناسك والمشاعر ١١٤
  - ■ ذكر الأمكنة والبقاع ١٢٣
- **رابعاً: الشعر الصوفي** ١٤٨
- **خامساً: الحنين والشوق** ١٥٠
  - ■ الشوق العكسي ١٨٨
  - ■ مثيرات الحنين ومنبهات الشوق ١٩٢
  - ■ خيال الطيف ١٩٣
  - ■ الوصايا ١٩٤
- **سادساً: الرثاء** ١٩٨
- **سابعاً: الهجاء** ٢٠٤
- **ثامناً: الشعر التعليمي والأراجيز** ٢٠٨
- **تاسعاً: الشعر التأريخي** ٢١٢

القسم الثالث: الشعر في أحداث مكة

- الكعبة (تسميتها، بناؤها، إحراقها، سيلها، رميها بالمنجنيق) ٢١٧
- استيلاء خزاعة على مكة ٢٢٥

- حكم قصي ٢٢٦
- عام الفيل ٢٢٧
- حرب الفجار ٢٣٧
- الأحلاف ٢٤٣
- حلف الفضول ٢٤٤
- صحيفة قريش ٢٤٨
- الهجرة إلى الحبشة ٢٤٩
- فتح مكة ٢٥٠
- الفتن والحوادث ٢٥٦
- فتنة القرامطة ٢٦١

القسم الرابع: الخصائص والسمات الفنية

- التشبيه والتمثيل بالقوة والقدرة ٢٦٥
- المعاني ٢٧٥
  - ■ الدوام والثبات ٢٧٥
  - ■ القياس بمكة والتشبيه بها ٢٧٩
  - ■ المجانسة ٢٨١
- الأمثال الشعرية في مكة ٢٨٧
- الأسلوب ٢٩٣
  - ■ القسم ٢٩٣
  - ■ الدعاء ٣٠٣
  - ■ الاقتباس والتضمين ٣٠٨
- التصوير ٣١٢

القسم الخامس: من شعراء العشق المكي

- الشريف الرضي ٣١٧
- الزمخشري ٣٢٥
- ابن جبير ٣٢٩
- يحيى الصرصري ٣٣٥
- عبدالرحيم البرعي ٣٤١
- ابن معصوم ٣٤٣
- الخاتمة ٣٥٢
- المصادر والمراجع ٣٥٤
- فهرس الأعلام ٣٦٣
- فهرس الأماكن ٣٩٥
- المحتوى ٤٠٥

****